جلال الدين السيوطى

بحوث ألقيت فى الندوة التى أقامها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
٦ ــ ١٠ مارس ١٩٧٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٨

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

قاهرة

افتتاح الندوة

كلمة
الأستاذ يوسف السباعى

أحييكم أطيب تحية ، وأشكركم على حضور هذه الندوة التى دعا اليها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لاحياء ذكرى العالم الجليل المؤرخ والفقيه جلال الدين السيوطى .

وأحيى فى هذه المناسبة هذا التعاون المثمر بين لجنة التاريخ بالمجلس، وبين الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والذى تمثل ـ لأعوام طويلة ـ فى الجهود المتواصله فى الاهتمام العلمى والعناية بدراسة أعلام المؤرخين.

ولقد كان من ثمرات هذه الجهود المتأنية أن أصبح فى متناول القراء سلسله من الدراسات المتخصصة عن طائفة من هؤلاء الأعلام الذين نعتز بمؤلفاتهم مثل : المقريزى ، والقلقشندى ، وابن عبد الحكم ، وابن تغرى بردى ، والجبرتى . واستطاعت هذه الدراسات أن تسد فراغا واضحا فى هذا المجال ، وأن تحقق فى الوقت نفسه ثراء ملحوظا للمكتبة العربية الحديثة .

وهذه الندوة التى تنعقد لدراسة جلال الدين السيوطى تضيف الى رصيد هذه الدراسات الحديثة صفحات من البحث جديدة .

ان شخصية جلال الدين السيوطى المتعددة الجوانب شخصية فذة بلا ريب ، جديرة بالدراسة والبحث .

فلقد جمع السيوطى الى التبحر فى العلوم الدينيه ، العلم باللغة ، والتأليف فى الأدب ، والعناية بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، وعجائب مصر وآثارها .

وهو ــ كما قيل عنه ــ واحد من أبرز الشخصيات الأدبية فى القرن الخامس عشر جال بقلمه فى كافه مجالات العلوم العربية ، فكتب فى القرآن والحديث والفقه والفلسفه والتاريخ وفلسفة اللغات والبلاغة والأدب وغيرها .

لقد أولع بالثقافة ، وتنقل بين مراكز التعليم ، وتذكر مصادر تاريخية أنه قد درس على ستمائة شخص من شيوخ عصره بمختلف البلاد .

وأنه تصدى لتدريس الفقه والحديث ، كما تصدى للافتاء ، ثم كان قاضى القضاه بمصر والشام والممالك الاسلاميه المجاورة فى عصره .

وحين توفر على التأليف كان من أكثر المؤلفين انتاجا ، أربت كتبه ــ كما قيل ــ على الخمسمائة .

ومهما قيل فى شأن مصنفاته من أن طابع التجميع هو الغالب عليها ، فان ذلك لا ينفى عنها أنها شواهد نشاط جم ، وحيوية فائقة ، واخلاص عظيم للثقافة .

فلقد استطاع أن يقرب كثيرا من المعارف الى أهل عصره بما أنفق من جهده فى تلخيص المؤلفات الضخمة وتهذيبها ، فكان أن انتشرت ملخصاته فى أرجاء العالم الاسلامى .

وما تزال مؤلفاته حتى اليوم مصدرا غنيا للدارسين .

وقد عبرت شهرته من الخاصة الى جماهير الناس تاركة صدى من التقدير عميقا حيث يقترن اسمه بألقاب التعظيم ، ومازال المسجد المعروف باسمه فى مدينة اسيوط معلما من معالم الصعيد ومزارا للناس ، وما يزال الاحتفال بمولده فى كل عام عيدا شعبيا .

وأن هذه الندوة بما يتضمنه برنامجها من بحوث متنوعة عن السيوطى وعصره ومنهجه فى التأليف ، ودراسات نقدية لبعض مؤلفاته الشهيرة كفيلة بأن تحقق الغاية المرجوة فى توضيح شخصيته العلمية يفيد منها القارىء الذى يصعب عليه تتبع آثاره الغزيرة ، ويفيد منها شباب الباحثين المتخصصين . ثم هى من بعد ذلك اضافة جديدة الى سلسلة الدراسات القيمة التى صدرت عن الندوات السابقة ، واسهاما متميزا فى خدمة التراث والثقافة العربية .

أتمنى لندوتكم هذه كل توفيق ، ومزيدا من الندوات المقبلة تضيف الى رصيد الحياة الثقافية ثراء وازدهارا ، وأشكركم .

والسلام عليكم ..

يوسف السباعى

البحوث

القسم الأول

السيوطي وعصره

جلال الدين السيوطى

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

جلال الدين السيوطي

السيوطي ـ وهو موضـوع هذه الندوة ـ رجـل تدعو حياته الى العجب والى الاعجاب ، فان حياته مليئة بالعمل وبالانتاج ، كما أن خلقه الشخصي أيضا كان يتصف بالاعتزاز الشـديد بالنفس ، حتى أن هـذا الاعتزاز كلفه غاليا في سنوات عمره الأخيرة .

أما العجب فمصدره هذا التراث الضخم الذي خلقه ، والذي تناول فيه أكثر ما عرف من العلوم في عصره . عاش السيوطي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وبضع سنوات من أوائل القرن السادس عشر ، عاش بين عامي ١٤٤٥ و ١٥٠٥ ، فكان بذلك علما من أعلام مدرسـة التاريخ المصري في القرن الخامس عشر ، وهي مدرسـة زاخرة باعلام المؤرخين حقا ، كالمقريزي والقلقشـندي وابن تغري بردي وابن دقماق وابن اياس وغيرهم من أعلام المؤرخين .

والواقع أن مدرسة التاريخ المصري في القرن الخامس عشر جاءت متميزة عن مدرسة التاريخ الاسلامي بصفة عامة ، فلا نكاد نجد قطرا من الأقطار العربية الأخرى تميز بمثل هذه السلسلة من اعلام المؤرخين الذين

كتبوا المؤلفات الموسـوعية الكبيرة وخلقوا في تاريخ الفكر العربي وفي حركة التأليف التاريخي بصفة خاصة كنوزا لا تقدر • وأعتقد أن هـذه المدرسة من غرس مؤرخ عربي جاء الى مصر من تونس وهو ابن خلدون وأقام في مصر وعاش فيها • وابن خلدون معروف بكتابه الكبير في التاريخ، ولكن مكانته العلمية تعتمد أكثر من ذلك على المؤلف الذي كتبه ليكون مقدمة لهذا التاريخ فعرف باسم «مقدمة ابن خلدون» فجاءت في الواقع أثمن من الكتاب نفسـه وله فيها نظرات فلسـفية عميقة في التاريخ وفي العمران وفي علم الاجتماع بل انه يعد المؤسس الحقيقي لهذا العلم •

كان المقريزي أول تلامذة ابن خلدون وهو أول استاذ في مدرسـة التاريخ المصري في القرن الخامس عشر ، ثم أصبح الرائد الأول لحركة التاليف التـاريخي في مصر في القرن الخامس عشر • كما كان المؤرخ ابن اياس آخر أعلام هذه المدرسـة • وفي عصر ابن اياس ـ أي في النصف الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السـادس عشر ، عاش مؤرخنا السيوطي • فالسـيوطي كان معاصرا لابن اياس ، ومعاصرا لمؤرخ آخر كبير هو السـخاوي وعدد من المؤرخين الآخرين • ويكفي السيوطي فخرا أنه استطاع أن يوجد له مكانا ـ ومكانا مرموقا ـ بين اعلام المؤرخين في هذا العصر الحافل • هذا الى جانب عنـاية السيوطي بالبحث والتأليف في علوم أخرى كثيرة ، فكان موسـوعي المعرفه ، ونستطيع أن نشبهه بالموسوعين في فرنسا في القرن الثامن عشر الذين كتبوا في شتى أنواع المعرفة •

قيل ان نبوغ السيوطي بدأ يظهر مبكرا ، فقد استطاع أن يحفظ القرآن وهو دون الثامنه من عمره ، واذا كان السيوطي قد أخذ اسمه من هذه المدينة عاصمة الصعيد ـ سيوط ـ أو بتعبيرنا في الوقت الحاضر ـ أسيوط ـ فانه لم يعش في هذا المدينه وان كان للاسرة مسجد ينسب لها

تقام فيه الشعائر الدينية حتى اليوم ، وقد أقامت الاسرة فعلا فى أسيوط مدة من الوقت •

وقيل أن أصلها من بغداد ثم نزحت الى مصر ، وعاش أبوه فى القاهرة ، وكان رجل علم فنشأ ابنه على طلب العلم ، وولد السيوطى بالقاهرة ودرس فيها ، وكعادة العلماء فى ذلك العصر لحقه التصوف فى شبابه ، فأقبل على خانقاه من تلك الخوانق المنتشرة فى القاهرة وأقام فيها ، وهى الخانقاه التى أصبح بعد ذلك ناظرا على أوقافها ، وكانت من أشهر الخوانق ولها أوقاف كثيرة •

لم يكن السيوطى بعيدا عن السلطان ، فقد كان السلطان يتخذ العلماء وسيلة يزدان بهم بلاطه كما جرت بذلك العادة فى تلك الأيام ، ولكن السيوطى مع هذا كان له خلق يجعله ينأى عما عرف به كثير من أهل عصره من الزلفى والتهافت على السلطان • ولعل هذا الخلق وفر للسيوطى من الوقت ما مكنه من التوفر على قضاء الوقت فى البحث والتأليف •

نظر السيوطى فى أكثر العلوم : فى علوم اللغة والنحو والصرف والبيان والبديع والآداب والمعانى ، ونظر فى علوم الدين : فى الحديث وفى التفسير والفقه والشريعه ، نظر فى التاريخ وفى الكلام وفى التصوف، ولكن هناك علمين فقط نأى عنهما السيوطى ـ كما قال هو نفسه ـ ، نأى عن علم الحساب لانه لم يرق له أو لم يستسغه وكان كما قال يراه «جبلا» فوقه ، أى وجده شاقا عليه ، فلم يبحث فى الحساب ولم يكتب فيه ، والعلم الآخر الذى نأى عنه ، هو المنطق لأنه كماقال ، وجد أن لافائدة من دراسته ، بل قال ان الضرر كل الضرر فى دراسته •

ولكن اعتداد السيوطى الشديد بنفسه أدى به الى نوع من الزهو ، فكثير من العبارات التى ذكرها عن نفسه تدل ليس فقط على اعتزاز

بالنفس ، وانما على زهو وفخر بها ، فهو يقول انه يستطيع أن يكتب في كل شيء ، وأنه بلغ في الاجتهاد أعلى مرتبه ، فهو « المجتهد الأعظم » بل قال انه الامام الذي يبعثه الله الى الأمه مرة في كل مائه عام • ويبدو أن أقواله هذه البت عليه مؤرخا آخر كان يعيش فى ذلك الوقت ، وكان رجلا حاد اللسان ، وهو السخاوى •

والسخاوى رجل لم يسلم منه أحد من معاصريه ، ولهذا وجد السخاوى في السيوطى مجالا واسعا للنقد الى حد التهكم والسخرية ، واتهمه بأنه نقل كثيرا من كتب غيره ونسبها الى نفسه ، بل ادعى أنه أخذ منه هو ، وحمل عليه حملة شنيعه • ورد عليه السيوطى ، وكانت بينهما معركة أدبية ممتعة ، وكذلك وقع بين السيوطى وبعض زملائه الآخرين نفور شديد ، فقد عابوا عليه أنه اطلع الى السلطان وهو يضع (الطيلسان) فوق رأسه ، فقالوا ان هذا أمر لا يليق بعـــالم كبير يعرف قواعد السلوك ـــ أو قواعد البروتوكول كما نقول نحن ـــ فغضب السيوطى ـــ وكان سريع الغضب ـــ فالف كتابا فى فضل الطيلسان •

ثم أوقعه هذا الزهو والاعتداد بالنفس في خصومة شـــديدة مع متصوفة العصر • فقد كان السيوطى ناظرا على أوقاف خانقاه البيبرسيه ـ وكانت من أكبر الخوانق فى تلك الأيام ـ وكان يفيـد منها أمولا كثيرة أتهم أنه يحبسها عمن يستحق من المتصوفه • فشكوه الى السلطان وأحيل السيوطى ـ كما نقول بلغتنا ـ الى مجلس تأديب ، فحكموا بعزله من هذه النظارة ، فعزل عنها وذهب الى بيت له في جهة الروضة حيث أقام بقية حياته ، وأقفل على نفســـه البيت حتى كان يرد عن بابه من كـان يأتى لزيارته ، بل قيل أنه أقفل شبابيك البيت ، مع أنها كانت تطل على منظر جميل وهو مقياس النيل عند الروضة ، وأقام السيوطى سـنوات كثيرة لا يحمل الا قلمه ويكتب ويسطر حتى قال هو عن نفسه أنه كتب ثلاثمائة

كتاب فاذا أضفنا الى هذا العدد الكبير الذى ذكره فى ترجمته لنفسه مما ألفه بعد ذلك ، فان كتبه تربو على الخمسمائة كتاب حتى وفاته ، بل قيل انها تصل الى الستمائة • ولكن كثيرا مما كتبه السيوطى لم يكن كتبا بالمعنى المألوف ، فبعضها أقل من ذلك ، حتى أن بعضها كان لا يزيد عن صفحة واحدة •

كتب السيوطى فى كل مسألة كانت تعن له ، كان يمسك قلمه ويكتب فى كل شيء ، بل قال السيوطى نفسه أنه كتب أكثر من ذلك ، ثم محا ما كتب •

لا شك أن السيوطى بهذه التأليف والتصانيف الكثيرة ، قدم للفكر العربى تراثا ضخما ، واذا كانوا قد عابوا على السيوطى أنه نقل كثيرا مما كتبه السابقون ، فان له فضلا فى ذلك ، وهو ان بعض ما نقله فقد فعلا ولم يوجد الا فيما نقله السيوطى أو المؤلفون المتآخون وهذه خدمة كبيرة قدمها المتآخون من كتاب ذلك العصر الزاخر بألوان الحياة العلمية •

والواقع أن السيوطى عاش فى عصر يمثل فى مصر قمة الازدهار ولكنه فى الوقت نفسه يمثل بداية الأفول ، عاش السيوطى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وفى أواخر ذلك القرن ، اكتشف البرتغاليون طريقا بحريا جديدا الى الهند والشرق الأقصى ، متنكبين الطرق القديمة التى كانت تمر عبر البلاد العربية والاسلاميه ومنها الأقاليم التابعة للسلطنة المملوكية وخاصة بلاد مصر والشام ، وبدأت المتاجر - بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح - بين الشرق والغرب تتحول الى الطريق الجديد وبدأت أسواق التجارة فى المدن الزاهرة فى هذه المنطقة العربية والاسلامية التى نسميها الآن الشرق الأوسط ، بدأت تعانى من ذلك الجفاف وبالتالى بدأت تعانى فقرا اقتصاديا ، كان له لاشك أثره فى مجالات الحضارة المختلفة فى الفن والفكر وغيرهما ، ثم بعد بضع

ســنوات يبدأ الأتراك العثمانيون فى فتح البلاد العربية وضـمها الى امبراطوريتهم ، وينتهى الأمر بضم العالم العربى كله ــ باستثناء المغرب الأقصى ــ الى الامبراطورية العثمانية •

وان كان السيوطى ولابد أنه سمع عن أخبار البرتغاليين ومحاولاتهم، ولكنه لم يعيش ليشهد الفتح العثمانى كما عاش معاصره ابن اياس •

بهذه الكلمة السريعة ، قدمت لكم مؤرخنا وفقيهنا جلال الدين السيوطى ، تاركا لزملائى من بعدى أن يعالجوا فى هذه الندوة الجوانب المختلفة من حياة السيوطى ونشاطه العلمى •

عصر السيوطي

للأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد

عصر السيوطى

يلعب الزمن دورا أسياسيا فى التاريخ ؛ ومع ذلك فلاتكون له صفة ، الا بتحرك الانسان فيه ؛ وبالتالى ؛ فلا يتسنى لنا معرفة عصر السيوطى ، الا بمعرفة سيرته (١) ، ولا سيما أن السيوطى كان مؤرخا ؛ له كتب متعددة (٢) ؛ تحيط بكثير من جوانب عصره ، من ناحية التنظيم السياسى والأحوال الاجتماعية والثقافية .

فقد عاش السيوطى فى مصر ، فى عصر دولة ، كان حاكمها وجيشها من مماليك مشتروات ، أو ما يسمى جلبان أو أجلاب ، وهى ألفاظ تعنى جلبهم كرقيق من بلاد أخرى ، أو شرائهم ؛ حيث يتربون فى الطبق ، وهى مدرسة الحربية ، التى يتعلمون فيها الكتابة وطرق الحرب والفروسيه ؛ فكان الى آخر حكم هذه الدولة توجد وظيفة تاجر

---

(١) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد جلال الدين الخضيرى الشافعى، الذى اشتهر بالسيوطى ، ربما نسبة الى سيوط وهى أسيوط ــ من مدن الصعيد ، حيث كانت أسرته قد نزلت بها أو استقرت فيها ، وقد ولد فى القاهرة فى أول رجب ٨٤٩/٣ أكتوبر ١٤٤٥ ، وتوفى فى ١٨ من جمادى الأولى ٩١١/١٧ أكتوبر ١٥٠٥ . بتفصيل أنظر سيرته ، التى كتبها بقلمه فى كتابه : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، وأيضا :
Ency. de l'Islam (Art. Al-Suyuti), t. 4, p. 601 sqq.

(٢) مثل : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وتاريخ الخلفا ، وبدائع الزهور فى وقائع الزهور .

المماليك (١) ، مما كان سببا فى قيام نظام دولة ، لم يكن له نظير الا فى ظل الاسلام ، وليس له مثيل في خارج الاسلام ، ولم يظهر بشكله هـذا الا في مصر •

ومع أن غالبية المماليك كانوا من جنس الترك ، الا انه قد انخرطت معهم جنسيات أخرى ، ولكن سرعان ما كانوا يذوبون جميعا فى شكل طبقة متماسكة ، أقامت لنفسها وظائف ثابتة ومحددة ، على رأسـها السلطان ، الذى هو واحد منهم ، يعتبر الأول بين أقرانه ، تولى غالبا بناء على القهر والغلبة ، فمكنتهم هذه الوظائف من السـيطرة على على الحـكم ، ليس فقـط فى مصر وانمـا فى أمبراطورية مترامية ، امتدت من صـحارى برقة الى الفرات ، ومن قبرس الى مجاهل أفريقيا والجزيرة العربية • ومن قبل قد لاحظ السيوطى (٢) أن بيبرس — واضع نظم دولتهم — أراد أن يسلك فى تنظيم مملكته بمصر مملكة جنكزخان — وهى دولة المغول المعـاصرة لهم — فرتب فى سلطنته أشـياء كثيرة لم تكن قبـله بمصر ، فقد كان الترك مجاورين للمغول منذ القدم ، بل ان المغول أعتبروا جنسا من الترك • وعلى الرغم من تغيير السلاطين المستمر ، بسبب طبيعة المماليك أنفسهم فى عدم قبولهم الحكم الوراثى ، فان كل سلطان كان يشغل الوظائف نفسها بأعوانه ، حيث استمرت هذه الوظائف الثابتة والمحددة حكرا لهم ، الى آخر حكم دولتهم •

ولعله بسبب أن المماليك كان ينقصهم نبل الأصل ؛ فانهم حرصوا منذ قيام دولتهم على اصباغ الشرعية على حكمهم ، عن طريق نقل الخلافة الى مصر ، وقد ساعدتهم الظروف على ذلك ، حينما قتل المغول بقيادة هولاكو ، المستعصم آخر خليفة عباسى فى بغداد ، فلجأ الى مصر عم له ، هو المستنصر بالله ؛ فان بيبرس أسرع باعلان خلافته فى عام ٦٥٩/١٢٦١

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٥ •

(٢) نفسه ، أنظر • ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ١ ص ٧ •

حيث بقيت الخلافة العباسية فى مصر الى وقت مجىء العثمانيين • ولكن نظام الخلافة العباسى هذا نشأ ضعيفا ؛ فيصف السيوطى الخليفة بأنه أمير فى حاشية السلطان (١) ، أما المقريزى فيقول حسبه أن يقال له : أمير المؤمنين (٢) ؛ فكان عملهم الأول والأخير اسباغ الشرعية على حكم السلاطين والأمراء التابعين لهم ، أو حتى ملوك الاسلام من أصدقاء دولتهم •

وقد عاصر السيوطى من حكم دولة المماليك فى مصر دوله الجراكسة أو الشراكسة (٧٨٤ ــ ٩٢٢/١٣٨٢ ــ ١٥١٧) ؛ وهى كلمة تبدو من أصل روسى ، تعنى موطنهم الذى كانوا يجلبون منه فى القوقاز ، بجوار بحر قزوين ؛ وان عرفوا أيضا بالمماليك البرجية ؛ لأنهم كانوا يسكنون أبراج القلعة ، حينما قاموا بانقلاب عسكرى ضد دولة المماليك السابقة على دولتهم ، التى كان غالبية مماليكها من عنصر التركمان المجاورين لموطنهم وكانوا يسكنون فى جزيرة الروضة ، فعرفوا بالمماليك البحرية (٦٤٨ ــ ٧٨٤/١٢٥٠ ــ ١٣٨٢) ؛ ومع ذلك فان المماليك الجراكسة هم امتداد للمماليك البحرية ، استمروا الى وقت مجىء العثمانيين •

فكانت دولة السلاطين الجراكسة مثل سابقتها ؛ دولة عسكرية متعسفة ، استحوذت على السلطة فى يدها ، بشكل لم يعرف اطلاقا فى تاريخ مصر من قبل • حقا ان معظم حكام مصر فى العصر القديم أو حتى الوسيط ، قد وسموا بالطغيان والاستبداد ؛ الا أن طغيانهم كان فرديا أو حتى أسريا ؛ ولكن بمجىء دولة المماليك ؛ فان الطغيان أصبح طغيان طبقة ؛ مع كل ما يحيط بها من عقدة الرق •

وقد عاصر السيوطى من السلاطين الجراكسة ثلاثة عشر سلطانا (٣)،

---

(١) السيوطى ، الخلفاء ، القاهرة ١٩٠٥ ، ص ١٦٤ س ١ •

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٩٤ ص ٩ ــ ١٤ •

(٣) هم : الظاهر جقمق (٨٤٢ ــ ١٤٣٨/٨٥٧ ــ ١٤٥٣) ، المنصور عثمان (١٤٥٣/٨٥٧) ، الأشرف اينال (٨٥٧ ــ ١٤٥٣/٨٦٥ ــ ١٤٦١) ، المؤيد أحمد (١٤٦١/٨٦٥)،

كل منهم تولى نتيجة القهر والغلبة ؛ الا الأخير ، وهو السلطان قانصوة الغورى (٩٠٦ – ٩٢٢/١٥٠١ – ١٥١٦) ؛ فقد كانت لتوليته ظروف خاصة ، اذ تولى السلطنه عن طريق الاختيار من قبل مشايخ العلم فى مصر، الذين كانوا بمثابة الزعماء للمصريين ؛ فقد كان محببا لديهم . فكان هذا الاختيار من جانبهم يعتبر مبدأ خطيرا فى تقاليد مصر الاسلامية ، تكرر بعد ذلك فى تولية طومانباى ، آخر سلاطين الجراكسة ، اذ يبدو أن المصريين قد تعبوا من استئثار اختيار السلطان من قبل المماليك وحدهم .

كذلك مع وجود هذا الحكم الأتوقراطى ؛ فلم يمنع اطلاقا من أن يشارك المصريون فى الحكم بشقيهم من المسلمين والأقباط ، حتى أن السيوطى أطلق على منصب الوزير فى دولتهم ، وهو الذى يشرف على الحكم المحلى ، وزارة الأقباط (١) ؛ اذ أن معظم من كان يتولاها لهم من الأقباط الذين أسلموا ؛ كما أن المصريين كانوا يشغلون المناصب الديوانية ، حيث يكونون فيها طبقة الكتاب ، والمناصب الدينية ، لاسيما مناصب القضاء الكبرى المعروفة بنيابة الحكم ، حيث وجد نواب الحكم الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة ، فكانت بيعة هؤلاء ضرورية لاسباغ الشرعية على حكم السلاطين وحتى الخلفاء ، كما أن السلاطين كانوا دائما يستشيرونهم ، ويكنون لهم احتراما قد يبلغ حد تقبيل الأيدى (٢) .

وعلى العكس ؛ فقد كان يعكر صفو سطوة المماليك ، وحتى أمن المصريين ، لاسيما فى الريف جماعة العربان ، الذين كانوا يقيمون فى

الظاهر خوشقدم (٨٦٥ – ٨٧٢/١٤٦١ – ١٤٦٧) ، الظاهر الباى (١٣٦٧/٨٧٢) ، الظاهر تمربغا (١٤٦٧/٨٧٢ – ١٤٦٨) ، الأشرف قايتباى (٨٧٣ – ١٤٦٨/٩٠١ – ١٤٩٦) ، الناصر محمد بن قايتباى (٩٠١ – ١٤٩٦/٩٠٤ – ١٤٩٨ ، الظاهر قانصوة ٩٠٤ – ١٤٩٨/٩٠٥ – ١٥٠٠) ، الأشرف جانبلاط (٩٠٥ – ١٥٠٠/٩٠٦ – ١٥٠١) ، العادل طومانباى (١٥٠١/٩٠٦) ، الأشرف قانصوة الغورى (٩٠٦ – ١٥٠/٩٢٢ – ١٥١٦) .

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣٤ س ٤ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ١٠١ س ١٧ .

مصر ، وهم من سلالة من قدم من قبائلهم فى أيام الفتوح وبعدها ، وانتشروا فى جميع أقاليمها حتى أقاصى الصعيد ، وأصبح مشايخهم لهم شهرة السلاطين ، فقد كانوا يحسون دائما أنهم أحق بحكم مصر من طبقة الرقيق ، لذلك كثيرا ما وقع التصادم بينهم وبين المماليك ، وكان فى قلب المماليك الشىء الكثير ضدهم .

هذه هى باقتضاب أحوال التنظيم السياسى فى عصر السيوطى يظهر منها أن أرستقراطيه من الرقيق كانت تحكم فى مصر بمشاركة المصريين بشقيهم المسلم والقبطى ، وأن المصريين كانوا مثل بقية شعوب الاسلام الأخرى منساقين مع روح العصر ، الذى وجد فيه المماليك ، وهو عصر خال من الحركات القومية ، والفكرة المسيطرة على شعوبه الاسلامية ، هى صالح الاسلام العام ، الذى يتمثل فى وجود الخلافة فى أسرة الرسول ، من فرع بنى العباس ، وأن حماتها هم الترك المماليك .

***

ومثلما كان المماليك يملكون الحكم فى مصر ، فانهم منذ نشأة دولتهم الى آخر أيامهم استحوذوا أيضا على أرض مصر ، بحيث أصبحت لهم أشبه بملكة خاصة على حسب درجاتهم من السلطان الى أصغر مملوك ، بقصد استغلالها ، وليس ملكيتها . فكان استيلاء المماليك على أرض مصر ، هو ما عبر عنه بالنظام الاقطاعى ، وان أطلق عليه أسماء أخرى ، مثل « عبرة (١) ، بمعنى دخل سنوى ، أو « خبز » ــ جمعها أخباز ، لما فيه من معنى التعيش . فكان هذا الاقطاع الخراجى هو ما عرف عند الفقهاء ــ مثل الماوردى (٢) ــ باقطاع الاستغلال ، فأجازوا اعطاءه لأهل الجيش مقابل ما هو مقرر لهم من الرزق . وقد ترتب على ذلك ، أن تحول معظم زراع مصر الى أجراء،

(١) الخطط ، ١ ص ١٤٢ س ٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) الأحكام السلطانية ، مصر ١٩٠٩ ، ص ١٧١ وما بعدها .

على أســاس أن المماليك طبقة حــربية ، لايقومون بأنفسهم بزراعة الأرض •

يضاف الى ذلك أن دولة المماليك، قد سيطرت على التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، عن طريق مصر ، بحيث أصبحت مصر على أيديهم محطه للتجارة العالمية ، ازدهرت مدنها بشكل لم يعرف قبلا • فلدينا عن ذلك رسائل عديدة من سلاطين المماليك وملوك وحكام أوربا، ولاسيما المدن الايطالية ، وعلى رأسها البندقية •ولعل أهم هذه التجارة هى تجارة التوابل ، التى عرفت بتجارة الكارم أو الكريمى ، التى كانت تنقل من الهند فى طريقها الى أوربا عن طريق موان مثل عدن وجدة والسـويس والاسكندرية •• ولــكن أوربا بدورها ، عن طـريق الاستكشافات ، التى توصلت اليها ، ولا سيما من قبل دولة البرتغال، أرادت أن تقوم بالتجارة المباشرة مع الهند ، مما أدى الى وقـوع تصادم بينها وبين دولة المماليك فى أيام قانصوة الغورى بالذات •

ويؤيد ذلك أيضـا وجود العملة الأجنبيـة (١) • المتداولة فى مصر فى وقتهم ، مثل عملة البندقية دوكات Ducato ـ نسبة الى دوك ـ وهو الدوق ، وعملة بلاد الفرنجة عموما ـ وهو أوربا بما فيها افرنسية وايطاليا والأراضى الواطئة ، المسماة الافرنتية ، جمع افرنتى ، وهى الفولورين Florino ، وان عرفت العمـلة الأجنبية باسم مشخصة ، بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها •

وفوق ذلك نشطت التجارة فى عهدهم مع أفريقيا عن طريق القوافل، وساعد على ذلك ظهور ممالك بل أمبراطوريات اسلامية للســود فى أنحاء متفرقة من أفريقيا، ولاسيما فى غربها، نتيجة لاسلامها، مما جعلها على علاقة قوية بدولة المماليك ، حامية الخلافة الاسلامية • فكان كثيرا ما

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٤١ ـ ٢ •

آتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها ، من بلاد التكرور أو مالى ، وسلطنه برنو أو كانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاى ، اما امم النوبة فقبل فتحها على يد المماليك ، ارتبطت بحكام مصر ، بمعاهدة ترجع الى أيام الفتح العربى اسمها « البقط » ، التى بمقتضاها يسمح بتنقل التجار .

ولعل أشهر تجارة المماليك مع دول أفريقيا ، هى الصناعات المصرية على الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجوهر ، أو ما كان يطلق عليه التزميك أو التكفيت ، وهى صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها فى صناعة الأوانى النحاسية ، كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج . كذا صناعة السروج التى كان لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التى بلغت غاية الرقى ، وصناعة الزجاج ، وان كان أشهرها على الاطلاق صناعة الأقمشة ، التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز .

فكان مظهر الثراء فى عصر دولة المماليك ، البذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان ؛ حتى أنه من كثرة الأموال كانت له خزانة عرفت : « بخزانة الخاص » (١) كما أصبحت القلعة مقر حكمهم ـ تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة . ثم هذه المنشآت الضخمة التى تركها معظم السلاطين ، من جوامع وزوايا ومدارس وسبل وبيمارستانات وحمامات وقلاع وتحف مازالت تحتل الصدارة بين مخلفات مصر الاسلامية ؛ بحيث أن القاهرة أصبحت درة فى جبين الشرق ، فهى المدينة ذات الألف مئذنة .

وكذلك ظهرت فى حياة القصور الباذخة رسوم وحفلات ، طبعت بطابع الأناقة والبذخ ؛ مما لم يسبق له مثيل من قبل فى بلاط مصر ؛ بحيث قيل انهم ختموا هذه الرسوم الباهرة فى مصر فى العصور الوسطى ، ويذكر المؤرخون أنه بعد زوال دولتهم على يد العثمانيين ، لم تعد لحفلات

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٤ .

الدوله العثمانية بهجه (٢) ، كما أن أحد الشعراء يتعذب (٣) ، عند ذكر حفلات المماليك • فقد كان المماليك يحتفلون بأعياد مصريه خالصة ، مأخوذه من التقاليد المصريه القديمه ، فى موسم فيض النيل ، وبالأعياد الاسلامية المتعددة ، حيث تقام لها احتفالات دينية شائقة ، ولاسيما من قبل رجال الصوفية ، التى انتشرت طرقهم فى عهد المماليك ، وحتى بأعياد قبطية ، فضلا عن أن رسوما كثيرة قد ظهرت لهم ، أتوا بها من موطنهم الأصلى فى آسيا ، لم تعرف من قبل فى بلاط مصر •

والخلاصة أن عصر السيوطى هو عصر الانتعاش الاقتصادى لمصر ولاسيما مدنها ، مما انعكس أثره على حياة الحكام ، وبعض الناس فى شكل ثراء وبذخ نادرين ، وحتى ابداع فى الصناعة والحياة الاجتماعية، بشكل لم يعرف من قبل •

ولاشك أن عصر السيوطى أيضا ، هو عصر الثقافة العربية المزدهرة ، بشكل لم يسبق اليه ، باعتبار أن عصر المماليك فى مصر امتداد للعصور العربية السابقة عليه • حقا ان أصول المماليك غير عربية ، الا أنه بسبب اقامتهم فى أرض العروبة ، اعتبروا أنفسهم عربا، بل حماة للعرب ضد أعدائهم ؛ حتى أنه كانت من ألقاب سلاطينهم سيد ملوك العرب (١) ؛ اذ العروبة وقتذاك تعنى بالأولى اتجاها جغرافيا • هذا بالاضافة الى أن الجراكسة بالذات ، كانوا قد اكتسبوا الروح المصرية ، بحكم اقامتهم الطويلة فى مصر منذ نشأة دولة المماليك •

ومع أن لغة المماليك هى اللغة التركية ــ وهى لغة مليئة بالفارسية والعربية ــ الا أنهم كانوا يتعلمون الخط العربى والقرآن والشرع فى

(١) ابن اياس ، ٣ ص ١٢٩ ، انظر • ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٦١ ــ ٦٢ •
(٢) نفسه ، ٣ ص ١٢٧ (فى آخر الصفحة) •
(٣) صبح ، ٦ ص ٣٥ ، ٥٣ ، انظر • ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٣٠ •

الطباق ، حتى عرفوا أيضا بالكتابية (٢) . ثم ان كثيرا من كبار المماليك ، بملاحظة المؤرخين ، قد أتقنوا العربية ، وحتى أصبح الواحد منهم فصيح اللسان بها ، وله مسائل فى الفقه عويصة ، يرجع له فيها العلماء . ويؤيد ذلك أن قانصوة الغورى ، الذى كان معاصرا للسيوطى ، كان يملك ناصية اللغة العربية ، وشديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ، كما كان يفهم فى الشعر (١) ، ومغرما بقراءة السير والتواريخ ، فاشتهرت له مجالس عرفت بمجالس الغورى (٢) ، عبارة عن مناظرات جرت فى حضرته .

ولعل الذى ساعد على ازدهار الثقافة العربية فى عهد السيوطى ، هــو أن مصر أصبحت تنعم باسترخاء حربى ، اذ لم يكن ســلاطين الجراكسة قد أعلنوا عداءهم المكشوف ضد العثمانيين بعد ، هــذا فضلا عن أن علاقتهم كانت سلمية مع جميع الممالك الأخرى ، ولاسيما ممالك أوربا ، التى كانت هى الأخرى ، بعد انتهاء الحروب الصليبية فى الشرق ، قد بدأت تدخل عصر النهضــة . وحتى علاقة المماليك ، أصبحت طيبة وودية مع أغلب دول المغول فى الشرق ، منذ أن تحولوا الى الاسلام . أما أفريقيا ، فانها استيقظت نتيجة لجهود من مصر فى نشر الاسلام ، مما جعلها على وفاق ووئام مع دولة المماليك ، حامية الخلافة .

يضاف الى ذلك ، أن مصر منذ حــكم ســلاطين المماليك ، أصبحت وحدها حاملة لمشعل الثقافة العربية ، بعد أفول مراكزها الكثيرة فى الشرق ، ولاسيما فى بغداد ، نتيجــة للغزو المغولى ، وفى الأندلس ، مثل قرطبة ، نتيجة لحركة الريكونكيستا ، حيث أصبحت مقصد العلماء المسلمين من

---

(١) زبدة ، ص ١١٦ ، ١٢٥ ، ابن اياس ، ٢ ص ٩٠ س ٨ ـ ٩ .
(٢) ابن اياس ، ٣ ص ٥٩ .
(٣) نشرها عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤١ .

كل مكان ، يأتونها ليجدوا فى رحابها الانفتاح الثقافى • ثم ان هذه الثقافة العربية ، كانت بالفعل قد رسخت فى مصر ، بعد المشوار الطويل الذى قطعته ، بحيث أن علوما كثيرة كانت قد قتلت بحثا ، ولم يعد من الممكن الزيادة فيها •

ولذلك أصبحت ظروف الثقافة فى عصر السيوطى ، لايبذل فى نيلها الجهد الشخصى وحده ، وانما بالأولى بناء على الدراسة المنهجية فى معاهد العلم ، حيث كثرت المدارس فى عصر المماليك ، يبنيها السلاطين والأمراء والتجار وحتى النساء ، ولاتزال بعض المدارس من وقتهم باقية للآن ، فهى عبارة عن فناء وأروقة ومكتبة (١) ، ومكان لنزول الطلبة ، الذين يتلقون العلم بالمجان ، كما كانت تخصص لهم هيئة للتدريس على رأسها الأستاذ والمدرس والمعيد ، وأصبحت تدرس العلوم للطلبة على أساس مناهج محددة ، بعضها عرف بالطريقة المصرية (٢) ، ومن كان ينجح ينال ما يسمى اجازة ويؤكد ذلك أن السيوطى نفسه كان نتاجا لهذا النظام فى المدرسة الشيخونية ، حيث درس فيها على يد شيخه البلقينى ، الذى منحه اجازه فى عام ٨٦٤/١٤٦٠ ، وأنه عمل فى هذه المدرسة ذاتها أستاذا فى عام ٨٧٢/١٤٦٧ •

وقد كان احتكار المماليك للسياسة ، سببا فى أن جعل العلماء يتفرغون للعلم ، بحيث نبغ منهم عدد كبير (٣) • فكان السيوطى واحدا منهم ، أعتبر أكثر من أثروا الثقافة العربية ، ليس فقط فى مصر أو فى

---

(١) الحقت باحدى المدارس مكتبة بها مائة الف مجلد ، الخطط ، ٤ ص ١٩٧ ، س ٩ •

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٤٣ •

(٣) أشهر من عاصر السيوطى من المؤرخين : ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣/١٤٤٩) وابن عربشاه (ت٨٥٤/١٤٥٠) ، والعينى (٨٥٥/١٤٥١) ، وأبو المحاسن (ت٨٧٤/١٤٦٩) ، والسخاوى (ت٩٠٢/١٤٩٧) ، وميرخند (ت٩٠٣/١٤٩٨) ، وابن اياس (ت٩/ق ١٥) •

نفسه لم يذكر غير ثلاثمائه مؤلفا ، كما ورد فى ترجمته لنفسه ربما الى
وقت المماليك ، وانما أيضا بالنسبة للعالم الاسلامى كله حتى وقتنا .
كان هو نفسه لم يذكر غير ثلاثمائة مؤلفا ، كما ورد فى ترجمته
فقد أحصى بعض العلماء الحديثين (٤) أكثر من ٥٦١ مؤلفا له ؛ وان

كان هو وقت كتابتها ؛ تشتمل على علوم فى الفقة والحديث واللغة والتاريخ .

ولنضرب مثلا لعلم واحد ازدهر فى عصر السيوطى ، هو علم التاريخ ، الذى أصبح له مفهوم لم يكن له من قبل . فهو لم يعد عبارة عن العلم الذى يستوعب الحوادث أو يسردها أو حتى المحافظة على نقلها؛ وانما بالأولى أصبح العلم الذى يفسرها على أساس العلية ؛ مما أوجد نظريات للتفسير التاريخى ، أشهرها نظرية ابن خلدون فى العمران ؛ وبذلك برز دور المؤرخ أكثر مما كان له من قبل ، والسيوطى نفسه له كتاب فى التاريخ ومنهجه معروف باسم : الشماريخ فى علم التاريخ (١).

والخلاصة أن عصر السيوطى ، قد عبر عنه ابن خلدون أصدق تعبير حينما قال : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » (٢) .

---

(١) ذكر Flügel فى Wiener jahrb كما ذكره بروكلمان ، فى مؤلفه المشهور : G. A. L.

(٢) تحقيق Seybold ، طبعة Leiden ، ١٩٦٣ ، ونشر ابراهيم السامرائى ، المجلة التاريخية ، بغداد ١٩٧٠ ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ص ١١ وما بعدها .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٣ ، انظر . ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٨١ .

القسم الثانى

السيوطى مؤرخًا

منهج السيوطي في كتابة التاريخ

للدكتور حسنين محمد ربيع

استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

منهج السيوطى فى كتابة التاريخ

لايستطيع باحث دراسة منهج جلال الدين السيوطى فى كتابه التاريخ دون اشارة عابرة الى عصر السيوطى وتربيته ونشأته • فمن المعروف أن السيوطى عاش فى عصر بدأت فيه دولة المماليك فى مصر والشام تعانى من عوامل التدهور والانهيار نتيجة أسباب سياسيه واقتصادية واجتماعية • فقد ولد السيوطى فى غرة رجب سنة ٨٤٩ هـ / ٣ من أكتوبر ١٤٤٥ م أى بعد سبع سنين من حكم السلطان الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ – ١٤٥٣) ، وتوفى فى ١٨ من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ / ١٧ من أكتوبر ١٥٠٥ م أى بعد أربع سنوات من حكم السلطان الأشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ – ١٥١٦) ، وهى مدة لاتزيد عن ستين عاما تولى سلطنة المماليك فى خلالها ثلاثة عشر سلطانا ، وطفحت بمؤامرات السلاطين والأمراء ، وفتن القضاة والفقهاء ، وفساد موظفى الدواوين وولاة الأقاليم •

وواكب هذا انهيار اقتصادى بعيد المدى بعد أن انهار نظام الاقطاع الحربى ، وهو نظام حربى اقتصادى برهن على أهميته طيلة عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك ، وتكررت حوادث المجاعات والأوبئة والطواعين بما لها من آثار وخيمة على بلاد اعتمدت على الزراعة طيلة تاريخها • وبعد أن كان

لمصر شهرة كبيرة فى صناعات متنوعة ، مثل صناعة المنسوجات وصناعة السكر ، فى بلدان عالم البحر المتوسط ، حدث أن أغلقت معظم حوانيت صناعة النسيج ومطابخ السكر أبوابها لقلة عدد المشتغلين فى هذه الصناعات ، وعدم استطاعة الصناعات المصرية وقتذاك ملاحقة ما حدث فى أوربا من اختراعات جديدة عند فجر النهضة الأوربية الحديثة فأضاعت مصر أسواقها الخارجية . هذا بالاضافة الى أن مصر فقدت مركزها التجارى الهام فى تجارة التوابل والسلع الشرقية بعد أن اتسع نشاط البرتغاليين فى الهند باكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م ، ووصولهم الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقية سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م . وعاصر ذلك تدهور العملات النقدية المصرية بعد أن أصبحت الفلوس النحاسية ـ لا الدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية ـ هى النقود القانونية التى تنسب اليها المبيعات (١). وهكذا عاش السيوطى فى عصر من عصور التدهور والانهيار ، وشاهد هذا بنفسه كعالم ومؤرخ وفقيه ، وكان لذلك أثره فى منهجه فى كتابة التاريخ .

يضاف الى ذلك أن تربية ونشأة السيوطى كان لهما أثرهما فى منهجه فى كتابة التاريخ ، فالسيوطى ولد ونشأ فى أسرة انقطع معظم رجالها لطلب العلم والاشتغال بالتعليم ، فوالده العلامة كمال الدين أبو بكر بن محمد كان من فقهاء الشافعية تولى القضاء بأسيوط قبل قدومه الى القاهرة ، ودرس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع ابن طولون ، وصنف بعض الكتب فى الفقه والنحو (٢) . ولما توفى سنة ٨٥٥ هـ /

---

(١) لتفصيل ذلك أنظر :
Cook, M.A., Studies in the Economic History of the Middle East, (London,. 1970), pp. 115-128.

(٢) أنظر ترجمته فى السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، (القاهرة ١٩٦٧) ، ج ١ ، ص ٤٤١ ـ ٤٤٣ ؛ السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، تحقيق اليزابث مارى سرتن ، (القاهرة - كمبردج ١٩٧٥) ، ص ٥ ـ ١١ .

١٤٥١ م لم يكن ابنه عبد الرحمن السيوطى قد بلغ السادسة من عمره ، الا أنه كأحد أبناء طبقته من أبناء شيوخ العصر وعلمائه تلقى العلم على شيوخ أجلاء • ويحدثنا السيوطى عن حياته عندما ترجم لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة (١) ، فذكر أنه حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة من عمره ، ثم شرع فى الاشتغال بالعلم عندما بلغ الخامسة عشرة على علماء وشيوخ العصر مثل الشيخ شهاب الدين الشارمساحى ومحيى الدين الكافيجى الذى لزمه السيوطى أربع عشرة سنة ، وشيخ الاسلام علم الدين البلقينى الذى أجاز السيوطى بالتدريس والافتاء سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م أى وعمره سبع وعشرون سنة • وسافر السيوطى الى بلاد الحجاز طالبا للعلم • ووضع معجما سماه (المنجم فى المعجم) ذكر فيه أعيان الشيوخ الذين سمع منهم الحديث أو أجازوا له (٢) •

ومعنى هذا كله أن السيوطى ــ كمعاصريه ــ تعلم تعليما دينيا عاليا ، ثم شغل أو طلب شغل وظائف فى الدولة المملوكية ، فباشر تدريس الفقه بالجامع الشيخونى خلفا لوالده ، وتصدى للافتاء واملاء الحديث بجامع ابن طولون ، ودرس الحديث بالخانقاه الشيخونية ، وتولى مشيخة التصوف بتربة بوقوق الناصرى ، ثم أصبح شيخا للخانقاه البيبرسية وهى أكبر خوانق (بيوت الصوفية) بالقاهرة • غير أنه صرف عن هذا المنصب سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م ولم

---

(١) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٣٥ ــ ٣٤٤ ؛ محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، (القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٥٦ ــ ٦٨ • ويلاحظ أن السيوطى ترجم لنفسه متأسيا بترجمة ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، ولسان الدين الخطيب فى تاريخ غرناطة ، وابن حجر فى قضاة مصر ، وأبو شامة فى الروضتين فى أخبار الدولتين وغيرهم •

(٢) السيوطى : المنجم فى المعجم ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٦ تاريخ ، أنظر أيضا السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٤٣ ــ ٧٠ ، ٧٩ ــ ٨٢ •
Sartain, E.M. : Jalal al-din al-Suyuti, Vol. I, Biography and Background, (Cambridge, 1975), pp. 26-40.

يتولى بعد ذلك وظيفة حتى وفاته (١) •

وهناك عامل آخر من أهم العوامل التى أثرت فى منهج السيوطى فى كتابة التاريخ وهو عقليته الموسوعية ، فقد ذكر السيوطى فى ترجمته انه برع فى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع وأصول الفقه والجدل والتصريف والانشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب(٢)•
لهذا لم يترك السيوطى موضوعا فى حقل العلوم الاسلامية فى القرن الخامس عشر الميلادى الا تناوله وكتب عنه • وجمع بين فن الكتابة فى التاريخ والدراسات والتآليف المتنوعة ، فبالاضافة الى التاريخ كتب فى علوم القرآن (٣) ، وفى أصول التفسير (٤) ، وفى تفسير القرآن الكريم (٥)، وفى أسباب النزول (٦) ، وفى الحديث (٧) ، وفى اللغة (٨) ، وفى الأنساب (٩)، وغير ذلك من أمهات المصادر والرسائل الصغرى حتى أنه عد منها فى كتابه حسن المحاضرة ثلثمائة كتاب « سوى ما غسله وتاب عنه » (١٠) بل ذكر تلميذه المؤرخ ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور

---

(١) السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٨٨ — ٩١ ، محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر ، ص ٥٩ — ٦٠ ،
Sartain, E.M. : Jalal al-din al-Suyuti, Vol. 1, pp. 41-46, 94 ff.
Brockelman, Article « Al-Suyuti », in Encyclopaedia of Islam, 1st edition.

(٢) السيوطى : حسن المحاضره ، ج ١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ •

(٣) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، جزءان ، (القاهره ١٣١٨ هـ/١٨٩٥ م) •

(٤) السيوطى : فى أصول التفسير ،(دمشق ١٣٣١ هـ/ ١٩١٣ م) •

(٥) السيوطى : تفسير الجلالين ، جزءان (القاهرة ١٩٠٩ م) •

(٦) السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول ، (القاهرة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٢ م) •

(٧) السيوطى : اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ، جزءان ، (استانبول ، ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩ م) •

(٨) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، حققه محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، جزءان ، (القاهرة ١٩٥٨) •

(٩) السيوطى : لب اللباب فى تحرير الأنساب ،(ط • أوربية ١٨٤٠ م) ؛ السيوطى : كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الادريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين • مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤ تاريخ •

(١٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٤ • أنظر أيضا أسماء المصنفات التى صنفها فى كتاب التحدث بنعمة الله للسيوطى ، ص ١٠٥ — ١٣٦ •

أن السيوطى كان نادرة فى زمانه ، بلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة كتاب (١) •

ولعل هذا العدد الوافر من مؤلفات السيوطى أثارت عليه فى أثناء حياته المشاحنة والخصام مع بعض معاصريه وبخاصة السخاوى الذى اتهم السيوطى بأنه اختلس كثيرا من تصانيف شيوخه وغيرهم ، كما اتهمه السخاوى بالحمق والجنون والهوس (٢) • ودافع السيوطى عن نفسه فى رسالة له سماها (الكاوى على تاريخ السخاوى) ذكر فيها أن السخاوى « حقير نقير ، لا يباع فى سوق العلم بقطمير » (٣) • كما اتهمه السيوطى فى كتابه (نظم العقيان فى أعيان الأعيان) بأنه « أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملأه بمساوىء الخلق » (٤) • ويمكن تفسير ذلك العدد الوافر من المؤلفات الكبرى والصغرى للسيوطى بأن كثيرا من رسائله الصغير لا تزيد الواحدة منها على مقالة طويلة أو صغيرة أو مختصرة منها « ما هو فى ورقة ، وما هو دون كراسة » كما قال السخاوى (٥)• غير أن ما يهمنا هنا هو أن هذه العقلية الموسوعية لجلال الدين السيوطى كان لها أثرها ودورها فى منهجه فى كتابة التاريخ •

يضاف الى ذلك أن السيوطى اتخذ لنفسه منهجا تاريخيا مخالفا لمنهج مؤرخى القرن الخامس عشر متأثرا بعقليته الموسوعية وظروف

---

(١) ابن اياس . بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٤ ، تحقيق محمد مصطفى ، (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٨٣ •

(٢) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (القاهرة ١٣٥٣ ــ ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ــ١٩٣٦م) ، ج٤ ، ص ٦٦ ــ ٧٠ •

(٣) السيوطى · الكاوى على تاريخ السخاوى ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٠ أدب •

(٤) السيوطى · نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق فيليب حتى ، (نيويورك ، ١٩٢٧ م) ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ؛ والعقيان هو الذهب الخالص •

(٥) السخاوى · الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٨ ، أنظر أيضا ·
Nicholson, R. A., A Literary History of the Arabs, (Cambridge, 1962), p. 455.

عصره وحياته ، فقد اعتبر السيوطى ان الاجتهاد فرض وكتب كتابا سماه (كتاب الرد على من أخلد الى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) . وفى هذا الكتاب يرد السيوطى على من استعظم دعوى الاجتهاد « ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر » (١) . وشرح السيوطى فى كتابه أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وخصص بابا فى ذكر من حث على الاجتهاد وأمر به ، وذم التقليد ونهى عنه . وفى مقدمة كتابه (الاتقان فى علوم القرآن) ، نقل السيوطى رأى الامام مجد الدين أبو السعادات بن الأثير أن « كل مبتدىء لشىء لم يسبق اليه ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه ، فانه يكون قليلا ثم يكثر ، وصغيرا ثم يكبر » (٢) ؛ بمعنى أن السيوطى حاول أن يكون رائدا ومبتدعا لأمور كثيرة لم يتقدم عليه أحد فيها ، ولاريب أن منهجه فى كتابة التاريخ كان احداها .

ويبدو أن المنهج الجديد الذى سلكه السيوطى فى معالجته لقضايا التاريخ وغيره كان من الأسباب الكثيرة التى دفعته الى أن يعتقد فى نفسه أنه هو « المبعوث » على رأس المائة التاسعة للهجرة ، مجددا لدين الاسلام ومحييا له ؛ ولذلك كتب رسالته المسماه : (كتاب التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) (٣) حاول فيها السيوطى — مستعينا بأدلة من السنة والتاريخ — أن يتتبع أخبار المجتهدين فى الاسلام على رأس كل مائة ، ابتداء من المائة الأولى للهجرة مثل عمر بن عبد العزيز والامام الشافعى والامام الغزالى ، ورجا السيوطى أن يكون هو المجدد

---

(١) السيوطى : كتاب الرد على من أخلد الى الأرض ، (الجزائر سنة ١٩٠٧) ص٢ .

(٢) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، ج١ ، ص ٤ ، انظر مجد الدين بن الأثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر ، (القاهرة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠م) ، ج١ ، ص ٤ .

(٣) هذه الرسالة فى مؤلفات السيوطى الصغرى ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع ، ورقات ١٠٨ آ — ١٣٦ ب .

على رأس المائة التاسعة (٨٩٩ هـ) لتبحره فى أنواع العلوم ، وانتقال مصنفاته الى سائر الأقطار (١) • ومن الثابت أن شهرة السيوطى فى زمنه وصلت الى بلاد كثيرة بدليل أن الشيخ شمس الدين محمد اللمتونى من بلاد التكرور بغرب السودان ، أرسل الى السيوطى سنة ٨٩٨ هـ/١٤٩٣ م رسالة تحتوى على مشكلات فقهية مختلفة، أجاب عنها السيوطى فى رسالة سماها (فتح المطلب المبرور ، وبرد الكبد المحرور فى الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور) ، وهى رسالة تدل على مدى طول باع السيوطى فى العلم ، ونعرف منها شيئا عن النظم الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى بلاد غرب السودان فى العصور الوسطى (٢) •

غير أن السيوطى من ناحية أخرى عاش فى عصر نضج فيه مفهوم وماهية علم التاريخ وتأثر بذلك ، فهو أحد تلاميذ مدرسة الدراسات التاريخية التى كونها العالم والمفكر والفيلسوف الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذى قدم الى مصر سنة ١٣٨٢ م ، ودرس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية ، وأدت اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها وحلقاته الدراسية الى تكوين مدرسة فكرية للدراسات التاريخية كان من تلاميذها المؤرخ

---

(١) عن بلوغ السيوطى رتبة الاجتهاد واعتبار نفسه « المبعوث » على رأس المائة التاسعة مجددا لدين الاسلام ، ومحييا له : أنظر السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٢٠٣ ــ ٢٢٧ ومقدمة فيليب حتى لكتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، صفحة س ــ ص ، أنظر أيضا Sartain : op. cit., pp. 61-72.
Grunebaum, G. E., Von, Medieval Islam, (Chicago and London, 1969), p. 246.

(٢) أنظر نص الرسالة الى بلاد التكرور فى كتاب السيوطى : الحاوى فى الفتاوى ، الطبعة الثالثة ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٩) ، ج١ ص٤٥١ـ٤٥٥ • وهناك رسالة أخرى للسيوطى الى ملوك التكرور ينصحهم ويردهم الى حكم الله ويذكرهم بقوله ، وهذه الرسالة الثانية بدار الكتب المصرية ، مخطوط رقم ٤١٦ مجاميع •

الكبير أحمد بن على المقريزى وابن حجر والسخاوى وغيرهم (١) •

وقد عرف ابن خلدون التاريخ تعريفا هاما عندما قال : « فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، تنمى فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ••• وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة (الفلسفة) عريق ، وجدير بأن بعد فى علومها وخليق » (٢) • وهكذا أشار ابن خلدون الى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج • ولا ريب أن السيوطى تأثر بهذا المفهوم لعلم التاريخ ، كما أنه لا شك قد تأثر أيضا بنظرة أحمد بن على المقريزى الذى عرف علم التاريخ فى كتابه (الخبر عن البشر) بقوله : « وموضوع علم التاريخ الأخبار عما كان فى العالم ، فلذلك صار هو السبيل الى معرفة ما يضر وينفع » • وقسم المقريزى التاريخ الى ثلاثة أقسام أولها أخبار وسير ومواعظ الأنبياء والرسل والعلماء والحكام والنساك والزهاد ، وثانيها أخبار الملوك وأسباب قيام الدول وانقراضها وزوالها تدبير أصحاب الجيوش والعساكر وأخبار الوزراء والأمراء ، وثالثها أخبار ذوى المروءات والأجواد وأهل الوفاء وأرباب الشجاعة (٣) •

ولا بد أن السيوطى تأثر أيضا بشيخه وأستاذه محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى ، المتوفى سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ،

---

(١) عن مدرسة ابن خلدون التاريخية وتلاميذه أنظر : السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٧ ص ١٧٢ ، ١٨٦ ؛ ج ١٠ ، ص ٣١٢ ؛ زيادة : المؤرخون فى مصر ، ص ٦ ؛ زيادة : « تاريخ حياة المقريزى » فى كتاب دراسات عن المقريزى (القاهرة ١٩٧١) ، ص ١٤ ، أنظر أيضا :

Fischel, W. J., Ibn Khaldun in Egypt (Berkeley and Los Angeles, 1967), pp. 28-29; Rosenthal, F., A History of Muslim Historiography, (Leiden, 1952), p. 40.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، (ط • القاهرة ١٩٣٠) ، ص ٢ ـ ٣ ،

Rosenthal, F., The Muqaddimah, An Introduction to History, 2nd ed., (Princeton, 1967), Vol. I, p. 6.

(٣) المقريزى : الخبر عن البشر • مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٤٧ تاريخ ، ج ١ ، ورقة ١١٦ ـ ١١٧ •

الذي تتلمذ على يديه السيوطي لمدة أربع عشرة سنة ، ومدحه ولقبه بلقب « أستاذ الأستاذين » (١) • وكتب الكافيجي كتابا فريدا من نوعه عنوانه (المختصر المفيد في علم التاريخ) عالج فيه نظرية التاريخ ، واجاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده • وعرف الكافيجي التاريخ بأنه : « علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعيين ذلك وتوقيته » (٢) • وبرهن على أن التاريخ « علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك • فثبت الاحتياج اليه كما ثبت الاحتياج الى ماعداه من العلوم ، وأنه واجب علمه على سبيل الكفاية كوجوب سائر العلوم » (٣) • ويرى الكافيجي أيضا أنه يشترط في المؤرخ مايشترط في راوي الحديث من أربعة أمور هي : العقل والضبط والاسلام والعدالة (٤) • وفي الصفحات التالية سوف نرى مدى تأثر السيوطي عند كتابته للتاريخ بآراء وأفكار أستاذه الكافيجي •

يضاف الى ذلك أن السخاوي ، وهو أحد معاصري السيوطي ومنافسيه — كتب كتابا عنوانه (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) للدفاع عن دراسة التاريخ • ورأى السخاوي أن موضوع التاريخ هو « الانسان والزمان » وبالتالي فهو يرى التاريخ في نظرة أكثر شمولا من نظرة الكافيجي خاصة عندما فسر ذلك بقوله بأن مسائل التاريخ هي أحوال الانسان والزمان « المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفي الزمان »• ورأى السخاوي أن فائدة التاريخ هي معرفة الأمور على حقيقتها (٥)• وفي مقدمة كتابه (التبر المسبوك في ذيل

---

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٣ •

(٢) الكافيجي المختصر المفيد في علم التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٢٨ تاريخ ، ورقة ٢ ب ، ٣ أ •

(٣) المصدر السابق ، ورقة ٥ ب •

(٤) المصدر السابق ، ورقة ٧ أ — ١٧ أ •

(٥) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، (دمشق ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م) ، ص ٥ — ٧ •

السلوك) ردد السخاوى هذه النغمة ، وأضاف أن علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوى، وأنه ذو أهمية كبيرة فى معرفة الحق من الباطل، بالاضافة الى معرفة الانساب ، واختلاف النقود ، وما يستفاد من دراسة سير الملوك والأمراء ، وأخبار العلماء والأدباء ، وما يتصل بعلم التاريخ من علوم اللغة والمعانى والعربية والشعر وما الى ذلك (١) .

كان لهذا كله أكبر الأثر فى منهج السيوطى فى كتابته للتاريخ ، فقد نظر السيوطى للتاريخ مثل ابن خلدون والمقريزى والكافيجى والسخاوى – على أنه علم له أهميته ولابد من ضرورة دراسته والاهتمام به . وعلى الرغم من أن السيوطى لم يشرح ماهية علم التاريخ فى كتابه المسمى (اتمام الدراية لقراء النقاية) الذى شرح فيه خلاصة أربعة عشر علما مثل علوم التفسير والحديث والنحو والتشريح والطب (٢) ، الا أنه أفرد للتاريخ كتابا سماه (الشماريخ فى علم التاريخ) احتوى على فوائد « مهمة لا يليق بالكاتب والمؤرخ جهلها » (٣) . وقسم السيوطى كتابه الى ثلاثة أبواب درس فى الباب الأول مبدأ التاريخ أو بمعنى آخر بداية معرفة الانسان للتاريخ ، وأرجع السيوطى بداية التاريخ الى وقت هبوط آدم من الجنة . ويشير السيوطى بذلك الى حقيقة هامة وهى أن التاريخ عرفه الانسان منذ ترك آثاره على الصخر ممثلا فيما نقشه على جدران كهفه ، مصورا مظاهر حياته ليراها ويدرسها من يأتى بعده من بنيه وعشيرته . ثم تتبع السيوطى تطور التأريخ منذ عهد آدم عليه السلام

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، (القاهرة بدون تاريخ) ص ٢ – ٣ ، الاعلان بالتوبيخ ص ٤٤ .

(٢) السيوطى : اتمام الدراية لقراء النقاية ، (ط. القاهرة ١٨٩٩) والنقاية بمعنى النقاوة أى خيار الشيىء ، أنظر ابن منظور (لسان العرب) مادة « نقا » ، وعن هذا الكتاب الهام للسيوطى وأهميته فى دراسة تاريخ العلم والطب انظر :
Dunlop, D. M., Arab Civilization to A.D. 1500, (New York, 1971), pp. 247-8.

(٣) السيوطى : الشماريخ فى علم التاريخ ، (ليدن ١٨٩٤ م) ، ص ١٥ .

حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب عندما بدأ المسلمون يؤرخون بالهجرة النبوية . وفى الباب الثانى من كتاب الشماريخ بحث السيوطى فوائد التاريخ ومنها : « معرفة الآجال وحلولها ، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق ، ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم ، فتعرف بذلك كذب الكاذبين ، وصدق الصادقين » . ثم أورد السيوطى فى الباب الثالث بعض الفوائد التى تتعلق بالتاريخ والتى ينصح بها المؤرخ، مثل ضرورة التأريخ بالأشهر الهلالية دون الشمسية والمصطلحات التى يجب على المؤرخ استخدامها عند ذكر الشهور والأيام والليالى (١) .

هكذا نظر السيوطى الى التاريخ كعلم ، متأثرا فى ذلك بالمدرسة التاريخية المصرية فى القرن الخامس عشر الميلادى . وكان لهذه النظرة بالاضافة الى تربيته ونشأته وعقليته الموسوعية واجتهاده ، دور كبير فى تحديد منهجه فى كتابة التاريخ . فالسيوطى لم يكتب التاريخ متبعا طريقة الحوليات كالمقريزى والعينى وغيرهما ، بل كان له منهجه الخاص به . فكتاب (تاريخ الخلفاء) وضعه السيوطى فى سلسلة ما كتبه عن « تراجم أعيان الأمة » (٢) ؛ فكما وضع كتابا فى طبقات المفسرين يحتوى على ترجمة ١٣٦ مفسرا (٣) ، وكتابا عن طبقا اللغويين والنحاة (٤) ، وأكثر من كتاب فى طبقات حفاظ الحديث النبوى (٥) ؛ كتب السيوطى كتابه عن تاريخ الخلفاء . ومما يدل على أهمية كتاب تاريخ الخلفاء أنه كان مصدرا من أهم المصادر التى اعتمد عليها

---

(١) المصدر السابق ص ٢ والصفحات التالية .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣ – ٤ .

(٣) السيوطى : كتاب طبقات المفسرين ، (ليدن ١٨٣٩) .

(٤) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جزءان (القاهرة ١٩٦٤) .

(٥) السيوطى : طبقات الحفاظ ، مخطوط رقم ٨١ تراجم بمكتبة الحرم المكى الشريف ميكروفيلم رقم ١٢٢ تاريخ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة . السيوطى : ذيل طبقات الحفاظ ، (دمشق ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م) .

Gustav Weil منذ أكثر من قرن من الزمان ، عندما كتب كتابه (تاريخ الخلفاء Geschichte der Chalifen) ، وهو الكتاب الذى صدر فى خمسة مجلدات فيما بين سنتى ١٨٤٦ — ١٨٦٢ (١) ، كما ترجم Jarret هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية لأهميته البالغة (٢) .

وفى كتاب تاريخ الخلفاء يظهر مدى تأثر السيوطى بمنهج علماء الحديث ، وهو منهج يعتمد أصلا على الجرح والتعديل أى العدالة والضبط . ومن المعروف أن النقد عند علماء الحديث كان ذاتيا منصبا على الرواة لا موضوعيا منصبا على المرويات . لهذا نجد السيوطى فى الفصلين اللذين كتبهما عن الأحاديث النبوية المنذرة بخلافة بنى أمية والمبشرة بخلافة بنى العباس يهتم اهتماما كبيرا بالاسناد ورواة الحديث، ويذكر دائما اذا كان الأسناد ضعيفا، أوله شواهد من حديث آخر ، أو أن الراوى قد اتهم بالكذب أو ما يشبه ذلك متبعا منهج الجرح والتعديل عند علماء الحديث (٣) . وعندما تحدث السيوطى عن الخلفاء الراشدين اهتم كثيرا بالأحاديث النبوية المشيرة بفضلهم وخلافة كل منهم وكلام الأئمة فى ذلك (٤) .

وعند معالجته لعصر كل خليفة من الخلفاء حاول السيوطى تسجيل الحوادث الهامة على ترتيب السنين كمعاصريه ، غير أنه نحا نحو الاختصار

---

(١) Dunlop, D. M., « Some remarks on Weil's History of the Caliphs » in Lewis, B. and Holt, P. (Editors), Historians of the Middle East, (London, 1962), pp. 316, 322.

(٢) Jarrett, H. S., History of the Caliphs, (Calcutta, 1881).

(٣) السيوطى . تاريخ الخلفاء ، ص ١٢ — ١٨ ، عن طريقة علماء الحديث فى جمع الرواية التاريخية ونقدها انظر : أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، الطبعة الثالثة (بيروت ١٩٥٥) ص ٥٩ — ٧٩ ، قسطنطين زريق : نحن والتاريخ (بيروت ١٩٥٩) ص ٦٨ ، عبد الحميد العبادى : المامه بالتاريخ عند العرب ، وهو الفصل الثالث من كتاب علم التاريخ تاليف هرنشو وترجمة عبد الحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤) ، ص ٤٣ — ٤٥ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٥٠ — ٥٣ ، ٦١ — ٦٧ ، ١٦ — ١٢٠ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٦٨ — ١٧٤ .

والتركيز ، وابتعد عن السرد وذكر التفاصيل التى تهتم بها عادة كتب الحوليات • ويتضح هذا المنهج المختصر عند حديثه عن الفتوح الاسلامية زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، والحوادث التى جرت فى خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهما من الخلفاء (١) • ويلاحظ أنه عندما اتسعت حدود الدولة الاسلامية ، اتسعت نظرة السيوطى لتأريخ الحوادث ، فأصبح لايقتصر على ذكر الحوادث التى حدثت فى الحجاز أو الشام أو مصر فقط ، بل ذكر أحيانا علاقات الدولة الاسلامية بالدول أو الشعوب المجاورة ، مثل وصول كتاب نقفور امبراطور الدولة البيزنطية الى هارون الرشيد ، وأول ظهور الصليبيين بالشام ، واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وهى الحملة الصليبية الرابعة ، وخروج التتار وما الى ذلك من الحوادث (٢) •

وسجل السيوطى أيضا ما حدث فى الدولة الاسلاميه من ظواهر طبيعيه أو خوارق دون أن يعللها أو يعلق عليها مثل هبوب ريح بالعراق ، ووقوع زلازل بدمشق وتونس والرى وخراسان ونيسابور وطبرستان وأصبهان ، وسماع أهل خلاط لصيحة عظيمة من السماء مات منها خلق كثير ، وأن جبلا باليمن سار بمن عليه من مكان الى مكان آخر ، ووقوع طائر أبيض بحلب صاح يأمر الناس بالتقوى ، وما الى ذلك من أخبار تدل على أن السيوطى كان جماعا متهيبا من نقد أو تمحيص ما نقله وجمعه ، واقتصر على اسناده الى رواته (٣) • وفى هذا اتبع السيوطى منهج العلماء المسلمين فى العصور الوسطى الذين كانوا يشددون على ضرورة الأمانة والدقة فى النقل من المصادر • وسواء أكان المنقول حقا أو باطلا فقد رأى العلماء المسلمون ــ وقتذاك ــ أن الصدق فى ايراده

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٣١ ، ١٥٤ ــ ١٥٥ ، ١٩٦ ــ ١٩٩ ، ٢١٥ ، ٢٦٢ •

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٨ ، ٤٢٧ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ــ ٤٧١ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ •

لما لذلك من أهمية فى البحث العلمى ، لأنه يسهل لطالب العلم الاطلاع على آراء أهل الخبرة فى ذلك العلم . ومن المعروف أن العلماء المسلمين حملوا للثقات من أهل العلم الكثير من الاحترام ، وأقصى ما كانوا يذهبون اليه هو اظهار الحسن الجيد والقبيح الردىء ، وهذا لا علاقة له بالنقد العلمى الذى يستهدف التمييز بين الصواب والخطأ (١) .

وهنا يجب الاشارة الى مسئلة فى غاية الأهمية عند دراستنا لمنهج السيوطى فى كتابة التاريخ وهى حرص السيوطى دائما على ذكر المصادر التى أخذ عنها ، ربما ليبعد عن نفسه هجوم المنتقدين من معاصريه ، ولتأثره بالعلوم الاسلامية التى برع فيها . ولهذا اتصف السيوطى بالأمانة العلمية ، حتى أنه ذكر صراحة فى مؤلفه الكبير (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها) فى فصل خاص تحت عنوان « عزو العلم الى قائله » ما نصه : « ولهذا لا ترانى أذكر فى شىء من تصانيفى حرفا الا معزوا الى قائله من العلماء ، مبينا كتابه الذى ذكر فيه » (٢) . لذلك نجده فى مقدمة كتابه حسن المحاضرة — على سبيل المثال — يذكر قائمة طويلة تحتوى على عناوين الكتب التى استعان بها وأسماء مؤلفيها (٣) . وحرص دائما على كتابة المصدر أو اسم المؤلف قبل ذكره لأى خبر من الأخبار أو واقعة من الوقائع فى أمانة علمية مطلقة . وكذلك فى تاريخ الخلفاء لم يتردد السيوطى فى ذكر محاولات قام بها قبله جماعة من المتقدمين لكتابة تواريخ الخلفاء ، وذكر بعض هذه الكتب وأسماء مؤلفيها (٤) . كما ذكر فى خاتمة تاريخ الخلفاء المصادر التى اعتمد عليها مثل مؤلفات الذهبى وابن كثير وغيرهما (٥) .

---

(١) انظر روزنتال (فرانتز) : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة أنيس فريحة (بيروت ، ١٩٦١) ، ص ١٢١ — ١٢٢ ، ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٤٢ .

(٢) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، (القاهرة ١٩٥٨) ، ج ٢ ص ٣١٩ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ٣ — ٤ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥١٦ — ٥١٧ .

واذا كان السيوطى قد كتب تاريخ الخلفاء للخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، الا أنه فى الحقيقه اهتم كثيرا بتاريخ بنى العباس فى مصر. ولم يهتم – كغيره من المؤرخين السنيين – بتاريخ الفاطميين، وسار على نهج ابن كثير وغيره فى الغض من قدرهم . ولعل مرجع هذا الاهتمام بتاريخ العباسيين أن السيوطى كان فقيها وعالما ومحدثا ، كما كان صديقا للخليفة العباسى المتوكل على الله الذى مدحه فى كتابه حسن المحاضرة ودعا له بالبقاء ، وأشاد بأعماله الخيرة (١) . وذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن هذا الخليفة العباسى أراد سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م أن يعين السيوطى قاضيا كبيرا على جميع القضاة « يولى منهم من شاء ، ويعزل من شاء ، مطلقا فى سائر ممالك الاسلام » غير أن السيوطى لم يتول هذه الوظيفة لمعارضة الفقهاء له (٢) . وقد طلب الخليفة المتوكل من السيوطى أن « يجمع له الأحاديث النبوية والآثار الشريفة المروية المتضمنة لمناقب أهل البيت » فكتب السيوطى رسالة المسماه (الأساس فى مناقب بنى العباس) احتوت على أربعين حديثا نبويا فى فضائل بنى العباس (٣) . وطلب الخليفة أيضا من السيوطى أن يكتب له مؤلفا فى الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم ، وذكر الصحابة والتابعون أنها بلغة الحبش أو الفرس أو غيرهم من غير العرب ، فكتب السيوطى رسالة سماها (المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية) (٤) .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٣ (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٣٣٩ ؛ زيادة : المؤرخون فى مصر ، ص ٦٦ – ٦٧ .

(٣) السيوطى : الأساس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٠٢٢ تاريخ .

(٤) السيوطى : المتوكلى فيما ورد فى القرآن ، (دمشق ١٣٤٨هـ/١٩٢٩ م) . ودرس =

ويهمنا هنا أن صلة السيوطي الوثيقه بالخليفة العباسي المتوكل كانت من الأسباب التي جعلته يهتم اهتماما خاصا بتاريخ بني العباس في مصر • ففي كتاب تاريخ الخلفاء ذكر السيوطي معلومات كثيرة عن تاريخ الخلفاء العباسيين في مصر ، بادئا بسيرة الخليفة المستنصر بالله أحمد حتى عصر الخليفة المتوكل على الله • وسجل معظم الحوادث التي حدثت في زمن كل خليفة بطريقة مختصرة سنة وراء الأخرى ، وينهي تأريخه لعصر كل خليفة بذكر من مات في أيامه من الأعلام (١) • وهكذا سلك السيوطي منهجا فريدا من نوعه لأن معظم أو كل مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي اهتموا بتاريخ سلاطين المماليك لا بتاريخ الخلفاء العباسيين • ومما يبرهن على صحة هذا القول أن السيوطي أفرد في كتابه (حسن المحاضرة) فصلا كاملا تحت عنوان « ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين » بدأه بذكر انقراض الخلافة العباسية ببغداد ، وما جرى للمسلمين من جراء ذلك ، ثم عالج موضوع قيام الخلافة العباسية في مصر زمن السلطان الظاهر بيبرس وتاريخ الخلفاء العباسيين حتى عصره (٢) • وعندما أرخ السيوطي لسلاطين المماليك تحدث عنهم في فصل تحت عنوان «ذكر سلاطين مصر الذين فوض اليهم خلفاء مصر العباسيون فاستبدوا بالأمر دونهم» (٣) وهو عنوان ذو مغزى يوضح ولاء السيوطي لبني العباس ، وأنه نظر الى سلاطين المماليك كحكام مستبدين ، استأثروا بالملك دون الخلفاء العباسيين •

= السيوطي أيضا ما أخذه العرب من اللغات الأخرى وأدخلوه في لغتهم في أسماء الأواني والملابس والجواهر وألوان الطبيخ والأشربة والأفاويه والرياحين والطيب وغيرها ، انظر السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، ج١ ص ٢٦٨ ـ ٢٨٣ ، أنظر أيضا :
Grunebaum, Medieval Islam, pp. 344-5.

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ ـ ٥١٦ •

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٤٥ ـ ٩٢ •

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ص ٩٥ ـ ١٢٤ •

أما منهج السيوطى عند تأريخه للفاطميين فى مصر ، فيلاحظ أنه اتبع المنهج نفسه الذى اتبعه معظم المؤرخين السنيين مثل أبى شامة وابن كثير وغيرهما فى الغض من شأن الخلفاء الفاطميين ، واتهامهم بتهم شنيعة مثل الكفر والكذب والمكر والمجوسية . وحاول السيوطى أن يبرهن على أن امامة الخلفاء الفاطميين غير صحيحة فذكر أنهم غير قرشيين وليسوا بعلويين، وأن أكثرهم زنادقة خرجوا عن تعاليم الاسلام ، فمنهم من سب الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له، وأن مبايعتهم صدرت والامام العباسى قائم فلاتصح البيعة لامامين فى وقت واحد(١) . لهذا لم يلقب السيوطى الفاطميين بلقب « خلفاء » ، بل ذكر أسماءهم مجردة مثل « الظاهر العبيدى صاحب مصر » و « صاحب مصر الآمر بأحكام الله » (٢) . وكتب فى تاريخ الخلفاء فصلا مختصرا بعنوان « فصل فى الدولة الخبيثة العبيدية » احتوى على أسماء الخلفاء الفاطميين وتواريخ حكمهم (٣) . وفى (حسن المحاضرة) كتب السيوطى فصلا آخر تحت عنوان « ذكر أمراء مصر من بنى عبيد » أسهب فى ذكر قبائحهم وسوء سيرتهم (٤) . وبالتالى يجب على الباحث أن يأخذ ما كتبه السيوطى وغيره من المؤرخين السنيين عن تاريخ الفاطميين بكثير من الحذر والحيطة (٥) .

ومنهج السيوطى عند تأريخه لسلاطين المماليك ورسوم السلطنة

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤ ـ ٦ ، انظر أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢) ، ج١ قسم٢ ، ص ٥١٠ ـ ٥١٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، (القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩) ، ج ١٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٢) انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٩ ، ٤٣٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٩٩ ـ ٦١٠ .

(٥) عن أهمية تاريخ الفاطميين بالنسبة للتاريخ الاسلامى بصفة عامة والتاريخ المصرى بصفة خاصة انظر :
Lewis, B., « An Interpretation of Fatimid History », in Colloque International sur l'Histoire du Caire, (1972), pp. 287-295.

يميل الى الاختصار ، لأنه ــ كما سبق القول ــ رأى أنهم قد استبدوا بالأمر دون الخلفاء العباسيين • لهذا لم يهتم السيوطى كثيرا بالحملات الحربيه التى شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين والمغول وغيرهم ، بل اهتم بمنشآت السلاطين الدينية، ورعايتهم للفقهاء والقضاة، وبالنصائح التى كان يرسلها الفقهاء والعلماء للسلاطين مثل المكاتبات التى أرسلها الشيخ محى الدين النووى الى السلطان بيبرس يعظه فيها وينصحه بالعدل والرفق بالرعية ، ويحثه على حب الخير وازالة المكوس والعمل بالشرع (١) • وتحدث السيوطى عن جلوس السلطان فى دار العدل للنظر فى المظالم ، وذكر معلومات قيمة عن صفة المجلس وتكوينه ونظام جلوس كل فرد فيه (٢) • واعتمد السيوطى على ابن فضل الله العمرى عند حديثه عن « الخلع والزى » فوصف الملابس التى كان يرتديها القضاة والعلماء ، ولم يذكر شيئا عن زى الأمراء والجند والوزراء ونحوهم ، مدفوعا بتربيته ونشأته الدينية معطيا سبب ذلك «لأنها ما بين حرير وذهب وذلك محرم شرعا ، وقد التزمت ألا أذكر فى هذا الكتاب شيئا أسأل عنه فى الآخرة ، ان شاء الله تعالى» (٣) • واتبع السيوطى المنهج نفسه عند حديثه عن الجيش المملوكى وأرباب الوظائف الكبرى فى السلطنة المملوكية ، لذلك لم يذكر سوى معلومات بسيطة للغاية معتمدا على ابن فضل الله العمرى فى كثير من الحذف والاختصار (٤) •

ومن الجدير بالذكر أن السيوطى ــ بحكم انتمائه لطبقة الفقهاء والعلماء ــ أدلى بدلوه فى مجال كان له أهميته فى عصر سلاطين المماليك وهو كتابة رسائل تحث على الحرب والجهاد • فقد كتب السيوطى

---

(١) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٧ ــ ١٠٥ •
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٧ ــ ١٢٨ •
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٢٠ •
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٤ •

رسالتين لحث الفرسان على تعلم الرمى بالنشاب والطعن بالرماح . وفى الرسالة الأولى وعنوانها (غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب) تحدث السيوطى عن أهمية الرمى بالسهام ، وحث على تعلمه ، وذكر الأمر به كما ورد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ثم ذكر معلومات هامة عن ترتيب أجزاء القوس والنبل وأنواع السهام وأصول الرمى . وفى الرسالة الثانية وعنوانها (السماح فى أخبار الرماح) ذكر السيوطى الأحاديث النبوية فى فضل الرماح ، وفوائد لغوية عن أنواع الرماح ومتعلقاتها ، وما قيل فى الرمح من الشعر وما الى ذلك من أمور كان لابد أن يعرفها المملوك عند تعلم الرمى بالسهم والطعن بالرمح فى الطباق السلطانية (١) .

والسيوطى من قلائل المؤرخين الذين تحدثوا عن المؤثرات المغولية فى نظم ورسوم السلطنة المملوكية . فقد نقل السيوطى عن بعض المؤرخين السابقين أن السلطان الظاهر بيبرس كان معجبا بالمغول والنظم المغولية ، وأنه أراد أن يتشبه بجنكيزخان ، فرتب فى سلطنته نظما كثيرة لم تكن معروفة قبله بديار مصر ، مثل ضرب البوقات ، والأمر بوظائف جديدة مثل أمير سلاح وأمير مجلس وغير ذلك (٢) . والسيوطى بهذه الملاحظة يشير الى المؤثرات المغولية التى حملها المغول معهم الى مصر خاصة فى عصر

---

(١) السيوطى : غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب ، محطوط بمكتبة احمد الثالث باستانبول رقم ٢٤٢٥ ، ميكروفيلم رقم ٢٩ فنون حربية بمعهد المخطوطات العربية ، ورقات ١ب - ١٥٧ ، السيوطى : السماح فى اخبار الرماح ، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥١٧ حديث ، ورقات ٢ - ١٣ ؛ عن تعليم الرمى بالسهام والطعن بالرمح واهميته فى تدريب الفارس المملوكى انظر :

Hassanein Rabie, « The Training of the Mamluk Faris », in Parry and Yapp (Editors): War, Technology and Society in the Middle East, (London, 1975), pp. 155-161.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ؛ انظر أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢) ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ج ٧ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛

Little, D. P., An Introduction to Mamluk Historiography, (Wiesbaden, 1970), p. 128.

السلطان بيبرس والتى أثرت فى نظم السلطنة المملوكيـه ومظاهر الحيـاة الاجتماعية فيها مثل شرب القمز (لبن الخيل) وارتداء الملابس التترية وما الى ذلك (١) .

وينسب للسيوطى كتاب عنوانه (تاريخ الملك الأشرف قايتباى) . غير أن هذا الكتاب لم يذكره السيوطى فى قائمة مؤلفاته (٢)، ولا نعرف شيئا عنه سوى صفحات منه بعنوان (غزوات قبرص ورودس) نشرت سنه ١٨٨٤ م . وذكر السيوطى فى هذه الصفحات أن غزوات قبرص بدأت سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م عندما جهز السلطان المملوكى برسباى عدة أجناد الى سواحل دمياط والاسكندرية وغيرهما . وفى السنه التاليه (٨٢٧/١٤٢٤ م) أرسل برسباى أربع سفن من مصر وبيروت وصيدا عليها ٦٠٠ مقاتل و ٣٠٠ فرس للاغارة على جزيرة قبرص . ثم أشار السيوطى الى حملتى قبرص الثانية والثالثة (٨٢٨ – ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ – ١٤٢٦ م) وذكر معلومات هامة عن أنواع السفن التى استخدمت من أغربة وقراقر وحمالات، ثم تحدث عن هزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس، واستيلاء المسلمين على الجزيرة ، ووصول جانوس مع غيره من الأسرى الى القاهرة (٣). ولخص السيوطى بعد ذلك أخبار محاولات السلطان المملوكى جقمق للاستيلاء على جزيرة رودس فى سنتى ٨٤٧ – ٨٤٨ هـ/

(١) لمعرفة بعض هذه المؤثرات المغولية فى نظم سلطنة المماليك أنظر :
Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D., 1169-1341, (London, 1972), pp. 30-31 and notes; Poliak, A.N., « The Influence of Chingiz-Khan's Yasa upon the general organization of the Mamluk state » in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. X (1940-2), pp. 862-76; Ayalon, D., « The Wafidiya in the Mamluk Kingdom », in Islamic Culture, Vol. XXV (1951), pp. 89-104.

(٢) أنظر السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ١٠٥ – ١٣٦ ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

(٣) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ، (ط. فيينا ١٨٨٤) ، ص ٢ – ١٢ ، عن تفاصيل استيلاء المماليك على قبرص فى عصر السلطان بارسباى ، انظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٩٠ – ١٢٢ ؛
Ahmad Darrag: L'Egypte sous le règne de Barsbay, (Damas, 1961), pp. 239-267.

المعروف أن جقمق لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة التى ظلت فى ١٤٤٣ — ١٤٤٤ م بقيادة الأمير تمرباى والأمير اينال العلائى • ومن أيدى الاسبتارية حتى سنة ١٥٢٢ م (١) •

واهتم السيوطى أيضا اهتماما كبيرا بأخبار التراجم متأثرا بمنهج كتابة التاريخ فى القرن الخامس عشر الميلادى، وهو أن لفظ التاريخ وسع غير التاريخ من العلوم والفنون كالحوليات والوفيات والتراجم والطبقات• ففى خلال القرن الخامس عشر الميلادى كتب المقريزى كتاب (المقفى) ليكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها ، وكتاب (درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة) ليكون معجما لتراجم معاصريه ؛ وكتب أبو المحاسن بن تغرى بردى كتاب (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) محتويا لتراجم سلاطين المماليك والأعيان والنابهين فى مصر والدول المجاورة . وكتب السخاوى كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) • لهذا سلك السيوطى المنهج نفسه عندما اهتم بكتب التراجم • فكتب السيوطى كتابا من أهم كتبه وهو كتاب (نظم العقيان فى أعيان الأعيان) ، ذكر فى مقدمته أنه قصره على « الأعيان وأفراد الزمان » (٢) • واحتوى هذا الكتاب على مائتى ترجمة لكبار أعيان العالم الاسلامى من رجال ونساء الذين عاشوا حوالى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فى مصر والشام والحجاز والعراق والأندلس من سلاطين وقضاة ومقرئين ومحدثين وشعراء وغيرهم، عرف السيوطى بعضهم واتصل بهم بطريقة أو بأخرى• وكانت طريقة السيوطى فى هذا الكتاب هى أن يذكر اسم المترجم حسب حروف المعجم ، ولقبه وكنيته ، وتاريخ مولده ، وأسماء شيوخه ومصنفاته وسنة

---

(١) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ، ص ١٤ ــ ١٦ ، انظر أيضا : سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ١٧١ ــ ١٧٢ ؛ سامى سلطان سعد ، الاسبتارية فى رودس ١٣١٠ ــ ١٥٢٢ ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٥ •

(٢) السيوطى · نظم العقيان ، ص ١ •

وفاته . ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب لمعرفة أحوال مصر الاجتماعية والأدبية فى أواخر عصر سلاطين المماليك .

وفى الجزء الأول من (حسن المحاضرة) ذكر السيوطى الأعلام والأعيان الذين نزلوا بمصر ، وترجم لهم تراجم موجزة مع حرصه على ذكر تواريخ الوفيات ؛ فترجم لمن دخل مصر من الصحابة والنساء الصحابيات ، ومن كان بمصر من مشاهير التابعين وصغار التابعين وأتباع التابعين الذين رووا الحديث ، ومن كان بمصر من الأئمة المجتهدين مثل الامام الشافعى وابن دقيق العيد وغيرهما (١) . ثم أورد السيوطى تراجم مختصرة لمن كان بمصر من حفاظ الحديث ، والفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، وأئمة القراءات ، والصلحاء والزهاد والصوفية ، وأئمة النحو واللغة ، ومن كان بمصر من أرباب المعقولات وعلوم الأوائل ، والحكماء والأطباء والمنجمين ، والوعاظ والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء (٢) .

وأشار السيوطى بعد ذلك الى أمراء مصر من حين الفتح الاسلامى لها الى قيام الدولة الفاطمية ، ثم سرد أسماء « أمراء مصر من بنى عبيد » يقصد الفاطميين (٣) . وفى الجزء الثانى من (حسن المحاضرة) اتبع السيوطى منهج السرد التاريخى المختصر لقضاة مصر ووزرائها وكتاب الانشاء بها من أول الفتح الاسلامى حتى عصره (٤) . وهكذا اهتم السيوطى بمصر وفقهائها وعلمائها وسلاطينها ووزرائها وقضاتها ورجالها بطريقة ينفرد بها عن سائر المؤرخين المعاصرين .

ومصر البلد الحنون، والمراح والمكان الخصب أحبها السيوطى حبا فاق كل وصف ، وصنف كتابا سماه (بهجة الناظر ونزهة الخاطر) نقل فيه

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦٦ ــ ٣٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ــ ٥٧٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٨ ــ ٦١٠ .
(٤) المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ١٣٥ ــ ٢٣٦ .

ماقيل عن مصر ونيلها ومقياسها ومتنزهاتها وربوعها ووديانها وخلجانها، وأن من لم يشاهدها ورأى أهلها «فما رأى الدنيا ولا الناسا»(١)•وفى كتاب (حسن المحاضرة) ذكر السيوطى المواضع التى وقع فيها ذكر مصر فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومن ملكها فى قديم الزمان ، ومن دخلها من الأنبياء والحكماء ، وآثارها القديمة كالأهرام وأبى الهول ومنارة الاسكندرية (٢) •

ومن الثابت أن السيوطى لم يكن الرائد فى دراسة خطط مصر وآثارها فقد سبقه المؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م الذى كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة (٣)؛ والمقريزى صاحب كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وغيرهما (٤) • غير أن الذى يهمنا هنا أن السيوطى لم يؤلف كتابا مستقلا فى خطط مصر وآثارها ، وانما تحدث عن ذلك عرضا فى كتابيه حسن المحاضرة وكوكب الروضة • والسيوطى عند ذكره لاقليم مصر ، نقل من كتاب الأقاليم لابن حوقل ومن كتاب مباهج الفكر للوطواط حدود الديار المصرية ومعلومات مختصرة عن نشأة الفسطاط والقطائع والقاهرة (٥) • ونقل السيوطى من كتاب سكردان السلطان لأحمد ابن يحيى المعروف بابن حجلة (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) سبب تسميتها القاهرة لوقوع المريخ فى الطالع ويسمى عند المنجمين بالقاهر (٦) • كما نقل السيوطى أيضا من كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر

---

(١) السيوطى : بهجة الناظر ونزهة الخاطر ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٢ محامبع •

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥ ـ ٩٣ •

(٣) انظر ترجمة الأوحدى فى السخاوى : الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ •

(٤) انظر محمد عبد الله عنان : « خطط المقريزى بين الأصالة والنقل » فى كتاب دراسات عن المقريزى ، ص ٣٩ ـ ٤٨ •

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، ح ١ ، ص ٢٣ ـ ٢٥ •

(٦) المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ، ابن حجلة : كتاب سكردان السلطان ، (القاهرة ، ١٢٨٨هـ/١٨٧١م) ، ص ٢٥ ـ ٢٦ •

للـوطواط معلومـات فى غـاية الأهمية عن تقسـيم مصر الادارى أو المـالى ، اذ قسـم مصر الى قسـمين مصر والقـاهرة ، وذكر أن كل قسـم انقسـم الى كور وقرى ، والكور جعلت صفقات فى كل صفقه منها وال حرب ، وقاض ، وعامل خراج • وأعطى السيوطى ـ نقلا عن الوطواط ـ معلومات قيمة عن الصفقات التابعه لمصر والتابعة للقاهرة ، بمدنها ومراكزها الهامه ، وكذلك عن ثغور مصر على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) خاصة الفرما وتنيس (١) •

ونقل السيوطى أيضـا عن ابن عبد الحـكم والكندى والقضاعى وابن فضل الله العمرى معلومات هامة عن نشأة المدن الاسلامية الأولى (الكوفة ، البصرة ، الفسطاط) على أطراف الصحراء حتى لا يجعل المسلمون بينهم وبين الخليفة بحرا ، وعن الخطط التى سكنتها القبائل فى الفسطاط ، وبناء المسجد الجامع ، والدار التى بنيت لعمر بن الخطاب ثم أصبحت سوقا، وحمام الفأر، واختطاط الجيزة (٢)• وكان لجبل المقطم نصيب من دراسة السيوطى لخطط مصر والقاهرة، الا أنه أنكر ماحدث منذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون من تشييد المبانى فيما بين قبة الامام الشافعى وباب القرافة • وأشـار السيوطى الى فتاوى بعض العلماء بضرورة هدم كل بناء بسفح المقطم حتى يكون مقبرة لموتى المسـلمين فقط كما أراد الخليفة عمر بن الخطاب (٣) • واعتمد السيوطى اعتمادا كاملا على خطط المقريزى عند حديثه عن جوامع مصر وأمهات المدارس والخوانق بالديار المصرية (٤) •

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦ ـ ٢٩ ، جمال الدين الوطواط : مباهج الفكر ومناهج العبر ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ علوم طبيعة ، ورقات ٢١١ وما بعدها ، وعن تنيس أنظر ابن بسام : كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١٤ (١٩٦٧) ، ص ١٥١ ـ ١٨٩ •

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٦ •

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٧ ـ ١٤١ •

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٧٣ ، المقريزى : كتاب المواعظ =

أما كتاب كوكب الروضة للسيوطى فهو كتاب فريد من نوعه عن جغرافية ووصف جزيرة الروضة أو جزيرة مصر كما كانت تسمى • وبدأ السيوطى هذا الكتاب بذكر الأحاديث والآثار الواردة فى النزهة والروضات • ثم اعتمد السيوطى على كتاب الخطط للمقريزى ومصادر أخرى مثل مؤلفات ابن رضوان وعلى بن سعيد وابن الوردى والقزوينى والوطواط والتيفاشى وغيرهم للتعريف بمكان جزيرة الروضة وأصل أسمها وصفاتها وما قيل فيها من شعر • ثم تحدث السيوطى عن دور صناعة السفن بالروضة والحصن الذى بناه أحمد بن طولون بها ، وقلعة السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب ، ثم أشار الى الأزهار والفواكه والخضروات والموجودة فى جزيرة الروضة ، وما قيل فيها من الأشعار والألغاز (١) • وفى كتاب كوكب الروضة تحدث السيوطى أيضا عن نهر النيل ومقياسه ومنابعه ومصباته وزياداته ومسافاته ومزاياه وعجائبه ، ونقل هذه المعلومات أيضا الى كتابه حسن المحاضرة (٢) •

ومن الغريب أن السيوطى أشار أيضا فى حسن المحاضرة الى آثار مصر القديمة فوصف أهرامات الجيزة ، وذكر اسم من بناها ، ومحاولة الخليفة العباسى المأمون من فتح ثلمة بالهرم وما وجده بداخله من أموات بأكفانهم ، وما قيل فى الهرمين من شعر للمتنبى وعمارة اليمنى وغيرهما ، وكذلك كان الحال عند حديثه عن منارة الاسكندرية وعجائبها (٣) •

أما منهج جلال الدين السيوطى فى مجال التاريخ الاقتصادى فالحقيقة أن الباحث يكون مبالغا اذا ظن أن السيوطى كان مؤرخا اقتصاديا

- والاعتبار (الخطط) ، (القاهرة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣م) ج ٢ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٥ ، ٢٦٥ ـ ٢٦٩ . ٢٧٣ ـ ٢٩٤ ، ٣٦٢ وما بعدها •

(١) السيوطى : كوكب الروضة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤ تاريخ تيمور ، ورقات ٢ ـ ٤٩ ، ٢٥٢ وما بعدها •

(٢) السيوطى : كوكب الروضة ، ورقة ٤٩ وما بعدها ؛ حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٧٦ •

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٧٠ ـ ٨٣ ، ٨٩ ـ ٩٣ •

لأنه لم يهتم بدراسه طرق الزراعة أو أنواع الحرف والصـــناعات أو طرق التجارة أو أنواع المتاجر وأســـعارها ، غير أن السيوطى تعرض لبعض موضـــوعات التاريخ الاقتصادى التى اهتم بها علماء عصره لتطبيق تعاليم الشريعة مثل المكوس (الضرائب) والمعاملات النقدية وما الى ذلك. ودراسة المكوس أو الضرائب عند السيوطى تدل على نشأته الفقهية وطبيعة عمله ، فهو لم يشرح المكوس المجباة فى مصر فى القرن الخـــامس عشر بـــل حـــاول أن يشرح المكس كمـــا كـــان عليـــه الحـــال فى العصر الاسلامى الأول . وكتب الســـيوطى رســـالة سماها (رســـالة فى ذم المـــكس) (١) رأى فيهـــا أن المـــكوس أمور مذمومة مكروهة ، وأن المكاسين أو الجباة مصيرهم الى جهنم ، ونقل الحديث الشريف « لا يدخل الجنة صاحب مكس » . ويبدو أن السيوطى وجد أن الضرائب فى عصره اختلفت كل الاختلاف عن أنواع الضرائب الشرعية ورأى أن من واجبه الدعوة الى العودة الى تطبيق أحكام الشريعة فى أمور الضرائب فكتب هذه الرســـالة . ولم يدرك السيوطى ـــ دون شك ـــ أن أكثر من ثمانية قرون من الزمان كانت كفيلة باحداث كثير من التغييرات والتعديـــلات فى أنـــواع الضرائب ومقاديرها ومواعيد جبايتها (٢) .

ومما هو جـــدير بالذكر أن السيوطى وقع فى خلط كبير فهو لم يفرق بين مفهوم الجزية « أى ضريبة الرأس أو الجوالى » وبين الضرائب الخراجية المفروضة على الأراضى الزراعية ، فاستخدم السيوطى أحيـــانا كلمة « الخراج » وهو يقصد « الجزية » ، واستخدم كلمة « الجزية » وهو يقصد « الخراج » . لذلك نجد عند حديثه عن الجزية ينقل من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم معلومات خاصـــة بجباية الضرائب

(١) السيوطى : رسالة فى ذم المكس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤١٦ حديث ، ورقات ١ أ ـــ ٤ أ .

(٢) انظر : Hassancin Rabie, The Financial System of Egypt, p. 100.

الخراجيه عند فتح العرب لمصر ، وأنهم فرضوا على أهل البلاد ضريبه خراجية « لكل فدان نصـف أردب وويبتين من شـعير الا القرظ (البرسـيم) فلم يكن عليه ضريبة » . وعندما أشـار السيوطى الى الاحصاء السكانى الذى أمر به الوليد بن رفاعة عندما ولى مصر سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ، ذكر السيوطى أنه فعل ذلك حتى « ينظر فى تعديل الخراج » بينما فى الحقيقة لتقدير ضريبة الجزية (١) .

واتخذ السيوطى منهجا مشابها عند دراسته لأنواع النقود المتعامل بها فى مصر أو ما سماه (معاملة مصر) ، فنقل عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنه ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م أنواع العملات النقدية فى مصر كما آل اليها الحال فى القرن الثامن الهجرى عندما أصبح الدرهم الفضة هو أساس التعامل (٢) . ولم يكن هذا هو حقيقة العملات النقدية زمن السيوطى لأنه تطور الأمر منذ أيام السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ ـ ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ ــ ١٣٩٩ م) ــ أى قبل عصر السيوطى بحوالى نصف قرن من الزمان ــ الى أن أصبحت الفلوس النحاسية هى قاعدة النقد الرئيسية فى مصر واليها تنسـب المبيعات ، وقل التعـامل بالدراهم الفضة لندرتها ، وأصـبح الدينار الذهب عملة حسابية وسلعة من السلع (٣) .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ ؛ عن الجزية (ضريبة الراس او الجوالى) انظر :
Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, pp. 108-113; Lokkegaard, F., Islamic Taxation in the Classic Period, (Copenhagen, 1950), pp. 140-141; Cahen, C., Articles « Djawali and Djizva » in Encyclopaedia of Islam, (2nd edition).

وعن الاحصاء السكانى فى مصر العصور الوسطى انظر :
Russell, J. C., « The Population of Medieval Egypt », in Journal of Amer. Res. Center, Egypt, Vol. V (1966), pp. 69-82.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) انظر : المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصـطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، (القاهرة ، ١٩٤٠) ، ص ٧١ ـ ٧٢ ، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ١٠٧ ـ ١١١ ؛ أنظر أيضا :
Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, p. 197.

ولم يتخل السيوطى عن منهج المؤرخين المعاصرين له من الاشارة الى الأزمات النقديه التى حدثت كثيرا طيلة العصر المملوكى ، وما كان يتبع ذلك عادة من تغيير أسعار تداول العملات، وتحرك الأسعار، واختفاء العملات الجيدة ، وتداول النقود عددا أو وزنا، وهذه الأزمات وفشل السلاطين فى حلها كان لها أكبر الأثر فى الحاق الضرر بالاقتصاد المملوكى أواخر العصور الوسطى • ومن الأزمات النقدية التى أشار اليها السيوطى تلك التى حدثت فى مصر فى السنوات الهجرية ٦٩٣ ، ٧٢٤ ، ٧٤٠ ، ٧٨٩ ، ٧٩٤ ، ٨٠٦ ، ٨١٥ ، ٨١٧ • وشرح السيوطى الوسائل التى التجأ اليها بعض سلاطين المماليك لمواجهة هذه الأزمات النقدية مثل سك نقود جديدة جيدة العيار ، أو تغيير سعر الصرف ، أو الأمر بأن يتعامل الناس بالنقود وزنا لا عددا ، وما كان لذلك من أثر على حياة الناس المالية والمعيشية (١) •

واهتم السيوطى أيضا فى كتابه حسن المحاضرة بأخبار النيل وذكر السنوات التى قصر فيها النيل عن الوفاء ، وما تبع ذلك من عدم وصول الماء الى الحقول وحدوث غلاء ووباء ، وأثر ذلك كله على أحوال البلاد الاقتصادية مثلما حدث فى السنوات الهجرية ٤٦٠ ، ٥٩٦ـ ٥٩٧ ، ٦٢٨، ٦٩٤ ـ ٦٩٥ ، ٧٧٥ (٢) • وسجل السيوطى كذلك تواريخ الطواعين والأوبئة التى حدثت فى مصر منذ سنة ٦٦ هـ الى سنة ٨٤١ هـ ، وذلك عند حديثه عن الحوادث الغريبة التى حدثت فى مصر (٣) • ومما يدل على اهتمام السيوطى بتاريخ الطواعين أنه كتب رسالة سماها (ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون) احتوت على أخبار الطواعين التى حدثت فى الدولة الاسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام الى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م أى قبل وفاة السيوطى بحوالى ثلاث عشرة سنة • وحرص

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ، ٣٠١ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ •
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٩ ، ٢٩١ ـ ٢٩٤ ، ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، ٣٠٤ •
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ •

السيوطى بطبيعة الحال على ذكر نصيب مصر من هذه الطواعين ، وما حدث فيها من كثرة عدد الموتان (١) .

وأدرك السيوطى - كمؤرخ - ما حدث فى عصره من انهيار نظام الوقف فى مصر نتيجة استيلاء السلاطين والأمراء المماليك بعد عصر السلطان برقوق على جميع الاراضى الموقوفة فى مصر والشام ، وبيع المنشآت الموقوفة من دور وحوانيت وحمامات وخلافه واعطاء أثمانها للمنتفعين بها أو تسليمها لبيت المال ، هذا بالاضافة الى سوء الاشراف على الأوقاف الباقية مما أدى الى قلة متحصلاتها المالية (٢). لهذا كتب جلال الدين السيوطى رسالة عنوانها (رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف) نادى فيها بضرورة تمييز الأوقاف بعد أن لمس المصير المظلم لهذا النظام . وميز السيوطى بين نوعين من الأوقاف : النوع الأول أوقاف لم تؤخذ من بيت المال بأى طريقة من الطرق ولا يمكن أن تؤول اليه مرة أخرى . وقصد السيوطى بهذا النوع الأوقاف الأهلية التى وقفها الواقفون على ذريتهم ، أو حبسوها على مصالح بيوت الصوفية والمدارس والجوامع وغير ذلك من المؤسسات . ونادى السيوطى بضرورة التشديد على أن تكون مصروفات هذا النوع من الأوقاف استيفاء لشروط الواقف ، ولايؤول شىء منه الى بيت المال « لايجوز تناول ذرة منه الا مع استيفاء ما شرطه الواقف » . أما النوع الثانى من الأوقاف - فى رأى السيوطى - فهو أوقاف كانت فى الأصل أملاكا تابعة لبيت المال ، وقفها على توالى السنين خلفاء وسلاطين مثل صلاح الدين والظاهر بيبرس وغيرهما وأمراء ، فأجاز السيوطى عودة الكثير من هذه الأوقاف الى بيت المال ، لأن معظم الأشخاص الذين حبسوا هذه الأوقاف كانوا فى الأصل أمراء مماليك

---

(١) السيوطى : مارواه الواعون فى اخبار الطاعون ، نشر وتحقيق كرمر ، (فيينا ١٨٨٠) .

(٢) انظر : المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

آرقاء لبيت المال • واستشهد السيوطى بما قاله شيخ الاسلام عز الدين ابن عبد الســلام عندما ثار على الأمراء المماليك ونادى ببيعهم قائلا أنهم « أرقاء بيت المال » (١) •

ويبدو أن رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف للسيوطى تعكس آراء الفقهاء المعاصرين أواخر عصر سلاطين المماليك ، بأن الأوقاف الأهلية لا يمكن أن تحل بأية وسيلة من الوسائل ، بينما لا تخضع الأوقاف الأخرى لهذا الحكم • ولا حاجة للقول بأن بيع الدور والحــوانيت والحمامات الموقوفة أو تحويل ايراداتها الى بيت المــال أعطى ضربة قاصــمة لنظام الوقف فى مصر الذى كان المورد المالى لسنين طويلة للنفقة على البيمارســتانات (المستشــفيات) والخــوانق (بيــوت الصــوفية) والجوامع والمســاجد ، ورواتب وجرايــات المدرســين وطــلاب العلم فى المدارس ، ورواتب قراء القرآن الكريم فى المقابر ، ومرتبات الموظفين المسئولين عن رعاية وصيانة الأوقاف مما كان له أسوأ الأثر على أحوال مصر الاقتصادية قبيل العصر العثمانى (٢) •

وهكذا كان جلال الدين السيوطى مؤرخــا قديرا ، أدرك مشكلات عصره وتحدث عنها ، وكان له منهجه الخاص به فى كتابة التاريخ ، كما رأينا فى الصفحات الســابقة ، مما يجعل من الظلم أن يقاس السيوطى بمعايير ومقاييس عصرنا الحاضر •

---

(١) السيوطى : رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٥٨٨ ، ورقات ٨٨ أ ــ ٨٩ ب ؛

Hassanein Rabie, « Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt ».

المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ (١٩٧١) ، ص ٢٤ « القسم الانجليزى » •

(٢) أنظر عن نظام الوقف فى عصر سلاطين المماليك : المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ؛ محمد محمد أمين ، تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧م) رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢ ؛ أنظر أيضا :

Hassanein Rabie, « Some Financial Aspects of the Waqf System », pp. 3-24; Mayer (L.A.), The Buildings of Qaytbay as described in the endowment deed, (London, 1938); Ahmad Darrag, Hujjat Waqf al-Ashraf Barsbay, (Cairo, 1963) Heffening, W., Article « Wakf » in Encyclopaedia of Islam, (1st edition).

مصادر ومراجع البحث

أولا ـ المصادر العربية :

ابن الاثير (مجد الدين) : النهاية فى غريب الحديث والأثر ، (القاهرة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م) ٠

ابن اياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج٣ ، ج٤ (القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦٣) ٠

ابن بسام (محمد بن احمد) : كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١٤ (١٩٦٧) ، ص ١٥١ ـ ١٨٩ ٠

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧٢) ، ج٦ ، ج٧ ٠

ابن حجلة (أحمد بن يحيى) : كتاب سكردان السلطان (القاهرة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ م) ٠

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة . (القاهرة ١٩٣٠) ٠

ابن كثير (اسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية ، ١٤ جزء (القاهره ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩) ٠

ابو سامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ فى قسمين تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢) ٠

السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، (دمشق ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) ٠

: التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، (القاهرة بدون تاريخ) ٠
: الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م) ٠

السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر) :

ـ الاتقان فى علوم القرآن ، جزءان (القاهرة ١٣١٨ هـ/١٨٩٥ م) ٠
اتمام الدراية لقراء النقاية ، (القاهرة ١٨٦٦) ٠
ـ الأساس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٠٢٢ تاريخ ٠
ـ أصول التفسير (دمشق ١٣٣١هـ/١٩١٣م) ٠
ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، جزءان ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٤) ٠
ـ بهجة الناظر ونزهة الخاطر ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٢ مجاميع ٠
ـ تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، (القاهرة ١٩٦٤)
ـ تفسير الجلالين ، جزءان (القاهرة ١٩٠٩) ٠
ـ الحاوى فى الفتاوى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جزءان ، (القاهرة ١٩٥٩) ٠
ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جزءان (القاهرة ، ١٩٦٧) ٠
ـ ذيل طبقات الحفاظ ، (دمشق ١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م) ٠
ـ الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ، (الجزائر ١٩٠٧) ٠
ـ رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٥٨٨ ٠
ـ رسالة فى ذم المكس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤١٦ حديث، ورقات ١ أ ـ ٤ أ ٠

ـ السماح في أخبار الرماح ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٧ حديث ٠

ـ **الشماريخ في علم التاريخ** ، (ليدن ١٨٩٤م) ٠

ـ طبقات الحفاظ ، مخطوط رقم ٨١ تراجم بمكتبة الحرم المكي الشريف ، ميكروفيلم رقم ١١٢٢ تاريخ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ٠

ـ طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٩) ٠

ـ غرس الأنشاب في الرمي بالنشاب ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٤٢٥ ، ميكروفيلم رقم ٢٩ فنون حربية بمعهد المخطوطات العربية ٠

ـ غزوات قبرص وردوس (ط ٠ فيينا ١٨٨٤) ٠

ـ الكاوي على تاريخ السخاوي ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٠ أدبية ٠

ـ كتاب التحدث بنعمة الله ، تحقيق اليزابث ماري سارتين ، (القاهرة ـ كمبردج ١٩٧٥) ٠

ـ كتاب التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع ٠

ـ كتاب في نسب بعض الصحابة والأشراف الادريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤ تاريخ ٠

ـ كوكب الروضة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٤ تاريخ تيمور ٠

ـ اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (استانبول ١٣١٧هـ /١٨٩٩م) ٠

ـ لب اللباب في تحرير الأنساب (ط ٠ أوربية ١٨٤٠ م) ٠

ـ لباب النقول في أسباب النزول (القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) ٠

ـ ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، نشر وتحقيق كرمر ، (فيينا ١٨٨٠) ٠

ـ المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، (دمشق ١٣٤٨ هـ ١٩٢٦) ٠

– المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، حققه محمد أحمد جاد المولى وآخرون . جزءان (القاهرة ١٩٥٨) ٠

– المنجم فى المعجم ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٢٦ تاريخ ٠

– نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق فيليب حتى (نيويورك ١٩٢٧) ٠

الكافيجى (محى الدين محمد بن سليمان) : المختصر المفيد فى علم التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٢٨ تاريخ ٠

المقريزى (أحمد بن على) : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، (القاهرة ١٩٤٠) ٠

– الخبر عن البشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٧ تاريخ ٠

– كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط » ، جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣ م) ٠

الوطواط (جمال الدين : مباهج الفكر ومناهج العبر ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ علوم طبيعية ٠

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة :

أسد رستم : مصطلح التأريخ (بيروت ١٩٥٥) ٠

روزنتال (فرانتز) : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة أنيس فريحة (بيروت ١٩٦١) ٠

سامى سلطان سعد : الاسبتارية فى رودس ١٣١٠ – ١٥٢٢ م ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٧٥ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور : – العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥) ٠

– قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) ٠

عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٦٤) ٠

قسطنطين زريق : نحن والتاريخ (بيروت ١٩٥٩) ٠

محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر ســــلاطين المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، (القاهرة ١٩٥٤) .

محمد مصطفى زيادة وآخرون : دراسات عن المقريزى (القاهرة ١٩٧١) .

هرنشو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤) .

ثالثا : المراجع الأوربية :

Ayalon, D., « The Wafidiya in the Mamluk Kingdom », in Islamic Culture, Vol. XXV (1951), pp. 89-104.

Brockelmann, Article « AL-Suyuti » in Encyclopaedia of Islam, 1st Edition.

Cahen, C., Articles « Djawali » and « Djjizya » in Encyclopaedia of Islam, 2nd Edition.

Cook, M.A., Studies in the Economic History of the Middle East, (London, 1970).

Darrag (Ahmad),

1) L'Egypte sous le règne de Barsbay, (Damas, 1961).

2) Hujjat Waqf Al-Ashraf Barsbay, (Cairo, 1963).

Dunlop, D.M.,

1) Arab Civilization to A.D. 1500, (New York, 1971).

2) « Some remarks on Weil's History of the Caliphs », in Lewis and Holt (Editors), Historians of the Middle East, pp. 315-329.

Fischel, W.J., Ibn Khaldun in Egypt, (Berkeley and Los Angeles, 1967).

Grunebaum G.E. Von, Medieval Islam, (Chicago and London, 1969).

Heffening, W., Article « Wakf » in Encyclopaedia of Islam, 1st Edition.

Jarrett, H.S., History of the Caliphs, (Calcutta, 1881).

Lewis, B., « An Interpretation of Fatimid History », in Colloque International sur l'Histoire du Caire, (1972), pp. 287-295.

Lewis B. and Holt, P., (Editors), Historians of the Middle East, (London, 1962).

Little, D.P., An Introduction to Mamluk Historiography, (Wiesbaden, 1970).

Lokkegaard, F., Islamic Taxation in the Classic Period, (Copenhagen, 1950).

Mayer, L.A., The Buildings of Qaytbay as described in the endowment deed, (London, 1938).

Nicholson, R.A., A Literary History of the Arabs, (Cambridge, 1962).

Poliak, A.N., « The Influence of Chingiz-Khan's Yasa upon the general organization of the Mamluk State », in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. X (1940 2), pp. 862-76.

Rabie, (Hassanein),

1) The Financial System of Egypt A.H. 564-741/A.D. 1169-1341, (Oxford University Press, London, 1972).

2) « Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt », in

المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ (١٩٧١) ، ص ٣ — ٢٤ .

3) « The Training of the Mamluk Faris », in Parry V.J. and Yapp, M.E. (Editors), War, Technology and Society in the Middle East, (London, 1975) pp. 155-161.

Resenthal, F.,

1) A History of Muslim Historiography, (Leiden, 1952).

2) The Muqaddimah, An Introduction to History, 3 vols., (Princeton, 1967).

Russell, J.C., « The Population of Medieval Egypt », in Journal of Amer. Res. Center, Egypt, Vol. 5 (1966), pp. 69-82.

Sartain, E.M., Jalal al-Din al-Suyuti, Vol. 1, Biography and Background, Cambridge, 1975.

رؤية السيوطي للتاريخ المصري

للأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العدوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى وعميد كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

تمثل رؤية السيوطى للتاريخ المصرى دراســـة متكاملة للتكوين العربى والاسلامى لمصر ، وكذلك للدور الذى اضطلع به أبناء تلك البلاد فى بناء الحضارة العربية الاسلامية والدفاع عن « دار الاسلام » . واستطاع السيوطى أن ينفرد بتلك الرؤية التاريخية الواسعة لاستناده فى دراساته الى « نافذة مصرية » ، على نحو ما يعرف فى المصطلح الحديث باســـم « المنظور التاريخى » . اذ اتســـمت تلك النافذة المصرية بصفتين هامتين تتيحان لصاحبها أن يقدم دراسة متكاملة وفى صـــورة واضـــحة أيضا . وتتلخص هاتان الصفتان فى كون مصر قد أصبحت على عهد الســـيوطى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى « جزء من مجتمع مزاجه الرسمى العام « اســـلامى عربى » ، وكذلك فى كون الموقـــع الاســـتراتيجى لمصر قد جعلها أكثر اغراء للدولة العثمانية التى كانت تسعى لانتزاع زعامة العالم الاسلامى من مصر .

وخلقت هذه الأوضـــاع التى أحاطت بمصر على عهد السيوطى عاملين أساسيين ، أكد كل منهما أهمية «النافذة المصرية» لرؤية التاريخ المصرى ، أولهما : الحاجة الى دعم الوعى المصرى عن طريق جمع الدراسات

العديدة والمبعثرة التيأشادت بخصائص مصر، وجعلها ركيزة لهذا الوعى أمام التيارات الخارجية العنيفة التى أخذت تهاجمه فى القرن الخامس عشر الميلادى • وثانيهما : الحاجة الى دعم دور مصر القيادى فى حمايه « دار الاسلام » عن طريق بيان الجهود التى بذلتها مصر الاسلامية فى ميدان الجهاد الاسلامى ، واتخاذ هذه الدراسة التاريخية نذيرا يحذر من سوء العواقب التى قد تنجم عن أى خلل يصيب هذا الدور القيادى المصرى •

وظهرت بذلك فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى الحاجة الى مؤرخ مصرى ينظر الى تاريخ وطنه من حصيلته الثقافية ووضع بلاده الجغرافى • وكان السيوطى هو ذلك المؤرخ الذى تكونت من ثقافته وادراكه لجغرافية وطنه النافذة التى استطاع أن يستنشق منها المعنويات والماديات وغيرها من أصناف الحياة اليومية لبلاده ، وأن يعدل منها أيضا فى ضوء دراسات أسلافه من مؤرخى مصر الاسلامية • ذلك أن اختلاف النوافذ لا يغير الحقائق التاريخية أو يعدل فى ترتيبها التاريخى، وانما معناه أن تغير النظرة اليها تغييرا كفيلا بعرض أصناف الحقائق فى صورة تحقيق الرؤية السليمة الشاملة •

وفرضت الملابسات الزمنية والأوضاع السياسية التى أحاطت بمصر على عهد السيوطى أن يلتزم منهجا يكفل له رؤية سليمة للتاريخ المصرى والعمل فى الوقت نفسه على أن يجتزء من المصادر المعاصرة له ، وغير المعاصرة القدر الذى يكمل به منهجه ورؤياه ، احتراما منه للمنظور التاريخى ولقواعد التنسيق والتركيز • اذ سبق السيوطى حشد من المؤرخين المصريين ، أشاد بعضهم بخصائص وطنه فى عبارات براقة مبعثرة ، على حين تناول البعض الآخر هذه الخصائص فى عبارات غامضة وعامة• لكن السيوطى استطاع أن يطل على التاريخ المصرى من «النافذة المصرية » الواحبة والمادية ، المخلوقة له ، أو المخلوق لها حتى أدرك

رؤيته لهذا التاريخ ، ثم عرضها فى دراسة غدت تكون عنصرا من عناصر
بناء الوعى المصرى ودعم أوتاده .

وحدد السيوطى معالم « النافذة المصرية » التى أطل منها على تاريخ
وطنه فى مقدمة كتابه حسن المحاضرة ، اذ قال :

الحمد لله الذى فاوت بين العباد . وفضل بعض خلقه على بعض
حتى فى الأمكنة والبلاد . والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من
نطق بالضاد . وعلى آله وصحبه السادة الأمجاد . هذا كتاب سميته حسن
المحاضرة . فى أخبار مصر والقاهرة . أوردت فيه فوائد سنية . وغرائب
مستعذبة مرضية . تصلح لمسامرة الجليس . وتكون للوحيد نعم الأنيس .
وفقنا الله لما يحبه ويرضاه . وجعلنا ممن يحمد قصده ولا يخيب مسعاه .
بمنه وكرمه وقد طالعت على هذا الكتاب كتبا شتى منها فتوح مصر لابن
عبد الحكم وفضائل مصر لابن عمر والكندى وتاريخ مصر لابن زولاق
والخطط للقضاعي وتاريخ مصر لابن يونس وايقاظ المتغفل وايعاظ
المتأمل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى والخطط
للمقريزى والمسالك لابن فضل الله ومختصره للشيخ تقى الدين الكرمانى
ومناهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الانصارى، وعنوان السير
لمحمد بن عبد الملك الهمدانى ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لمحمد
ابن الربيع الجيزى والتجريد فى الصحابة للذهبى والاصابة فى معرفة
الصحابة لابن حجر ورجال الكتب العشرة للحسينى وطبقات الحفاظ
للذهبى وطبقات القراء له ، وطبقات الشافعية للسبكى وللاسنوى
وطبقات المالكية لابن فرحون وطبقات الحنفية لابن دقماق ومرآة الزمان
لسبط بن الجوزى وتاريخ الاسلام للذهبى والعبر له ، والبداية والنهاية
لابن كثير وأنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر والطالع السعيد فى أخبار
الصعيد للكمال الادفوى وسجع الهديل فى أخبار النيل لاحمد بن يوسف
التيفاشي والسكردان لابن أبى حجلة وثمار الأوراق لابن حجة » .

واستطاع السيوطى من تلك النافذة المصرية الواسعه أن يصل فى رؤيته للتاريخ المصرى الى ثلاثة آفاق متتالية ، كشف فى الأول منها عن أصالة ذلك التاريخ، وتتبع فى الثانى بناء الجيل العربى فى مصر الاسلامية وتناول فى الثالث والأخير منها فضائل مصر .

أصالة التاريخ المصرى :

نظر السيوطى الى تاريخ وطنه من زاوية هامه ، وهى ربط حاضر مصر المشرق فى ظل العروبة والاسلام بماضى هذه البلاد المجيد قبل الاسلام : فقد طالعت أعين السيوطى ومعاصرته بين أبناء مصر ، بلادهم المحبوبة بآثارها العظيمة التى غالبت الزمن ، ونيلها الخالد الذى يتدفق كل عام بين أهرى حاملا اليها الخير والبركات ، وذكرها الطيب الذى جاء فى القرآن الكريم ورددته ألسنتهم مرارا وتكرارا كل يوم فى الصباح والمساء ، وما رواه الرسول الكريم فى أحاديثه الشريفة عن مصر والاشادة بأهلها . وأقدم السيوطى على معالجة تاريخ مصر القديم وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز بين بلاد العالم القديم وما قدمه وطنه كذلك من خدمات جليلة للحضارة الانسانية .

وتجلت براعة السيوطى فى رؤيته للتاريخ المصرى حين استهل عرضه لأحداث مصر القديمة بآيات من القرآن الكريم ، ثم أعقبها بأحاديث للرسول الكريم . وقد حرص السيوطى على جمع ما سبق أن قام به أسلافه من مؤرخى مصر الاسلامية فى تلك السبل ، مع بيان الزيادة التى وجدها شخصيا بشأن ذكر مصر فى القرآن الكريم . فقال السيوطى: « قال ابن زولاق ، ذكرت مصر فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ». ثم أضاف السيوطى الى ذلك معدلا فقال : «قلت بل أكثر من ثلاثين» . وأضاف السيوطى الى ذلك أيضا اجتهاده فى بيان أهمية مصر كما جاء فى القرآن الكريم ، فقال : « وعن ابن عباس وقد ذكر مصر فقال : سميت

مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن » • وصحح السيوطى هذه الرواية قائلا : « بل فى اثنى عشر موضــعا أو أكثر » • وحرص السيوطى فى ذكر الآيات الكريمة على التنويه بمجد وطنــه ، وما رواه المؤرخون فى ذلك من آثار مجيدة • « فروى السيوطى عن الكندى : قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسـلام : قد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ، فجعل الشام بدوا وسمى مصر مصرا ومدينة » •

وسار السيوطى على النهج نفسه فى روايته لأحاديث الرسول الكريم التى ورد فيها ذكر مصر ، ووصيته (ص) للصحابة بأهل مصر • فقال : « أخرج ابن عبد الحكم عن ابن لهيعه قال حدثنى عمر مولى عفره أن رسول الله (ص) قال : الله الله فى أهل الذمة السود ، السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا • قال عمر مولى عفره ، صهرهم أن رسول الله (ص) تسرى منهم ، ونسبهم أن أم اســماعيل عليه الصلاة والسلام منهم • وأضاف السيوطى الى تلك الأحاديث روايات القصاص من أهل مصر عن أهمية هذا النسب فقال : صــاهر الى القبط من الأنبياء ثلاثة ، ابراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر • ويوسف عليه الصلاة والســلام تزوج من بنت صاحب عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وســلم تسرى مارية • وصار لأهل مصر بالتالى صفة نسب وثيقة بالعرب قبل الاسلام ، وغدت تلك الصلة موضـع اعتزاز الجيل العربى فى مصر ، ومحل تقديرهم •

ومهد السيوطى بتلك الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تناولت ذكر مصر الســبيل لدراسة أحداث مصر القديمة نفسها ، واتخاذ هذه الدراسة مدخلا لدراسة مصر العربية الاسلامية • ولم تكن مهمة السيوطى سهلة يســيره ، وانما كانت عملا شاقا وعسيرا ، وذلك بسبب افتقار الباحثين اذ ذاك فى التاريخ المصرى القــديم الى الوســائل

اللازمة ، من حيث الخبرة .بالكشوف واللغة الهيروغليفيه ، وهى أمور لم يصل العلم الى كشف أسرارها الا فى مطالع العصر الحديث • ولذا لم يكن عجبا بأن يلتمس هذا المؤرخ الوطنى سبيله الى دراسة هذه الحقبة الخالدة من تاريخ مصر عن طريق القصص التى رددتها شفاه المعاصرين له ، والتى امتلأت بها مجالسهم الخاصه والعامه ولا ينتقص من قيمة هذه المحاولة ان القصص التى سردها السيوطى حفلت بالخيال الواسع أو لأنها ابتعدت عن منهج البحث الذى نعرفه فى وقتنا الحاضر • اذ يكفى هذا المؤرخ فخرا أنه نجح فى اثارة حب الاستطلاع عند مواطنيه للبحث فى تاريخ وطنهم القديم ، وتلمس الروابط الوثيقة العرى بين حاضرهم وبين هذا الماضى التليد •

وعالج السيوطى فى ضوء هذا المنهج أصل المصريين القدماء • فطرا لافتقاره اذ ذاك الى وسائل الدراسه التى نعرفها اليوم باسم دراسات علم السلالات لجأ الى القصص التاريخى ، محاولا ربط أهل مصر بالشجرة الكبرى التى تفرعت عنها السلالات البشريه ، وهى ادم عليه السلام ، ثم نوح عليه السلام • ولكن هذا المؤرخ المجتهد اتبع طريقة تدل على مقدرته الفائقة فى استخلاص الحقائق المتعلقة بتاريخ وطنه من بين القصص الخيالى الذى يدور حول التاريخ العام للجنس البشرى • فأوضح السيوطى تسلسل الأنبياء من سلالة آدم ، حتى انتهى الى « نوح » ، قائلا ان سكان مصر القدامى ينتسبون الى أحد أحفاد نوح ، وهو « مصر بن بيصر بن حام » الذى اصطحب اخوته الى مصر ، وأن تلك البلاد سميت بهذا الاسم نسبة اليه » •

وتجلت فى هذه الصفحات الخاصه بتاريخ مصر القديم اعتزاز السيوطى بهذه الحقبه الغابرة من وطنه • اذ روى الدعاء الذى قدمه الأنبياء لهذا القطر العزيز ، والذى يؤكد مكانتها الجليلة بين أمم العالم

وأهله • ونجح السيوطى بذلك فى اثارة حوافز المعاصرين له الى دراسه وطنهم المصرى القديم ، واتخاذه هاديا لهم وسط خضم الأعاصير التى هبت عليهم فى القرن الخامس عشر الميلادى • وظهر اعتزاز السيوطى بهذه المرحلة القديمة من تاريخ وطنه فى الاشادة بما كانت عليه من ازدهار اقتصادي وحضاري، حيث قامت السلطات المصرية بشق القنوات اللازمة للحياة الزراعية على نفقتها دون أن تحمل أهالى البلاد أية ضرائب اضافية ، وبالعمل أيضا على عمرانها • فروى السيوطى : « قال أهل التاريخ : كان فرعون اذا كمل التخضير فى كل سنة ينفذ مع قائدين من قواده أردب قمح ، فيذهب أحدهما الى أعلى مصر والآخر الى أسفلها فيتأمل القائد أرض كل قرية ، فان وجدوا موضعا بائرا عطلا قد أغفل بذره كتب الى فرعون بذلك وأعلمه باسم العامل على تلك الجهة ، فاذا بلغ فرعون ذلك أمر بضرب عنق ذلك العامل، وأخذ ماله ، فربما عاد القائدان ولم يجدا موضعا لبذر الأردب لتكامل العمارة واستظهار الزرع •

واختتم السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى القديم باشادة بآثار مصر القديمة التى طالعت أبصار مواطنيه ، تحكى لهم أمجاد هذا القطر العريق ، وتكشف دوره الخالد فى خدمة الحضارة الانسانية • اذ انتشرت تلك الآثار فى طول البلاد وعرضها ، كما تعددت أغراضها ومعانيها • فتحدث السيوطى عن سور مصر العظيم الذى بناه سيزوستريس ، وسماه « جدار العجوز » ، حيث نسب بناءه الى احدى ملكات مصر • وكان هذا الجدار يبدأ من العريش ، ويتجه الى القلزم (السويس) ، ثم يسير بحذاء شاطىء النيل الشرقى الى الجنوب حتى منطقة الجنادل • وأشار السيوطى الى أخبار هذا السور قائلا : ان الملكة بنت « جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع والقرى ، وجعلت دونه خليجا فى الماء ، وأقامت القناطر والترع، وجعلت فيه محارس ومسالح ، على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة ،

وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت فى كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس . فاذا أتاهم أحد يخاوفونه ضرب بعضهم الى بعض بالأجراس ، فأتاهم الخبر من أى وجهة كان فى ساعة واحدة ، فنظروا فى ذلك ، فمنعت بذلك مصر ممن أرادها » .

وانتقل السيوطى بعد ذلك الى الحديث عن الأثار الأخرى من المقابر والمعابد والهياكل ، وهى التى نعتها جميعا باسم « البرابى » . وأشار الى أن بعضها خصص للعبادة ، والبعض الآخر لحماية البلاد ونقل السيوطى عن المؤرخ ابن عبد الحكم قوله أن أحدا لم يستطع تعليل وجود هذه البرابى ، وهى من أعظم الآثار التى استرعت نظر العرب ، فقال :

« ولم أجد عند أهل المعرفة من أهل مصر فى الأهرام خبرا يثبت ، وفى ذلك يقول الشاعر .

حسرت عقول أولى النهى الأهرام   واستصغرت لعظيمها الأحلام
ملس منمقة البناء شواهق   قصرت لغال دونهن سهام
لم أدر حين كبا التفكر دونها   واستوهمت لعجيبها الأوهام
أقبور أملاك الأعاجم هن أم   طلسم رمل كن أم أعلام

بناء الجيل العربى فى مصر الاسلامية :

انتقل السيوطى انتقالا موفقا من رؤيته لتاريخ مصر القديمة الى رؤية تاريخها فى ظل العروبة والاسلام . اذ جعل همزة الوصل بين هاتين المرحلتين حدثين عظيمين ، كشف كل منهما عن ادراك العرب لأهمية مصر ، وخبرتهم الواسعة بشئونها أيضا . أما الحدث الأول فهو مجىء عمرو بن العاص الى مصر قبل ظهور الاسلام والحدث

الثانى أن الرسول الكريم اختار مصر لتكون على رأس قائمة البلاد التى بعث الى حكامها بكتبه ، يدعوهم فيها الى الاسلام .

واعتمد السيوطى فى سرد وقائع الحدث الأول على القصص التاريخى ، الذى شاع فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى ، والذى خلد ذكرى العلاقات التجارية القديمة التى قامت بين مصر وبلاد العرب قبل الاسلام . ولكن هذا المؤرخ خطى فى عرضه لأحداث مجىء عمرو ابن العاص الى مصر خطوة هامة ، مزج فيها بين الحقائق التاريخية السليمة ، وخيال القصاص ، الذى يستهدف جذب انتباه الناس بأية صورة من الصور . أما عن الحقائق التاريخية فأثبتها السيوطى حين ذكر أن عمرو بن العاص حضر الى فلسطين ومعه نفر من اصدقائه للمتاجرة بها . والمعروف أن فلسطين أو جنوب الشام كان منتهى طريق رحلة الصيف ، التى دأبت قوافل مكة على القيام بها مرة كل سنة للمتاجرة ، وحمل سلع الشرق الى الغرب .

وفى الوقت نفسه كان تجار مصر يلتقون بتجار العرب فى أرض فلسطين ، فضلا عن أن شخصيات كثيرة من المصريين ذهبت الى تلك البلاد قبل الاسلام لزيارة أماكنها المقدسة . وهنا تفتقت موهبة السيوطى فى ميدان القصص ، اذ روى عن بن الحكم مقابلة أحد كبار المصريين لعمرو بن العاص ، ونسج حولها مجىء عمرو الى مصر . اذ حدث أن ضل هذا المصرى الطريق وهو فى زيارته لفلسطين ، والتقى بعمرو مصادفة وهو يرعى ابله ، ترويحا لها من عناء السفر . فسقى عمرو هذا المصرى ، كما أنقذه من حية كانت تريد لثغه وهو نائم بعد الاجهاد الشاق الذى لقيه من التجول والتخبط فى الطرقات .

وتتجلى براعة هذه القصة حين أظهرت فضل عمرو بن العاص على المصرى متين ، مما دعا الأخير الى أن يطلب من عمرو الحضور معه الى مصر ليجزيه على ما قدمه له من خير ، ومبينا له أنه سوف يشاهد

بلدا خصبا وافر الثراء • وهكذا نجح السيوطى فى جذب انتباه قارىء قصة مجىء عمرو الى مصر ، حيث انتقل بعد ذلك فى سهولة ويسر الى بيان مشاهدات عمرو فى مصر ، وكيف أنه وقف فى أثناء هذه الزيارة على معالم مصر وطرقتها ، كما عرف الكثير عن أحوالها وأخبارها ، وهى أمور استهدف السيوطى بطريق غير مباشر ، أن يكشف بها عن أهلية عمرو بن العاص فيما بعد لقيادة الجيوش العربية الاسلامية التى فتحت مصر •

وبلغت تلك القصة أوجها فى حسن السرد حين نسب الى عمرو ابن العاص وهو فى زيارته لمصر حادثة أخرى ، أشبه بالتنبؤات التى نرشح المرء لعظيم الأمور ، وجليل الأعمال • اذ حدث أن شاهد عمرو بالاسكندرية حفلا لأبناء علية القوم يلعبون فيه بكرة يتقاذفونها فيما بينهم ، بحيث اذا وقعت هذه الكرة فى حجر أحدهم استبشر بأنه سيكون حاكم مصر ومن أصحاب السلطة العليا فيها • وبينما هم فى حلبة اللعب قذف أحدهم بالكرة ، التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص • وأثار ذلك عجب اللاعبين الذين قالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ، أترى هذا الاعرابى يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبدا • ولكن السيوطى اتخذ من هذا القول نقطة يقف عندها فى سرد قصته ، ليترك القارىء نهبا لحب الاستطلاع ، ويدفعه الشوق الى معرفة نتائج هذه النبوءة ، وهو ما سيكون موضوع تولى عمرو بن العاص للجيوش العربية التى توجهت لفتح مصر ، وبدأت رؤية السيوطى للتاريخ المصرى تتخلص رويدا رويدا من الاعتماد على القصص التاريخى الى جمع الأخبار التاريخية السلسة ، وجعلها مدخلا لدراساته القيمة عن فتح العرب لمصر ، وانتشار الاسلام بها فاتخذ من الكتب التى بعث بها الرسول الكريم الى حكام البلاد الكبرى ، ويدعوهم فيها الى الاسلام ، نقطة تحرره من خيال القصاص ، وبداية لانطلاقه فى البحث التاريخى

الخالص • وهنا أثبت السيوطى موهبة تاريخية فريدة ، جعلته حريا بأن يلقب باستاذ مؤرخى مصر الاسلامية • اذ سرد فى ايجاز كتب الرسول الكريم الى سائر حكام البلاد الكبرى مثل فارس ودولة الروم ، على حين خص كتابه الكريم الى المقوقس فى مصر بالتفصيل ، وشرح الظروف والملابسات التى أحاطت بوصول مبعوث النبى الكريم مصر •

وتجلى فى عرض السيوطى لموضوع كتاب الرسول الى المقوقس قدرته على سرد الوقائع التى تعلى من شأن وطنه ، وتظهر مفاخره فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه فى صدر الاسلام ، اذ أشار الى الهدية التى بعث بها المقوقس الى الرسول الكريم ، وكيف أنها اشتملت فيما اشتملت عليه على عسل من انتاج بنها ، وثياب مما اشتهرت بها مصر ، والتى عرفت باسم «القباطى» • اذ امتدح الرسول الكريم عسل بنها ، كما أبدى رغبته لصحبه ، أن يكفن بعد موته فى « ثياب مصر » التى ظل يحتفظ بها •

ثم أكد السيوطى فى دراساته الموضوع السالف الذكر ، حقيقة أخرى هامة ، وهى زواج الرسول الكريم من مارية ، وهى احدى بنات مصر ، من قرية حفن ، كانت تابعة لمقاطعة اسمها أنصنا وموقعها الآن مدينة النصلة ، بمركز ملوى فى محافظة أسيوط ، اذ استهدف السيوطى بذكر هذا الزواج بيان قوة الروابط التى أخذت تنمو بين مصر وبلاد العرب فى صدر الاسلام ، وأن العرب حين وفدوا لفتح مصر وجدوا بها أصهارا وأرحاما ، وأنهم امتزجوا بأهلها فى سرعة مدهشة ، كتبت لمصر جيلا جديدا وعهدا جديدا قوامه العروبة والاسلام •

واستعرض السيوطى الفتح الاسلامى لمصر ، متتبعا الزحف الذى قام به عمرو بن العاص من العريش قاصدا فتح مصر كلها ، وذلك فى اسلوب يدعو الى الاعجاب والتقدير • اذ لم يقف هذا المؤرخ عند

مجرد سردالحقائق وانما ألقى عليها أضواء جــاءت وليدة الدراسة المستفيضة والجهد العظيم • فأوضح أن فتح مصر لم يكن الا معارك بين العرب والروم ، وأن المصريين وقفوا منــذ اللحظة الأولى نتيجة نصيحة أسقفهم بنيامين وتعاليمه لهم موقف المرحب بالجيوش العربية، ونظروا اليها نظرة المحرر لهم من ربقة الروم واستعمارهم •

وأجاد السيوطى الربط بين هذا الأسقف وبين أحداث الفتــح العربى لمصر ، وهو الأمر الذى يوضح منهجه العلمى فى معالجة أسباب ترحيب المصريين بالعرب المسلمين • اذ ما كاد الأســقف بنيامين يعلم بدخول عمرو بن العاص أرض مصر ، حتى كتب لأهل البلاد يبشرهم بأن عهد طغيان الروم قد انتهى ، وأن عصرا جديدا من الحرية أخــذ يشرق على البلاد ، ويطلب منهم فى الوقت نفسه باعتبـــاره زعيمهم ورئيسهم الأعلى ، تقديم كل معونة لعمرو بن العاص •

وأشار السيوطى مرة أخــرى الى مساعدات المصريين للجيش العربى بعد استيلائه على حصن بابليون ، وزحفه الى الاسكندرية ، وكانت عاصمة البلاد اذ ذاك • اذ بادر أهالى القرى والمدن التى مر بها الجند العرب الى مدادهم بالمؤن ، وتمهيد الطرق لهم ، واصــلاح الجسور التى خربها الروم فى أثناء تقهقرهم الى الاسكندرية • وكان لهذه المساعدة أثرها فى سرعة زحف عمرو بن العاص ووصــوله الى الاسكندرية دون أن يخشى كمائن الروم أو أية هجمات فجــائية • ذلك أن بعض الفــدائيين الروم حاولوا الخروج من الاســكندرية خلسة ، والانقضــاض على نقط الحراســة العربية ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا خاسرين لأنهم لم يلقوا أية مساعدات من الأهالى ، وأحسوا بالتالى بعجزهم عن انزال الفوضى فى صفوف الجند العرب •

وعمد السيوطى الى مزج الأحداث التاريخية بالمسرح الجغرافى

للبلاد عند وصفه لحصار العرب للاسكندرية . اذا أوضح أن تلك المدينة تمتعت بحصون قوية متصلة الأطراف ، تعلوها المجانيق الهائلة، لصد الهجوم الذى يأتيها من الجانب البرى ، على حين يقف البحر من خلفها حارسا يدفع عنها أى عدوان بحرى . ولما كان الجيش العربى يفتقر اذ ذاك الى السفن البحرية التى تعزز حركاته البرية فان حصاره للاسكندرية طال ، حتى خشى الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون السبب فى ذلك هو ركون الجند العرب الى الدعة ، أو أن حماستهم للقتال قد فترت . وبعث بكتاب الى عمرو بن العاص يظهر فيه دهشته من ابطائه فى فتح الاسكندرية ، وحدد له بنفسه وقتا يبادر فيه بالهجوم على الاسكندرية والعمل على فتحها .

وبرر السيوطى ابطاء الفتح بمنعة الاسكندرية ، ملتمسا الأعذار لعمرو بن العاص ، كما أوضح أن هرقل امبراطور الروم ، أخذ يستعد بنفسه للخروج على رأس امدادات هائلة لنجدة الاسكندرية . غير أن الموت فاجأه ، مما أدى الى اضطراب الأمور فى دولة الروم ، وانهيار الروح المعنوية بين جندها فى الاسكندرية ، واضطرارهم الى قبول الصلح ، وتسليم المدينة الى عمرو بن العاص . وعرض السيوطى تسليم الاسكندرية وتلقى الخليفة عمر بن الخطاب لهذا النبأ فى أسلوب شائق ، يدل على قوته فى الربط بين الأحداث المختلفة ، وتجنيب القارىء التيه وسط الاستطراد أو الاعتماد على سرد الحقائق المجردة .

فذكر السيوطى انتداب عمرو بن العاص لأحد رجاله المخلصين وهو معاوية بن حديج ليزف الى الخليفة فى المدينة بالحجاز بشرى الاستيلاء على الاسكندرية . اذ طلب معاوية من عمرو أن يكتب له رسالة تصف للخليفة ما تم من نصر مؤزر ، ولكن عمرو رفض هذا الطلب ، وقال فى ثقة واعتزاز لمعاوية بن حديج : وما أصنع بالكتابة ،

ألست رجلا عربيا ، تبلغ الرسالة ، وما رأيت وحضرت ؟ » . واستهدف السيوطى من الاستشهاد بهذا القول اظهار قدرة العرب على نقل الروايات فى ثقة وأمانة ، والاشادة بعلو كعبهم فى هذا الميدان من قوة الذاكرة ، وهو الأمر الذى حفظ للتاريخ العربى الكثير من أحداثه وتطوراته .

وقد أوضح هذا الوصف الدقيق الذى أورده السيوطى نقلا عن معاوية بن حديج تلهف الخليفة عمر بن الخطاب على سماع أخبار مصر ، وفرحه العظيم بدخول هذه القاعدة الكبرى فى رحاب العروبة، وأن فى ذلك عزة للعرب ، مصدقا للحديث الشريف ، الذى نقله السيوطى عن ابن عبد الحكم فى ذكر فضائل مصر ، حيث قال الرسول الكريم « انكم سقتدمون على قوم ، جعد رؤوسهم (يعنى أهل مصر) ، فاستوصوا بهم خيرا ، فانهم قوة لكم ، وبلاغ الى عدوكم باذن الله » . وبذلك ترك السيوطى دراسة قيمة عن فتح العرب لمصر ، تشهد له بصفات المؤرخ الكبير ، وتؤكد ما تمتع به هذا العالم الفذ من خصال حميدة ، وقدرات عالية على الدرس والتحصيل .

وبدأت تتسع رؤية السيوطى فى تدوين التاريخ المحض لوطنه ، والكشف عما تحلى به من صفات عالية من حيث النظر الثاقب ، والفطنة المتوقدة ، والصبر الطويل من أجل جمع المعلومات ، ثم عرضها بحيث يستفيد منها أبناء الوطن .

واختار السيوطى ثلاثة مواضيع عالج عن طريقها التاريخ المحلى لمصر ، مستهدفا بالأول منها الكشف عن نواحى الضعف الواجب اتخاذ الحيطة لها ، واعداد العدة لوقايتها وحمايتها ، وبالثانى اظهار مواطن القوة والاشادة بها لتكون حافزا لمواطنيه على التغنى بامجاد الآباء والأجداد ، والسير قدما فى طريقهم للاعلاء من شأن بلادهم .

وبالثالث بيان صلة الجوار بين وطنه وما يحيط به من بلاد ، وذكر ما تتطلبه تلك العلاقات من يقظة وحب للسلام .

وعالج السيوطى الموضوع الأول عقب فراغه من دراسة فتح العرب لمصر . فقد فرضت الملابسات الزمنية نفسها اذ ذاك على وطنه، ورسمت للأهالى والسلطات الحاكمة به طرق التفكير السليم لحماية وضعهم الجديد ، الذى جاء بدخولهم فى دائرة العروبة والاسلام . وجمع السيوطى مادته التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع من ثنايا الأحداث التى دارت رحاها حول محاولات الروم لاسترداد مصر ، والقضاء على سلطان العرب بها . اذ كشف هذا المؤرخ عن حقيقة لا يدرك أهميتها الا كل راغب فى حماية وطنه ، حريص على تدوين تاريخه المحلى بما يبصر المواطنين بالأخطار التى تكمن لهم ، ويرشدهم عن طريق عرض النماذج التى يختارها الى أمثل السبل للنجاة والأمان . وكانت تلك الحقيقة هى أن الروم لم ينسوا مصر وخيراتها على الرغم من الهزائم التى نزلت بهم على يد العرب ، وظلوا يمنون النفس بالعودة الى تلك البلاد ، دون اهتمام بكراهية المصريين لهم كذلك .

وأشار السيوطى الى أن مطامع الروم تمخضت عن حملة قاموا بها على مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م ، وتولى قيادتها رجل يدعى منويل وهو ممن سبق أن حارب العرب فى مصر ، وصار خبيرا بأساليبهم فى القتال . ثم عرض هذا المؤرخ تفاصيل تلك الحملة فى أمانة ونزاهة ، حتى يكشف لمواطنيه عن نواحى الضعف فى وطنهم ، ويحملهم بالتالى على حراستها والدفاع عنها . فأوضح أن الروم نزلوا الاسكندرية على حين غرة من حاميتها ، واستولوا عليها . واتخذوها قاعدة لاسترداد البلاد كلها . وكان السبب فى نجاح خطة الروم هو افتقار العرب الى

الأساطيل اللازمة لحراسة الشواطىء المصرية ، ورد أى عدوان قبل الاقتراب منها .

أما الموضوع الآخر الذى درسه السيوطى لتوضيح جوانب التاريخ المحلى لوطنه فقد أفرده لبيان علاقات مصر بجيرانها فى الجنوب والغرب أى فى السودان ، أو بلاد النوبة كما سماها هو نفسه بذلك الاسم ، وفى أفريقية ، وهى تونس الحالية . وأكد هذا المؤرخ ببحثه الجديد فى ميدان العلاقات الخارجية أهمية موقع وطنه الجغرافى ، وأنه يحتم على السلطات الحاكمة فى مصر أن ترسم سياستها الأفريقية على أساس حماية جيرانها من كل خطر أو عدوان خارجى ، وأن تمد يد المساعدة لهم ، وتعمل على ما يحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم .

وأشار السيوطى الى حقائق هامة فى هذا الميدان العظيم من ميادين علاقة مصر بجيرانها ، وهو أمر لا يتاح الا لمؤرخ وطنى ، عاش فى هذا البلد الأمين ، وكرس جهده لدراسة نظمه ومعاملاته . وأول هذه الحقائق أن مصر حفلت بعدد كبير من أهل النوبة أو السودان حضروا للمتاجرة فيها ، وأنهم نعموا بالشروط نفسها التى عامل بها عمرو بن العاص أهل مصر بعد انتصاره على الروم .

وعلى هذا النحو من الدراسة القيمة تابع السيوطى أبحاثه فى علاقة وطنه بجيرانه فى الغرب ، أى بأهل أفريقية ، وهى تونس الحالية. وأوضح هذا المؤرخ ـ مرة أخرى ـ أن سبب اتجاه السلطات العربية نحو أفريقية ، والاهتمام بشئونها ، هو بقاء الروم أعداء العرب بها ، وأن الأمر يتطلب اذ ذاك حماية الباب الغربى لمصر من خطر أولئك الأعداء ، ريثما تتم العدة لطردهم نهائيا ، وتحرير بلاد المغرب من مفاسدهم . ومن ثم تعتبر دراسة السيوطى لشئون أفريقية امتدادا لبحثه فى تاريخ وطنه ، وتأكيدا منه لقوة الروابط الجغرافية والاجتماعية بين مصر وشمال أفريقية .

وقد ركز السيوطى فى رؤيته للتاريخ المحلى المصرى على حقيقة هامة ظهرت منذ فجر مصر الاسلامية وهى : أن رخاء وطنه يتوقف على أمور ثلاثة : هى ادارة سليمة تعرف حاجات البلاد وأهلها ، ومالية متوازنة تمثل الموارد الثابتة والمصروفات الحقيقية ، ثم رقابة ادارية توجه العاملين الى الطريق القويم . ومن ثم يمثل هذا الموضوع أساسا متينا للباحثين فى تاريخ الاقتصاد المصرى ، يمكن أن يشيدوا عليه دراساتهم فى ثقة واطمئنان . والظاهرة الكبرى التى تبادر القارئ لما كتبه السيوطى عن تلك الادارة المبكرة فى مصر ، هو سيادة الشعور بالطمأنينة عند الناس ، وهو شرط لازم لاقبالهم على العمل والانتاج . ثم أن الجميع شارك فى ادارة وطنه ، وتحمل مسئوليات محددة ، هدفها المحافظة على سلامة بلده وأهله .

وتناول السيوطى هذه الظاهرة الجديدة فى حياة وطنه موضحا أن الادارة العربية اتخذت من المصريين سندا لها ، ووكلت مقاليد الأمور اليهم ، ليديروا شئون بلادهم بما يكفل لها الرخاء والتقدم . وعدا بطريق مصر ، وهو بنيامين ، الذى سبق أن فر من طغيان الروم موضع احترام رجال الادارة العربية ، ويستشيرونه فى مهام الأمور . اذ طلب الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص أن يستشير هذا البطريق فى خير وسيلة لحكم البلاد وتنظيم ماليتها . وأشار بنيامين باتباع ما يلى :

١ ــ أن يستخرج خراج مصر فى آن واحد عند فراغ الناس من الزراعة .

٢ ــ أن يرفع خراجها فى آن واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم .

٣ ــ أن تحفر خلجانها كل عام .

٤ ــ أن تصلح جسورها وتسد ترعها •

٥ ــ ألا يختار عامل ظالم ليلي أمور الناس •

وشرح السيوطى نقلا عن ابن عبد الحكم طريقة اشراك الأهالى فى الادارة قائلا : « آن عمرو بن العاص ترك المصريين على جباية الخراج ، وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية ، وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ، ومازوتها (وهى كلمة تعنى مشايخ القرى) ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور • ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم ، من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها• ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه على عدد الأرض . ثم يقسمون ذلك بين ما يريد الزرع منهم على قدر طاقاتهم ، فان عجز أحد وشكا ضعفا من زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار ، أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك » •

وكشف السيوطى فى دراساته لهذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر الاسلامية عن خاصية فريدة اتسمت بها مصر ، وهى قدرتها على تمصير الوافدين اليها على شتى ألوانهم ، واشباعهم بروح محبتها والولاء لها • واستعرض السيوطى هذه الظاهرة عن شرحه للادارة

التى وضعها عمرو بن العاص لمصر • اذ حرص هذا الوالى على مراعاة مصلحة البلاد ، وذلك على نحو ما تجلى فى المراسـلات التى تبادلها مع الخليفة عمر بن الخطاب بشـأن خراج مصر • ذلك أن الخليفة استرعى نظره أن موارد مصر نقصت فى عهد الادارة العربية عمـا كانت عليه أيام حكم الروم وظن أن السبب فى ذلك سوء تدبير عمرو بن العاص ، ومن معه فى ادارته ، وكتب اليه خطـابا ملأه بالتهديد • غير أن عمرو بن العاص أجاب الخليفة بخطاب يدفع فيه عن نفسـه التهم والشكوك •

وتعتبر المراسلات التى أورد السيوطى نصوصها ، والتى تبادلها كل من الخليفة وعمرو بن العاص مقارنة طريفة بين وجهتين من وجهات نظر الحكم ، وبيان الأسانيد التى اعتمد عليها كل حاكم فى تبرير رأيه وتصرفاته • أما وجهة نظر عمربن الخطاب فشرحها السـيوطى شرحا وافيا ، موضحا فيها اتهام الخليفة لعمرو بن العاص بالابطاء فى ارسال الخراج ، وخلفه فى المواعيد التى حددها لموصول هذا الخراج ، فضلا عن تهديده بالعقاب اذا لم يبادر بعزل عمال السوء الذين التفوا حوله ، وحجبوا الحقيقة عنه • وفى الوقت نفسه أجاد السيوطى فى بيـان دفاع عمرو بن العاص عن نفسه • اذ شرح للخليفة أن سبب تأخـير ارسال الخراج هو انتظار مواعيد فيضان النيل ، وأنه يعلم تماما شئون الادارة فى بلاده ، وليس لعمال السوء مكانة عنده •

وصور السيوطى أيضا فى المراسلات التى تبـادلها الخليفة عمر ابن الخطاب وعمرو بن العاص النظم المالية فى مصر فى فجر تاريخها فى ظل الاسلام ، وقارن بين هذه النظم اذ ذاك وبين ما كانت عليه أيـام الروم ، وأيام الفراعنة أنفسهم كذلك • وكشف هذا المؤرخ بطريق غير مباشر عن معلومات لم يكن من المستطاع معرفتها فى هذه المرحلة من تاريخ مصر ، وترك بالتالى أساسا طيبا للباحثين فى التاريخ المـالى لمصر ، ودراسة التطورات التى تعرضت لها الادارة المالية •

فاهم شيء أظهره السيوطي هو أن الادارة المالية لمصر على عهد الفراعنة كانت تسير فى الاتجاه الصحيح من حيث مراعاة موارد البلاد، وانفاق ما تتطلبه مرافق هذه البلاد من رعاية واصلاح . وانتقل السيوطى من ذلك الى شرح حالة مصر أيام الروم ، وذلك كما صورها عمرو بن العاص للخليفة : وهو الذى ولى شئون البلاد مباشرة بعد زوال حكمهم البغيض . اذ كان هدف الروم ابتزاز موارد البلاد دون العناية بمواقفها وأحوالها ، وهو أمر أوضحت الدراسات الحديثه صدق الروايات التى ذكرها السيوطى بشأنها .

وأخذ السيوطى ـ فى ضوء هذه الرؤية الشاملة لانتقال مصر الى حظيرة الاسلام يستعرض فى تفصيل دقيق بناة الجيل العربى فى مصر، ثم شرح المساهمات التى قدمها هذا الجيل فى دعم أوتار الحضارة العربية الاسلامية وفى الدفاع أيضا عن دار الاسلام . واستهل هذه الدراسة ببيان الامتزاج السلمى الذى بدأ بين العرب الذين فتحوا مصر وبين أهل البلاد ، وهذا الامتزاج الذى بدأ على عهد عمرو بن العاص فى ظل التنظيم الاجتماعى الذى اشتهر فى مصر باسم « نظام الارتباع » . اذ كانت القبائل العربية تخرج بمقتضى هذا النظام من معسكراتها بالفسطاط الى القرى المصرية فى كل ربيع ، حيث يمارس أفرادها الصيد والتدريب .

وتمت عملية الارتباع وفق قواعد محددة ، بعيدة عن الارتجال ، وحسب نظم تنسق مجراها العام دون انحراف أو اضرار . وجاءت الخطوط الرئيسية لنظام الارتباع فى خطب عمرو بن العاص التى دأب على القائها على جنده فى مطلع كل ربيع حين يأتى موعد هذا النظام . ومن ذلك قوله فى احدى تلك الخطب لجنده :

« يامعشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماد وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى .. فحى

لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنـالوا من خـيره ولبنه وخـرافه وصيده » ••

« واستوصـوا بمن جاورتموه من القبط خـيرا ، وايـاى والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم • حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة ••

« واحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم • فاذا يبس العودوسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وانقطع الورد من الشجر فحى على فسطاطكم على بركة الله • ولا يقدمن أحـد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعيـاله على ما أطاق من سعته أو عسرته •

وصار نظام الارتباع وتكراره كل سنة وسيلة لتوسيع الروابط الاجتماعية بين القبائل العربية وبين أهالى البـلاد المحليين اذ كانت السلطات الاسلامية تحدد للقبائل الأماكن التى تتجه اليها كل ربيع ، وغدت الفسطاط أشبه بمركز الدائرة لنظـام الارتباع ، حيث تقضى ثلاثة أو أربعة شهور ثم تعود الى الفسطاط • ولكن لم تلبث بعض القبائل ان اتخذت من مناطق الارتباع أماكن دائمة لها ، حتى غـدت الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا يتكون نتيجة الارتباع واختلاط القبائل العربية مع أهالى البلاد المحليين •

ودعم هذه القاعدة العريضة الجديدة للمجتمع العربى الاسلامى فى مصر ، مجىء كثير من صحابة الرسول الكريم ، الى تلك البلاد ، واسهامهم فى نشر الاسلام والعروبة بين أهاليها • واقتصر السيوطى على تدوين تاريخ أولئك الصحابة الذين وفدوا الى مصر ، وذكر مختارات

من أحاديثهم ، مع بيان المناسبات التى وردت فيهـا تلك الأحاديث • وشرح السيوطى رؤيته لدور أولئك الصحابة فى ضوء السابقين له من المؤرخين المصريين فقال :

« قد ألف الأمام محمد بن الربيع الجيزى فى ذلك كتابا فى مجلد ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا ، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر • وقد الفت فى ذلك تأليفا استوعبت فيه ما ذكره ، وزدت عليه ما فاته من تاريخ ابن عبد الحكم وتاريخ ابن يونس وطبقات ابن سعد وتجريد الذهبى وغيرها ، فزاد فى العدة على ثلاثمائة • وها أنا أسـوق كتابى المذكور برمته ليستفاد ، وهو هذا: در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » •

وحرص السيوطى عند عرضه لأولئك الصحابة ونشاطهم بيـان حبهم لوطنهم الجديد واشارتهم به ، وبيان ما انفردوا به من علم واسع، حتى أن غيرهم من الصحابة فى سائر الأمصار الاسلامية شدوا اليهم الرحال ، للافادة مما لديهم من أحاديث شريفة • وكانت حركة الانتقال الى مصر سببا فى دعم قواعد الحضارة العربية منذ فجر مصر الاسلامية، وتوسيع الدور الذى أسهم به علماء تلك البلاد فى صرح هذه الحضارة والاعلاء من شأنها •

وسار السيوطى على هذا النهج فى رؤيته لتطور الجيل العربى الاسلامى فى مصر ، وتسجيله لقادة هـذا الجيل فى شتى الميادين من الفقهاء والمجتهدين والمؤرخين وكذلك الشعراء والأدباء • وامتـلأت النماذج التى عزز بها دراساته بمحبة هذه الجماعات على اختـلاف ألوانها بوطنهم المصرى ، وحنينهم اليه اذا ما اضطرتهم الظروف الى مفارقته ، وحرصهم على العودة الى وطنه • وتلك الحقيقة التى سجلها السيوطى ما زالت سـمة من سمات المصريين وحنينهم الى الوطن ••

فروى السيوطى عن شاعر اسمه كشاجم ، غادر مصر ولكنه ظـــل يتشوق اليها حتى عاد اليها قائلا :

قد كان شوقى الى مصر يؤرقنى   فالآن عدت وعادت مصر لى دارا

وتابع السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى مبينا الدور الســياسى الذى قام به أبناء الجيل العربى فى مصر الاسلامية من جهاد فى سبيل حماية دار الاسلام . وحرص السيوطى فى هذا العرض التاريخى على الاشــارة بمكانة مصر حين انتقل اليها مقر الخلافة بعد أن دمر المغول بغداد . فقال : « واعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة وعفت منهــا البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء ... وجاء هــذا القول نتيجة هامة أراد الســيوطى أن يؤكد بها زعامة مصر على عبده لدار الاسلام وحضارته ، وصيحة مدوية تستهدف ايقاظ مواطنيه الى هذه الزعامة ، والعمل على دعم أوتارها .

فضائل مصر :

واختتم السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى بالحديث عن فضــائل مصر ، مستهدفا تحديد الأبعاد النهائية لتلك الرؤية وربط أطرافهــا مع بعضها البعض ، حتى تكون تلك الرؤية واضحة المعالم . واتخــذ السيوطى من وصف مصر سبيلا لبيان ما نعمت به من فضائل وحافزا لبث العزة فى نفوس أبنائها ، وذلك حسب منهج التربية الســياسية فى تلك المرحلة الانتقالية من حياة مصر فى القرن التاسع الهجــرى / الخامس عشر الميلادى . وجعــل الســيوطى لهذه المرحلة الأخيرة من رؤيته للتاريخ المصرى عنوانا هو ذكر بقية لطائف مصر » .

وجاءت هذه المرحلة الأخيرة من رؤية السيوطى للتاريخ المصرى حافلة بالأقوال المأثورة التى جاءت على لسان الأنبياء والعلماء والفقهاء

وغيرهم من كبار رجال الفكر ، والتى تشيد كلها بفضـــائل مصر ، وتفوقها على غيرها من بلاد دار الاسلام • فقال السيوطى نقلا عن بعض العلماء « ومصر عند الحكماء العالم الصغير سليل العالم الكبير، لأنه ليس فى بلد غنى غريب الا وفيها مثله وأغرب منه ، وتفضل على البلدان بكثرة عجائبها » •

ووجد السيوطى أمامه مادة دسمة وفريدة تتحدث عن فضـــائل مصر • وأول شىء تناوله السيوطى من تلك الفضـــائل هو الاشـــادة بخصوبة أرض مصر وما تفيض به من خير عميم ، وما تحفل به من صناعات عديدة راقية • فروى السيوطى عن ابن عبد الحكم قـــول عمرو بن العاص فى وصف مصر :
ينظر الى مثلها فى الدنيا فلينظر الى
وتنمو ثمارها » •

واتتقى السيوطى عددا من الأقوال المأثورة ثم عرضـــها بحيث توضح دراساته عن فضـــائل مصر ، اقتصاديا واجتماعيا • فقـــال السيوطى نقلا عن الكندى : « جعل الله مصر متوسطة الدنيا وهى فى الاقليم الثالث والرابع ، فسلمت من حـــر الأول والثانى ومن بـــرد الاقليم الخامس والسادس ، فطاب هواها وضعف حرها وخف بردها• فسلم أهلها من مشاتى الجبال ومصائف عمان وصواعق تهـــامة ، ودماميل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواحين الشام ، وغلا العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وحمى خيبر ، وأمنوا من غارات الترك ••• وشوق الأنهار وقحط الأمطار ، وقد اكتنفهـــا معادن رزقها وقـــرب تصرفها فكثر خصبها ورغد عشها ورخص سعرها • وقال الجاحظ فى مصر : ان أهاها يستغنون عن كل بلد حتى لو حزب بنهم ، بين بلاد الدنيا سور ، كفى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنا » •

وعزز السيوطى هذه الأقوال ببعض الروايات التاريخية • فقال

ان على بن أبى طالب رضى الله عنه بعث محمد بن أبى بكر الصديق الى مصر قال : انى وجهتك الى فردوس الدنيا ... وحين أشـار السيوطى بمنتجات مصر وصناعاتها قال : وبمصر الثياب الصدفية ولأكسية المرعز ، وليس هى فى الدنيا الا بمصر . ويحكى أن معاوية لما كبر كان لا يدفأ ، فاتفقوا أن لا يدفئه الا أكسية تعمل فى مصر من صوفها المرعز العسلى غير مصبوغ . فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحدة » .

وأوضح السيوطى اعتزاز مواطنيه ببلدهم فى أثناء ذكره لمواردها وأحوالها . فقال ان بمصر « من النتاج العجيب من الخيل والبغـال والحمير ما يفوق نتاج أهل الدنيا ... ويحكى أن الوليد عزم على اجراء فكتب الى الأمصار أن يوجه اليه بخيار خيل كل بلد ، فلما اجتمعت عرضت عليه ، فمرت عليه المصرية ، فلما رآها دقيقة العصب لينة المفاصل والاعطاف قال : هذه خيل ما عندها كائل فقال له عمر بن عبد العزيز وأين الخير كله الا لهذه ، فقال له : ما تترك تعصبـك لمصر يا أبا جعفر . فلما أجريت الخيـل جاءت المصرية كلها سابقة ما خالطها غيرها » .

وظهر اعتزاز المصريين بوطنهم وفضائلها أيضا فى كل مناسبة دون خوف أو وجل . فروى السيوطى قائلا : « حكى عن المأمون لما دخل مصر قال : قبح الله فرعون اذ قال : أليس لى ملك مصر ، فلو رأى العراق ، فقال له سعيد بن عفير : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فان الله تعالى قال : « ودمرنا ما كان يصـنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، فما ظنك بشىء دمره الله هذه بقيته . فقال : ما قصرت يا سعيد . ثم قلت : يا أمير المؤمنين لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر ، وجميع الأرض يحتاجون اليها ... وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله الى آخره ما بين أسوان الى رشيد لا ينقطع ... ولقد

كانت المرأة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسـقط فيه من الشجر » .

وخصص السيوطى فى ذكره لفضائل مصر دراسه مستفيضة لنهر النيل باعتباره شريان حياة البلاد ووريدها . وتجلت روح الوطنية عند السيوطى حين جمع الروايات التى سيد بهذا النهر وتوضح اهميته وامجاده . والتى تفضل النيل على غيره من الأنهار فى العالم . وأشار السيوطى فى دراساته عن النيل الى القصص التى رددها مواطنوه عن التقاليد التى ارتبطت بفيضان هذا النهر . واختار هذا المؤرخ قصة عروس النيل التى تروى أن أهل مصر كانوا يلقون بعروس بكر فى النيل عند فيضانه ، وأن عمرو بن العاص أبطل هذه العادة عنـد دخوله مصر .

وبلغت رؤية السيوطى لفضائل مصر روعتهـا فى الدعوات التى بارك فيها الأنبياء والصالحون وطنه العزيز . وغدت بمثابة شـحذ لهمم مواطنيه وسبيلا لرفع روحهم المعنوية وسط التهديدات التى كادت تطبق على بلادهم من جانب الأتراك العثمانيين ومحـاولاتهم لانتزاع زعامة العالم الاسـلامى من مصر . فروى السيوطى عن أبى رهم السماعى قال : لا تزال مصر معافاة من الفتن مدفوعا عن أهلها كـل الأذى ما لم يغلب عليها غيرهم : فاذا كانت كذلك لعبت بهم يمينـا وشمالا . واختتم السيوطى رؤيته لفضـائل مصر وللتاريخ المصرى بالدعاء لسيدنا ابراهيم سجله فى فصل فى أثار أوردها المؤلفون فى أخبار مصر ، أوردها ابن زولاق وغيره عن عبد الله بن عمر قال :

لما خلق الله آدم مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبالهـا وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الأمم من يسلكها من الملوك فلما رأى مصر رأى أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة ورأى جبلا من جبالها مكسوا

نورا لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم فى النيل بالبركة ودعا فى أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات وقال يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسك يدفن فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لا خلتك يا مصر بركة ولا زال بك حفظ ولا زال منك ملك وعزيا أرض فيك الخباء والكنوز ولك البر والثروة سال نهرك عسلا كثر الله زرعك ودر ضرعك وزكا نباتك وعظمت بركتك وخصبت ولا زال فيك الخير ما لم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى وتسخرى فاذا فعلت ذلك عراك شر ثم يعود خيرك • فكان آدم أول من دعا لمصر بالرحمة والخصب والبركة والرأفة •

القسم الثالث

مؤلفات السيوطى

مؤلفات السيوطى

للدكتور عصام الدين عبد الرءوف

أستاذ مساعد التاريخ الاسلامى بكلية الآداب
جامعة أسيوط

مؤلفات السيوطي

تمهيـــد :

قبل أن نتحدث عن مؤلفات السيوطي يجدر بنا أن نشير بايجاز شديد الى حياة هذا الرجل ، لما فى ذلك من علاقة وثيقة بمؤلفاته ــ موضوع بحثنا .

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد جلال الدين الخضيرى الشافعى ولد فى رجب سنة ٨٤٩ هـ / أكتوبر ١٤٤٥ م بالقاهرة ، وينتهى نسبه الى أسرة فارسية ــ كما حدث عن نفســه فى كتابه « طبقات المفسرين » (١) ، و « حسن المحاضرة » (٢) وكانت هذه الأسرة تعيش قبــل قدومها الى مصر فى حى الخضــيرية فى بغداد (٣) ، واستقر بها المقام فى أسيوط ، قبل مولد صاحبنا بعشرة أجيال على الأقل ، وعلى الأرجح فى زمن الأيوبيين ، وأطلقت هــذه الأسرة على الحى الذى عاشت فيه بأسيوط ، الخضيرية .

(١) طبقات المفسرين ص ٢١ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

(٣) الخضيرية : محلة فى بغداد فى الجانب الشرقى مجاورة لمشهد الامام أبى حنيفة والجامع . ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١١٢ .

ظلت أسرة السيوطي في أسيوط جيلا بعد جيل ، وظهر منها رجال كان لهم شأن كبير في المجتمع الأسيوطي ، منهم القاضي والمحتسب والتاجر (١) . أما والد السيوطي فهو كمال الدين أبو بكر ، ولد بأسيوط ، وتولى القضاء فيها ونزح الى القاهرة قبل ميلاد صاحبنا بأربع وعشرين سنة ، انقطع لطلب العلم والتعليم ، وتولى تدريس الفقه في الجامع الشيخوني ، والخطابة في جامع ابن طولون ، وكان بيته بجزيرة الروضة جنوب القاهرة وتوفي سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وذكر ابنه عبد الرحمن مؤلفاته ، ولكنها — فيما يبدو — لم تكن على قدر كبير من الأهمية ، بدليل أن عبد الرحمن لم يوضح أهميتها ، بل اكتفى بذكر أسمائها فقط (٢) .

توفي والد عبد الرحمن ، وشيخنا لا يزال في الخامسة من عمره فكفل الغلام صديق لأبيه من الصوفية ، وشمله بعنايته ورعايته ، وأخلص في تربيته ، وظهرت على السيوطي منذ نعومة أظفاره علامات الفطنة وأمارات الذكاء ، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين ، ثم حفظ متون الفقه والنحو ، وأخذ العلم عن مشايخ وقته ، فلازم العلامة شيخ الاسلام علم الدين البلقيني في الفقه الى أن توفي ، ثم لزم ابنه من بعده ، فلما توفي ابن البلقيني لزم الشيخ المنياوي ، ودرس عليه علوم الدين واللغة ، ويقول في كتابه « حسن المحاضرة » (٣) ، وأما مشايخي في الرواية سماعا واجازة فكثير ، أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه وعددهم نحو مائة وخمسين شيخا ، وسميته « حاطب ليل وجارف سيل » وللسيوطي أيضا معجم صغير يسمى « المنتقى » ومعجم في مروياته يسمى « زاد المسير في الفهرست الصغير » .

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٨٤ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) جـ ١ ص ١٥٦ .

وظل السيوطى يواصل الدراسة حتى تفقه فى علوم عصره (١) وأجيز بتدريس العربية ، وهو فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وأجيز بالتصدى لتدريس الفقه والفتيا وهو فى نحو السابعة والعشرين (٢)

ولقد بلغ عبد الرحمن هذه المنزلة العلمية الرفيعة منذ صغره بفضل نشأته العلمية ، كما أنه من بيت علم ، فبرع فى علوم الدين واللغة والتاريخ ، ولم يكتف بالدراسة فى القاهرة ، بل قام بعدة رحلات فى مدن مصر ، واتصل برجال العلم بها ، وأخذ عنهم فرحل الى الفيوم ودمياط والمحلة الكبرى والاسكندرية ، ثم رحل الى البلاد العربية الى الشام والحجاز واليمن والمغرب ، كما رحل الى الهند ومالى وبلاد التكرور ، وقد تجمعت لديه فى أثناء هذه الرحلات براءات واجازات كثيرة بالتدريس . (٣)

أشتغل السيوطى فى أول الأمر ببذل المشورة فى المسائل الفقهية وتولى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م منصب المشيخة — الذى كان يتولاه أبوه من قبل فى المدرسة الشيخونية — بتوصية من شيخه البلقينى ، ثم تولى مشيخة الصوفية بتربة برقوق — نائب الشام — وتقع بباب القرافة الحالية ، وفى سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٠م انتقل الى مشيخة المدرسة البيبرسية — وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا فى عصره (٤) ولما ولى محمد بن قايتباى السلطنة عزله عنها ، ذلك لأن جمعا من المشايخ الصوفية — الذين كانوا بالمدرسة البيبرسية اعترضوا عليه لأنه أساء معاملتهم ، وحرمهم من بعض الوظائف التى كانوا يشغلونها

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٦٢ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٦ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٩ .

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥٢ .

ومن بعض الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها (١) ، فانعزل عن الناس وزهد فى الدنيا ، وانقطع بسكنه فى الروضه وأقبل على الله تعالى وكان حينئذ يناهز الاربعين ، وألف أكثر مؤلفاته فى عزلته هذه التى استمرت حوالى عشرين عاما حتى توفى (٢) ، ورفض فى خلال هذه الفترة أن يستقبل أحدا من مريديه ، وأغلق نوافذ بيته المطلة على النيل، وكتب فى ذلك رسالة أسماها « تأخير الظلامة الى يوم القيامة » ولما تولى طومانباى السلطنة سنة ١٥٠٠ م خشى السيوطى أن يتعرض لاضطهاده فأختفى حتى توفى هذا السلطان (٣) ومن ثم عاد الى منزله بالروضه ، وقد عرض عليه السلطان الجديد قانصوة الغورى وظيفة المشيخة بمدرسة البيبرسية ، لكنه رفض وآثر العزلة والبعد عن الحياة العامة حتى وفاته سنة ١٥٠٥ م (٤)

اتجاه السيوطى الى التاليف

تدهورت الحياة الثقافية فى العراق وايران بعد ان استولى عليهما المغول واستبدوا بالبلاد ، وهاجر العلماء والأدباء الى مصر والشام ، وكان سلاطين المماليك يتفاخرون باظهار التقوى والورع حتى يغطوا الظلم الذى كانوا يلحقونه بالناس ، فأقاموا الخوانق والرباطات ، وحبسوا عليها المال والضياع قفا على طلبة العلم وترفيها عنهم ، من ذلك خانقاه شيخون ، وغصت المدارس بخزائن الكتب التى تحوى نفائس المصنفات ، ووفد عليها طلاب العلم من كل مكان ، وشجع المماليك العلماء والأدباء على التأليف ، وعلماء هذا العصر لم يقتصروا على التأليف فى فن واحد ، بل ألفوا فى فنون متعددة ، فكان المؤلف

---

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢٦ .

(٢) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى حـ ٢١ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور حـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب حـ ٨ ص ٥٣ .

منهم مؤرخا وفقيها وعالما فى اللغة أو الحديث أو الرياضة وغير ذلك ، ولم يؤخرهم عن طلب العلم ما كان يحيط عصرهم من مؤثرات الظلم او نزاع الامراء والوزراء ، فصدر عنهم الجليل من المصنفات ، حتى أصبح هذا العصر يسمى عصر المجاميع والموسوعات ، وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين النويرى ت ٧٣٣هـ ، وابن فضل الله العمرى ت ٧٤٨هـ ، والسيوطى ت ٩١١هـ ، الذى جاء فى آخر هذا العصر ، وهو صاحب الأخبار الطوال ، وكان أعظمهم همة وأكثرهم نشاطا وانتاجا ، بل لعله أغزر كتاب العربية قاطبة انتاجا .

نشأ السيوطى بين الكتب ، حتى أنه لقب بابن الكتب ، ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات وكان يتردد منذ صغره على المدرسة المحمودية وبها مكتبة كبيرة ، وقد أنشئت هذه المدرسة سنة ٧٩٧ هـ ، وتنسب الى محمود بن على الأستادار ، وقال المقريزى (٢) . كان بها من الكتب الاسلامية من كل فن ، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وقتها ، وقال الحافظ بن حجر ، ان الكتب التى بها كثيرة جدا ومن أنفس الكتب الموجودة بالقاهرة . اشتراها محمود الأستادار ومن أحد العلماء ووقفها ، واشترط أن لا يخرج منها شىء من مدرسته ، وكان بها نحو أربعة آلاف مجلد وفهرسها ابن حجر ، والسيوطى له فيها فهارس تسمى « بذل المجهود فى خزانة محمود » (٣) .

تميز النشاط الذى بدأه السيوطى فى التأليف بالتنوع ، اذ تناول فروع المعرفة بالدراسة والكتابة ، وقد عوضت مصنفاته الكثيرة المسلمين عن الكتب التى فقدوها فى الحروب والاضطرابات ، فاشتملت مؤلفاته على علوم القرآن والفقه والحديث والأدب والتاريخ والمعارف العامة .

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥٣ .
(٢) المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٧ .
(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥٣ .

بلغت مؤلفات السيوطى حين ألف كتاب « حسن المحاضرة » نحوا من ثلاثمائة مؤلف (١) ، ما بين كبير فى مجلد ، وفى كراريس ، وفى اوراق ، وفى صفحات ، بل وفى صفحة واحدة (٢) ، وقد اختلف الكتاب فى احصاء عدد مؤلفات السيوطى ، فيذكر البعض أنها بلغت ستمائة (٣) ، وذكر آخرون أنها تزيد على أربعمائة (٤) ، وقد أحصى له فلو كل ٥٦١ مؤلفا (٥) ، وهذا العدد الكبير — كما ذكرنا — بعضه يقع فى صفحات أو حتى فى صفحة واحدة فى مسألة من المسائل ، أو اجابة عن سؤال ، ويعتبرها السيوطى — على الرغم من ذلك — مؤلفات ، و يضمها الى قائمة مؤلفاته فى كتابه حسن المحاضرة ، ويقول بفخر واعزاز ، وبلغت مؤلفاتى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ، ورجعت عنه (٦) ، ولقد جمع فى كتابه « الحاوى للفتاوى » الذى يقع فى ٩٨٠ صفحة ، ٧٨ مؤلفا منفردا ، وأغلبها فتاوى أو أبحاث منفردة (٧) .

على أن مؤلفات السيوطى اشتملت على كتب قيمة تحوى أجزاء متعددة ، وتقع فى مجلدات كبيرة مثل « الأشباه والنظائر » « والاقتراح فى أصول النحو » و « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ويقع فى أربعة أجزاء و « لباب الألباب » فى ثلاثة أجزاء و « حسن المحاضرة » فى جزأين و « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » و « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٧ .

(٢) العيدروسى : النور الساخر ص ٥٦ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٦٣ .

(٤) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٥) جـ ١ ص ١٥٧ .

(٦) الحاوى فى الفتاوى جـ ١ ص ٩٩ ، ١٤٦ .

والى جانب المصنفات القيمة التيوصفها السيوطى نراه يؤلف فى موضوعات تافهة ربما أراد أن يتسلى بكتابتها ، ويشغل وقته بتناولها، ومن بين هذه الكتب :

ـ الطرثوث فى فوائد البرغوث

ـ بلوغ المآرب فى قتل العقارب

ـ فصل الخطاب فى قتل الكلاب

ـ الوديك فى فضل الديك

ـ ما رواه السادة فى الاتكاء على الوسادة

ـ المصابيح فى صلاة التراويح (١)

وكان السيوطى شديد الغضب ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها فى يوم أو ليلة ليرويها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ، وفى ذلك يقول : وخالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق (٢) .

والسيوطى كان يؤلف الكتاب الواحد ثم يعود الى تقسيمه وتجزئته الى عدة كتب وفى مصنفاته التاريخية يترجم بحسب الطبقات، مما جعله يؤلف ثلاثة عشر كتابا لطبقات مختلفة هم ، الأنبياء ، الصحابة، المفسرون ،الحفاظ ، اللغويون ، النحاة ، الأصوليون الأولياء .. الخ.

وذكر الداودى ـ تلميذ صاحبنا ، أن السيوطى كان فى سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله ويقول : « واقد عاينت الشيخ ، وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا ، وكان مع ذلك ـ يملى الحديث ، ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة » (٣) .

---

(١) كشف الظنون ج ٦ ص ٦٧٧ ـ ٦٨٧ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى ص/ح .

على أن الغالب فى مؤلفات السيوطى تلخيص كتب الآخرين ، والتضارب الواضح بين آرائه وبين ما يكتب انما مرده الى اختلاف آراء المؤلفين الذين يختصر مؤلفاتهم عن آرائه هو ، لأنه كان لا يعنى بفحص آراء هؤلاء المؤلفين ودراستها ، وترجيح الراجح منها (١) .

ولا يقلل — فى اعتقادنا — تلخيصه للكتب السابقة من أهمية جهوده ، اذ حفظ لنا هذا الشيخ الجليل كتبا قيمة لولاه لاندثرت ، وضاعت مثل غيرها من الكتب ، التى فقدت فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى حينما تعرض لغزوات المغول المدمرة ، فجهوده العلمية — بلا شك — أسهمت فى حفظ العلم للخلف ، وتيسير سبل المعرفة عن السلف .

وأهم الكتب التى اختصرها السيوطى ، معجم البلدان لياقوت الحموى والاحكام السلطانية للماوردى « وطبقات الحفاظ » للذهبى و « احياء علوم الدين للغزالى » وطبقات ابن سعد و « أسد الغابة » لابن الأثير و « البداية والنهاية » لابن كثير الدمشقى و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لأبى شامة .

وكان السيوطى أمينا فيما يكتب ، لا ينسب كتب الآخرين الى نفسه ، بل حرص على أن ينسب ما اقتبسه من الكتاب اليهم ، فمثلا فى كتابه « الاقتراح » (٢) يقول : لقد اطلعت على كتاب « الكمال » لابن الأنبارى وقد أخذت من الكتاب الأول اللباب وأدخلته معزوا اليه فى ثنايا هذا الكتاب ، وضممت خلاصة الثانى فى مباحث العلة ولم أنقل من كتبه حرفا الا مقرونا بالعزو اليه ، ليعرف مقام كتابى من كتابه . ويذكر فى « حسن المحاضرة » (٣) المصادر التى اعتمد عليها ،

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ١٠٥٩ .
(٢) مقدمة كتاب الاقتراح .
(٣) مقدمة كتاب بغية الوعاه .

وتبلغ حوالى خمسة وعشرين ويقول : لقد طالعت فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وتاريخ مصر لابن زولاق و « فضائل مصر » لابن عمر الكندى ، والخطط للقضاعى .

وفى كتابه « بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه » يقول أنه اطلع على كتاب « البصريين » لابن سعيد السيرافى ، ثم كتاب « مراتب النحويين » لابن الطيب عبد الواحد اللغوى ، ثم على « طبقات النحاه » لابى بكر محمد بن الحسن الزبيدى (١) وأنه قرأ أكثر من ثلاثمائة كتاب، واعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب ، واعتمد على أكثر من مائة وتسعين مرجعا فى تأليف كتاب « الاتقان » .

ويقول فى كتابه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » : ألف الامام محمد بن ربيع الجيزى فى ذلك كتابا فى مجلد ، ذكر فيه مائة ونيف وأربعين صحابيا ، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر ، وقد ألفت كتابا استوعبت فيه ما ذكره ، وزدت عليه ما فاته من تاريخ ابن عبد الحكم وتاريخ ابن يونس ، وطبقات ابن سعد ، وتجريد الذهنى وغيرها ، فزدت على ما ذكره ثلاثمائة (٢) .

وللسيوطى طريقة فى التأليف فريدة فى بابها ، اذ يقدم فى أول الكتاب منهجه الذى يسير عليه فى الكتاب ، الأمر الذى ينير الطريق للقارىء ونلاحظ أن منهجه فى تعليل المسألة يبرز فيه الأقوال التى جاءت فيها ، والردود التى وردت باسم صاحبها فى كتابه ، مما يدل على عمقه وتثبته ، وحرصه على دراسة الموضوع من كل ناحية ، ولقد نهج على طريقة مثلى فى التأليف ، فكان يقول : قال شيخنا كذا ، وقال آخر فى كتابه كذا ، وقال ثالث وقال رابع . وبذلك يعرض جميع الآراء

---

(١) مقدمة كتاب بغية الوعاه .

(٢) در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ص ٧٢ .

التى قيلت فى المسألة الواحدة ، مما يدل على سعة اطلاعه (١) .

والسيوطى شديد الاعتزاز بمؤلفاته ، فخورا بما بلغه من سعة فى العلم ، بل يبالغ فى ابراز أهمية كتبه ، ويكثر بمدحها ، وهذا يتمشى مع طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه حيث تدهورت الحياة الثقافية وانحطت واشتدت المنافسة بين العلماء .

وقال السيوطى أنه رزق التبحر فى سبعة علوم ، التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، وقال : ان العلوم التى اطلعت عليها لم يقف عليها أحد من مشايخى، فضلا عمن دونهم ، وصنف العلوم على حسب مقدرته على دراساتها ، فقال : ودون هذه العلوم التى اطلعت عليها فى المعرفة ، أصول الفقه والجدل والصرف ودونهما الانشاء والترسل والفرائض ، ودونهما القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما الحساب فأعسر شىء على ، وأبعده عن ذهنى، واذا نظرت فى مسألة أجد فى حلها صعوبة كبيرة ، أو على حد تعبيره « كأنما احاول جبلا أحمله » (٢) .

ويقول عن علم المنطق أنه قرأ منه شيئا ثم ألقى الله كراهته فى قلبه حتى اذا سمع أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه تركه تماما ، ولم يكتف السيوطى بذلك ، بل ألف رسالة فى أسباب تحريم المنطق أسماها « القول المشرق فى تحريم الاشتغال بالمنطق » (٣) وفى ذلك يقول فى كتابه « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ، « وبعد ، فقد كنت قديما فى سنة سبع أو ثمان وستين وثمانمائة ألفت كتابا فى تحريم الاشتغال بفن المنطق سميته « القول المشرق » ضمنته قول أئمة

(١) تدريب الراوى ص/ع — ف .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٥ .

(٣) السيوطى : صون المنطق والكلام جـ ١ .

الاسلام فى ذمة وتحريمه ، وذكرت فيه أن شيخ الاسلام أحد المجتهدين تقى الدين بن تيمية ألف كتابا فى نقض قواعده ، ولم أكن اذ ذاك وقفت عليه ، ومضى على ذلك عشرون سنة ، فلما كان فى هذا العام ، وتحدثت بما أنعم الله على من الوصول الى رتبة الاجتهاد « ذكر ذاكر أن من شروط الاجتهاد فى معرفة فن المنطق ، يعنى وقد فقد هذا الشرط عندى بزعمه ، وما شعر المسكين أنى أحسنه أكثر ممن يدعيه ، ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده ، وما بنيت عليه ، وما يتولد منها معرفة ما وصل اليها شيوخ المناطقة الآن ... فتطلبت كتاب ابن تيمية » فرأيته سماه « نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان » وأحسن فيه القول ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة ، وبيان فساد أصولها ، فلخصته فى تأليف لطيف « جهد القريحة فى تجديد النصيحة » (١) .

واعتقد السيوطى فى نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد ، يتضح من ذلك قوله : وقد كملت عندى آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك ، وكان علماء عصره يرتبون له ألوف الاسئلة فيكتب عنها أجوبته على طريقة الاجتهاد (٢) .

واعتقد فى نفسه أنه مبعوث على رأس المائة التاسعة مجددا للدين ، وذلك طبقا للحديث : ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، واقتدى بالغزالى فى هذا القول الذى أدعى فيه أنه المبعوث على رأس المائة الخامسة ومن حسبهم المسلمون أنهم المجددون فى الاسلام ، الأشعرى والشافعى وعمر بن عبد العزيز

وفكرة السيوطى نشأت وتطورات فى ذهنه من كثرة كتاباته حيث

(١) المصدر السابق جـ ٢ .

(٢) الحاوى جـ ٢ ص ٣٤٨ .

أنه اختار ترجمته لنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة » من بين تراجم المجتهدين ، ودونها بعد ترجمة البلقينى الذى وصفه بأنه المبعوث على رأس المائة الثامنة (١) ، ثم قال وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر وفى كتابه «الرد على من أخلد الى الأرض» و « نظم العقيان » مهد السبيل لنشر دعوته عن نفسه ثم اختمرت الفكرة فى ذهنه ، وجاهر بها فى رسالته « رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة » (٢) قال فيه : انى ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالى لنفسه أنى المبعوث على هذه المائة التاسعة لانفرادى عليها بالتبحر فى أنواع العلوم ، ويقول فى رسالته « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف « جولوا فى الناس جولة ، فانه من ينفخ أشداقه ، ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ، ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم فى صعيد واحد ، ونفخت عليه نفخة صار هباء منثورا (٣) .

ودافع السيوطى عن دعواه فى بعض مؤلفاته فقال فى كتابه « من أخلد الى الأرض » أن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم ، وأعماهم حب العناد وأصمهم فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدوه منكرا بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر » ويقع الكتاب فى أربعة أبواب ، الباب الأول فى ذكر نصوص العلماء على أن الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات، والباب الثانى فى ذكر نصوص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد، وأنه لا يجوز عقلا خلو العصر منه ، والباب الثالث فى ذكر من حث

---

(١) الحاوى ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥ .

على الاجتهـاد وأمر به ، وذم التقليد ونهى عنه (١) ، والباب الرابع فى فرائد الاجتهاد ، ويقول فى رسـالته « تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة » وبعد : فانى رجـل حبب الى العلم والنظر فيه دقيقه وجليله ، والغوص على حقائقه ، والتطلع الى دقائقة ، والفحص عن أصـوله ، وجبلت على ذلك فليس فى منبت شعره الا وهى ممحونة بذلك ، وقـد أوذيت على ذلك أذى كثيرا من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله فى العلماء السالفين (٢) ٠

والحق أن السيوطى أهل للاجتهاد المطلق ، فقد جاء فى كتاب تدريب الراوى أن صاحبنا كملت عنده أدوات الاجتهاد على ما اشترطه الأصوليون ، وأنه كان عالما بآيات الاحكام وأحاديث الاحكام وشروط القياس ومعرفة مواقع الاجماع والخـلاف ، وان كان ذكر فى بعض كتبه أنه قاصر فى معرفتها أيضا ، غير أنه لم يجتهد بالفعل الا اجتهـاد المذهب بالترجيح على مذهب الامام الشافعى (٣) ٠

وكان السيوطى يتمتع بشخصية قوية ، ويتجلى ذلك فى مـدى اعتزازه بمؤلفاته وآرائه التى يبرزها فى كتبه ، ومن صفاته التمسك بما يرى أنه الحق حتى ولو أغضب السلطان ، فقد توجه الى السلطان قايتباى ــ وعلى رأسه الطيلسان ــ الأمر الذى يخالف التقاليد المرعية فى ذلك العصر ، وعوتب على ذلك ، الا أنه أصر على صحة موقفه ، وكتب فى ذلك رسالة أسماها « الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » (٤) ، ورفض بعد ذلك أن يذهب مع العلماء لتهنئة السلطان بالشفاء من مرض ألم به ، محتجا بأن عدم طلوع العلمـاء للملوك سنة ، وألف

---

(١) السيوطى : الرد على من أخلد الى الارض ص ٢ ، ٣ ، ٢٦ ، ٤٢ ،

(٢) الحاوى جـ ٢ ص ٢٦٢ ٠

(٣) تدريب الراوى ص/ص ٠

(٤) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٩ ٠

فى ذلك كتابا أسماه « رواية الأساطين فى عدم المجىء الى السلاطين (١)
وعلى الرغم من ذلك ظل السيوطى محتفظا بوظيفته بالمدرسة البيبرسية
حتى وفاة قايتباى (٢) .

على أنه لم يلبث أن عزل عن هـــذه المدرسة بسبب خلافاته مع الصوفية ، وجدير بالذكر أن نفوذهم ازداد فى عصر المماليك ، وأصبح لهم مكانة كبيرة ، وتودد لهم الأمراء وعامة الشعب ، وظهر منهم طائفة المجاذيب أو الدراويش الذين كانوا أصحاب أفعال عجيبة ليست من الدين فى شىء ، وكان السيوطى ــ كما ذكرنا ــ قد نشأ برعاية أحــد مشايخ الصوفية من أصدقاء أبيه ، وكان من مريدى الصوفية الحقة ، ودافع فى مؤلفاته عن الصوفية «قمع المعارض فى نصره ابن الفارض » و « تنبيه الغبى الى تبرئة ابن عربى » ، كما ألف كثيرا من الرســائل التى يرد فيها على أسئلة الصوفية مثل « هل يكره الجهــر بالذكر » ولكنه قلب عليهم ظهر المجن لما تأكد أنهم منحرفون عن الدين الصحيح، وقطع عطاءهم بالخانقاه البيبرسية لأنهم ــ فى رأيه ــ ضلوا الطريق ، فثارت ثائرتهم عليه ، وكادوا يقتلونه ، وحوكم السيوطى ، وثبت لدى قضاته أن طمعه أفسده ، أو أن استيلاءه على مستحقاة الصــوفية ، جعله غير صالح للبقاء فى المشيخة ، ولذا عزل ، وألف الســـيوطى فى ذلك كتاب « التنفيس فى ترك الفتيا والتدريس » (٣) عبر فيه عن اعتزاله الحياة العامة والانقطاع الى العبادة والتأليف ، وتخليه عن الفتيا التى تصدى لها سبع عشرة سنة خلالها سارت فتاواه مسير الشمس فى النهار ، ورزق القبول من علماء الأمصار ، وذكر شيخنا فى مقــامه « الاستنصار بالواحد القهار » أنه قاسى كثيرا من جراء الفتوى حتى

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور حـ ٢ ص ١١٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٠ .

(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب حـ ٨ ص ٥١ .

ناله بسبب ذلك ما يصلح أن يكون عذرا له ، وأنه لا يفتى أبداً ، ولا يجيب سائلا عن مسألة ، وذكر ذلك أيضا فى « تنوير الحوالك مع شرح الموطأ » وفى « المقامات اللؤلؤية » (١) .

وكان للسيوطى اعتقاد فى علم الباطن وقال أنه بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغل بتحصيل علم الباطن واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد والاخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل وقال السيوطى انه رأى الرسول فى اليقظة والمنام (٢) .

وكتب السيوطى كتبا فى مسائل العالم الآخر من بينها كتاب « شرح الصدور فى شرح حال الموتى فى القبور » واختصره فى كتاب أسماه « بشرى الكئيب بلقاء الحبيب » وللسيوطى أرجوزة فى حساب الميت فى القبر عنوانها «التثبيت عند التبييت» ، وله أيضا كتاب « الدر الحسان فى البعث ونعيم الجنان » .

وثمة ظاهرة واضحة كل الوضوح فى مؤلفات السيوطى ، وهو أنه يبدؤها بالثناء عليها أو يختمها بابراز انفرادها عن غيرها بالأهمية والقيمة العلمية فمثلا يقول السيوطى عن كتاب الاتقان : « وقد من الله على باتمام هذا الكتاب البديع المثال المنيع المنال الفائق بحسن نظمه ... » (٣) ويقول فى آخر شرحه لألفية ابن مالك : « فدونك مؤلفا كأنه سبيكة عسجد أو در منضد ، برز فى ابان الشباب ، وتميز عند الصدور أولى الالباب » ويقول عن حاشيته لكتاب المغنى : « أودعتها من الفوائد والفرائد والغرائب والزوائد ما لورامه غيرى لم يكون له الى ذلك سبيل ، ولا فيه نصيب » (٤) وعن المزهر يقول

(١) تدريب الراوى ص/ك — ل .
(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١ .
(٣) الاتقان ج ، ص ٣٠٧ .
(٤) شرح شواهد المغنى ص ٢ .

« ان هذا المجموع لم يسبقنى اليه سابق ، ولا طرق سبيله طارق .
وقال عنه ايضا : «علم اخترعته لم أسبق اليه ، وهو خمسون نوعا على نمط أنواع علوم الحديث» (١) وفى خاتمة كتاب بغية الوعاه يقول : « وقد من الله تبارك وتعالى باكمال هذا الكتاب ، الطافح بكثرة جمعه على البحر العباب، الجامع من كل شريدة ووريدة العجب العجاب» (٢) ومن قوله فى كتابه : « الرد على من أخلد الى الارض » « وليس على وجه الأرض من مشرقها الى مغربها أعلم بالحديث والعربية منى الا أن يكون الخضر أو القطب أو وليا لله تعالى ... » (٣) ، ويواصل ثناءه على مؤلفاته ، وما تناولها فيه ، فيذكر أنه اخترع علم أصول اللغة ، ولم يسبقه عالم فيه على نهج علم أصول الفقه وعلم الحديث ويقول : وصارت مصنفاتى وعلومى فى سائر الاقطار ووصلت الى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور وامتدت الى البحر المحيط ولا مشاركة لى فى مجموع ما ذكرته (٤) .

ويقول السيوطى فى كتابه « الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير » : « الحمد لله الذى بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها وأقام فى كل عصر من يحوط هذه الملة بتشييد أركانها وتأييد سنتها وتبيينها » .

« هذا كتاب أودعت فيه من الكلم النبوية ألوفا ومن الحكم المصطفوية صنوفا . اقتصرت فيه على الأحاديث الوجيزة أو بالغت فى تحرير التخرج ، فتركت القشر وأخذت اللباب وصنته عما تفرد به وضاع .. ففاق بذلك الكتب المؤلفة فى هذا النوع .. وحوى من

---

(١) كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون جـ ٦ ص ٦٧٦ - ٦٧٨ .

(٢) الوعاه ص ٤٦٠ .

(٣) تدريب الراوى - المقدمة ص/ط .

(٤) السخاوى . الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٦ .

نفائس الصناعة الحديثة مالم يودع قبله فى كتاب (١) • »

كان السيوطى موضع تقدير الكثير من معاصريه ، غير أنه تعرض لحملة شديدة تزعمها السخاوى وبعض تلاميذه ، وتعرضوا لمؤلفاته بالنقد الشديد ، ومن الغريب أن السخاوى كان يقدر صاحبه يوم أن كان يافعا من طبقة تلاميذه حيث قال فى ترجمة والده : « وهو والد الفاضل جلال الدين عبد الرحمن أحد من أكثر التردد على ومدحنى نظما ونثرا ، نفع الله به •• » (٢) كما أثنى عليه فى مناسبات متعددة ولكنه عاد فتحامل عليه فى كتابه الضوء اللامع ، واتهمة بالحمق والسرقة، واستمر حتى آخر أيامه كلما وجد مناسبة تحامل عليه وذمة ، وكان السخاوى كثير التحامل على أقرانه وفى ذلك يقول الشوكانى : السخاوى متحامل على أكابر أقرانه ، ولا يسلم غالبهم منه ، ولا جرم فذلك دأبه فى جميع الفضلاء من أقرانه ويوافق ابن اياس (٣) الشوكانى فى حديثه عن السخاوى اذ يقول: «ان السخاوى ألف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس من تصغير الكبير ، وتحقير الصغير » •

على أن السيوطى لم يتغاض عن حملات السخاوى عليه ، بل سخر منه وتحامل عليه فى مؤلفاته ، بل أفرد مؤلفا للنيل عن السخاوى، أسماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » وجاء فى هذا الكتاب على لسان السيوطى قوله : « نزهت فيها أعراض الناس وهدمت ما بناه فى تاريخه من أساس » •

وقال السيوطى عن صاحبه فى كتاب « مسالك الحنفا » : « وانى بحمد الله قد اجتمع عندى الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية ، فأنا أعرف كيف أتكلم ، وكيف أقول ، وكيف أستدل وكيف

---

(١) السيوطى : الجامع الصغير ص ٢ •

(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٦ •

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٢ •

أرجح ، وما أنت يا أخى ، وفقنى الله واياك ، فلا يصح لك ذلك ، لأنك لا تدرى الفقه ، ولا الأصول ، ولا شيئا من الآلات والكلام فى الحديث والاستدلال العسير الهين ، ولا يحل لك الاقدام على التكلم فيه ... فاقتصر على ما أتاك الله ، وهو أنك اذا سئلت عن حديث تقول : ورد أم لم يرد ، وصححه الحافظ ... ولا يحل لك الافتاء ما سوى هذا القدر وخل ما عدا هذا لأهله (١) .

وألف السيوطى عدة كتب فى الرد على اتهامات السخاوى وانصاره من بينها — كما ذكرنا — كتاب « الكاوى فى تاريخ السخاوى » يضاف الى ذلك كتب ، « الزكى عن جماعة ابن الكركى » و « القول المجمل فى الرد على المهمل » و « الدوران الفلكى » و « الجهر بمنع البروز على شاطىء النهر » ، ومقامة تسمى المقامة على القشاش ، والمقامة اللؤلؤية و « الانتصار بالواحد القهار » . وقال عن السخاوى : « أطلق لسانه وقلمه فى شيوخة » وما ترون فى رجل ألف تاريخا جمع فيه أكابر وأعيان ، ونصب لكل لحومهم خوانا بذكر المساوىء ، وثلب الأعراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وأدمه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير » (٢) .

واتهم السخاوى صاحبه بأنه اختلس مؤلفاته منه حين كان يتردد عليه ، فأخذ عنه — كما يقول — الخصال الموجبة للضلال ، والأسماء النبوية ، والصلاة على النبى.. الخ بل أخذ من مكتبة المدرسة المحمودية وغيرها كثيرا من التصانيف القديمة التى لا عهد لكثير من المعاصرين بها ، وقدم وآخر ونسبها الى نفسه ، وهول فى مقدماتها « مما يتوهم فيه الجاهل شيئا مما لا يوفى ببعضه ، فأخذ من ابن تيمية ومن كتابه فى تحريم المنطق » (٣) .

---

(١) الكاوى فى تاريخ السخاوى .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٢ .
(٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٥ .

على أننا لا نعتقد فى صحة التهمة التى وجهها السخاوى للسيوطى بالاختلاس ذلك أن صاحبنا كان يذكر عادة الكتب التى اعتمد عليها فى مؤلفاته ، والأقوال التى ترددت فى الموضوع الذى يكتب فيه ، ولما اتهم السيوطى بالاختلاس من غيره ، فقد وجهت التهمة نفسها لكثير من المؤلفين الذين سبقوه مثل المقريزى وابى المحاسن من مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى البارزين ، واذا كان السيوطى قد لحص كتب السابقين ، فهذا لا يعتبر اختلاسا ، لأن كتاب ذلك العصر الذى انحطت فيه الثقافة لم يكن عندهم المقدرة على الابتكـــار أو التجديد ، وانما اقتصر جهدهم على اختصار كتب الســـابقين ، ومهما يكن من أمر فلم ينسب السيوطى مادة أخذها من غيره ، وانما حرص على ذكر رواتها، وحفظ لنا بجهده هذا الكثير من الكتب ، ولولاه لضـــاعت ، وكان السيوطى يعيب على الحافظ القسطلانى النقل من البيهقى من غير أن يعزو اليه النقل منه .

وقيل ان السيوطى اختلس من تصـــانيف الحافظ ابن حجر ، ونسخها على غير وجهها وادعاها لنفسه ، ومن ذلك « عين الاصابة » و « النكت البديعيات على الموضوعات » و نشر العبير فى تخريج احاديث الشرح الكبير » و « كشف النقاب عن الالقاب ، » وتحفة النابه فى تلخيص المتشابه » و لباب النقول فى أسباب النزول » وغير ذلك .

والأرجح أن هذه افتراءات على السيوطى لأنه بكفاءته وسعة علمه يستطيع أن يصنف كتبا لا تقل عن هذه الكتب ، وأن استمداده اللاحق من السابق ضرورى ، وهناك فرق بين التأليف والجمع ، وبين السرقة والاختلاس ، وللسيوطى فى ذلك « الفارق بين المؤلف والسارق » (١).

وقد زعم القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ أن جلال الدين السيوطى

---

(١) تدريب الروى ص/ع ، ف .

كان ينتقصه ويسرق من كتبه ، ويستمد منها ، وينسب النقل اليه ، ولكن الشيخ القسطلانى أدرك أن هذا الادعاء باطل وان السيوطى أمين من الناحية العلمية ، وينسب الى غيره ما استمده منه ، فأراد ان يكفر عن خطئه ، وازالة ما فى خاطر شيخنا ، فمشى من القاهرة الى الروضة وكان السيوطى معتزلا عن الناس بها فوصل الى بابه ودقه ، فقيل له من أنت ، فقال أنا القسطلانى جئت اليك حافيا ليطيب خاطرك ، فقال له السيوطى قد طاب ولم يفتح له الباب . (١) .

ومما قاله السيوطى فى نقاده « ومما أنعم الله به على أن أقام لى عدوا يؤذينى ويمزق فى عرضى ليكون لى أسوة بالأنبياء والأولياء.. (٢) وأعلم أنه ما كان كبير فى عصر قط الا كان له عدو ، ومن السفلة أذى الأشراف لم تزل تبتلى بالاطراف ، فكان لآدم عليه السلام ابليس ولنوح حام ولداود جالوط وأحزابه ، وكان لسليمان صخر ولعيسى فى حياته الأولى بختنصر وفى الثانية الدجال ، ولابراهيم النمرود ولموسى فرعون وكان لأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أبو جهل . وكان لابن عمر عدو يعبث به ، كلما مر عليه ، وقد نسب عبد الله الزبير الى الرياء ، والنفاق فى صلاته ، فصبوا على رأسه ماء حميما فسلخ وجهه ورأسه وهو لا يشعر فلما سلم من صلاته قال ما شأنى ، فذكروا له القصة ، فقال حسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان لابن عباس رضى الله عنه ، نافع بن الأروق كان يؤذيه أشد الأذى ، ويقول انه يفسر القرآن من غير علم » (٣) .

وهذه التهم التى وجهت للسيوطى باطلة فى أساسها لأننا رأينا حرصه على ذكر المراجع التى ينقل منها ، واذا كانت مهمته هى تلخيص

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) السيوطى : التحدث بالنعمة ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .

الكتب أو اختصارها ، فهذه كانت طبيعة التأليف فى ذلك العصر ، ولا يدهشنا كثرة مؤلفات السيوطى لان الكثير منها كان فى صفحات أو فى صفحة واحدة ، أو كتاب واحد قسمه الى عدة أجزاء ، وأسمى كل جزء كتابا ، ومما لا شك فيه أن السيوطى كان عنده، الوقت الكافى لتأليف هذا العدد الكبير من الكتب ، فقد انعزل عن النـــاس قرابة عشرين عاما قضاها فى التأليف ، كما أنه بدأ التأليف فى سن مبكر فى السابع عشر من العمر • ونستطيع أن نؤكد أن الســيوطى من كبار المؤلفين فى العربية ، وأنه ذو قدرة كبيرة على التدوين والسرعــة فى التأليف ، بل كان فى ذلك آية اعجاب •

والحق أن السيوطى صاحب فنون وامام فى كثير من العلوم ، وهو أحفظ للمتون واستنباط الاحكام الشرعية من السخاوى وله أيضا الباع الطويل فى العربية والتفسير بالمأثور وجمع المتون ، والاطلاع على كثير من المؤلفـــات التى لم يطلع عليها علمـــاء عصره وانتفع به فى الافتاء والتأليف • (١)

شرع السيوطى فى التأليف بعد عامين من مباشرته التعليم، وباكورة مؤلفاته « شرح البسملة والاستعاذة » (٢) ألفه سنة ٨٩٢ هـ ، ثم واصل التأليف ، وبدأ أول ما بدأ فى الاشتغال بدراسة اللغة والكتابة فيها ، ولقد أوضح ذلك فى مقدمة « الاشـــباه والنظائر » حيث يقول : ان الفنون العربية على اختلاف أنواعها ، هى أول فنونى ، ومبتدأ الاخبار التى كانت فى أحاديث سحرى وشجونى ، طالما سهرت فى تتبع شواردها عيونى ، وأسعى فى تحصيل ما دثر منها سعيا حثيثا الى أن وقفت منها على الجم الغفير ، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتأملا بحيث لم يفتنى

(١) تدريب الراوى ص/ت •
(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٩ •

منها الا النزر اليسـير (١) ، وقال ان هذا الكـلام ينطبق على تأليفه واجتهاده وتحقيقه ، وفى كتابه « الاشباه والنظائر » ما يدل على تفنينه وابتكاره فى تقسيم الفن وترتيب فصوله ، وتسلسل اقسامه اولا بأول الى السابع من الفنون ، فالفن الأول : درس القواعد النحوية ، وسار فى هذه الدراسـة على طريقة الحروف الابجدية ، والفن الثانى : فى الاعراب ، والفن الثالث : فى كـلام العرب والفن الرابع : فى الفروق العلميه ، والخامس : فى الأفراد والغرائب ، والسادس : فى المناظرات والمجالسات والمذكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات ، والفن السابع : فى بعض المسائل العملية الغريبة • ومثل هذا النظام جرى تأليفه فى كتاب « المزهر فى علوم اللغة » ثم كتـاب « الافتراح فى علوم اللغة » الذى يدل على علمه وسبقه على أهل زمانه فى الابداع ، فلقد وضع الأسس الأولى لهذا العلم الذى ضمنته بعض البحوث الشيقة المفيدة . وعنى المستشرقون بها حتى انهم ترجموها الى لغاتهم •

ويعتبر كتابه « المزهر فى علوم اللغة » من روائع كتبه، ويقع فى جزءين ، الأول منها يبحث فى الألفاظ اللغوية وأصـلها وصـحيحها ومتواترها ، والمرسل والمنقطع ، والضعيف والمنكر والردىء ، والثانى فى أوزان الكلام وهو كتاب عظيم الأهمية للباحث اللغوى أو الناظر فى فلسفة اللغة • (٢)

وللسيوطى فى النحو كتاب أوضـح فيه بداية علم النحو يسمى « الأخبار المروية فى سبب وضع العربية » ، كما صنف كتاب « البهجة المرضية » شرح فيه ألفية ابن مالك وله كتاب فى النحو يسمى « الفريدة فى النحو والتصريف والخط » (٣) •

---

(١) أنظر مقدمة الاشباه ، والنظائر •

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٨٢ هـ •

(٣) أنظر دائرة المعارف الاسلامية •

وللسيوطى مؤلفات قيمة فى التفسير ، فجمع الأحاديث التى تتناول تفسير القران الكريم فى كتابه « ترجمان القران فى تفسير المسند » وقد اختصره بابراز المصادر الأدبية بدلا من الاسناد ، وذلك فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ويقع فى ست مجلدات ، وهذا كتاب عظيم النفع حوى علوم القرآن التى اندثرت ، ولولاه لقضى عليها ، وضاعت فائدتها مثل باقى المعارف التى حوتها بطون الكتب ، وفقدت حين غزا المغول بغداد ، وبلغت فصوله ثمانين فصلا ، رتبها بحيث يتضمن كل فصل علما أو علمين (١) ونقحه من الأساطير وعبث الاسرائيليات .

وصنف السيوطى فى التفسير كتاب « مفحمات الاقران فى مبهمات القرآن » تناول فيه بالشرح بعض المسائل التى يجد الناس صعوبة فى فهمها ، وله ايضا كتاب « لباب التفول فى أسباب النزول » وبحث فيه الدوافع والأسباب التى أدت الى نزول سور القرآن سورة سورة ، وكان دور السيوطى فى هذا الكتاب مكملا لشيخه المحلى جلال الدين المتوفى سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩ م ، لذا عرف هذا الكتاب «تفسير الجلالين» وله فى التفسير أيضا كتاب « مجمع البحرين ومطلع البدرين » ، و « التخبير فى علوم التفسير » . (٢)

والسيوطى كان عالما بالحديث وفنونه ، وروى عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث ، وقال لو وجدت أكثر من ذلك لحفظت (٣) .

وللسيوطى كتاب قيم فى الحديث يسمى « تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى » يقول فى مقدمته : « فان علم الحديث رفيع القدر عظيم الفخر شريف الذكر لا يقتنى به الا كل حبر ولا يحرمه الا

---

(١) السيوطى : تدريب الراوى ص ٣ .

(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون جـ ٦ ص ٢٣٤ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى جـ ٣ .

كل غمر ولا تغنى حماسته على ممر الدهور ، وكنت ممن عبر الى لجة قاموسه حيث وقف غيرى بشاطئه (١) •

ولا يصلح الحديث للحان الى غير ذلك من علوم المعانى والبيان التى لبلاغه الكتاب والحديث تبيان ، وقد الفت فى كل ذلك مؤلفات وحررت فيها قواعد ومهمات ، ولم أكن كغيرى ممن يدعى الحديث بغير علم وقصارى أمره كثرة السماع على طلب شيخ أو عجوز غير متلفت الى معرفة ما يحتاج المحدث اليه أن يجوز ولا مكترث بالبحث عما يمنع أو يجوز ثم ظن الانفراد بجمع الكتب والضن بها على طلابها ••• ان سئل عن مسألة فى المصطلح لم يهتد الى جوابها أو عرضت له مسألة فى دينه لم يعرف خطأها من صوابها أو تلفظ بكلمة من الحديث لم يأمن أن يزل فى اعرابها فصار بذلك ضحكه للناظرين وهزأة للساخرين •••• » (٢)

وللسيوطى فى الحديث كتاب « جامع المسانيد ، واختصره فى كتاب الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير » ويقول فيه « هذا كتاب اودعت فيه من الكلم النبوية ألوفا ومن الحكم المصطفوية صنوفا ، اقتصرت فيه على الاحاديث الوجيزة ••• وصنته عما تفرد به وضاع •• » (٣) •

ومن أهم كتب السيوطى « النقاية » وهو موسوعة فى أربعة عشر علما ، يسمى مجموعها « الاصول المهمة فى علوم جمة » تبحث فى التفسير وأصول الدين والتشريع والبديع والبيان والمعانى والخط ، والصرف والنحو والفرائض وأصول الفقه والحديث والتصرف والطب ولها شرح اسمه « اتمام الدرار » •

---

(١) المصدر السابق ص ٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٣ •

(٣) السيوطى • الجامع الصغير ص ٢ •

وعنى السيوطى كذلك بالبديع وله فى ذلك مصنفات منها كتاب « النظم البديع فى مدح الشفيع » وهو بديعية ، وله عليه شرح يسمى « الجمع والتفريق » وله رسالة « فتح الجليل للعبد الذليل » تتضمن ١٢٠ نوعا من أنواع البديع فى آية واحدة من القرآن (١) .

يقول السيوطى : فقد وقع الكلام فى قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

قال قررت فيها بضعة عشر نوعا من الأنواع البديعية ثم وقع التأمل فيها بعد ذلك ففتح الله بزيادة على ذلك حتى جاوزت الاربعين ثم قدحت الفكر ، فلم تزل تستخرج وتنمو الى أن وصلت بحمد الله مائة وعشرين نوعا ، فقد أردت تدوينها فى هذه الكراسة ليستفيد بها من له غرض فى الوقوف على أسرار التنزيل راجيا من الله الهداية الى أقوم سبيل ، ثم فى الآية مما يتعلق بالمعانى الاتيان بالجملة الاسمية فى أربع جمل لدلالتها على الثبوت والاستقرار ، وكذلك بالفعلية فى أربع جمل لان الايمان والكفر والاخراج مما يحدث ويتجدد ... (٢) .

ثم فى الآية من علم الاصول الدين اثبات التوحيد به وحده ونفى كل ما يعبد من دونه ، وفيها أنه لا وساطة بين المؤمن والكافر ولا بين الضلال والهدى خلافا للمعتزله وفيها اثبات الكسب لهم فى آمنوا وكفروا خلافا للجبرية ، وفيها اثبات خلق الافعال له فى يخرجهم خلافا لمن خالف فى ذلك ، وفيها من علم أصول الفقه جواز استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، وفيها من علم الفقه ، أنه لا يرث المسلم الكافر ولا عكسه ، وفيها جواز هجرهم وذمهم ، وفيها من علم النحو بعض القواعد

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون جـ ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) فتح الجليل للعبد الذليل .

الهامه ، وفى الاية من علم السلوك الانقطاع الى الله وحده واتخاذه وليا يعتصم به ويلجأ اليه • (١)

درس السـيوطى علوم البلاغة مثل المعانى والبيـان ونظريات العلماء فيها وآرائهم ازاءها والأسلوب الذى لم يتغير والأمثال التى لم تتجدد حتى فى تشكل شاحب هزيل فابتكر ببراعته كتاب « عقود الجمان فى علم المعانى والبيان » جمع فيه كل الأبواب التى تشتمل عليها هذه العلوم ، واستطاع أن يعالج فى كتبه كثيرا من المسائل شأنه فى ذلك شأن العالم المجدد (٢)

وللسيوطى مؤلفات كثيرة فى التاريخ من بينها « حسن المحاضرة » و « تاريخ الخلفاء » و « الشماريخ فى التاريخ » و « طبقات الحفاظ » و« طبقات اللغويين والنحاة » و « طبقات الفقهاء الشافعية » و « بغية الوعاة » و « تاريخ أسـيوط » و « كوكب الروضـة » وهو تاريخ لجزيرة الروضة ، وأخذ فيه عن المقريزى كثيرا •

وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى ، وكتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو تاريخ عام ، وكتاب العمر ، وهو ذيل على كتاب أبناء العمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى لتاريخ ابن عساكر ، وللسيوطى مؤلف فى جامع عمرو بن العـاص ، ومؤلف فى جامع ابن طولون وله كتاب « الصحيفة بمناقب الامام ابى حنيفة » و «تزيين المماليك بمناقب الامام مالك • (٣)

ويختلف كتاب حسن المحاضرة عن كتاب بغية الوعاه ، ففى الأول سار على تأليف العصور الوسـطى ، أما الثانى فقد ترجم للعلماء على

(١) المصدر السابق •
(٢) الطويحى : زعماء أسيوط ص ١٩ ــ ٢١ •
(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون حـ ٦ ص ٦٧٩ •

طريقته المحببة ، طريقة حروف المعجم وأول ما ابتدأ فى كتابه « حسن المحاضرة » البسمله ثم الحمد ثم ذكر من سبقه من الكتاب عن فتوح مصر مايقرب من ثلاثين كتابا قبل تأليف الكتاب . (١)

ويقع كتاب « حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة » فى جزءين، وهو تاريخ البلاد المصرية والقاهرة حاضرتها مع بعض الفصول الاضافية فى النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والصوفية فى مصر (٢).

أما كتاب تاريخ الخلفاء فتحدث فيه عن الدول التى تعاقبت منذ بدء الخليقة ، وأبرز فيه سير الخلفاء وأعمالهم فى ايجاز . على أن كتاب الشماريخ فى علم التاريخ رسالة صغيرة فى أصل اتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ التاريخ الاسلامى ، واجماعهم على اعتبارهم المحرم أول الشهور مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية ، وأشهر كتب السيوطى التاريخية فى التراجم والطبقات ، كتاب «نظم العقبان فى أعيان الأعيان » و « بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه » (٣) .

ويبرز الاستاذ فيليب حتى اهمية كتاب نظم العقيان الذى نشره ، ويقول أهمية الكتاب فى أنه جمع لنا مائتى سيرة من كبار أعيان العالم الاسلامى من رجال ونساء عاشوا حوالى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادى) فى مصر وسورية والحجاز والعراق والأندلس من سلاطين عثمانيين ومغول وغيرهم وقضاة ومقرئين ومحدثين وشعراء وفلكيين ورجال السياسة ومما يجعل لهذه التراجم أهمية خاصة أن أكثرهم ممن عاصرهم السيوطى بنفسه والطريقة التى سار عليها المؤلف فى وضع التراجم أنه ذكر بعد اسم المترجم ولقبه وكنيته سنة ميلاده واسماء شيوخه ومصنفاته وسنة وفاته . وكان بعض المترجمين لم يزل

---

(١) انظر الكتاب .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٧ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ص٦٤ .

حيا عند تصنيف الكتاب .. ومما يزيد فى أهمية الكتاب أن بعض المترجمين لا نجد أثرا لسيرهم فى غير هذا المصدر وفضلا عن ذلك فان هذا الكتاب مرآة تتجلى فيها الأحوال الاجتماعية والأدبية فى آواخر عصر المماليك الذى كان عصر جمود عقلى وسياسى (١) .

انتشرت مؤلفات السيوطى فى سائر انحاء العالم الاسلامى، وأقبل الطلاب والدارسون على دراستها ، وقد أذن السيوطى لتلميذه الداودى برواية مؤلفاته ، واشتهرت مصنفاته فى الحجاز والشام واليمن والهند والتكرور ، وبعض كتبه مفقود ، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا ، وكثير من مصنفاته طبع ونشر فى كثير من البلدان الاسلامية ، وقد شغلت مؤلفات شيخنا السيوطى فراغا كبيرا فى المكتبة الاسلامية خصوصا فى العصر الذى أعقب وفاته — أقصد العصر العثمانى — حيث انحط التأليف أو انعدم ، وفى جامعاتنا الآن يتناول طلاب الدراسات الدينية واللغوية بصفة خاصة مؤلفات السيوطى بالبحث والدرس .

وصفوة القول أن السيوطى عالم كبير ، وهب حياته للعلم والتأليف بشغف منقطع النظير ، ولم يبغ من وراء ذلك مغنما ولا نفعا، وانما أراد أن يشبع رغبة ملحة فى نفسه أفنى فيها عمره الا وهى الدراسة والبحث. وكان السيوطى متعففا طوال حياته عن اموال وهبات الأمراء ، وكانوا يأتون لزيارته ، ويعرضون عليه أعطياتهم ، فيردها (٢) ، وأرسل اليه السلطان الغورى مرة خصيا وألف دينار ، فرد الدنانير ، وأخذ الخصى وأعتقه وقال لرسول السلطان : لاتعد تأتينا قط بهدية ، فان الله أغنانا عن مثل ذلك (٣) .

توفى السيوطى سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م بعد مرض استمر سبعة

---

(١) مقدمة كتاب نظم العقيان .
(٢) المزهر ص ٦٦٣ .
(٣) تدريب الراوى ص/ث/خ .

أيام ، وكان فى حوالى الثانية والستين من العمر ، ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة ، وذلك زمن السلطان الغورى ، وكان زمانه زمان جور وظلم ، ولكن الغورى لم يتعرض لتركته ، وقال : لم يقبل الشيخ منا شيئا فى حياته ، فلا نتعرض لتركته (١) .

عرف الناس فضل السيوطى ، فكان يقصد ضريحه العلماء والأمراء من سائر الأقطار العربية للتبرك به ، وكان الناس يقيمون حضرة له كل اسبوع ، ثم اقتصر على مولد له فى شعبان فى مدينة أسيوط ، علما بأنه مدفون فى مصر ، وليس للسيوطى جلال الدين صلة بهذا الضريح الذى فى المسجد المسمى بمسجد سيدى جلال الكائن بأسيوط ولكن هذا الضريح لأحد أجداده ، وقد ذكر السيوطى ذلك فى كتابه « حسن المحاضرة » فى ترجمته لنفسه ، وقال : ان احد اجداده بناه بأسيوط ، ووقف عليه أوقافا ، فيكون الضريح الذى فى هذا المسجد هو لصاحبه الذى بناه أو لأحد ذريته ، ثم بمرور الزمن نسب الى السيوطى نفسه لشهرته (٢) . ومما يجدر ذكره أن بأسيوط الآن أسرة كبيرة تسمى الجلاليين ومقرهم حى الخضيرية وغيره من انحاء أسيوط ، ويعرف كل فرد منهم بالجلالى .

---

(١) تدريب الراوى ص/ث/غ .

(٢) رسالة تيمور فى قبر السيوطى ص ٢٥ .

دراسة نقدية لكتاب

"حسن المحاضرة" للسيوطي

للأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

استاذة التاريخ الاسلامى ورئيسة قسم التاريخ
بجامعة عين شمس

ولد المؤرخ والعالم والامام أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن محمد السيوطى الشافعى فى سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) فى القاهرة فى عصر المماليك ، وظهر نبوغه فى الدرس والتحصيل منذ طفولته . وقد ترجم السيوطى لنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة » (١) واعتبر نفسه من الأئمـة المجتهدين ، وذكر انه ترجم لنفسه اقتداء بالمحدثين قبله « فقل أن ألف أحد منهم تاريخا الا وذكر ترجمته فيه ، وممن وقع له ذلك الامام عبد الغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموى فى معجم الادباء ، ولسان الدين ابن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، والحافظ تقى الدين الفارسى فى تاريخ مكة ، والحافظ ابو الفضل ابن حجر فى قضاة مصر ، وابو شامة فى الروضتين » (٢) وفى اعتقادنا أن كتاب حسن المحاضرة للسيوطى كان من آخر الكتب التى ألفها وصنفها السيوطى ، اذ انه أورد فى ترجمته فى هذا الكتاب أسماء مصنفاته فى مختلف العلوم والفنون ، والمعروفة لدينا الآن سواء أكانت مطبوعة أو مخطوطة ، أو تلك التى لم نعثر عليها بعد . ويؤكد قولنا

(١) السيوطى . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ ـ ١٦١ .
(مطبعة الموساعات ـ القاهرة ١٣٢١ هـ) .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ .

هدا أنه هو نفسه يقول فى ترجمته .. «وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب وذهب أطيب العمر . » (١) ولهذا نرجح أن تصـنيف كتاب حسـن المحاضرة كان فى أواخر القرن التاسع الهجرى أو فى مطلع القرن العاشر الهجرى « اواخر القرن الخامس عشر الميلادى » أى قبيل وفاة السيوطى بأكثر من عشر سنوات . وظهر فى هذا الكتاب تمنيات السـيوطى بأن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة الذى يجدد للأمة دينها ، فقد ذكر فى ترجمته لشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، الذى توفى سنة ٨٠٥ هـ ، انه مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة ، (٢) وذكر انه سمع « ان الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجدد لها دينها ... ومن اللطـائف ان شرط المبعـوثين على رءوس القـرون مصريون : عمر بن العزيز فى الأولى ، والشافعى فى الثانية ، وابن دقيق العيد فى السابعة ، والبلقينى فى الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر . » (٣) ثم نرى السيوطى يترجم لنفسه بعد ترجمته للبلقينى ، ثم يقول : « وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . » (٤)

والحق أن السيوطى أشار الى مسألة اجتهاده ومبعوثيته اشارات خفيفة فى بعض كتبه ولمح الى ذلك تلميحا صريحا فى كتب أخرى . وحين ترجم لنفسه فى حسن المحاضرة أشار الى تفوقه ونبوغه فى الفقه والتفسير والحديث ، والنحو ، واللغة ، والمعانى والبيان ، والبديع . والتاريخ والأدب والجغرافيا ، الطب ، الفلسفة ، كما وضح بتفصيل قصة حياته العلمية التى بدأت بحفظ القرآن وهو دون ثمان سنين . ووضـح

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٠ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥١ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٧ .

السيوطي ان حياته العلمية الغنية وانتاجه الغزير كان نتيجة لدراسته العلمية المتواصلة ، ودراسته على كثير من شيوخ عصره ، وسفره الى انحاء البلاد المصرية ، والى خارج الديار المصريه ، فسافر الى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور • وقرر السيوطي فى كتابه حسن المحاضرة أن مؤلفاته بلغت « الى الان ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » (١) وعد له المستشرق بروكلمان ٤١٥ مصنفا ، أما المستشرق فلوجل فذكر له ٥٦٠ مصنفا • وعلى أية حال فان السيوطي ترجم لنفسه كما ترجم له تلاميذه والمؤرخون المعاصرون له والمتأخرون ، وترجم له المحدثون • ولم يتواضع السيوطي فى الكلام عن مركزه العلمي وما أنتجه من حيث الكم والكيف •

أما مؤلفات السيوطي فى التاريخ فهى قليلة بالنسبة لمؤلفاته فى سائر العلوم الأخرى • ومن هذه المؤلفات التاريخية كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » • ونلاحظ أن معظم مؤلفات السيوطي فى التاريخ وفى سائر العلوم والفنون كانت أبحاثا صغيرة (٢)، كما أن معظم مؤلفاته الكبيرة منها والصغيرة كانت مختصرات لكتب سابقة ، أو شرحا لها ، أو تفسيرا ، أو تكملة ، مثل مختصر معجم البلدان لياقوت ، ومثل مختصر تهذيب الأسماء للنووى ، ومثل تحفة المذاكر فى المنتقى من تاريخ بن عساكر ، ومثل مختصر شفاء العليل فى ذم الصاحب والخليل • ونلاحظ أن السيوطي نشر كتابه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » ضمن كتابه الكبير « حسن المحاضرة » وهذا الكتاب يقع فى ست وثلاثين صفحة من كتاب حسن المحاضرة (٣)• ويقول السيوطي بهذه المناسبة ان الامام محمد بن الربيع

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ •

(٢) أنظر مجموعة مؤلفات السيوطي الصغرى ، بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٨ مجاميع •

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ — ١١٧ •

الجيزى صاحب الامام الشافعى ــ ألف كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة فى مجلد ، فأورد فيه مائة ونيفا وأربعين رجلا ، وأورد فيه أحاديثهم وما رواه أهل مصر ، ويذكر السيوطى أنه فاته جماعة لم يذكرهم ذكر بعضهم ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر ، وذكر بعضهم ابن يونس فى تاريخ مصر . وذكر بعضهم بن سعد فى طبقاته • ولهذا السبب يقول السيوطى : «وقد أردت أن الخص كتاب محمد بن الربيع الجيزى وأضم اليه مافاته مرفوعا عليه صورة كـ وارتبه على حروف المعجم ، وأزيد التراجم فاذكر الاسم والكنية واللقب واسم الأب والجد والنسب والسن والوفاة وما تفرد الصحابى بروايته وقد أوردنا درة أو غريبة أو كرامة ، وسميته در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » • (١)

أما كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » فقد طبع فى جزءين : طبع حجر فى مصر سنة ١٨٦٠ م (١٢٢٧ هـ) ، وطبع فى جزءين ، طبع حروف فى مطبعة الوطن العربى فى القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) ، ومطبعة الموسوعات فى مصر سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)، وفى مطبعة السعادة فى مصر سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) • كذلك طبع من كتاب حسن المحاضرة جزء صغير مع ترجمة لاتينية فى خمسين صفحة فى أوبسالا سنة ١٨٣٤ م باعتناء ترنبرج • أما الطبعة التى اعتمدنا عليها فى دراستنا النقدية لكتاب حسن المحاضرة فهى طبعة مطبعة الموسوعات فى مصر سنة ١٣٢١ هـ • وقد ذكر السيوطى أنه طالع كتبا شتى ليخرج كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ؛ وعدد هذه الكتب ثلاثين كتابا مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم . وفضائل مصر للكندى، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعى ، والخطط للمقريزى ، وتاريخ الاسلام للذهبى •

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ •

والحق أن القارىء لكتاب حسن المحاضرة يتبين له سعة اطلاع السيوطى ودقته وتحمسه لكتابة تاريخ مصر طوال العصور التاريخية • ومما يزيد فى قيمة هذا الكتاب أن بعض مصادره لم تصل الينا الا عن طريق كتاب آخرين مثل خطط القضاعى وبعضها لم يصل الينا — فيما نعلم للآن — مثل سجع الهديل فى أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشى ، والسكردان لابن أبى حجلة (١) • كذلك يشير السيوطى الى مؤلفات لم تصل الينا ولم نسمع بها الا منه ، فهو حين يحدثنا عن تقى الدين السبكى والد تاج الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية ، والمتوفى سنة ٧٥٦ هـ يذكر كثيرا من مؤلفاته التى لم تصلنا للآن فى أحكام التشريع الاسلامى والتى ترفعه الى رتبة الاجتهاد ، بل ان بعض هذه المصنفات تتعلق بأحكام أهل الذمة مثل « كشف الدسائس فى هدم الكنائس » ، « وكشف الغمة فى ميراث أهل الذمة » (٢) • والحق أننا لا نكاد نقرأ رواية من روايات كتاب «حسن المحاضرة » دون أن يسندها السيوطى الى صاحبها على طريقة الاسناد فى الحديث ، أو دون أن يرجعها الى المصدر أو المؤلف الذى استقى منه •

وكتاب « حسن المحاضرة » فى نظرنا هو دائرة معارف لمصر الاسلامية اتبع السيوطى فى تأليفه المنهج العلمى المعروف فى كتابة التاريخ فى العصر الاسلامى ، فقد نقل كثيرا عن مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه ، وكان النقل مألوفا فى العصور الوسطى ، وربما دعا الى ذلك قلة النسخ التى كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشارا كافيا بسبب غلاء الورق وعدم اختراع الطباعة • كذلك كان المؤرخون يميلون الى ذكر الأساطير العجيبة والخرافات والأشياء الخارقة للعادة ، كما كانوا يبالغون فى الاحصاءات المختلفة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ •
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥ — ١٤٦ •

وكانت هذه المبالغات ظاهرة بوجه خاص حين يتحدثون عن عصور ما قبل الاسلام .

ولا يترك السيوطى الحكم والرأى لقارىء كتابه حسن المحاضرة، وانما يذكر على عادة بعض مؤرخى مصر الاسلامية ، وغيرهم من مؤرخى العصور الوسطى عامة ، سبب تأليف هذا الكتاب فيقول : « هذا كتاب سميته حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة أوردت فيه فوائد سنية ، وغوائب مستعذبه مرضية ، تصلح لمسامرة الجليس ، وتكون للوحيد نعم الانيس ... » (١)

والحق آن القارىء لكتاب حسن المحاضرة لا يمل قراءته لتنوع فصوله ولأن المؤلف يعمد فى كثير من الأحيان الى الاختصار المفيد . ونلاحظ آن السيوطى يلتزم بالعناوين التى يوردها ولا يستطرد كثيرا على العكس من معظم المؤرخين فى ديار الاسلام . الذين كانوا لا يتقيدون بالعناوين التى يضعونها وانما يخرجون عن الموضوعات الرئيسية الى موضوعات جانبية كثيرة حتى ان الاستطراد يكاد يكون سمة من سمات التأليف فى العصور الوسطى ، أما أسلوب السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة ، فهو أسلوب سهل ممتع ، وينعكس فى هذا الكتاب دراسة السيوطى وتبحره فى علوم اللغة فهو يهتم بالنحو وبالأسلوب وباللغة ، كما أنه يورد الأشعار التى قيلت فى مناسبات المدح أو الثناء أو الرثاء . ووضح لنا أن السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة اهتم باظهار أهمية مصر منذ العصور القديمة فيشير الى ما ذكر فى فضائل مصر فى القرآن الكريم ، (وأن مصر وردت فى القرآن الكريم بوصفها « ربوة ذات قرار ومعين » (٢)) وأشير اليها أيضا فى القرآن الكريم بكلمة «الأرض» ، بل ان مصر سميت « الأرض »

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم (١) • وذكر السيوطى أن «المدينة» فى بعض الآيات القرآنية يراد بها « منف » عاصمة مصر القديمة مثل قوله تعالى : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) (٢) •

كذلك حاول السيوطى جمع الأحاديث النبوية الشريفة التى ورد فيها ذكر مصر ، وأتى بالأحاديث التى أثرت عن النبى عليه الصلاة والسلام فى التوصية بقبط مصر خيرا ، ومن هذه الأحاديث حديث الرسول الكريم لقومه : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة » (٣) •

ثم يوضح السيوطى مسألة المصاهرة بين القبط والعرب فيقول : «صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاث : ابراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر ، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية » (٤) •

وأورد السيوطى ما روى عن الصحابة والتابعين فى فضائل مصر وفى خيراتها وفى أهمية موقعها الجغرافى والحربى وفى كرم أهلها وسماحتهم ، وممن روى عنهم فى هذا الشأن ابو بكر الصديق الخليفة الأول فى الاسلام ، وعمر بن الخطاب الخليفة الثانى فى الاسلام ، وعبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية عقب الفتح العربى لها ، وعبد الله بن لهيعة فقية مصر ومحدثها فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) (٥) •

وقد اهتم السيوطى اهتماما كبيرا بابراز أهمية تاريخ مصر

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣ •
(٢) أنظر : السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ •
(٣) فيما يختص بالأحاديث النبوية التى ورد فيها ذكر مصر ، أنظر : السيوطى :
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ •
(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥ ـ ١٠ •

الفرعونى خاصة وتاريخها القديم عامة فحدثنا عن أهرام الجيزة ودهشور وميدوم ، وعن كنوز الفراعنة ، وأورد مختلف القصص الخاصة باعجاب المسلمين بعظمة آثار الفراعنة ومحاولة بعض أولى الأمر فى مصر الاسلامية فتح الاهرام أو استخدام حجارة منها • كذلك أورد السيوطى ما قيل من أشعار فى الاهرام والآثار القديمة (١) •

كذلك يطيل السيوطى الكلام عن الاسكندرية وآثارها ومنها المنارة التى حظيت بعناية السلطان الظاهر بيبرس ، وعمود السوارى، والمسلتان ، والملعب الذى قيل ان عمرو بن العاص دخله حين أتى الى مصر للتجارة فى زمن الجاهلية (٢) • وقد أتى السيوطى بالقصة التى أوردها بن عبد الحكم ، وهى أن عمرو بن العاص — بطل فتح مصر — زار الاسكندرية فى الجاهلية وأعجب بعظمة المدينة وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ، تسترسل القصة التاريخية فتقول انه وافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا عظيما يجتمع فيه الملوك والعظماء ويترامون بكرة من الذهب يلتقونها بأكمامهم وكانوا يعتقدون أنه اذا استقرت الكرة فى كم أحد لم يمت حتى يملك مصر ، وتذكر القصة أنه حين جلس عمرو فى ذلك المجلس رمى رجل منهم بالكرة فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو بن العاص فعجب القوم وقالوا ان الكرة لم تكذبهم الا هذه المرة وقالوا : « أترى هذا الاعرابى يملكنا ، هذا ما لا يكون كذلك يقول السيوطى عن الاسكندرية «فانها مدينة على مدينة على مدينة ثلاث طبقات ••• » (٣) •

والحق ان ما أورده السيوطى عن تاريخ مصر القديم وآثارها

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣١ — ٤٠ •

(٢) السيوطى : حسن المحاضره ج ١ ص ٣٢ — ٤٥ •

(٣) السيوطى : حسن المحاضره ج ١ ص ٤٥ — ٤٧ . وابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٠ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٤ م) •

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢ •

يستحق دراسة علماء الآثار والمصريات ، ومطـابقة التاريخ المـذكور بالبحوث الأثرية والتاريخية العلمية الحديثة .

أما بخصـوص مدينه الاسكندرية فى العصر الاسـلامى فان السيوطى كان له فضل كبير فى ابراز أهمية مدرسة الاسكندرية الدينية منذ فجر الاسـلام فى مصر . والمعروف أن الاسكندرية كانت زمن الفتح العربى من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية ، لكن سرعان ما ازدهرت الثقافة العربية الاسلامية فيها ولم يمض على الفتح العربى لمصر قرنان من الزمان (١) . فكانت الاسكندرية منذ القرن الثـانى الهجرى (الثامن الميلادى) مركزا ثقافيا عربيا مشعا ، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية المصريين الذين نشروا مذهب الامام مالك فى مصر . ويذكر المقريزى أن « أول من قدم بعلم مالك الى مصر عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد ابن يحيى مولى جمح ، وكان فقيها روى عنه الليث وابن وهب ورشيد ابن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن ابن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر ، ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » . (٢)

ويبرز السيوطى أهمية مدرسة الاسكندرية الدينية منذ الفتح العربى حتى زمانه وذلك بذكر مشاهير الصحابة والتابعين ، والطبقات التى تليهم ، والائمة المجتهدين ، الذين عاشوا فى الاسكندرية والذين أخذ عنهم العلماء والفقهاء فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم الاسلامى. ونذكر على سبيل المثال وليس الحصر ، علقمة بن يزيد المرادى ثـم الغطيفى الصحابى الذى شهد فتح مصر وولى الاسكندرية زمن معاوية

---

(١) : د. سيدة كاشف : تعريب مجتمع الاسكندرية (ضمن كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور) ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ (مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ م) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) .

ابن أبى سفيان (١) • ومن الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وروى عنهم الأحاديث ، المستورد بن سلامة بن عمرو الفهـرى الذى توفى بالاسكندرية سنة ٤٥ هـ (٢) • ومن مشاهير التابعين فى الاسـكندرية طلحة بن ابى سعيد الاسكندرانى ، أبو عبد الملك المصرى وقد أخـذ عنه الليث بن سعد وابن وهب (٣) •

ومن التابعين الذين رووا الحديث العلاء بن كثير الاسكندرانى مولى قريش توفى بالاسكندرية سنة ١٤٤ هـ (٤) • ومن مشاهير اتباع التابعين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة فى الحديث ضمـام ابن اسماعيل المصرى الذى توفى بالاسـكندرية سـنة ١٨٥ (٥) • والمعروف أن أسرة المؤرخ المصرى ابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم عاشت فى الاسكندرية قبل أن يستقر المقام بها فى مدينة الفسطاط عاصمة مصر • فقد سكن عبد الحكم الاسكندرية وتوفى فيها فى سنة ١٥٤ هـ ، ولد لعبد الحكم ابنه عبد الله والد بن عبد الحـكم المؤرخ • وكان عبد الحكم ـ جد عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ ـ معاصرا للامام مالك ، وتفقه عبد الحكم على مذهب الامـام مالك فى الاسكندرية وتوفى بالاسكندرية سنة ١٧١ هـ (٦) • واشتهر من فقهاء المالكية فى الاسكندرية ، طليب بن كامل اللخمى ، الذى كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالاسكندرية وروى عنه بن القاسم وبن وهب، وتفقه عنه بن القاسم قبل رحلته الى مالك ، ومات طلب فى حياة مالك

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٠٤ •
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٩ •
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٤ •
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥ •
(٥) المرجع السابق ص ١٢٦ •
(٦) انظر : د. سيدة كاشف تعريب مجتمع الاسكندرية ص ٢ •

بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (١) ومن فقهاء المالكية فى الاسكندرية سعيد بن عبد الله بن اسعد المعافرى المصرى ، كان من كبار اصحاب مالك وتوفى بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (٢) • وان كنا بصدد مدرسة الاسكندرية الدينية العلمية فان السيوطى نجح فى اظهار قوة ونشاط الحركة العلمية الدينية فى مصر بصفة عامة وذلك منذ دخولها فى الفلك العربى الاسلامى وطوال العصور الاسلامية • واهتم السيوطى بابراز تفوق المصريين فى الدراسات الفقهية وفى العلوم الدينية وكيف كان المصريون اساتذة لعلماء المشرق والمغرب • وذكر السيوطى مشاهير اتباع التابعين المصريين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة •

واستغرق الكلام على علماء مصر وفقهائها جزءا كبيرا من كتاب حسن المحاضرة فجاءت تراجمهم فى كتابه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » والذى اشتمل على ست وثلاثين صفحة من كتاب حسن المحاضرة كما ذكرنا سابقا (٣) • ثم كتب السيوطى فصلا أسماه « ذكر من كان بمصر من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث » وذلك فى سبع صفحات (٤) • ثم ذكر « طبقة أخرى أصغر من التى قبلها » فى ثلاث صفحات (٥) • وبعد ذلك ذكر « مشاهير اتباع التابعين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة من أهل مصر » فى صفحتين (٦) ثم ذكر الطبقات التى تلى هذه الطبقة فى أربع صفحات (٧) • وبعد ذلك ذكر السيوطى « من كان بمصر من الأئمة المجتهدين » فى ثلاثين صفحة تضمنت ترجمة حياته باعتباره من الأئمة المجتهدين (٨) • ثم ذكر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٥ •
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٠ •
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ ـ ١١٧ •
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧ ـ ١٢٣ •
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٦ •
(٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٨ •
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٣٢ •
(٨) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٦١ •

السيوطى من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ، ومن كان بها من المحدثين المفردين بعلو الاسناد ، وذلك فى خمس وعشرين صفحة (١) • وأردف السيوطى ذلك بذكر من كان بمصر من الفقهاء الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، وأئمة الفقهاء الحنابلة وذلك فى ست وأربعين صفحة (٢) • ثم ذكر السيوطى من كان بمصر من أئمة القراءات فى اثنتا عشرة صفحة (٣) •

والحق ان السيوطى نجح نجاحا كبيرا فى الترجمة لعلماء مصر الاسلامية والتعريف بنشاطهم العلمى وذلك منذ فجر الاسلام فى مصر• ولا شك أن ذلك الاهتمام يعكس دراسات السيوطى وتفوقه فى الدراسات الفقهية وغيرها من الدراسات •

ولم يقتصر السيوطى على اظهار تفوق مصر العلمى فى النواحى الفقهية والدينية بل عرض أيضا لتفوقها فى الدراسات النحوية واللغوية كما عرض لتفوقها فى العلوم الطبيعية والرياضية والأدبية ، أى فى الطب والفلك والفلسفة والتاريخ وسائر العلوم ، ولم يقتصر حديثه على العصر الاسلامى فقط وانما شمل تفوق مصر العلمى منذ العصور القديمة (٤) •

وعلى الرغم من أن السيوطى توفى قبيل الغزو العثمانى لمصر بنحو اثنتى عشرة سنة الا أنه يهتم اهتماما كبيرا بذكر حوادث فتح مصر على يد العرب ، وبذكر صلة شبه جزيرة العرب بمصر قبل الفتح وبعده، ولم يغفل السيوطى ذكر كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى المقوقس وهدية المقوقس الى النبى الكريم (٥) • والمعروف أن الدولة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ — ١٨٥ •
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٥ — ٢٣٠ •
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٤٣ •
(٤) أنظر مثلا : السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩ ، ص ٢٥٤ — ٢٧٧ •
(٥) السيوطى • حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥ — ٦٥ •

البيزنطية اتبعت سياسة عدم تجنيد المصريين أو القبط فى جيش مصر، وكانت هذه السياسة استمرارا لسياسة الرومان حين احتلوا البلاد • وظل الاعتقاد سائدا بين المؤرخين ـ مسلمين وغير مسلمين ، عرب ومستشرقين ، قدماء ومحدثين ـ أن مواجهة العرب فى مصر اقتصرت على الروم أى البيزنطيين ، وأن المصريين كانوا بعيدين عن الجيش وعن الاشتباك مع العرب حين أتوا لفتح مصر • وقد دلت أوراق البردى التى كشفت فى العصر الحديث أن معظم الجند فى جيش مصر قبيل الفتح العربى لها كانوا من القبط • وكان هؤلاء الجند من المصريون يجندون اما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة (١) • ولعل وجود مصريين كثيرين فى جيش البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع عنها •

ويكاد يؤكد قولنا هذه الروايات العديدة التى ذكرها المؤرخون ـ ومن بينهم السيوطى ـ والتى تدل على أن غالبية المصريين كانوا أعوانا للعرب منذ دخولهم الأراضى المصرية حتى أتموا فتح مصر (٢)•

وقد أكد السيوطى ـ وقد عاش قرب نهاية العصور الوسطى الاسلامية فى مصر ـ فى رواياته التاريخية أن القبط اشتركوا مع الروم فى الدفاع عن حصن بابليون ضد العرب حين أتوا لفتح مصر (٣)، تلك الحقيقة التى أثبتتها الأوراق البردية حديثا ، مما يبين لنا الجدية فى دراساته التاريخية ، وفيما كتبه من أحداث التاريخ •

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٠ • وما ذكرته من مراجع (الطبعه الاولى • القاهرة ١٩٤٧ م) •

(٢) أنظر مثلا : حنا النقيوسى : تاريخ ص ٦٥٠ • (Paris 1883)

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ ـ ٥٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩١٤ م) ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهره ج ١ ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م) ، والسيوطى : حسن المحاضره ج ١ ص ٥٢ •

(٣) السيوطى • حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٦ •

أما حدود مصر الشرقية فقد ذكر من دراساته التاريخية والجغرافية أنها قرية بين رفح والعريش (١) .

وفصـل السيوطى الحديث عن الجـزية وعن أهـل الذمة فى مصر ، وأطلق السيوطى اصطلاح أهل الذمة على المصريين قبل الاسلام بمعنى تبعيتهم للروم ، أو دخولهم فى ذمة الروم ، مقابل حماية الروم لهم وفى نظير أن يدفع المصريين ضريبة للروم كل عام ، (٢) وهو ما حدث أيضا بعدفتح العرب لمصر . وحين يفصل السيوطى الحديث عن الجزية وسائر الضرائب التى فرضت على المصريين بعد الفتـح العربى لا نراه يتفق فى رواياته مع سائر المؤرخين والفقهاء ، فالجزية فرضت فى مصر وفى غيرها من ديار الاسلام على أهل الذمة (أى غير المسلمين) فى مقابل الدفاع عنهم ومنحهم الأمان على أرضهم وأنفسهم وأموالهم ، ويعفى منها الشيخ الفانى والصغير الذى لم يبلغ الحلم ، والنساء (٣) .

والقارىء لكتاب حسن المحاضرة لا يفتقد دقائق المعلومات عن فتح مصر على الرغم من بعد السيوطى عن زمان الفتح كمـا ذكرنا .

ويتضح من الروايات المختلفة أن تفوق العرب على الروم لا يرجع الى عددهم وعتادهم والا لخسر العرب معاركهم ، اذ لم يتجـاوز عدد العرب اثنتى عشر ألف مقاتل بينما تجاوز عدد المحاربين من الروم مائة ألف ومعهم العدة والعتاد ، وهذا مما أثار دهشة واستنكار الامبراطور هرقل فى كتابه للمقوقس حين علم بعقد المقوقس صـلح بابليون مع العرب (٤) . وكان رد المقوقس للروم فى مصر تعليقا على كتاب هرقل : « أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ان

(١) السيوطى : حسن المحاضره ح ١ ص ٥٢ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٢٥ .
(٣) نفس المرجع ح ١ ص ٥٥ ـ ٥٧ .
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٥٧ .

الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة ... » (١)

أما عن اليهود فى مصر فيذكر السيوطى مثل سائر مؤرخى مصر الاسلامية ان عمرو بن العاص حين فتح الاسكندرية كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يقول ان بها أربعين الف يهودى ويذكر السيوطى انه قيل ترحل فى الليلة التى دخل فيها عمرو بن العاص الاسكندرية ، أو فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو بن العاص سبعون الف يهودى (٢) .

ونلاحظ أنه ليس هناك تطابق أو تجانس فى طول الفصول أو قصرها التى يوردها السيوطى فى حسن المحاضرة ، وانما يتوقف طول الفصول أو قصرها على حسب الروايات والمعلومات التى يعتقد أنها توفى بالغرض . ومع ذلك فان اختصار السيوطى لبعض الحوادث أو الروايات لا يعنى أنه اختصار غير مفيد ، فحين يختصر السيوطى يخرج القارىء بلب الموضوع وجوهره ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر ، ما يذكره السيوطى عن فتح العرب لبرقة والنوبة (٣) .

واهتم السيوطى اهتماما كبيرا بالكتابة عن نهر النيل وذلك فى ثمان وعشرين صفحة من كتاب حسن المحاضرة (٤) . فحدثنا عن مزاياه وعن مجراه ، بل ان السيوطى رسم خريطة جغرافية لنهر النيل (٥) . وذكر السيوطى ما قيل فى النيل من الاشعار ، ونلاحظ أن السيوطى يعتبر الشعر المنثور ، أو النثر المسجوع من الاشعار ، فيورد كلام القاضى الفاضل فى المنثور فى وصف النيل المصرى ضمن ما قيل فى

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٧٠ .
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٠ - ٢٢٨ .
(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٨ .

النيل من أشعار (١) • ويهتم السيوطى أيضا بذكر البشارة بوفاء النيل ، ويأتى بانشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين بن ايوب (٢) ، كما يورد ما كتبه الأديب تقى الدين ابو بكر ابن حجة ، بشارة عن السلطان المملوكى الملك المؤيد شيخ فى سنة ٨١٩ هـ (٣) • واهتم السيوطى بالحديث عن مقياس النيل (٤) ، والمصريون منذ عصر الفراعنة يهتمون بمقاييس النيل لمعرفة حالة الرى والزراعة ، ومقدار الضرائب على الأرض الزراعية ، وغير ذلك مما يترتب على ارتفاع نهر النيل أو انخفاضه • ولا نشك أن الحديث عن مصر وعن حياتها الاقتصادية والسياسية يرتبط ارتباطا مباشرا بحالة النيل لأن النيل هو الشريان الرئيسى الذى يمد مصر بالحياة ، وفى الوقت نفسه استطاعت مصر منذ أقدم الأزمنة أن تطوع نهر النيل وأن تهذبه وان تستغله استغلالا علميا وعمليا مفيدا • والسيوطى يعتبر حلقة من حلقات المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى الذين اهتموا بأمر النيل • وقد بدأ هذه الحلقة عبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ مصرى اسلامى (توفى ٢٥٧ هـ) ، واهتم عبد الله بن أيبك الدواداری (ت ٧١٣ هـ) فى كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » اهتماما كبيرا بأمر النيل ، فبدأ الكتاب فى كل سنة عن أحوال النيل واقياسه فى تلك السنة والسنة التى قبلها وذلك قبل أن يؤرخ للسنة المذكورة • كذلك اهتم المقريزى بنهر النيل (ت ٨٤٥ هـ) ، أما ابو المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) فكان ينهى الكلام عن حوادث كل سنة بذكر قياس النيل فى تلك السنة وذلك فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » وقد ذكر السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة »

(١) المرجع السابق ح ٢ ص ٢١٠ ـ ٢١٦ •

(٢) المرجع السابق ج ٢ ٢١٦ ـ ٢١٧ •

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ •

(٤) المرجع السابق ح ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ •

أسماء امراء مصر وحكامها الذين تولوا الحكم فيها منذ قدوم عمرو ابن العاص اليها فاتحا • أما الخلفاء الفاطميون فى مصر فيسميهم « بنى عبيد » نسبة الى عبيد الله المهدى وليس الى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو فى هذا مثل المؤرخين الذين ينكرون نسب الفاطميين أو يشكون فى صحته مثل ابن خلكان ، وابى المحاسن ، وابى الفدا بعكس الذين يؤيدون صحة النسب من القدماء مثل بن الأثير ، وابن خلدون ، والمقريزى • وقد توفى السيوطى فى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) أيام سلطنة قنصوة الغورى (٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ) ، ولكن نلاحظ أن سلسلة حكام مصر مكتملة حتى دخول السلطان سليم العثمانى مصر سنة ٩٢٣ هـ ، وتستمر سلسلة حكام مصر ممثلة فى ولاة مصر العثمانيين أيام السلطان سليم ، وأيام السلطان سليمان مما يدل على أن شخصا أكمل السلسلة التى كتبها السيوطى حتى سنة ٩٢٨ هـ •

كذلك حدثنا السيوطى عن قضاة مصر ، وعن وزرائها ، وعن كتاب السر فيها • أما كتاب السر فقد تحدث السيوطى عن وظيفة كاتب السر من أيام الرسول عليه الصلاة والسلام الى أن ولى هذه الوظيفة فى سنة ٨٩٣ هـ القاضى بدر الدين بعد وفاة أبيه القاضى تقى الدين أبو بكر (١) •

واهتم السيوطى بالحديث عن جوامع مصر مبتدئا بجامع عمرو ابن العاص ، كما وصف أمهات المدارس والخانقاة منذ العصر الأيوبى مما يفيد دارسى الآثار والتاريخ الاسلامى فائدة عظيمة • والحق أن كتاب حسن المحاضرة يعتبر موسوعة قيمة لدارسى تاريخ مصر الاسلامية طوال العصور الوسطى ، فلم يترك السيوطى جانبا من

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٨ •

جوانب تاريخ مصر وحضارتها الا وذكره • وحاول السيوطى جهده فى هذا الكتاب تغطية كل نواحى تاريخ مصر مبينا علو قدم مصر فى مختلف نواحى الحضارة البشرية معتزا بمصريته منذ أقدم العصور الى عصره •

دراسات نقدية وتحليلية

لكتاب "تاريخ الخلفاء" للسيوطي

للدكتور علي حسني الخربوطلي

استاذ التاريخ الاسلامي

كلية البنات ـ جامعة عين شمس

تعريف موجز بالسيوطى :

ساهم الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد الخضيرى السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فى النهضة بالثقافة الاسلامية ، وفى تقدم الفكر العربى ، مما جعله جديرا بالتقدير والدارسة .

ولا شك ان ظروف النشأة والاسرة والبيئة، تؤثر كلها فى شخصية العالم ، وفى نفسيته وعقليته ، ثم فى اتجاهاته الفكرية . وكان مولد السيوطى فى شهر رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة بعد الهجرة ، وكان أبوه من العلماء البارزين المشهورين بالتدين والعلم . وقد برز أبوه فى عهد المستكفى بالله ، الخليفة العباسى بالقاهرة ، وتولى الأب كتابة العهد لهذا الخليفة . وفقد السيوطى اباه وهو فى السادسة من عمره ، فأصبح فى رعاية الخليفة العباسى المستكفى وجماعة من العلماء ، وقد عاونوه على أن يتمم الرسالة العلمية الكبيرة التى بدأها أبوه ، ولذا عاونوه حتى حفظ القرآن الكريم وهو لا يزال غلاما فى الثامنة من عمره . وتلقى السيوطى العلم على أيدى واحد وخمسين من العلماء

المتخصصين فى الدراسـات الدينية والأدبية والتاريخية . وأخفق السيوطى فى دراسة علمى المنطق والحساب اللذين اعتبرهما من أصعب العلوم .

وأصبح السيوطى فى مقدمة علماء التفسير والفقه واللغة والأدب وتفوق فى علم الحديث النبوى وما يرتبط به من دراسات . وأهلته حصيلته العلمية الكبيرة للقيام بالتدريس أولا ، سنة أربع وستين وثمانمائة ، ثم للقيام بالتأليف ثانيا بعد عامين . ثم تولى الافتاء سنة احدى وسبعين وثمانمائة .

وأراد السيوطى توسيع آفاقه العلمية . والخروج بها من النطاق المحلى ، فخرج الى الأراضى المقدسة بالحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم قام بجولات فى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب وغربى افريقية . وأثرت هذه الرحلات فى تفكيره العلمى ثم فى مؤلفاته .

وحينما أصبح السيوطى فى الأربعين من عمره ، بدأت مرحلة جديدة متميزة فى حياته العلمية ، فقد رأى الزهد والتصوف والانقطاع عن الحياة الدنيوية والتفرغ للتأليف ، ولزم داره فى روضة المقياس قرب نهر النيل . ووضع مؤلفاته القيمة التى زاد عددها على الثلاثمائة ، فى الدين ، والأدب ، والتاريخ ، ورفض دعوة السلطان الغورى والامراء والاعيان ، كما رفض أموالهم وهداياهم .

وقد تميزت الفترة التاريخية التى عاصرها السيوطى بانتشار روح الزهد والتصوف ، وشهدت مصر قدوم كثير من المتصوفة ، وكان كثير من المسلمين يلجأون الى حياة الانقطاع عن العالم الخارجى والتضرع للتعبد . وقد حاول السلطان الغورى انتزاع السيوطى من هذه العزلة. فلم تنجح جهوده . وقد كان الغورى من المهتمين بالنهضة الفكريه . فكان يعقد المجالس الدينية والعلمية بالقلعة مرة أو مرتين اسبوعيا ، كما اهتم الغورى بانشاء كثير من المدارس فى مصر والشام والحجاز .

وكان كتاب (تاريخ الخلفاء) من انتاج هذه المرحلة البارزة من مراحل حياة السيوطى • وهو واحد من كتب كثيرة فى التاريخ قدمها السيوطى لمكتبتنا العربية ، معظمها يندرج تحت دراسة التراجم والطبقات • فقد اهتم السيوطى فى دراساته التاريخية بالتراجم ، وهو يرى أن « الاحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة ولذوى المعارف محبوبة» • وتنقل السيوطى بين دراساته للأنبياء ، والصحابة ، والخلفاء، والمفسرين ، والحفاظ ، والنحاة واللغويين ، وقد ازدهرت دراسة التراجم فى عصر المماليك ، وهى تحتاج الى موهبة خاصة ، وقد امتلك السيوطى هذه الموهبة فعلا • وكانت التراجم تمثل أبرز موضوعات التدريس التى تدرس فى الجوامع حينئذ وتستهوى السامعين وقد كان السيوطى يقوم بالتدريس فى جامع أحمد بن طولون •

تصدى السيوطى للتراجم ، وتخصص فيها وأجاد دراستها ، ورأى آنه من العسير تحقيق أمله فى اخراج موسوعة كبيرة تضم تراجم (أعيان الأمه) كما أراد ، فان فى ذلك كما ذكر السيوطى ما (يوجب الطول والملال) ، ولذا رأى تقسيمهم الى طوائف • وعند حديثه عن كل طائفة يقسمهم الى (طبقات) • فهناك كتاب لطبقات الحفاظ ، وآخر عن طبقات النحاة واللغويين وثالث عن طبقات الأولياء ، وهكذا • وقد فسر لسان العرب لفظ (طبقات) فقال : «اناس يرجعون الى طبقة أو صنف فى تعاقب زمنى للأجيال » • واختلفت المعاجم فى التحديد الزمنى لمدة الطبقة فتراوحت المدة بين عشر سنوات أو عشرين سنة • وهذا التقسيم الى (طبقات) يرتبط بدراسة (التراجم) ، وقد بدأت دراسة الطبقات فى أول الأمر ، كدراسة تخدم علم الحديث ، كما فعل ابن سعد ، ثم تطور الأمر الى الترجمة لمختلف الفئات من علماء وخلفاء وشعراء •

وهكذا ركز السيوطى جانبا كبيرا من دراساته العلمية الى اخراج

موسوعة كبرى لأعيان الأمة فى أجزاء متعددة • يضم كل جزء تراجما لشخصيات معروفة فى فرع واحد من فروع الفكر • وأصبح كتاب (تاريخ الخلفاء) جزءا من أجزاء هذه الموسوعة ، وان كان لا يترجم فى هذا الجزء لعلماء أو لمفكرين • كما نرى فى الأجزاء الأخرى بل يترجم لعدد كبير من الخلفاء تولوا رئاسة الأمة الاسلامية فى عصور وأقاليم مختلفة • وهكذا قسم السيوطى موسوعته الكبيرة تقسيما موضوعيا •

كما يحافظ أيضا على تسلسل الأحداث التاريخية عند دراسته لتاريخ كل خليفة •

الملامح العامة لكتاب (تاريخ الخلفاء)

أولا : هدف الكتاب :

حدد السيوطى هدفه من تأليف كتاب (تاريخ الخلفاء) فقال :
« فهذا تاريخ لطيف ، ترجمت فيه للخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ الى عهدنا هذا ، على ترتيب زمانهم ، الأول فالأول ، وذكرت فى ترجمة كل منهم ما وقع فى أيامه من الحوادث المستغربة ، ومن كان فى أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة » •

ثانيا : يلاحظ أن السيوطى لم يتعرض للترجمة للخلفاء الا بعد أن فرغ تماما من دراساته عن سائر الطبقات • فقد وضع كتبا عن الأنبياء ، والصحابة ، والمفسرين ، والحفاظ ، والنحاة واللغويين ، والأصوليين ، والأولياء ، والبيانيين ، والكتاب ، وأهل الخط ، وشعراء العرب ، ثم رأى السيوطى أن يكمل موسوعة تراجمه بدراسة تواريخ الخلفاء وهو يدرك أن هذه الدراسة تتصف بالتشويق وجاذبية القراءة، لأنها تهم عامة الناس قبل خاصتهم ، بينما تراجمه للطبقات السابقة

تهم الخاصة ، فيقول السيوطى : « ولم يبق من الأعيان غير الخلفاء مع تشوق النفوس الى أخبارهم » •

ثالثا : لم يهتم السيوطى بتاريخ الدول ، فهو يدرس تواريخ الخلفاء على التعاقب والتسلسل دون الاهتمام بتوضيح النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على تغير الدول ، فلا يشعر القارىء حين يقرأ ترجمة السيوطى لمعاوية بن ابى سفيان بأنه انتقل من عصر الخلافة الراشدة الى عصر الدولة الأموية • وانما معاوية عند القارىء هو سادس الخلفاء بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، فالسيوطى يجعل الحسن بن على الخامس فى سلسلة الخلفاء • ولا يشعر القارىء أيضا حين يطلع على ترجمة أبى العباس السفاح أنه انتقل من عصر أموى الى عصر عباسى • ولكل عصر منهما خصائصه المتميزة فقد ركز السيوطى اهتمامه بالترجمة للخلفاء ، وبأحداث وبأعلام عصورهم • ولم يهتم السيوطى بالدولة ، وبتغير الدول • وهو يستخدم لفظ (الأمة) دون (الدولة) ، فيعلن أنه يريد « الاحاطة بتراجم أعيان الأمة » ، ويخصص كتابه لتراجم « الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » • وان كنا فى عصرنا الحديث نفرق بين (الدولة) و (الأمة)• فان السيوطى لم يفطن الى مدى التطابق والافتراق • ورغم ان جماعات كبيرة من الامة الاسلامية كانت فى العصر العباسى تعيش فى ظلال خلفاء آخرين غير الخلفاء العباسيين • مثل الخلفاء الفاطميين بمصر والخلفاء الامويين بالاندلس الا أن عدم اعتراف السيوطى بشرعية هؤلاء الخلفاء الفاطميين والأمويين • يجعله يركز دراسته على الخلفاء العباسيين • فالسيوطى ــ كما سنرى ــ يؤمن بنظرية خاصة حول الخلافة • فهو لا يؤمن بقيام امامين فى وقت واحد • فضلا عن انكاره لنسب الفاطميين ، ولذا فهو يركز الحديث عن الخلفاء العباسيين الذين يعترف بصحة خلافتهم •

ومقياس السيوطى فى صحة خلافة كل خليفه انتسابه الى قبيلة قريش وعدم توليته الخلافة فى وقت سبقه فيه خليفة آخر الى البيعة بالخلافة ، ويشترط السيوطى أيضا اشتراك الغالبية العظمى من المسلمين فى هذه البيعة • فالسيوطى يذكر خلافة الحسن بن على بعد خلافة أبيه على بن أبى طالب ثم ينتقل الى خلافة معاوية بن أبى سفيان • وبعد دراسته لخلافة كل من يزيد بن معاوية ومعاوية الثانى ، يتحدث عن خلافة عبد الله بن الزبير • وهو يعتبره خليفة شرعيا وليس خارجا على طاعة الدولة الأموية • بل ينكر السيوطى صحة خلافة مروان ابن الحكم ولا يذكره ضمن الخلفاء • كما لا يعترف بشرعية عهده لابنه عبد الملك • ثم يدرس السيوطى خلافة عبد الملك بن مروان بعد مصرع بن الزبير •

ويبدو اهتمام السيوطى بالأمة أكثر من اهتمامه بالدولة • فى أنه لم يغفل ابدا تاريخ مصر فى العصر الفاطمى • فالمصريون — و لاشك — يمثلون ركنا بارزا من أركان الأمة الاسلامية • مما يوجب على السيوطى — كمؤرخ — الاهتمام بأحوالهم • وان كان لا يعترف بصحة خلفائهم الفاطميين •

ولا نجد فى دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين فى بغداد وسامراء اشارات محدودة توضح تطور العصور وانتقال الدولة العباسية بين عصور النفوذ التركى والبويهى والسلجوقى • والسيوطى فى ذلك يسير على نهج كثير من المؤرخين الذين يرون ان شخصيات الخلفاء تؤثر فى ابعاد السياسة حتى أصبحت الدولة هى انعكاسات لخصائص الخلفاء النفسية والعقلية والخلقية •

رابعا : وضع السيوطى كتابه (تاريخ الخلفاء) فى أواخر حياته بعد أن وضع تراجمه لسائر الطبقات • وقد غلبت عليه فى هذه المرحلة

من حياته النزعة الدينية • وما تؤدى اليه من زهد وتصوف وانصراف عن عرض الدنيا • وقدانعكست هده النزعة على صفحات هذا الكتاب بل نستطيع أن نقول أن السيوطى كان فى كتابه (تاريخ الخلفاء) عالم دين أكثر منه مؤرخا • فقد دون السيوطى تراجمه للخلفاء بروح الايمان وكان الدين هو ميزان نقده لسياسة الخلفاء • كما جعل السيوطى – فى كثير من مواضع كتابه التاريخ فى خدمة علم الحديث النبوى • ولذا نلمس فى الكتاب اهتماما واضحا بعلماء الدين وبالدراسات الدينية المختلفة • واهتم السيوطى برواية الخلفاء للاحاديث النبوية وذكر عدد الأحاديث المروية عنهم • وهو أيضا يتلمس بعض الأحاديث النبوية التى تفسر الأحداث التاريخية • وخاصة قيام الدولتين الأموية والعباسية ، واستئثار الأتراك بالسلطة فى العصر العباسى • وأثرت هذه الاتجاهات فى اغفال السيوطى للتفاصيل العسكرية ولحركات الجيوش ودراسة المواقع الحربية الفاصلة• كما فعل الطبرى وابن الأثير مثلا والسيوطى يوجز دائما أخبار الفتوحات الاسلامية فى كلمات قليلة • كما نجد السيوطى لا يهتم بالاخبار الاجتماعية والاقتصادية اهتمامه بالأمور الدينية والاخبار العلمية والفكرية •

خامسا : اشتهر السيوطى بأنه أديب كبير وشاعر مجيد ، ويبدو هذا النبوع الأدبى واضحا فى كتاب (تاريخ الخلفاء) ، فالاسلوب سلس واضح شيق وتمتلىء صفحات الكتاب بأبيات من الشعر • مما يصل أحيانا الى حد الاسراف ويثبت السيوطى فى كتابه تفوقه فى الشعر • فهو يختم كتابه بقصيدة طويلة من نظمه يصفها بأنها « أرجوزة فى أسماء الخلفاء ووفياتهم » • ونجد فى الترجمة للخلفاء الأمويين والعباسيين كثيرا من أخبار الشعراء والمغنيين والمطربات •

سادسا : تأثر السيوطى فى منهجه التاريخى بكثير من المؤرخين • وخاصة ابن الأثير وابن كثير • ويظهر هذا التأثر فى نقل الروايات

واسنادها • فالسيوطى يذكر دائما اسم المؤرخ الذى ينقل عنه • ويذكر أحيانا اسم كتابه • ثم يمضى فى نقل الرواية واذا أراد اضافة رأى خاص أو تعليق وهذا نادر جدا • استخدم لفظ (قلت) ثم يضيف ما يريد اضافته • ولكن الغالبية العظمى من صفحات السيوطى هى نقل لعديد من الروايات من عدد كبير من المصادر • ويحرص السيوطى غالبا على ذكر المصادر • وعلى اسناد الرواية الى رواتها المتعددين • وهو يستخدم تعبيرين عند ذكر الروايات • فيذكر أحيانا (قال فلان) وأحيانا أخرى (اخرج عن فلان) •

سابعا . أهتم السيوطى فى آخر كتابه بذكر مصادره • وهو ينهج فى ذلك منهج المؤرخين المحدثين• ويحرص أيضا على ذكر عدد مجلدات كل كتاب رجع اليه • ولكن السيوطى لم يذكر كل مصادره بل اكتفى بأهمها بالنسبة اليه • وهو يقسم المصادر الى فرعين : مصادر اعتمد عليها فى نقل أخبار « الحوادث » ومصادر رجع اليها فى « غير الحوادث » •

فيقول السيوطى : « وهذا آخر ما تيسر جمعه فى هذا التاريخ، وقد اعتمدت فى الحوادث على تاريخ الذهبى وانتهى الى سنة سبعمائة• ثم على المسالك وذيله الى سنة ثلاث وسبعين • ثم على أبناء الغمر لابن حجر الى سنة خمسين وثمانمائة • وأما فى غير الحوادث ، فطالعت عليه تاريخ بغداد للخطيب عشر مجلدات • وتاريخ دمشق لابن عساكر سبعة وخمسين مجلدا • والأوراق للصولى سبع مجلدات • والطيوريات ثلاث مجلدات • والحلية لأبى نعيم تسع مجلدات • والمجالسة للدنيورى والكامل المبرد مجلدين وأمالى ثعلب مجلد ، وغير ذلك » •

ويندرج تحت (غير ذلك) كثير من المصادر • فقد استفاد السيوطى كثيرا من طبقات بن سعد • وخاصة فى الجزء المطول بالخلفاء الراشدين

كما رجع الى كتب الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير والبيهقى وابن الجوزى عند دراسته للخلفاء الأمويين والعباسيين • وتكاد تخلو دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين بالقاهرة من المصادرة فقد كان السيوطى معاصرا قريبا من المعاصرة لهم •

ثامنا : اعترف السيوطى أن مهمته كانت (الجمع) وتركزت جهوده فى انتقاء هذه المجموعة • ولكنه لم يرتب ما جمعه ترتيبا موضوعيا • فتعددت موضوعات الروايات كما لم يخضع السيوطى الروايات للنقد التاريخى فكثيرا ما نقل روايات متناقضة دون ترجيح احداها • وتعليقات السيوطى الخاصة التى يبدأها بكلمة (قلت) قليلة جدا ، وتتضاءل كثيرا الى جانب الروايات المنقولة • ولكن هناك محاور رئيسية حرصا لسيوطى على التزامها حين ترجم للخلفاء • فهو يبدأ عادة بذكر سنة الميلاد • وتاريخ تولية الخلافة • وكنية الخليفة• واسم أمة ، وهل هى حرة أم جارية ، وجنسيتها ، ثم يذكر مدة الخلافة ويقدم السيوطى أيضا صورة جسمانية واخلاقية ونفسية للخليفة • ثم يحرص على ذكر الحوادث الغريبة فى عصره ، ويلخص الاحداث التاريخية ويرتبها حسب سنوات حدوثها • ثم ينتهى السيوطى بتقديم قائمة بالاعلام الذين توفوا فى عصر ذلك الخليفة •

واهتم السيوطى أحيانا بالنقد التاريخى فى عبارات موجزه • ولكنه اهتمام محدود ولا نلمسه الا فى مواضع قليلة من الكتاب • والسيوطى أحيانا يضيف معلوماته الخاصة الى الروايات التى ينقلها من مصادره • ولكن السيوطى لم يهتم أبدا بفلسفة التاريخ كما فعل غيره • كابن خلدون أو المقريزى •

تاسعا : ذكرنا أن السيوطى كان لا يحب علم المنطق • ونجد فى صفحات كتاب (تاريخ الخلفاء) روايات لا تتفق أبدا مع المنطق والعقل • وقدنهج السيوطى نهج كثير من المؤرخين الذين حشدوا فى

كتبهم ما هو غريب وعجيب • وكان دوافع معظمهم خلق أو افتعال جاذبية القراء مما يشوق القراء • والسيوطى فى ترجمته لمعظم الخلفاء يذكر أحداثا غريبة • وخارقة للطبيعة أحيانا • لا يمكن للعقل قبولها• ونرى أن النزعة الدينية عند السيوطى جعلته يورد هذه العجائب • فقد أراد أن يثبت قدرة الله عز وجل •

وقد اهتم السيوطى أيضا بايراد اخبار الظواهر الطبيعية • من زلازل ، وفيضانات وتأثيراتها فى حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية • ولكنه لم يربط النتائج بالمسببات • واعتبرها من الخوارق أو المعجزات• كما اسرف السيوطى فى ايراد اخبار الأوبئة والمجاعات • وقدم صورا قاتمة تثير الألم أحيانا • والاشمئزاز أحيانا أخرى •

واعترف السيوطى فى أول كتابه باهتمامه بهذه العجائب • وذكر أنه نقلها بايجاز عن الذهبى • ويضع مسئولية عدم اتفاق هذه الاحداث مع المنطق والحقيقة على الذهبى فيقول السيوطى : « وما أوردته من الوقائع الغريبة والحوادث العجيبة ، فهو ملخص من تاريخ الحافظ للذهبى • والعهده فى أمره عليه • والله المستعان » •

عاشرا : أسرف السيوطى فى اهتمامه بالأوائل • فهو يريد أن يجعل كل خليفة هو الأول فى فعل كذا أو كذا • ويبدو ذلك واضحا فى تراجمه للخلفاء الراشدين والأمويين ولكننا نلمس أحيانا كثيرا من المبالغة والافتعال • ونجد أحيانا خليفتين يشتركان فى انهما الأول فى القيام بأمر معين • وامتد الاهتمام أيضا الى (الأواخر) وان كان هذا الاهتمام أقل من الاهتمام بالأوائل •

واهتم السيوطى أيضا بمسائل احصائية ورقمية لا تستحق الأهمية • فقد اهتم السيوطى بمن تولى الخلافة فى حياة أمه أو حياة أبيه • وعدد أولاد كل خليفة الذين تولوا الخلافة بعده • واهتم بمن اسمه (مثنى) وليس (مفردا) وقام باحصاء للألقاب المشتركة بين

العباسيين والفاطميين • وتأثير بعض الألقاب على مصائر اصحابها ، كما بحث السيوطى عن تأثير رقم (ستة) فى عزل الخلفاء ، وذكر ان الخلفاء الذين تجمع الأمة عليهم اثنى عشر خليفة فحسب ، واجتهد فى تحديد أسماء هؤلاء الخلفاء •

حادى عشر : يلتزم السيوطى غالبا الى الحياد التاريخى • مما يجعله أحيانا ينقل بعض الروايات المتناقضة التى تعبر عن مختلف الاراء ولكن السيوطى كان متعصبا كل التعصب ضد الخلفاء الفاطميين• وهو يسمى الخليفة منهم (صاحب مصر) وقد عقد السيوطى فى اول كتابه فصلا هاجم فيه الخلفاء الفاطميين هجوما شديدا ، وسماهم بالخلفاء العبيديين واجتهد فى ايراد ادلة عدم شرعية خلافتهم والسيوطى يصفهم بأقذع الالفاظ • فيسبهم المجوس والزنادقة والرافضة ، ويصف الناس المعترفين بهم بالجهل • وجعل السيوطى الفاطميين أخطر على الأمة الاسلامية من التتار ، مما نراه مبالغة واضحة ، فالدولة الفاطمية لها تراثها الحضارى العظيم • ويجب الفصل بين حقيقة نسب الفاطميين وتقييم التراث الفاطمى الحضارى •

ويبدو تحيز السيوطى للخلافة العباسية واضحا فى جميع صفحات كتابه وقد نجد العذر له • فهو يعاصر الخلفاء العباسيين بالقاهرة • وهو يعتبر خلافتهم امتداد للخلافة العباسية بالعراق •• وقد كان ابوه اماما لاحد هؤلاء الخلفاء ، وهو المستكفى بالله • وقد نشأ السيوطى فى رعاية هذا الخليفة • والسيوطى لا يهتم بالخلفاء الأمويين بالاندلس وان كان لم يجرحهم كما جرح الفاطميين • واكتفى السيوطى بذكر اسماء الخلفاء واهم أعمالهم وصفاتهم فى سطور قليلة • فى فصل صغير فى آخر الكتاب • وهو يتحدث عنهم ايضا فى مقدمة كتابه فى ثلاثة سطور فيقول عنهم : « المتسمون بالخلافة من الأمويين بالمغرب كانوا أحسن حالا من العبيديين بكثير اسلاما وسنة وفضلا وعملا وغزوا ،

وهم كثير حتى أنه اجتمع بالأندلس فى عصر واحد ستة كلهم تسمى بالخلافة » ٠

وهذه العبارة للسيوطى ٠ وان كانت ترجح كفة الأمويين بالاندلس على كفة العبيديين الا انها تستهين أيضا بهؤلاء الأمويين ٠ فهو لا يعترف بصراحة بشرعية خلافتهم ٠ كما هو يخلط بين الخلفاء الامويين ٠ والاواخر وملوك الطوائف ٠ كما ان السيوطى فى الفصل الذى عقده فى آخر كتابه عن الامويين بالاندلس يخلط بين الامارة والخلافة فى الأندلس ـ فهو يذكر ان عبد الرحمن الداخل (بويع بالخلافة) سنة ١٣٨ هـ ٠ وان عبد الرحمن الناصر « أول من فخم الملك بالأندلس من الأموية وكساه أبهة الخلافة والجلالة » ٠

ثانى عشر : اهتم السيوطى من خلال ترجمته للخلفاء الأمويين والعباسيين بذكر أحوال وطنه مصر ٠ فقد حرص دائما على ذكر أحوال نهر النيل ٠ ومدى انخفاض أو ارتفاع فيضانه ٠ وما حدث فى مصر من أوبئة أو مجاعات ٠ أو ظواهر طبيعية ٠ وتعرض لمصر لخطر الصليبيين الذين يسميهم دائما (الفرنج) ويتحدث عن كسوة الكعبة التى يرسلها المصريون ٠ وكتاب السيوطى هو خير الكتب التى تدرس تاريخ الخلافة العباسية فى القاهرة ٠ والعلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك ٠

دراسة نقدية تحليلية تفصيلية لكتاب الخلفاء

أصبح الخلفاء محاورا لدراسة السيوطى ٠ وتفاوتت دراساته للخلفاء بين التفصيل والايجاز واهتم السيوطى بتفصيل دراسته للخلفاء الراشدين الأربعة ٠ وبعض الخلفاء الأمويين والعباسيين ٠ ونجد السيوطى فى هذه الدراسات المفصلة يعقد فصولا صغيرة تدرس بعض

الموضوعات المرتبطة بتاريخ ذلك الخليفة الذى يترجم السيوطى له وهكذا نجد احيانا بعض الدراسات الموضوعية المحدودة من خلال تراجم الخلفاء .

ويمكننا ان نقسم كتاب (تاريخ الخلفاء) الى أقسام متميزة : القسم الأول : ويشمل المقدمة وبعض فصول عقدها السيوطى فى أول كتابه مثل ترجمته للخلفاء ، والقسم الثانى : ترجمة السيوطى للخلفاء الراشدين وللحسن بن على . والقسم الثالث : تراجم خلفاء العصر الأموى . والقسم الرابع : تراجم الخلفاء العباسيين بالعراق . والقسم الخامس : تراجم الخلفاء العباسيين بالقاهرة .

القسم الأول : المقدمة والفصول الأولية :

ذكر السيوطى فى المقدمة انه سيترجم للخلفاء ، بادئا بأبى بكر . وانه يذكر فى كل ترجمة (ما وقع فى أيامه من الحوادث المستغربة . ومن كان فى أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة) . وكان السيوطى وفيا بعهده . ولكنه أسرف اسرافا كبيرا فى ذكر هذه «الحوادث المستغربة» . أما أئمة الدين وأعلام الأمة . فقد ذكر السيوطى أسماء من توفوا منهم فى عهود سائر الخلفاء . دون أن يقدم غالبا دراسة موجزة أو نبذات عنهم . واكتفى بذكر اسمائهم .

ثم تحدث السيوطى فى مقدمته عن هدف الكتاب ، وهو دراسة تواريخ الخلفاء بعد ترجمته لسائر الطبقات . ثم اعلن السيوطى انه لم يورد أحدا من الخلفاء العبيديين لعدة أسباب : أولها ان امامتهم غير صحيحة . فهم غير قرشيين . والسبب الثانى « أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الاسلام . ومنهم من أظهر سب الأنبياء ومنهم من أباح الخمر ومنهم من أمر بالسجود له . والخير منهم رامضى خبيث لئيم يأمر بسب الصحابة رضى الله عنهم . ومثل هؤلاء لا تنعقد لهم بيعة .

ولا تصح لهم امامة » • والسبب الثالث أن البيعة للفاطميين « صدرت والامام العباسى قائم موجود سابق البيعة فلا تصح اذ لا تصح البيعة لامامين فى وقت واحد » • ولم يقدم السيوطى دراسة وافية شافية يحقق من خلالها نسب الفاطميين • مما يدعم رأيه فيهم • كما فعل غيره من المؤرخين الذين اهتموا بحقيقة نسب الفاطميين • كالمقريزى مثلا •

وهكذا لا يعترف السيوطى بأى نظام للخلافة بعد تولى العباسيين للخلافة ويرى السيوطى أن العباسيين يحتفظون بالخلافة حتى يسلموها الى عيسى أو المهدى •

ثم يعقد السيوطى فصلا قصيرا فى نحو صفحتين بعنوان (فصل فى بيان كونه صلى الله عليه وسلم يستخلف وسر ذلك) • ويذكر السيوطى روايات متعددة تنتهى كلها الى آن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بعده • ويرفض السيوطى رأى الشيعة (ويسميهم الرافضة) الذى يذهب الى أن على بن أبى طالب هو وصى الرسول ووليه • وحجة السيوطى فى رفضه هى أن آبا بكر لو علم بذلك لرفض أن يتولى الخلافة •

والفصل الثانى فى نحو صفحة واحدة ، وعنوانه (فصل فى بيان ان الائمة من قريش والخلافة فيهم) وذكر السيوطى عدة روايات تختلف فى ألفاظها لحديث نبوى ينص على أحقية قريش بالامامة أو الملك أو الخلافة أو الامارة •

والفصل الثالث فى نحو ثلاث صفحات بعنوان (فصل فى مدة الخلافة فى الاسلام) ويضم دراسات موجزة حول بعض الاحاديث النبوية • فيها : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » • ويرى السيوطى أن هذه الاحاديث النبوية : « لا يزال الاسلام عزيزا

منيعا الى اثنى عشر خليفة » • ويحاول السيوطى جاهدا أن يثبت أن هؤلاء الخلفاء الاثنى عشر لا يتولون الخـــلافة على التعاقب ، ويذكر السيوطى منهم الخلفاء الراشدين الاربعه • والحسن ومعاويه • وابن الزبير • وعمر بن عبد العزيز • والمهتدى العباسى ، والظاهر العباسى • ويذكر أن الاثنين الباقيين سيظهران فيما بعد ، وهكذا كان السيوطى يأمل فى استمرار الخلافة العباسية • حتى يظهر من بين خلفائها امامان من هؤلاء الائمة الاثنى عشر • ولم يكن الســـيوطى يعلم ان الخلافة العباسية ستنقضى بعد أعوام قليلة حين يفتح السلطان العثمانى سليم الأول مصر •

ثم يعقد السيوطى فصلين متتالين •• يذكر فى الفصـــل الأول «الأحاديث المنذرة بخلافة بنى امية» • ويذكر الفصل الثانى «الأحاديث المبشرة بخـــلافة بنى العباسى » • ولاشك أن هناك فارق بين كلمة « المنذرة » وكلمة « المبشرة » ويذكر السيوطى فى الفصـــل الأول استنكار الرسول عليه الصلاة والسلام لرؤيته بنى امية على منبره • ويذكر فى الفصـــل الثانى سرور النبى لرؤية بنى العباسى على منبره ويذكر السيوطى عدة أحاديث كلها تتنبأ بتولية بنى العباس الخلافه ، ولا يجد السيوطى حرجا فى أن يعترف بضعف معظم الاحاديث النبوية التى ذكرها • ولكنه مصر على تأييد رأيه بأحقية العباسيين فى الخلافة•

ويعقد السيوطى فصلا بعنوان « فى شأن البردة النبوية التى تداولها الخلفاء الى آخر وقت » ويقص السيوطى قصـــة البردة التى منحها الرسول صلى الله عليه وسلم للشاعر كعب بن زهير حين انشده القصيدة العصماء التى مطلعها (بانت سعاد) ثم شراء معاوية لهذه البردة من أولاد كعب وتداول الخلفاء الأمويين لهذه البردة ثم يدرس السيوطى مسألة لها أهميتها • فيؤكد أن هذه البردة « التى اشتراها معاوية فقدت عند زوال دولة بنى امية » • ويذكر السيوطى أن البردة التى تداولها العباســـيون هى بردة اخرى للنبى كان قد منحها عليه

الصلاة والسلام لأهل أيله مع كتاب الأمان فأشتراها ابو العباس بثلثمائة دينار • ويرجح السيوطى ضياع هذه البردة (فى فتنة التتار) •

ثم يقدم السيوطى فصلا آخرا بعنوان (فصل فى فوائد منثورة تقع فى التراجم ولكن ذكرها فى موضوع واحد أنسب وأفيد) • ثم ينقل السيوطى عن أبى الجوزى رأيا يذهب الى ان (كل سادس يقوم للناس يخلع) فقد خلع كل من الحسن ، وابن الزبير ، والوليد بن يزيد ، والأمين ، والمستعين ، والمقتدر ، والطائع ، والراشد • ثم ينقل السيوطى رأيا للذهبى يهدم فيه رأى ابن الجوزى ويؤيد السيوطى رأى ابن الجوزى ويدلل عليه بأمثلة من تاريخ الخلفاء العباسيين بالقاهرة •

وفى هذا الفصل يذكر السيوطى عددا من المعلومات الطريفة • يسميها (فوائد وهى تشبه ما نراه فى الصحف اليوم تحت عنوان طرائف أو عجائب وليس لهذه الطرائف قيمة حقيقية• ويحاول السيوطى بها الربط بين الخلفاء • وهو ربط مفتعل • فالسيوطى يذكر مثلا أن الخلفاء العباسيين كلهم أبناء سرارى عدا السفاح والمهدى والأمين • وانه لم يل الخلافة هاشمى ابن هاشمية سوى على والحسين والأمين ولم يتول الخلافة من أسمه على سوى على بن أبى طالب وعلى المكتفى العباسى• ويتحدث السيوطى عن الألقاب المشتركة بين الخلفاء العباسيين والفاطميين ويذكر ان كل من تسمى بالقاهر والمستكفى والمستعين كان مصيره مؤلما •• الخ •

ومن المسائل التى اثارها السيوطى فى هذا الفصل تساؤله : هل كان للخلفاء الأمويين القاب كألقاب الخلفاء العباسيين؟ ويؤكد السيوطى أن الأمويين اتخذوا ألقابا • ولقب معاوية هو (الناصر لدين الله) • ولقب يزيد هو (المستنصر) ولقب معاوية الثانى (الراجع الى الحق) ولقب مروان (المؤتمن بالله) ولقب عبد الملك (الموفق لأمر الله) ولقب

الوليد (المنتقم بالله) ولقب عمر بن العزيز (المعصـوم بالله) ولقب يزيد بن عبد الملك (القادر بصنع الله) ولقب يزيد الناقص (الشاكر لانعم الله) •

وفى آخر هذه الفصول يذكر السيوطى الكتب التى درست نفس موضوعه أى تاريخ الخلفاء • فيذكر خمسة كتب • اعتمد على اثنين منهما ، فيقول السيوطى : « افرد تواريخ الخلفاء بالتأليف جماعة من المتقدمين : منها تاريخ الخلفاء لنفوطية النحوى مجلدان ، انتهى الى أيام القاهر • والأوراق للصولى • ذكر العباسيين فقط وانتهى اليه • قلت : وقد وقفت عليه • وتاريخ خلفاء بنى العباس لابن الجوزى • رأيته أيضا انتهى الى أيام الناصر • وتاريخ الخلفاء لأبى الفضل احمد بن أبى طاهر المرزوى الكاتب أحد فحول الشـعراء مات فى سـنة ثمانين ومائتين • وتاريخ خلفاء بنى العباس للأمير ابى موسى هارون بن محمد العباسى » •

وهذه الفصول التى بدأ بها السيوطى تراجمه لسائر الخلفاء هى مجموعة من (الطرائف) قصد بها السيوطى أن تكون (فاتحة شهية) للقارىء • وكان الجدير به ان يبدأ تراجمه بفلسفة لنظام الخلافة • أو بدراسة مقارنة بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية • أو بدراسة مظاهر التنافس بين بنى امية وبنى هاشم حول الخلافة عبر العصور • كما فعل المقريزى فى كتابه (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) وتزدحم هذه الفصول القصيرة بالآحاديث النبوية التى يعترف السيوطى بضعف بعضها ولا يجد السيوطى — رغم ذلك — حرجا فى ذكرها وجعلها أساسا لدراساته المختلفة •

القسم الثانى : الخلفاء الراشدون والحسن بن على

١ — نال أبو بكر الصديق نصيبا من الدراسة أكثر من نصيب باقى الخلفاء • فتقع الترجمة له فى نحو سبعين صفحة • وذكر السيوطى أنه تعمد (بسط ترجمة الصديق) •

٢ ـ اهتم السيوطى بدراسة القاب الخلفاء . فأفاض فى تفسير لقبى (عتيق) والصديق وقد تلقب بهما أبو بكر . ولقب الفاروق وهو لقب عمر . ولقب ذى النورين وهو لقب عثمان . ولقب (أبو السبطين) وهو لقب على . ولقب (ريحانة الرسول) وهو لقب الحسن .

٣ ـ يعتبر السيوطى ابا بكر أشجع وأجود وأعلم وأذكى وأفضل الصحابة .

٤ ـ اهتم السيوطى بذكر الاحاديث النبوية المرتبطة بالخلفاء الخمسة. وبعض الاحاديث يشترك فيها أبو بكر وعمر . ويهتم السيوطى بالأحاديث التى تشير الى خلافة أبى بكر وعمر ويذكر السيوطى بعض الأحاديث التى ترضى الشيعة رغم أن السيوطى قد نقلها عن أئمة السنة ومنها حديث النبى يوم غدير فم .

٥ ـ ويهتم السيوطى أيضا بذكر آيات قرآنية يربط بينها وبين أبى بكر وعمر . فيذكر بعض آيات يرى انها نزلت فى أبى بكر . ثم يقول عن عمر انه « كان يرى الرأى فينزل به القرآن » ، وذكر السيوطى عشرين مثلا .

٦ ـ يهتم السيوطى باحصاء الأحاديث النبوية التى رواها كل من الخلفاء الخمسة .

٧ ـ حاول السيوطى الدفاع عن عثمان ونسب الأخطاء الى مروان بن الحكم .

٨ ـ أبدى السيوطى حرجه فى الحديث عن الفتن . وخاصة موقعة الجمل وحرب صفين .

٩ ـ لا يجد السيوطى حرجا فى تنازل الحسن بن على عن الخلافة . وهو يجوز التنازل عن الوظائف .

١٠ ــ عقد السيوطى دراسة مقارنة واحدة بين الخلفاء الراشدين الأربعة فى مجالات الشعر • وحكم لعلى بالتفوق •

١١ ــ يبالغ السيوطى فى ذكر (الأوائل) فى ترجمته للخلفاء الراشدين، ويقع السيوطى فى مأزق التناقض احيانا • فهو يجعل كلا من أبى بكر وعمر « أول من اتخذ بيت المال » •

١٢ ــ يهتم السيوطى بشخصيات الخلفاء أكثر كثيرا من اهتمامه بأحداث الدولة التاريخية وكان السيوطى فى هذا القسم عالم دين ، وأديبا أكثر منه مؤرخا •

القسم الثالث : خلفاء العصر الأموى

أولا : التزم السيوطى الحياد • واتصف منهجه بالاعتدال فى تقييم الخلفاء الأمويين وسياستهم فذكر مالهم وما عليهم • ونال كل من معاوية وعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز اهتمام السيوطى أكثر من غيرهم من الخلفاء • وهو يعترف بشرعية خلافة ابن الزبير ويترجم له بعد ترجمته لمعاوية الثانى • ويهمل تماما الترجمة لمروان بن الحكم مما يخالف مناهج معظم المؤرخين الذين ارخوا للعصر الأموى •

ثانيا : ركز السيوطى بالترجمة للخلفاء ، ولم يهتم ــ كعادته ــ بالدولة أو بالأمة أو بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية • واذا أشار السيوطى الى احداث أو فتوحات فهو يذكرها فى كلمات قليلة • بحيث تبدو هذه الأحداث كلها نابعة من هؤلاء الخلفاء

ثالثا : لا نجد فى التراجم أى اشارات الى الفرق والأحزاب الاسلامية، فلا نجد أى اشارة الى جماعتى الشيعة والخوارج ، وهما أكبر الفرق الاسلامية فى العصر الأموى ، وكان لثورات الفرقتين المتوالية أكبر الأثر فى سقوط الدولة الأموية وقد اقتصر السيوطى

فى ذكر حركات الشيعة على حركة الحسين بن على وبايجاز شديد. ولا نجد ذكرا اطلاقا لمحمد بن الحنفيه ، وزيد بن على وابنه يحيى ، وحركة عبد الله بن معاوية حفيد جعفر ابى طالب ، كما لا نجد ذكرا للأئمة على زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق الذين اتجهوا الى الامامة الروحية . وكان لهم نشاط علمى وفقهى ملحوظ . أما فرق الخوارج فقد أهملها السيوطى تماما رغم دورها الكبير فى التاريخ الأموى ورغم أن السيوطى — مثلا — فصل تاريخ عمر بن عبد العزيز الا انه لم يذكر شيئا عن موقف عمر من الخوارج وحواره معهم وركون الخوارج الى الهدوء فى عهده . مع أهمية هذه الأحداث التاريخية . ونستطيع أن نقول ان قلم السيوطى عاش فى قصر الخليفة الأموى فى العاصمة دمشق فلم يهتم بمجريات الأحداث فى ولايات الدولة .

رابعا : لم يهتم السيوطى بتتبع تطور الأحداث التاريخية ، ولم يربط بين المسببات والنتائج . فيفاجئنا السيوطى فى ترجمته للخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد بالحديث عن مصرعه بأيدى العباسيين . ولم نر فى تراجمه السابقة لأسلافه الخلفاء أى اشارة الى بنى العباس — رغم أن الدعوة العباسية بدأت منذ سنة مائة بعد الهجرة . ولا نجد أى ذكر لقضية (ميراث الكيسانية) ولجهود ابى مسلم الخرسانى . كما أهمل السيوطى الربط بين احداث الفتوحات الاسلامية ، فنجد أخبارها موجزه ، ومجزأة ، ورغم اهتمام السيوطى مثلا بتفاصيل احداث عهد عمر بن عبد العزيز ، فهو لا يشير الى سياسة عمر فى الفتوح ، وقد كانت الجيوش الاسلامية حينئذ تحاصر القسطنطينية .

خامسا : لم يهتم السيوطى بالشئون السياسية والادارية ، وبالأحوال

الاجتماعية ، والظروف الاقتصادية ، وان كان معظم المؤرخين الاقدمين لا يهتمون كثيرا بهذه الامور ، الا انهم يذكرون لنا من الروايات والأخبار ما يصبح مادة خصبة نجد فيها حاجاتنا لدراسة هذه الجوانب التاريخية الهامة • فلم يهتم السيوطى بما احدثه الخلفاء الأمويين من تغييرات فى النظم الادارية ، وفى تقسيم الدولة الى ولايات ، وفى تطوير الدواوين الحكومية ، كما لا نجد اشارات الى اصلاحات اقتصادية أو مالية • كما لا نجد ما يفيدنا فى دراسة مشكلة (الموالى) التى كانت من عوامل سقوط الدولة الأموية ، فقد أهمل السيوطى تماما حركات الموالى المعروفة ، مثل حركة المختار الثقفى وحركة عبد الرحمن ابن الاشعث ، ولا نجد فى كتاب السيوطى ما نراه فى الكتب الأخرى التى تمدنا بصور اجتماعية لأحوال عناصر المجتمع من عرب وموال وأهل زمة ورقيق ، كما نفتقر الى دراسة تطور العلاقات بين العرب اليمانيين والعرب الحجازيين ، رغم تدخل الخلفاء الأمويين فى اذكاء نيران العصبية بين الشعبيين • واقتصر اهتمام السيوطى بالجوانب الفكرية والثقافية على ذكر رواية بعض الخلفاء للاحاديث النبوية ، وذكر اعلام الفكر فى قائمة المترفين التقليدية ، دون اشارة الى جهودهم العلمية ، أو الى انتاجهم الفكرى •

سادسا . أهمل السيوطى فى ترجمته للخلفاء الأمويين دراسة تطور العلاقات بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية وتلافى السيوطى هذا النقص حينما بدأ يترجم بعد ذلك للخلفاء العباسيين •

القسم الرابع : الخلفاء العباسيون فى العراق

أولا : بدأ السيوطى تراجمه للخلفاء العباسيين بالعراق بترجمته لأبى

العباس السفاح • فيترجم له على انه « اول خلفاء بنى العباس » ولا يشعر القارىء — من خلال هذه الترجمة — بالتغييرات الجذرية الكبيرة التى حدثت فى العالم الاسلامى نتيجة انتقال السلطة من البيت الأموى الى البيت العباسى فلا نجد — فعلا — اشارات لعوامل اختيار العراق مركزا للخلافة العباسية كما لانجد أى تفاصيل عن تطور الدعوة العباسية • ونجاحها ، ثم قيام خلافة بنى العباس •

ويؤيد السيوطى أحقية العباسيين بالخلافة • ونحن لا ننسى انه يعيش فى ظلهم ورعايتهم بالقاهرة ويهتم السيوطى بالاشارة الى ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أفضى الى عمه العباس بن عبد المطلب « ان الخلافة تؤول الى ولده ، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك » •

ثانيا : تتصف تراجم السيوطى للخلفاء العباسيين بأنها أكثر أهمية واستفاضة من ترجمته للخلفاء الأمويين • فمعاصرته للخلفاء العباسيين بالقاهرة تجعل اهتمامه بالخلافة العباسية أوضح من اهتمامه بالخلافة الأموية • ولما كان العصر العباسى هو عصر تدوين التاريخ • فقد وجد السيوطى حاجاته من المادة العامية •

وبرزت صفة السيوطى كمؤرخ أكثر مما رأيناه فى تراجمه للخلفاء الأمويين فنجده يعلق على الاحداث التاريخية وينقدها ويبدى رأيه فى بعض القضايا ولا يجد حرجا فى انتقاد بعض الخلفاء العباسيين وابراز ضعفهم أو مظالمهم •

ويلخص السيوطى فى ترجمته للخليفة العباسى الأول أبى العباسى خصائص العصر العباسى فيقول : فى دولة بنى العباسى افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من

الديوان ، وادخل الاتراك فى الديوان واستولت الديلم ، ثم الاتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الارض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، ويملكهم بالقهر » .

ثالثا : تنوعت مناهج السيوطى واتجاهاته واحكامه فى تراجمه للخلفاء العباسيين بالعراق نتيجة كثرة عددهم وطول مدة حكم الدولة العباسية وتفاوت هؤلاء الخلفاء فى القوة والضعف ونتيجة لتغير ظروف العصور . مما يجعلنا لا نجد منهجا واحدا ثابتا محددا ، تخضع له تراجم السيوطى لسائر الخلفاء العباسيين ونلاحظ اهتمام السيوطى بتفصيل ترجمته للخلفاء العباسيين العشرة الأوائل ولكنه يتجه الى الايجاز بعد انتهائه من الترجمة للخليفة العاشر المتوكل ، نتيجة قصر مدة حكم معظم الخلفاء التاليين ، وتدخل العناصر الأجنبية فى عزلهم أو قتلهم .

وحافظ السيوطى على بعض خصائص منهجه فى دراسة سائر التراجم فهو يقدم نبذه عن أسرة الخليفة . ثم صورة جسمانية وخلقية ونفسية كما يقدم فى نهاية الترجمة القائمة التقليدية بالأعلام المتوفين فى عهد كل خليفة . ولكن السيوطى فى تراجمه للخلفاء العباسيين يهتم احيانا باعطاء نبذات موجزه عن بعض هؤلاء الأعلام المشهورين . ويسرف السيوطى فى هذا القسم العباسى ، فى ذكر الأحداث العجيبة ، الخارقة للطبيعة والتى تتصف غالبا بالخرافة والوهم .

رابعا : لا يهتم السيوطى فى ترجمته للخلفاء العباسيين بنظام الوزارة رغم قيام هذا النظام فى العصر العباسى . بحيث أصبح من خصائص هذا العصر فقد ظهر وزراء تفويض سيطروا على

الدولة • وتضاءل نفوذ بعض الخلفاء الى جانب نفوذ وزرائهم • هذا بينما تلمس اهتمام ابن طباطبا فى كتابه (الفخرى فى الآداب السلطانية) بنظام الوزارة اهتماما واسعا مفيدا • فلا نجد فى ترجمة السيوطى للخليفة ابى العباس السفاح أى ذكر للوزير العباسى الأول أبى سلمة الخلال ، كما اغفل السيوطى تماما دور الوزير الفارسى الفضل بن سهل فى الاحداث التاريخية فى عصر المأمون فقد كان العامل الأول فى اقامة المأمون فى مرو بخراسان ست سنوات وما ترتب على ذلك من اضطرابات فى بغداد كما كان الفضل صاحب مشروع البيعة بولاية العهد للامام العلوى على الرضا ، وهو بذلك ينقل الخلافة من البيت العباسى الى البيت العلوى •

والى جانب اغفال السيوطى للوزارة والوزراء فى العصر العباسى • فقد أهمل أيضا توضيح أبعاد سلطات (أمير الامراء) وصراع العناصر الجنسية المختلفة حول هذا المنصب الكبير • كما لم يهتم السيوطى بابراز انتقال السلطة من الأتراك الى البويهيين ثم الى السلاجقة •

خامسا : لم يهتم السيوطى بالعواصم والمدن العباسية • فلم يدرس أسباب تحول الخليفة الأول أبى العباس عن الكوفة الى الأنبار • ثم اختيار الخليفة الثانى المنصور الهاشمية الكوفة • وتحدث عن بناء بغداد فى خمس كلمات من خلال اشارته الى احداث عصر المنصور حسب سنوات حدوثها •

والسيوطى يحدد سنة أربعين بداية بناء بغداد ، مخالفا بذلك معظم مؤرخى العصر العباسى • ولم يقدم السيوطى دراسة عن بناء كل من بغداد وسامراء أو صورة وصفية للعاصمتين •

سادسا : اهتم السيوطى بالجوانب الأدبية ويجد الأديب صورا أدبيه عديدة من خلال التراجم للخلفاء العباسيين وخاصة فى تراجمه للخلفاء المهدى ، والرشيد ، والمأمون • كما قدم السيوطى أيضا صورا للمجالس الأدبية والعلمية الى جانب اهتمام السيوطى المعتاد بالجوانب الدينية • وخاصة بما يرتبط بعلم الحديث النبوى كما نجد أيضا بعض الصور الاجتماعية وان كانت محدودة • وقد بدأ السيوطى فى هذه التراجم للعباسيين يهتم ببعض الجوانب الاقتصادية • فنجده يتحدث عن عمال الحسبة وقراراتهم الاقتصادية كما تحدث عن العملات المتداولة • ومستوى الاسعار • ويهتم السيوطى كثيرا بتاريخ واخبار الائمة أبى حنيفة • ومالك وأحمد بن حنبل • ويدرس موقف الخلفاء العباسيين منهم • ويقدم السيوطى دراسة مطولة عن قضية (خلق القرآن) وموقف الامام ابن حنبل منها •

سابعا : بدأ السيوطى فى تراجمة للخلفاء العباسيين اهتماما بجماعات الشيعة ونشاطهم السياسى • ولكنه اهتمام محدود ولا يشبع حاجة الباحث فى تاريخ الشيعة • فهو فى ترجمته لأبى العباس يتحدث عن مطالبة عبد الله بن الحسن للخليفة أبى العباس بحقه المشروع • ويتحدث السيوطى فى ترجمته للخليفة المنصور عن حركة الأخوين محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبى طالب فى سطور قليلة • ويبدى السيوطى عطفه عليهما اذ كان مصيرهما القتل • وينهم السيوطى الخليفة المنصور فيقول : « وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئا واحد ، وآذى المنصور خلقا من العلماء ممن خرج معهما أو أمر بالخروج قتلا وضربا وغير ذلك • منهم : أبو حنيفة • وعبد الحميد بن جعفر

وابن عجلان وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مـالك بن أنس رحمه الله • وقيل له : ان فى اعناقنـا بيعـة للمنصور ، فقال : انما بايعتم مكروهين • وليس مكروه يمين »•

ولا نجد فى تراجم السيوطى ذكرا للامام جعفر الصادق • رغم دوره البارز فى مطلع العصر العباسى ، ولم يهتم السـيوطى بدراسة تطور علاقة الصادق بالخليفة المنصـور • كما لم يهتم السيوطى بالاشارة الى الرسالة التى بعثها الوزير العباسى الأول أبو سلمة الخلال الى الامام الصادق • والى عبد الله ابن الحسن• وزعيم علوى آخر ، يعرض عليهم تحويل الخلافة الى العلويين. ورغم تطرق السيوطى الى موضوعات كثيرة فى ترجمته للخليفة موسى الهادى الا انه لم يذكر شيئا اطلاقا عن حركة الزعيم العلوى الحسـين بن على فى الحجاز ونهاية حياته فى موقعـة فخ التى يشـبهها المؤرخون عادة بفاجعة كربلاء • وقد ترتب على هذه الموقعة التاريخية الهامة قيام حركة يحيى ابن عبد الله فى بـلاد الديلم • وقيام حركة ادريس بن عبد الله فى المغرب التى كانت بداية قيام دولة الأدارسة العلوية • كما لا نجد أى اشارة الى انقسام الشيعة بعد الامام جعفر الصـادق ، وما ترتب عليه من ظهور فرقة الاسماعيلية وفرقة الاثنى عشرية •

واهتم السيوطى بدراسة بيعة المأمون للامـام العـلوى على الرضا بن موسى كاظم بن جعفر الصادق بولاية العهد ولكنها دراسة موجزة فى سطور قليلة • وأهمل السيوطى ـ كما ذكرنا آنفا ـ دور الوزير الفارسى الفضل بن سهل فى هذه البيعة بتشييع المأمون • فقال عن المأمون : « حمله على ذلك افراطه فى التشيع حتى قيل أنه هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر اليه ، وهو

الذى لقبه الرضا ، وضرب الدراهم باسمه وزوجه ابنته وكتب الى الآفاق بذلك وأمر بترك السواد ولبس الخضرة .

وقد ذكر المؤرخون الأقدسون الآخرون دوافعا آخرى أهملها السيوطى ولانجد فى التراجم التالية لترجمته للمأمون أى اشارات نحو حركات الشيعة ونشاطهم السياسى . رغم أن فرق الشيعة كان لها دورها الكبير فى التاريخ العباسى .

ثامنا : اهتم السيوطى بأخبار الفاطميين فى اشارات موجزة وغير دقيقة من الناحية العلمية . فنجد السيوطى فى ترجمته للخليفة العباسى المعتمد على الله ، يقول فى أخبار سنة ٢٧٠ هـ : « وفيها ظهرت دعوة المهدى عبيد الله بن عبيد جد بنى عبيد خلفاء المصريين . الروافض فى اليمن . وأقام على ذلك الى سنة ثمان وسبعين . فحج تلك السنة واجتمع بقبيلة من كتامة فأعجبهم حاله . فصحبهم الى مصر . ورأى منهم طاعة وقوة فصحبهم الى المغرب . فكان ذلك أول نشأة المهدى » .

وهذه العبارة لا تتفق مع الواقع التاريخى فالدعوة الاسماعيلية التى قامت سنة٢٧٠ هـ فى اليمن قام بها ابن حوشب وابن فضل . وفى عهد الامام محمد الحبيب . والذى خرج من اليمن الى الحجاز والتقى بقبيلة كتامة فى موسم الحج . هو الداعى الفاطمى المشهور ابوعبدالله الشيعى فى عهد الامام الحبيبى أيضا وهو الذى رحل الى مصر ثم الى المغرب مع كتامة . وكان وصوله الى المغرب سنة ٢٨٠ هـ . وكان قدوم الامام عبيد الله المهدى الى المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وتم الافراج عنه من سجن سجلماسة فى ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ . كما يذكر بن الأثير .

ويستمر اهتمام السيوطى بأخبار الدولة الفاطمية . وهو

فى أخبار سنة ٢٨٢ هـ — وفى ترجمته للخليفة المقتدر بالله . يشير الى قيام الدوله الفاطميه . ويمتدح الخليفة المهدى ويشير الى عدله . ويتحدث عن خروج بلاد المغرب عن طاعة الدولة العباسية. فيقول : « غلب أمر المهدى بالمغرب . ويسلم عليه بالامامة . ودعى له بالخلافة وبسط فى الناس العدل والاحسان ، فانحرفوا اليه . وتمهدت له المغرب ، وعظم ملكه ، وبنى المهدية وهرب أمير افريقية زيادة بن الأغلب الى مصر ، ثم أتى الى العراق . وخرجت المغرب عن أمر بنى العباس من هذا التاريخ . فكانت مدة ملكهم جميع الممالك الاسلامية مائة وبضعا وستين سنة . ومن هنا دخل النقص عليهم » . والمعروف أن قيام الدولة الفاطمية كان سنة ٢٩٧ هـ ، وليس فى سنة ٢٨٢ هـ كما ذكر السيوطى .

وفى ترجمة السيوطى للمقتدر أيضا . يذكر محاولة الفاطميين الأولى لفتح مصر فيشير اليها ضمن أخبار سنة ٣٠١ هـ. ويرى السيوطى أن نهر النيل هو الذى حال بين الفاطميين . وفتح مصر . فيقول : « سار المهدى الفاطمى يريد مصر فى أربعين ألفا من البربر . فحال النيل بينه وبينها . فرجع الى الاسكندرية . وأفسد فيها وقتل . ثم رجع فسار اليها جيش المقتدر الى برقة وجرت لهم حروب ثم ملك الفاطمى الاسكندرية والفيوم من هذا العام » . والمعروف تاريخيا أن الجيش الفاطمى الذى قدم الى مصر سنة ٣٠١ هـ . كان بقيادة القائم ولى عهد المهدى . كما ذكر معظم المؤرخين أو بقيادة حباسة بن يوسف كما يذكر بعض المؤرخين أو بقيادتهما معا . كما يذكر فريق ثالث من المؤرخين ولكن المهدى لم يتول قيادة هذا الجيش الفاطمى .

ويتحدث السيوطى عن المحاولة الفاطمية الثانية لفتح مصر .

فيجعلها فى سنه ٣٠٦ هـ • بقيادة القائم بن المهدى • بينما يذكر الكندى وعريب بن سعد أن هذه الحملة كانت فى سنة ٣٠٧ هـ • ومهما كان الرأى فاخبار الحملات الفاطمية الأولى السابقة لفتح جوهر الصقلى لمصر • مضطربة فى معظم المصادر التاريخية •

تاسعا : أهتم السيوطى بحركتين ثوريتين قامتا فى العصر العباسى وهما حركة الزنج وحركة القرامطة • ولكن دراسة السيوطى للحركتين تتصف بالايجاز والقصور •• ففى دراسته لثورة الزنج فى عهد الخليفة المعتمد على الله يقول السيوطى : « وفى أيـامه دخلت الزنج البصرة واعمالها وأخربوها • وبذلوا السيف ، وأحرقوا وسبوا ، وجرى بينهم وبين عسكره عدة وقعات وأمير عسكره فى أكثرها الموفق أخوه •• واستمر القتال من حين تولى المعتمـد سنة ست وخمسين (٢٥٦ هـ) الى سنة سبعين (٢٧٠ هـ) فقتل فيها رأس الزنج لعنه الله واسمه بهبوذ • وكان أدعى انه ارسل الى الخلق فرد الرسالة • وأنه مطلع على المغيبات •• وكان لـه منبر فى مدينته يصعد عليه ويسب عثمان • وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم • وكان ينادى على المرأة العلوية فى عسكره بدرهمين وثلاثة •• » •

ولا شك أن هذه السطور القليلة لا تمد الباحث أو القارىء بصورة حقيقية مفصلة عن تلك الثورة الخطيرة • فقد أهمـل السيوطى العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى أدت الى هذه الثورة • كما أغفل تأثر الزنج بتعاليم الخوارج • مما كان السبب لقيام الزنج بسبب هؤلاءالصحابة الأجلاء • كما أغفل السيوطى تأثر الزنج بتعاليم القرامطة ولم يذكر السيوطى أن زعيم الزنج (على بن محمد) الذى يسميه السيوطى (بهبوذ) قد زعم انه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على وأنه نادى بآراء

الخوارج وخاصه النعاليم التى تتصف بالديمقراطية وتحدث السيوطى عن مدينه الزنج ولم يذكر أن اسمها (المختارة) ولم يقدم لنا صورة عن هذه المدينة الغريبة واغفل السيوطى دراسة مشكلة الرقيق والتفرقة العنصرية مما كان من عوامل الثورة .

واهتم السيوطى بحركه القرامطه . فقال عنهم فى أخبار سنه ٢٧٨ هـ . فى ترجمته للخليفه المعتمد على الله : « وفيها ظهرت القرامطة بالكوفه وهم نوع من الملاحدة يدعون انه لا غسل من الجنابة . وان الخمر حلال ويزيدون فى آذانهم (وان محمد بن الحنفية رسول الله) وان الصوم فى السنة يومان : يوم النيروز ويوم المهرجان وان الحج والقبلة الى بيت المقدس . وأشياء أخرى ، ونفق قولهم على الجهال ، وأهل البر وتعب الناس بهم » .

وهكذا نظر السيوطى الى القرامطة على أنهم (ملاحدة) فحسب ، ولم يذكر أنهم فرقة متطرفة من فرق الشيعة الاسماعيلية. ولم يذكر آراءهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما نسب اليهم اضافة فى الأذان والمعروف ان القرامطة شيعة اسماعيلية وليسوا كيسانية . والمعروف أيضا أن محمد بن الحنفية هو امام الكيسانية . ولم يهتم السيوطى بايراد التفاصيل عن حركات القرامطة فى العراق والشام والبحرين . وتهديدهم لمصر ، وان كان قد تحدث عن دور الهجرة التى أقامها القرامطة . وعن فظائع القرامطية. ورعب الخليفة. واخفاق محاولاته لصدهم ، وانقطاع الحج ، وهو يعتبر الحسين الحلاج من القرامطة .

عاشرا : واهتم السيوطى أيضا بالدولة الأموية بالاندلس ولكن فى حدود ضيقة وهو أحيانا يحاول الربط بين تاريخ الأمويين فى الاندلس وتاريخ العباسيين فى المشرق . وتحدث السيوطى عن

بيعة عبد الرحمن النـاصر بالخلافة وهو ينسب ذلك الى ضعف وانحلال الدولة العباسية . وفى الحقيقة كان لقيـام الخـلافة الفاطمية فى المغرب أثره فى اعلان الخـلافة الأموية بالاندلس . ويمتدح السـيوطى عبد الرحمن النـاصر . ولكنه لا يعترف بخلافته بل يسميه (صاحب الاندلس) .

فيقول السيوطى فى ترجمته للخليفة الراضى بالله : « وفى سنه خمس وعشرين (٣٢٥ هـ) اختل الأمر جدا ، وصارت البلاد بين خارجى قد تغلب عليها . أو عامل لا يحمل مالا وصاروا مثل ملوك الطوائف ولم يبق بيد الراضى غير بغداد والسواد مع كون يد بن رائق عليه ولما ضعف أمر الخلافة فى هذه الأزمان ووهب أركان الدولة العباسية . وتغلبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم . قويت همة صاحب الاندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الاموى المروانى . وقال : أنا أولى الناس بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولى على أكثر الأندلس ، وكانت له الهيبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة ، استأصل المتغلبين وفتح سبعين حصنا فصار المسمون بأمير المؤمنين فى الدنيا ثلاثة : العباسى ببغداد ، وهذا بالاندلس ، والمهدى بالقيروان » .

حادى عشر : ويعتنى السيوطى بتتبع أخبار الحمـلات الصليبية على الشام ومصر وفى ترجمته للخليفة المستظهر بالله وفى أحداث سنة ٤٩٠ هـ ، يعتبر فتـح الصليبيين لمـدينة نيقية بداية الحمـلات الصليبية ، وهو يسمى الصليبيين دائما بالفرنج ، ويتهم السيوطى الفاطميين بتحريض الصليبيين على غزو الشام ، حينما استولى السلاجقة على هذه البلاد .

فيقول السيوطى : « وفيها ـ أى سنة ٤٩٠ هـ ـ جـاءت

الفرنج فأخذوا نيقية ، وهو أول بلد أخذوه ووصلوا الى كفر طاب واستباحوا تلك النواحي . فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام . قدموا فى بحر القسطنطينية فى جمع عظيم . وانزعجت الملوك والرعية ، وعظم الخطب ، فقيل : أن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم الى المجيء الى الشام ليملكوها ، وكثر على النغير على الفرنج من كل جهة » .

ويبدى السيوطى ألمه ــ نثرا وشعرا ــ لاستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، ويرى أن انقسام حكام المسلمين هو سبب توطيد الصليبيين لاقدامهم فى الشام ، فيقول : « وفيها ــ أى سنة ٤٩٢ هـ ــ أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفا . منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد . وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم . وورد المستنفرون الى بغداد فأوردوا كلاما أبكى العيون، واختلفت السلاطين فتمكنت الفرنج من الشام » .

ويستمر السيوطى فى تتبعه للغزو الصليبى . فيتحدث عن استيلائهم على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ. ويذكر فى أخبار سنة ٥٠٤ هـ: «عظم بلاء المسلمين بالفرنج وتيقنوا استيلائهم على أكثر الشام . وطلب المسلمون الهدنة . فامتنعت الفرنج ، وصالحوهم بألوف دنانير كثيرة ، فهادنوا ثم غدروا ، لعنهم الله » .

ويهتم السيوطى بالربط بين الصليبيين فى المشرق والمسيحيين بالاندلس وهو يسميهم أيضا بالفرنج ويبدى سروره لانتصار المسلمين فى الاندلس مما قد يعوض هزائمهم فى الشام . فيقول السيوطى « فيها ــ أى سنة ٥٠٤ هـ ــ كانت ملحمة كبيرة بين الفرنج وبين بن تاشفين صاحب الاندلس ، نصر فيها المسلمون .

وقتلوا ، وأسروا وغنموا ما لا يعبر عنه ، وبادت شجعان الفرنج » •

ويبدى السيوطى ألمه لانقسام المسلمين الذى استفاد الصليبيون ، منه فيقول : «وفى سنة سبع ــ أى ٥٠٧ هـ ــ جاء مودود صاحب الموصل بعسكر ليقاتل ملك الفرنج الذى بالقدس • فوقع بينهم معركة هائلة • ثم رجع مودود الى دمشق فصلى الجمعة يوما فى الجامع • واذا بباطنى وثب عليه فجرحه • فمات من يومه • فكتب ملك الفرنج الى صاحب دمشق كتابا فيه : « وان أمة قتلت عميدها فى يوم عيد فى بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها » •

وتختفى أخبار الصليبيين فى تراجم الخليفتين المسترشد والراشد وتظهر مرة أخرى فى ترجمة الخليفة المقتفى فيتحدث عن جهود نور الدين محمود بن زنكى ، فيقول : « وفى سنة ثلاث وأربعين ــ أى ٥٤٣ هـ ــ حاصرت الفرنج دمشق • فوصل اليها نور الدين محمود بن زنكى وهو صاحب حلب يومئذ • وأخوه غازى صاحب الموصل فنصر المسلمون ولله الحمد ، وهزم الفرنج واستمر نور الدين فى قتال الفرنج وأخذ ما استولوا عليه من بلاد المسلمين » •

وفى ترجمة السيوطى أيضا للخليفة المقتضى يربط بين العباسيين والفاطميين والصليبيين فيتحدث عن تولية الخليفة الفاطمى الفائز وكان صبيا صغيراً • فضعفت فى عهده الدولة الفاطمية وانتهز الخليفة العباسى هذه الفرصة لاسترداد مصر وكلف بذلك نور الدين زنكى ، فيقول السيوطى : « وفى سنة تسع وأربعين ــ أى ٥٤٩ هـ ــ قتل بمصر صاحبها الظافر بالله العبيدى وأقاموا ابنه الفائز عيسى صبيا صغيرا ، ووهى أمر

المصريين ، فكتب المقتضى تقليدا ، وأمره بالمسير الى مصر ، ولقبه بالملك العادل وعظم سلطان المقتفى واشتدت شوكته ، واستظهر على المخالفين ، وأجمع على قصد الجهات المخالفة لأمره . ولم يزل أمره فى تزايد وعلو الى أن مات .. » .

وفى الترجمة التالية ، وهى للخليفة المستنجد بالله ، يتحدث السيوطى عن موت الخليفة الفاطمى الفائز وتولية الخليفة الأخير العاضد كما تحدث عن حملتى أسد الدين شيركوه الى مصر ، ونجاحه فى اجلاء الصليبيين ثم تولية الخليفة الفاطمي العاضد الفاطمية واتتهز الخليفة العباسى هذه الفرصة لاسترداد مصر وكلف الوزارة لشيركوه ثم لابن أخيه صلاح الدين وقد لقبه الخليفة بلقب « الملك الناصر » وفى الترجمة للخليفة المستضىء يتحدث السيوطى عن نهاية الدولة الفاطمية ، وأفراح بغداد ، وعودة الخطبة للعباسيين الى مصر ، ويبدى السيوطى سروره لذلك .

وفى ترجمة السيوطى للخليفة التالى الناصر لدين الله يشيد بجهود صلاح الدين الايوبى ضد الصليبيين وفتحه بيت المقدس بعد سيطرة الصليبيين عليها احدى وتسعين سنة . ومن المسائل الطريفة التى ذكرها السيوطى فى هذا المجال عتاب الخليفة الناصر لصلاح الدين لانه تسمى بالملك الناصر .. « مع علمه أن الخليفة أختار لنفسه هذه التسمية » .

ولا يجد السيوطى فى حديثة عن الحروب الصليبية حرجا فى أن يذكر بعض الغرائب فهو مولع دائما بكل ما هو غريب وعجيب . « فيقول السيوطى : » ومن الغرائب ان اين برجان ذكر فى تفسير (آلم غلبت الروم) ان بيت المقدس يبقى فى يد الروم الى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه . ثم يغلبون ويفتح ويصير دار اسلام الى آخر الأبد أخذا من حساب

الآية • فكـان كذلك « ونحن نتمنى ان نرى الآن ابن برجان يحدد لنا موعد استرداد العرب والمسلمين لبيت المقدس من أيدى الاسرائيليين البغاة وندعوا الله عز وجل أن يكون موعدا قريبا جـدا •

وفى نفس الترجمة للخليفة الناصر يتحدث السيوطى عن حملة صليبية على مصر فيذكر أن الصليبيين فى سنة ستمائة هاجموا رشيد ودخلوا مدينة (فوة) فنهبوها ثم جلوا عنها ثم استولوا سنة ٦١٦ ﻫ على دمياط • وقد ضعف الملك الكامل الايوبى عن مقاومتهم وقيام الكامل بانشاء مدينة المنصورة ويحيط بها سور منيع لمواجهة الصليبيين •

وحينما ترجم السيوطى للخليفة العباسى الأخير المستعصم بالله تابع أخبار الصليبيين فتحدث عن استيلاء الصليبيين على دمياط سنة ٦٤٧ ﻫ • وموت السلطان الأيوبى الأخير الصـالح أيوب • وجهود زوجته شجرة الدر • ثم تولى عز الدين أيبـك التركمانى واسترداد دمياط سنة ٦٤٨ ﻫ •

ثانى عشر : ونجد فى تراجم السيوطى للخلفاء العباسيين بالعراق كثيرا من أخبار المغول الذين يسميهم (التتر) أو التتار — والسيوطى فى ترجمته للخليفة الناصر يجعل سنة ٦٠٦ ﻫ • « ابتداء أمـر التتار » وتختفى أخبار التتار فى ترجمة الخليفة الظاهر لتعـود مرة أخرى فى ترجمة الخليفة المستنصر بالله • فيذكر السيوطى أن التتار هددوا الحدود العباسية فأرسل المستنصر اليهم جيشـا هزمهم « هزيمة عظيمة » ثم يتحدث السيوطى عن أخ للخليفة كان يريد تركيز جهوده لقتال التتار لو تولى الخلافة ، ولكن ضياع آماله أضر بمصالح المسلمين • فيقول السيوطى :

« وكان له — أى المستنصر — أخ يقال له الخفاجى فيـه

شهامة زائدة • وكان يقول : لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون ، وآخذ البلاد من أيدى التتار وأستأصلهم فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابى الخفاجى خوفا منه • واقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر ليقضى الله أمرا كان مفعولا من هلاك المسلمين فى مدته • وتغلب التتار فانا لله وانا اليه راجعون » •

ثم نقرأ فى ترجمة السيوطى للخليفة العباسى الأخير المستعصم بالله وصفا تاريخيا لسقوط الدولة العباسية نتيجة للغزو التتارى• ويعقد السيوطى فصلا خاصا عن التتار يجعل عنوانه (شرح حال التتار) ملخصا فى نحو عشر صفحات • فيقدم السيوطى وصفا جسمانيا وأخلاقيا ونفسيا للتتار • ويصف ملابسهم وطعامهم ونساءهم وعقائدهم ويرى أن التتار هدفوا الى ابادة الجنس البشرى • فيقول السيوطى : « وليس فى قتلهم استثناء ولا ابقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال وكان قصدهم افناء النوع وابادة العالم لا قصد الملك والمال » • وقدم السيوطى دراسة للوطن الأول للتتار ودراسة لجنكيز خان ويستنكر السيوطى اقدام السلطان (خوارزم شاه) على قتل رسل جنكيز خان فيقول : « فيالها من حركة لما أهدرت من دماء المسلمين وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم » •

ويعقد السيوطى دراسات مقارنة فيقارن بين فظائع التتار فى المدن الاسلامية وبين ما فعل بختنصر ببنى اسرائيل بالبيت المقدس ، ويقارن بين سرعة الفتوحات التترية وفتوح الاسكندر والنتائج المترتبة على كل من الفتوحات •

ثم يقدم السيوطى صورا قاتمة مؤلمة لسقوط بغداد وفظائع التتار فى الشام ويشيد بجهود المصريين فى وقف تيار الزحف التترى فى عين جالوت •

القسم الخامس : الخلفاء العباسيون بالقاهرة

لا شك أن هذا القسم الاخير يتفوق فى أهميته التاريخية علـى الأقسام الأخرى السابقة • فقد كان السيوطى معاصرا لبعض هؤلاء الخلفاء • وقريبا من المعاصرة لسائر الخلفاء • ممـا يجعـل دراسة السيوطى للخلافة العباسية بالقاهرة مصدرا أساسيا للباحثين فى تاريخ هذه الخـلافة •

ويجعل السيوطى أيضـا الخلفاء العباسيين بالقـاهرة محـاورا لدراسته وهو يتحدث عن سلاطين المماليك من خلال تراجمه للخلفاء • ولا يجد حرجا فى انتقاد السلاطين الذين أساءوا الى بعض الخلفاء • ويرتب السيوطى الأحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى من خـلال تراجمه • حسب سنوات حدوثها •

ولذا تعتبر دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين بالقاهرة هى امتداد لدراسته للخلفاء العباسيين بالعراق • فلا يوجد فاصل بين الدراستين ولا يضع عنوانا مميزا ، فالخلافة العباسية فى نظر السيوطى قائمة ، وان انتقل مقرها من بغداد الى القاهرة والخطبة للخليفة مستمرة ، واسـم الخليفة ينقش على السكة • وان كان سلاطين المماليك قـد استأثروا بالسلطات الحقيقية ، فقد سيطر قبلهم الأتراك والبويهيون والسلاجقة على النفوذ والسلطة فى الدولة • والسيوطى يتألم كثيرا لانقطـاع الخلافة ثلاث سنوات ونصف سنة ، فهو لا يتصور خلو العالم الاسلامى من الخلافة والخلافة العباسية بالذات •

ويقدم السيوطى صورة تاريخية وافية لقيام الخـلافة العباسية بالقاهرة فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ولكنه لا يذكر دوافع السلطان السياسية الى احياء الخلافة • فالسيوطى يرى أن اسـتمرار الخلافة العباسية أمر حتمى واجب • ليس له دوافع سياسية • ويروى

السيوطى قصة خروج الخليفة العباسى الأول المستنصر من القاهرة الى العراق لاقامة الخلافة بها • ثم ما كان من مصرعه • ولم يذكر السيوطى ما نعرفه من عدول السلطان الظاهر بيبرس عن تأييد عودة الخليفة العباسى الى بغداد •

ويقدم السيوطى دراسة متسلسلة لتطور العلاقات بين الخلفاء العباسيين بالقاهرة وسلاطين المماليك ويتتبع موجات المد والجزر فى سلطات الخلفاء • فهو يمتدح السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان قلاوون لأنه « أظهر أمر الخليفة وكان خاملا فى أيام أبيه، حتى أن أباه لم يطلب منه تقليدا بالملك » • وانتهز الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله هذه الفرصة ليخطب فى الناس « خطبة جهادية » طالب فيها السلطان والناس باسترداد بغداد لتنتقل الخلافة اليها • ويتحدث السيوطى أيضا عن سوء العلاقات بين الخليفة المستكفى والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقبض السلطان على الخليفة ، واعتقله ومنعه من لقاء الناس • ثم نفيه سنة ٩٠٧ هـ الى قوص ••

ويبدى السيوطى ألمه الشديد لهذه الأحداث فهو يتعاطف دائما مع الخلفاء العباسيين •

وينتقد السيوطى موقف السلطان الناصر حين تجاهل عهد الخليفة المستكفى لابنه وبيعته للخليفة الواثق بالله حفيد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى لم يكن — فى رأى السيوطى — جديرا بالخلافة لسوء اخلاقه وانصرافه الى اللهو ، ويطيل السيوطى فى انتقاد هذا الخليفة• ثم يتحدث السيوطى عن سعى قاضى القضاة • فى تحويل الخلافة الى أحمد بن المستكفى ورأى السلطان فى الاستغناء تماما عن الخلافة • ويبدى السيوطى المه الشديد لخلو القاهرة من الخلافة • حتى اذا قارب السلطان الوفاة ، وافق على عودة الحق الى صاحبه • فتولى احمد بن المستكفى واتخذ لقب الحاكم بأمر الله • ويكتب السيوطى

سطور كثيرة يبدى فيها سروره لعودة الخلافة • ويهتم السيوطى بذكر صـــيغة المبالغة لهذا الخليفة وهى صـــيغة طويلة تقع فى نحو ثمان صفحات •

ويستمر السيوطى فى دراسة تطور العلاقات بين الخلفاء والسلاطين فيتحدث عن عزل السلطان برقوق للخليفة المتوكل وسجنه له بقلعـــة الجبل والبيعة لآخر باسم الواثق بالله • ويتحدث السيوطى أيضا عن الخليفة المستعين بالله الدى جمع بين الخلافه والســـلطنة بعد مصرع السلطان الناصر فرج بن برقوق ويذكر السيوطى ان هذا الخليفة قبل السلطنة بالحاح شديد من امراء المماليك وبعد قسمهم له على الطاعة ويذكر السيوطى القصيدة الطويلة التى مدح بها (ابن حجر) هـــذا الخليفة السلطان •

ويمتدح السيوطى الخليفة المستكفى بالله • فقد كان والـــد المؤرخ أما ما لهذا الخليفة وقد نشأ السيوطى فى بيت الخليفة وفضله • ويقول السيوطى عنه : « وما اظن أنه وجد على ظهر الأرض خليفة بعد آل عمر بن عبد العزيز أعبدا من آل بيت هذا الخليفة » •يتحـــدث السيوطى عن موت أبيه بعد أربعين يوما من وفاة هذا الخليفة سنة ٩٥٤ هـ • ويذكر السيوطى أسم أبيه ضمن قائمة الأعلام التقليدية التى تضم أسماء المنتقلين الى جوار الله تعالى •

ويقدم السيوطى فى هذا القسم صورا فـــكرية عديدة • فهـــو يتحدث عن قيام المدارس ودورها فى النشاط العلمى • كما يصور لنا النشاط الثقافى فى جوامع مصر كما قدم السيوطى صورا لتنـــافس وصراع أمراء المماليك حول السلطنة ومراسم تقليدهم السلطنة وتحدث عن نظامى القضاء والحسبة فى مصر • وتطرق الى بعض الموضوعـــات الاقتصادية وخاصة ضرب الدنانير والدراهم ووزنها وقيمتها • كمـــا رسم بعض الصور الاجتماعية وخاصة ما يرتبط بملابس أهل الذمة

فى مصر • ويعيب هذا القسم أيضا تلك العجائب والغرائب التى حرص السيوطى على ذكرها ، والتى لا تتفق مع العقل والمنطق •

وفى اخر هدا القسم • يشير السيوطى لأول مرة الى الدولة انعثمانية وهو يسمى السلطان العثمانى (ملك الروم) ويتحدث عن تنافس أميرين عثمانيين على السلطنة والتجاء احدهما الى مصر • وهذا الخبر هو الوحيد الذى يذكره السيوطى عن العثمانيين• فيقول: وفيها ـ اى سنة ٨٨٦ هـ ـ ورد الخبر بموت السلطان محمد ابن عثمان ملك الروم • وان ولديه اقتتلا على الملك • فغضب أحدهما واستقر فى المملكة وقدم الآخر الى مصر • فاكرمه السلطان غاية الاكرام• وانزله ثم توجه من الشام الى الحجاز برسم الحج » •

وفى خاتمة الكتاب يذكر السيوطى قصيدة طويلة من نظمه • تضم أسماء معظم الخلفاء وأهم أحداث عصورهم • ويذكر أن قصيدته أفضل من الأراجيز الاخرى المماثلة •

★ ★ ★

وبعد •• فهذه دراسة تحليلية نقدية لكتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطى ونستطيع أن نقرر أن السيوطى كان فى مقدمة المشتغلين بالدراسات التاريخية • فقد خصص جانبا بارزا من انتاجه الفكرى لدراسة التاريخ • وقد أبدى تفوقا واضحا فى (التراجم) وهى لون من آلوان الدراسات التاريخية وتحتاج الى موهبة خاصة • وقد لا نجد فى مكتبتنا العربية كتابا يضم مثل هذه التراجم العديدة للخلفاء ، بادئا بابى بكر ومنتهيا خلفاء العباسيين بالقاهرة • ويتصف الكتاب غالبا بالاعتدال فى تقرير الاحكام • وفى النقد • كما يقدم الكتاب صورا فكرية عديدة متنوعة • وخاصة الصور الدينية والأدبية • كما تنصف الكتاب بجاذبية القراءة والسلاسة والتشويق •• وهو مكتوب بروح الايمان العميق •

وان كان السيوطى لا يتفوق كثيرا على غيره من المؤرخين الا اننا نجل السيوطى ونقدره • فهو من المؤرخين الهــواة • وليس من المحترفين • فقد انقطع السيوطى عن هذه الحياة • يعرضها وماديها ومغرياتها للتأليف والبحث والاستقصاء ولم يكن له حرفة يرتزق منها • واتصف السيوطى بأنه (عالم) تتوفر له أركان ومقومات هذا اللفظ • فهو يكرس وقته وجهده للبحث عن المعرفة • ويجد السعادة فى الكتابة والدراسة • ولم يضع السيوطى مؤلفاته ليقدمها الى السلطان أو حاكم أو عين من الأعيان بل كتبها خدمة للفكر الاســلامى • واتخــذ من التاريخ وسيلة لنشر أفكاره وتطبيق دراساته الاخرى مبتغيا وجــه الله تعــالى وثوابه •

وان كان السيوطى يلقى الآن كل تقدير واجــلال من الباحثين والدارسين والقراء • فاننا ندعو له أيضا بحسن الجزاء فى الآخرة • والله عز وجل ولى التوفيق •

المرأة في كتابات السيوطي

للدكتور أحمد عبد الرازق

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
جامعة عين شمس

المرأة فى كتابات السيوطى

يحسن بنا قبل أن نتعرض لموضوع المرأة فى كتابات السيوطى أن نعرف فى شيء من الايجاز بهذا العالم الفذ (١) الذى يعد على حد قول أحد المستشرقين من أخصب كتاب مصر المملوكية (٢) .

والسيوطى هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، جلال الدين الخضيرى الشافعى ، ولد بالقاهرة أول شهر رجب سنه ١٤٤٥/٨٤٩ ، من أسرة ينتهى أصلها الى الشيخ همام الدين الخضيرى الذى يقال أنه نزح من بغداد ليقيم بمدينة أسيوط فى أيام الدولة الأيوبية (٣) حيث طابت الاقامة له ولبقية أفراد أسرته التى استقرت هناك حتى أيام محمد والد جلال الدين السيوطى الذى اضطر الى تركها سعيا وراء العلم والمعرفة فرحل منذ حداثته الى مدينة القاهرة وتولى التدريس بالمدرسة الشيخونية (٤) وخطب بجامع أحمد بن طولون ، ووضع الكثير من التآليف فى الفقه والنحو وظل مقيما فى وظيفته بالمدرسة الشيخونية الى أن فاجأته المنية فى شهر صفر سنة ١٤٥١/٨٥٥ وابنه جلال الدين لم يزل فى السادسة من عمره (٥) فكفله أحد تلاميذ أبيه ، حيث أستطاع أن يختم القرآن وهو دون الثامنة

من عمره ، ولا عجب فى هذا فقد عنى والده بتعليمه وحفظه جـزءا كبيرا من القرآن فى حياته ، بل واستصحبه اكثر من مره الى مجلس الشيخ بن حجر فى الحديث • على ايه حال سعى جلال الدين فى طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاظمه فن ، الا الحســـاب، فانه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته وكذا المنطق فانه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه كما جاء على لسانه شخصيا • أما عن علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو ، والمعانى ، والبيـــان ، والبديع ، نفسه يقول أنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة فى الكمال، وأنه رزق التبحر فى السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم ، وأنـــه أخترع علم أصول اللغة وورثه وأنه وصل الى مرتبة « المجتهد المطلق » فى الحديث والفقه والعربية باجتماع « آلات الاجتهاد » كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب فى أية مسألةمصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوصها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدر على ذلك كله تماما فى غير عناء (٦) •

والحق ان جلال الدين السيوطى قد بلغ تلك المكانة الرفيعة من العلم والمعرفة نتيجة لحياة دراسية حافلة بدأها سنة ٨٦٤/١٤٦٠ حيث درس على يد ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد المصرية ، اذ سافر الى مراكز العلم بدمياط والاسكندرية والمحلة الكبرى والفيوم، ومكة حيث حج سـنة ٨٦٧/١٤٦٣ وجاور عاما كاملا (٧) • وتذكر المصادر أن أول شيء ألفه كان كتاب فى شرح الاستعاذة والبسملة حيث وضعه وهو فى السابعة عشر من عمره ، كمـا أنه باشر تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية الذى لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ، وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه العلم البلقينى سنة ٨٧٢/١٤٧٦ الذى سبق أن أجاز له بالتدريس (٨) •

بيد أن عمله لم يقتصر فقط على التدريس بالشيخونية بل تصدى

للافتاء واملاء الحديث بجامع أحمد بن طولون ، وتولى أيضا مشيخة التصـوف بتربة برقوق نائب الشـام التى توجد الآن بصـحراء قايتباى (٩)، وذلك بسفارة أحد أقاربه وهو أبو الطيب السيوطى(٩أ).

وفى سنة ١٤٨٦/٨٩١ انتقل الى مشيخة الخانقاة البيبرسية وكانت تعد حينذاك من أكبر خوانق القاهرة (١٠) وأوسعها أوقافا وقد تم له ذلك بسفارة الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباس (١١) ، حيث أعانته تلك الوظيفة على التفرغ للكتابة والتأليف ، بيد أنه حدث فى عام ١٤٩٧/٩٠٣ أن قطع جلال الدين السيوطى جـعيلة الصـوفية بالخانقاة البيبرسية بحجة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثاروا عليه ، وكادوا أن يقتلوه ، كمـا يذكر ابن اياس ، وحمـلوه بأثوابه ورموه فى الفسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها (١٢) ، ويبدو أن أعداءه قد انتهزوا هذه الفرصة وكان على رأسهم الأمـير طومان باى الدوادار الذى كان محطا عليه ، ومن ثم فقد جرت محاكمة للسيوطى ثبت من خلالها أن طمعه قد أفسده وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم الصوفية جعله غير أهل لمشيخة الخانقاة البيبرسية فعزل فى شهر رجب سنة ١٥٠١/٩٠٦ ، واعتكف فى بيت له بجزيرة الروضة وقيل أنه لم يفتح شبابيكه المطلة على النيل مدة بل اضطر فى النهاية الى الاختفاء فترة عندما تطلبه السـلطان طومان باى الدوادار ليفتك به لما كان فى نفسه منه قبل سلطنته (١٣) . وظل السيوطى مختفيا لا يعرف له أحد مكانا حتى وفاة السلطان طومان باى فعاد بعدها الى بيته بجزيرة الروضة فى غضون شهر شوال من السنة المذكورة ليشيع بين معارفه أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه بشره بقرب زوال دولة السلطان طومان باى (١٤) .

ومن الواضح أن تلك الحادثة قد تركت أثرا فى نفسه اذ قـرر بعدها اعتزال العمل الحكومى والاعتكاف فى بيته وفى ذلك يقـول

الشعرانى : أن السلطان الغورى قد عرض عليه رئاسة مشيخة مدرسته بالقبة الزرقاء (١٥) فرفض السيوطى وفضل البقاء فى عزلته (١٦) • ولم يقبل بأى حال من الأحوال أن يجرب حظه من جديد ويعود الى الحياة العامة وظل بعد انزوائه حتى لقى ربه فى ١٩ جمادى الأول سنة ١٥٠٥/٩١١ ودفن بجوار خانقاة قوصــون خــارج باب القــرافة بالقاهرة (١٧) •

أما عن مؤلفات هذا العالم الذى قال عنه المؤرخ بن اياس أنــه « نادرة فى عصره ، بقية السلف ، وعمدة الخلف (١٨) » ، فقد تضاربت الآراء بصددها اذ ورد على لسانه وعلى لســان زميــله ومعــاصره السخاوى وهو يؤرخ له أن عددها أربى على ثلثمائة سوى ما غسله ورجع عنه (١٩) ، على حين ذكر بن اياس أن مصنفاته بلغت نحوا من ستمائة تأليف (٢٠) وصلنا منها ما يقرب من هذا العدد أذ أحصى لــه الاستاذ فلوجل سنة ١٨٨٣ ما يقرب من ٥٦١ مؤلفا امدنا بروكلمان بأسماء ٤١٥ تصنيفا منها (٢١) مما حدا ببعض الباحثين الى الربــط بينه وبين رامون لول الأسبانى أحد كتاب العصور الوسطى الغربيــة فى كثرة المؤلفات اذ بلغت مؤلفات هذا الأخير ما يقرب من خمسمائة مصنفا (٢٢) •

غير أنه مهما قيل فى عدد مؤلفات جلال الدين السيوطى فــان الذى يهمنا منها فى الوقت الحاضر هو ما كان متعلقا بالمرأة وبذكر المرأة وهو فى الواقع قليل اذا قورن بهذا الانتاج الضخم ولا زال أغلبه مخطوطا يرقد حبيس الأدراج ، والأضابير ولذا فقد رأينا أن نقــدم له فى هذه المناسبة دون التعرض لمحتوياته فى شىء من التفصيل خاصة وأن غالبية هذا الانتاج لا يزال مبعثرا فى مكتبات الشرق الاســلامى والغرب الأوروبى مما يزيد من صعوبة اعطــاء تحليــل كامل لتلك

المصنفات ووضعها فى مكانها الصحيح بين مؤلفات جلال الدين السيوطى وكذا التحقق من صدق نسبتها اليه .

المخطوطات :

تأتى المخطوطات على رأس تلك المجموعة القليلة من المؤلفات وهى تتسم بأن غالبيتها لا يعدو كراسة أو رسالة مختصرة قد يكون السيوطى وضعها ليدعم أقواله أو ليرد على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ، اذ من المسلم به أن السيوطى عاش غضوبا (٢٣) . وقد راعينا فى عرض تلك المجموعة الترتيب الأبجدى للحروف العربية .

ـ اسبال الكساء (٢٤) على النساء :

وهو يتعرض لموضوع رؤية البارى فى الجنة هل تحدث للنساء أم لا ؟ ويذكر حاجى خليفة أن الشيخ الجوجرى قد منعه وحرم تداوله ، ثم قام بتلخيصه فى كراسة صغيرة تحت عنوان وقع الأسى على النساء (٢٥) .

ـ الاحتفال بالأطفال (٢٦) .

وهو يتناول موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالأسرة ويتحدث عن كيفية الاحتفال بمقدم طفل من الأطفال وما يجب على الأم اتباعه والاحتفالات الشرعية فى هذا الصدد.ومن الواضح أن هذه الرسالة قد وضعها السيوطى للرد على بعض المستفسرين.

ـ الأس فى من رأس فى ... من المطايبات (٢٧) .

من الصعب التعرض هنا لموضوع هذا المصنف طالما أننا لم نعثر عليه فى المكتبات المعروفة لنا ، وان كنا نستشف من عنوانه ، والكتاب كما يقول المثل يقرأ من عنوانه ، يتناول موضوعات خاصة بالمزاح ، والجماع ، والأكل ، والخمر وما الى ذلك كما تشير بذلك لفظة المطايبات (٢٨) .

- **الافصاح فى أسماء النكاح (٢٩) .**

النسخة الوحيدة من هذا المجلد محفوظة فى كمبردج تحت رقم ١٠٠٨ ملحق ، لذلك من الصعب التعرض لمتن هذا المجلد وان كان حاجى خليفة قد أشار بصدده أنه عبارة عن « لغة صرف مبسوط بنقوله وشواهده فى مجلد (٣٠) » .

- **الآيات فى معرفة ... (٣١) .**

وهو عبارة عن كراسة صغيرة تقع فى اثنين وثلاثين ورقة وتتناول موضوع الجماع وكيفية الاستمتاع أثناء العملية الجنسية بأسلوب يجعلنا نتساءل عن مدى جدية نسبة هذه الرسالة للعالم جلال الدين السيوطى ! على أية حال ، هذه الكراسة عبارة عن مختصر للكتاب الذى وضعه السيوطى نفسه تحت اسم الوشاح فى فوائد النكاح الذى سوف نشير اليه فيما بعد والذى يعتبر أيضا بمثابة ملخص لكتاب مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح الذى سوف نعرض له فى حينه .

- **تحفة الجلساء برؤية الله تعالى للنساء (٣٢) .**

وهو من كتب الأحاديث ، اذ يحتوى على العديد من الأحاديث النبوية المتعلقة بالنساء بعضها يرفع من قدرهن والبعض الآخر ينال منهن ويلاحظ أيضا أنه شبيه فى موضوعه بموضوع اسبال الكساء على النساء الذى سبق أن أشرنا اليه .

- **الثغور الباسمة فى مناقب السيدة آمنة (٣٣).**

وهو أيضا من الكتب الخاصة بفن الحديث ومتعلقاته كما صنفه المؤلف نفسه فى كتاب حسن المحاضرة حيث يضمن فيه الأحاديث التى ذكرت فى مآثر السيدة آمنة والدة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو شبيه فى موضوعه ببعض موضوعات كتاب

الفوائد الكامنة فى ايمان السيدة آمنة المعروف باسم التعظيم والمنة فى أن آبوى النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة للمؤلف نفسه كما سوف نشير عند التعرض له .

ـ ثلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد (٣٤) .

وهو يتناول أحد الموضوعات الهامة بالنسبة للحياة الاجتماعية زمن العصور الوسطى وهو عادة ارتداء النساء للسواد كعلامة من علامات الحزن تلك الظاهرة التى لا زالت قائمة بين ظهرانينا الى اليوم ، واحكام الشرع فيما يتعلق بهذه العادة القديمة . وهو نظير لمؤلفه المعروف باسم فضل الجلد عند فقد الولد الذى سوف نشير اليه فيما بعد .

ـ الدرارى في أبناء السرارى (٣٥) .

وهو عبارة عن رسالة فى الفقه تتعلق بأولاد السرارى اللاتى يطلق عليهن فى كتب الفقه أمهات الولد ونظرة الشرع الى أبنائهن بعد موت الآباء .

ـ رسالة فى أحكام دخول الحشفة بالفرج (٣٦) .

لسنا فى حاجة الى شرح محتويات هذه الرسالة ، فكما يقول المثل الكتاب يقرأ من عنوانه ، لكن الذى لا شك فيه أنها تتناول أيضا بعض المسائل المتعلقة ببعض القضايا الاجتماعية مثل قضية اثبات الزنا .

ـ رسالة فى استعمال الحنة (٣٧) .

لم نعثر على نسخ مخطوطة من هذه الرسالة سوى ما ذكره عنها بروكلمان ولذلك فمن المرجح أنها كانت ضمن أحد مؤلفاته العديدة التى وصلنا بعض أسمائها فقط .

ـ رسالة فى تزويج فاطمة (٣٨) .

وهى تتحدث عن تزويج الرسول لابنته فاطمة الزهراء بعلى ابن أبى طالب ، ووصايا الرسول لها فى هذا الصدد فضلا عن الاشارة الى بعض مناقب السيدة فاطمة .

ـ الروض الأريض فى طهر المحيض (٣٩) .

وهو من الرسائل الهامة فى فن التفسير ، اذ يتناول موضوع محيض النساء وطهارتهن كما جاء فى سورة البقرة « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٤٠) » .

ـ ضوء الصباح فى لغات النكاح (٤١) .

لم نعثر على أية نسخة من هذا المخطوط فى المكتبات المعروفة لنا ، وعلى هذا فمن المستحسن عدم التعرض لمتن هذا التصنيف ، وان كنا نميل الى الترجيح فى الوقت ذاته ، أنه يتناول نفس الموضوع القديم الذى سبق لجلال الدين السيوطى أن تعرض له فى كتب : الافصاح فى أسماء النكاح الذى سبقت الاشارة اليه ، وفى الايضاح فى أسرار النكاح الذى سوف تتعرض له فى الصفحات التالية .

ـ العجالة الزرنبية (٤٢) فى السلالة الزينبية (٤٣) .

وهو من المؤلفات التى تتناول عرض سلالة السيدة زينب رضى الله عنها ابنةفاطمة الزهراء بنترسول الله صلى الله علية عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب .

ـ عين الاصـــابة فيمـا اسـتدركت عائشة من الصحابة (٤٤) ٠

أشار اليه جلال الدين السيوطى فى مؤلفاته فى فن الحديث (٤٥) وهو يتناول الكلام عن فريق الصحابة المعاصرين للسيدة عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض الأحـاديث التى أخذوها عنها ٠

ـ فضل الجلد فى فقد الولد (٤٦) ٠

وهو عبارة عن رسالة أورد فيها أحاديث ذكرها الرسول للنساء عند فقد أولادهن ، كما اشتمل على نخب وحكايات واعتبارات ويذكر حاجى خليفة أنه ثالث مؤلف ألفه جلال الدين السيوطى، كما أشار الى تأليفه لتصانيف أخرى فى هذا المعنى مثل كتابه ثلج الفوائد فى أحاديث لبس السواد التى سبقت الاشارة اليه ومن المعروف أن هذه الرسالة مطبوعة تحت عنوان « برد الأكباد عند فقد الأولاد » وتشتمل على بعض أشـعار السيدة فاطمة الزهراء التى أنشدتها على قبر الرسول عقب دفنه :

« أمس نجـدى للدموع رســـوم
أســفا عليك وفى الفـؤاد كلوم (٤٧) »

ـ الفوائد الكامنة فى ايمان السيدة آمنة (٤٨)٠

وهو يختص بالحديث عن أم النبى صلى الله عليه وسلم فقد روت عائشة رضى الله عنها حديثين أحدهما أن الرسول لمـا حج بقبر أمه السيدة آمنة فسأل الله عز وجل فأحياها فآمنت فردها الى حفرتها ، كما يشير الى بكاء الرسول على قبر أمـه فيقول على لسان الرســول الكريم « ان القبر الذى رأيتمونى أناجى فيه ، قبر آمنة بنت وهب وانى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى فاستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى » كما يشتمل

هذا الكتاب على بعض النصوص الخاصة بدخول السيدة آمنة أم الرسول الجنه ، ومن المعروف ان هذا الكتاب طبع فى القاهرة تحت اسم « التعظيم والمنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة (٤٩) » كما جاء على لسان جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة (٥٠) .

- مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح (٥١) .

وهو يشتمل على سبعة فنون : الأول فى الحديث والآثار ، والثانى فى اللغة ، والثالث فى النوادر والأخبار ، والرابع فى السجع والأشعار والخامس فى التشريح ، والسادس فى الطب ، والسابع فى الباه الذى لا يستطيع المرء أن يقرأه دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل ، ويبدو أن جلال الدين السيوطى قد استطال هذا المصنف فلخصه فى نحو عشرين كراسه وسماه الوشاح فى فوائد النكاح ، الذى اختصره بدوره تحت اسم الأيك فى معرفة ... الذى سبق أن قدمنا له . ولا غرابة فى هذا فان الحقبة الأخيرة من عصر المماليك كانت تعتبر بمثابة عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح (٥٢) مما حدى بالفيلسوف ابن خلدون أن يذم هذا النوع من التأليف فى الفصل الذى عقده فى مقدمته بعنوان « فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم » .

- منتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع (٥٣) .

وهو من المؤلفات التى يتعرض فيها السيوطى لموقف الاسلام من دخول الحمام فهو يبيحه للرجال بشروط ، ويقول أنه مكروه للنساء الا فى حالات خاصة مستندا فى ذلك الى قول الرسول الكريم « ... ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر من اناث أمتى فلا تدخل الحمام الا مريضة أو نفساء » .

- **نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسـودوالسمر (٥٤) .**

ومن المؤلفات الطريفة الجامعة التى وضعها السيوطى ليرد بها على كل من كتب فى هذا الموضوع ، اذ من المعروف أن جماعة من الأدباء قد ألفوا فى موضوع التفضيل بين البيض والسود أو بين السـود والبيض ومن بينهم ابن الرزبان الذى وضـع كتـاب « السـودان وفضـلهم على البيض » ، كمـا أشـار المنذرى فى تاريخه الى قصة النزاع بين رجلين فى فضائل البيض والسود مما دفع أبا العباس الناشىء الى تأليف رسالة موضوعها تفضيل السود على البيض .

- **النقول المشرقة فى مسألة النفقة (٥٥) .**

وهو من الرسائل الهامة المتعلقة بحقوق المرأة اذ تتعرض لموضوع النفقة على الزوجة والأولاد فيقول « ... وأخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ننفق على زوجاتنا وعيالنا وبناتنا ونؤدبهن ونصبر عليهن فى النفقة . وقد قالوا أقبح من كل قبيح صوفى شحيح ، فاعمل يا أخى على تحصيل النفقة عليك وعلى عيالك كل يوم بيوم ، ولا تدخر شيئا الا لعذر شرعى والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخية (٥٦) .

- **الوشاح فى فوائد النكاح (٥٧) .**

وهو عبارة عن ملخص لكتاب مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح الذى كتبه جلال الدين السيوطى فى نحـو خمسين كراسة ، ثم استطالها فعمد الى تلخيصها فى ما يقرب من عشر كراريس ، وأطلق عليه أسم الوشاح ، كما اختصر هذا الأخير أيضا فى موجز صغير عرف باسم الأيك فى معرفة ... كما سبق أن نوهنا من قبل .

المطبوعات :

ننتقل الآن الى الكتب المطبوعة التى تتناول موضوعات خاصة بالمرأة أو تعرض فيها السيوطى للنساء من خلال بعض فصولها وسنحاول أيضا ترتيبها حسب الحروف الهجائية للغة العربية تيسيرا على الباحث والاقتصار على الهام منها •

– الايضاح فى علم النكاح (٥٨) •

وهو عبارة عن دراسة صغيرة تتألف من ست عشرة صفحة، لا يستطيع المرء ان يقرا ما فيهـا دون ان يخجل لما جا فيها من الفاظ بذيئة مما تستحى منه الأذن والعين ، ألفاظ لا تليق بالمرأة التى ساهمت بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية على عصر مؤلف هذا الكتيب (٥٩) ، الذى يفهم من سطور مصنفه ، أنه ينظر اليها كأداة متعة فقط وهـذا يبدو واضحا من تلك الأبيات التى ينشدها على لسان أحد شعراء القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى فيقول :

عليك بمضمون الكتاب فاننا   وجدناه حقا عندنا بالتجارب
يزيدك فى الانعاظ بطشا وقوة   ويحظيك عند الغانيات الكواعب

بقى أن نشير ، والحق يقال ، أن بعض الباحثين قد نفى عن جلال الدين السيوطى تهمة وضع هذا الكتيب وذكر أنه منسوب اليه (٦٠) • بيد اننا لا نجد حرجا فى نسبته اليه خاصة ونحن نعلم أن له باعا طويلا فى مثل هذه التآليف كما سبق أن أوضحنا فى القسم الخاص بالمخطوطات •

– التعظيم والمنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة (٦١) •

يعرف هذا الكتاب أيضا باسم « الفوائد الكامنة فى ايمان السيدة آمنة كما جاء على لسان المؤلف نفسه فى الفصل الذى

عقده فى كتابه حسن المحاضرة (٦٢) وكما سبق أن ذكرنا فى القسم الخاص بالمخطوطات •

- **حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (٦٣) •**

وتكمن أهمية هذا المصنف من ناحية احتوائه على خمس عشرة ترجمة لنساء عشن بمصر زمن العصور الوسطى مثل : مارية بنت شمعون القبطية أم ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرين أخت مارية المذكورة ، أهداها المقوقس لرسول الله ، فوهبها لحسان بن ثابت ، وأم زكريا الجارية ، وأم عبد الله نبيه بن الحجاج امرأة عمرو بن العاص ، وأم ذر زوجة أبى ذر الغفارى ، وفاضله الانصارية ، امرأة بن أنيس الجهنى ، وسودة بنت أبى خبيس الجهنية ، وفاطمة بنت عباس البغدادية ، وموفقية بنت عبد الوهاب المحدثة ، وأخت المزنى الفقهية الشافعية ، ووجيهة بنت على بن يحيى الانصارية المحدثة، والسيدة نفيسة بنت حسن الأمير زيد الصوفية ، وفاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح الحرانية الصوفية المعروفة بأم محمد، وأخيرا عزة بنت جميل بن حفص ، أم عمرو الضمرية ، هذا عدا ما جاء فيه من بعض المعلومات المتعلقة بنساء عصر المماليك وأحوالهن الاجتماعية (٦٤) •

- **رشف الزلازل من السحر الحلال (٦٥) •**

وهو يعرف أيضا بمقامة النساء ويحتوى على عشرين مقامة تدور بين عشرين عالما تزوج كل منهم ووصف أول ليلة قضاها مع زوجته مسوريا بألفاظ علمه • ويمكننا تصنيفه من بين الموضوعات الواهية التافهة التى أقبل جلال الدين السيوطى عليها فى بعض الأحيان ، شأنه فى هذا شأن كتاب الأسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب بلوغ المآرب فى قص الشارب ، وكتاب الوديك

فى فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربى زيدا قائما . ومن الملاحظ أن الكثير منها لا يتجاوز الكراسة أو الورقة أحيانا (٦٦) .

ـ مسالك الحنفاء فى والدى المصطفى (٦٧) .

وهو لا يخرج فى مضمونه عن كتاب التعظيم والمنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة الذى ذكرنا أنه عرف أيضا باسم الفوائد الكامنة فى ايمان السيدة آمنة ، كما جاء على لسان السيوطى نفسه (٦٨) أى أنه يتعرض لسيرة أبوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ المستظرف من أخبار الجوارى (٦٩) .

وهو من المؤلفات التى خصصها السيوطى للحديث عن شهيرات الجوارى اللاتى لعبن دورا هاما فى التاريخ الاسلامى ونخص منهن بالذكر شجرة الدر وذلك لقرب عهدها بالعصر الذى عاش فيه مؤلف هذا الكتاب ، اذ يصفها بأنها كانت « صعبة الخلق قوية البأس » لأنها استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها فى فترة عصيبة من أحرج فترات التاريخ المصرى فضلا عن أنها تولت عرش الديار المصرية وقضت فيه ثمانين يوما، برهنت خلالها على كياسة عظيمة وذكاء وافر .

ـ نزهة الجلساء فى أشعار النساء (٧٠) .

من المؤسف حقا أننا لم نستطع التوصل الى هذا الكتاب، وعلى هذا فان الأمانة العلمية تملى علينا عدم الخوض فى مضمون هذا الكتاب ، وان كنا نستطيع أن نستشف من عنوانه أنه ملىء بأشعار النساء وببعض أخبار شاعرات العصر الاسلامى .

ـ نظم العقيان فى أعيان الأعيان (٧١) .

وهو من كتب التراجم التى وضعها جلال الدين السيوطى

وأشار فيه الى خمس تراجم نسائية أغلبها لفقيهات أو محدثات وهن : آمنة بنت المستكفى ، وبركة بنت الحافظ العراقى ، وجويرية بنت العراقى ، وزينب بنت العراقى ، وأخيرا زينب بنت السبكى (٧٢) •

- الوسائل الى مسامرة الأوائل (٧٣) •

وهو من الكتب الهامة المليئة بالموضوعات المتعددة المتعلقة بالنساء وأخبارهن اذ نجد أن بعض فصوله قد خصصت للحديث عن النكاح ، والصداق ، والعزل عن النساء ، والخطايا ، والزنا ، والسحاق ، واللباس ،والمرض ، وتفشى الطواعين ، وأبواب الجنائز ، والندب ، والمقابر ، والمأتم ، فضلا عن أخبار أخرى مبعثرة عن النساء متعلقة بالبيوع والتجارة والوقف والصدقات والأسواق وغيرها •

وبعد فهذا قليل من كثير كتبه جلال الدين السيوطى وتعرض فيه للمرأة من قريب ومن بعيد ، تعرض لها فى دراسات جادة هادفة ، وتعرض لها فى دراسات ملؤها السخرية والاستخفاف الأمر الذى يدفعنا الى الترجيح بأن السيوطى شأنه شأن معاصريه كان ينظر الى المرأة نظرة الازدراء والاستخفاف ، كان ينظر اليها كأداة للمتعة والاستغلال ، كان يعتبرها بمثابة دمية خلقها الله للذة والاستمتاع ، بدليل ما جاء فى مصنفاته عن النكاح التى لا يستطيع المرء أن يقرأها دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل لما جاء فيها من معلومات لا تليق بتلك التى ساهمت بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية على عصره خاصة ، لا يستطيع المرء قراءتها دون أن تخدش عينه قبل أذنه تلك الألفاظ البذيئة التى وردت فى هذه المؤلفات بل فى عناوينها أحيانا •

لقد حاول السيوطى فى هذه المجموعة الهزلية من المؤلفات أن

يعرض بالمرأة متناسيا سر وجوده ، لأنه لولا المرأة ما كان جلال الدين السيوطى الذى يقف بين صفوف علماء العصور الوسطى ، لقد نسى هذا العالم الهمام أمه التى أعطته الحياة ، لقد نسى تلك التى حملته وهنا على وهن ، لقد نسى تلك التى رعته صغيرا وسهرت الليالى على راحته وتربيته ، لقد تنكر لكل هذا بعد أن شب وبلغ مبلغ الرجال وأخذ ينظر الى المرأة نظرة المتعة والاستمتاع • ومع هذا فهو يناقض نفسه عندما يشير الى تراجم بعض شهيرات النساء ، يناقض نفسه عندما يشير اليهن بين صفوف العلماء والأفاضل من بنى جلدته • يناقض نفسه عندما يشير الى كل من زينب بنت سليمان الاسعردية وموفقية بنت عبد الوهاب ، بين طبقة المحدثين المنفردين بعلو الاسناد (٧٤) •

والسؤال هنا هل من الممكن أن تكون هذه المصنفات قد دست على جلال الدين السيوطى خاصة ونحن نعرف كاتبا آخر باسم السيوطى وهو محمد بن ناصر الدين أبوبكر يحيى ، الذى كان يكبره سنا ، والذى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى واعتبره بروكلمان جدا له (٧٥) أم تراه أى جلال الدين السيوطى قد قام بنقلها ونسبها الى نفسه (٧٦) وهو غير واع الى ما فيها ، رغبة فى الاكثار من انتاجه ، وعملا على ذيوع أسمه فى عصر تبارى فيه المؤلفون فى التأليف والتصنيف فى شتى الموضوعات، خاصة وان الذى يقرأ ما كتبه عن فاطمة بنت عباس البغدادية من أنها كانت « عالمة فقيهة ، زاهدة قانتة واعظة ، سيدة نساء زمانها ، وافرة العلم ، حريصة على النفع والتذكير ، ذات اخلاص وحشمة وأمر بالمعروف ، انصلح بها نساء دمشق ثم نساء مصر (٧٧) » ، من يقرأ هذا لا يستطيع أن يقبل بسهولة تلك الصورة التى رسمها للمرأة فى بعض مؤلفاته وبصفة خاصة فى كتب النكاح !

للرد على هذه التساؤلات ينبغى أن نعرف السبب وراء اقبال

السيوطى على الكتابة فى مثل تلك الموضوعات ، وهو بكل اسف ما لا نستطيع التوصل اليه لعدم اشارة السيوطى الى ذلك صراحة فى احد أحد من مصنفاته ، بل يكفينا أن تتذكر فى هذا المجال عبارته الشهيرة حين قال :

« والآن قد كملت عندى الآت الاجتهاد بحمدالله تعالى ٠ ٠٠
ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها
النقلية والقياسية ٠٠٠ لقدرت على ذلك من فضل ٠٠٠(٧٨)

أتراه اذا قد أراد أن يثبت لعلماء عصره أنه قادر على التصنيف فى مثل هذه الموضوعات الهزلية ، ثم تنبه فجأة الى مدى فداحة الخطأ الذى وقع فيه ، فقرر أن يتنكر لمثل هذه المؤلفات بدليل ما جاء فى ترجمة حياته من أن مؤلفاته قد بلغت وقت وضعه لكتاب حسن المحاضرة ، ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه (٧٩) ٠ اذ تقودنا عبارته الأخيرة الى التأكيد بأنه قد ندم على التأليف فى عدد من الموضوعات فقرر الرجوع عنها وغسل يده منها ، لكننا نجهل مع الأسف نوعية هذه الموضوعات التى مجدها جلال الدين السيوطى ونفض يده منها ، وان كنا نميل الى الترجيح فى الوقت ذاته الى أنها لا بد وان تكون من شاكلة تلك الموضوعات التى حاول فيها جلال الدين السيوطى أن يظهر أن الله قد خلق المرأة للذة والاستمتاع فقط ٠

بيد أنه ليس من النصفة فى شىء أن نقيس السيوطى ، وهو المحسوب نابغة زمانه وأشهر علماء عصره بمقاييس اليوم ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثير من الباحثين عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصور السابقة بعقلية العصر ومنطق العصر الذى يعيشون فيه ، متناسين ذلك التراث الضخم من العادات والتقاليد

التى كانت تسود مجتمعات العصور السابقة والتى لم يتبق منها مجرد الأثر فى مجتمع العصر الحديث ، وحسبنا دليلا على ذلك أن من يقرأ ما ذكره السيوطى عن نفسه فى ترجمة حياته ليشعر من الوهلة الأولى بمدى ادعاء هذا العالم وبمدى غروره (٨٠) .

الحـــواشي

١ ـ السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقـاهرة ، القاهره ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ ، ج ١ ، ص ١٥٥ ــ ١٦١ ، السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ ــ ١٣٥٥ هـ ، ج ٤ ، ص ٦٥ ــ ٧٠ ، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٩١٢ ــ ١٩٣٣ ، ج ٨ ، ص ٥١ ــ ٥٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، الزركلي ، الاعلام ، القاهرة ١٩٥٤ ، ج ٤ ، ص ٧٠ ــ ٧١ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ــ ١٣١ ٠

٢ ـ Encyclopédie de l'Islam, Leiden 1934, art. as-Suyûti, IV, p. 601.

٣ ـ محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٦ ٠

٤ ـ عن هذه المدرسة أنظر ، المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ، السيوطي ، حســن المحـاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، سعاد محمد حسن ، أعمال الأمير شـيخو العمري النـاصري المعمارية بالقاهرة ، (رسالة ماجستير ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥) ، فهرس الآثار الاسـلامية بمدينة القاهرة ، القاهرة ١٩٥١ ، أثر رقم ١٤٧ ٠

٥ ـ ترجم السيوطي لأبيه في كتاب ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وأيضا في كتــاب ، بغية الوعاة في طبقات النحاة ، القـاهرة ١٣٢٦ هـ ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ ٠

٦ ـ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ، ص ١٥٧ وما بعدها . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ ٠

٧ ـ Encyclopédie de l'Islam, art. as-Suyûti.

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٥ ٠

٨ ـ يوسف سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ١٠٧٤ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٥ ٠

٩ ــ أنظر ، فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، أثر رقم ١٤٩ وهى المعروفة باسم خانقاة الناصر فرج بن برقوق ٠

١٩ ــ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ ٠

١٠ ــ هى خانقاه بيبرس الجاشنكير التى شيدها سنة ١٣٠٦/٧٠٦ ، أنظر ، فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، أثر رقم ٣٢ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٤١٦ ٠

١١ ــ

ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ ــ ١٨٩٥ ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٩ ٠

١٢ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٧٠ ٠

١٣ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٤٧١ ٠

١٤ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦ ٠

١٥ ــ المقصود بها مدرسة السلطان الغورى التى شيدها سنة ١٥٠٤/٩٠٩ بأول شـــارع الغوريه ، أنظر فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، أثر رقم ١٨٩ ٠

١٦ ــ الشعرانى ، ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ ٠

١٧ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، يوسف سركيس ، معجم المطبوعات ، ص ١٠٧٤ ، محمد مصطفى زياده ، المؤرخون فى مصر ، ص ٦٨ ٠
وأنظر أيضا أحمد تيمور ، قبر السـيوطى وتحقيق موقعه ، مخطوط بدار الكتب المصرية ــ رقم ٢٤٥٢ تيمور ٠

١٨ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ ٠

١٩ ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٧ ٠

٢٠ ــ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ ٠

٢١ ــ

٢٢ ــ محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون ، ص ٦٠ ،

٢٣ ــ قال السيوطى نقلا عن الشعرانى « خالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفا بينت فيه وجه الحق ، أنظر الشعرانى ، ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤ ٠

٢٤ ــ ورد فى هدية العارفين للبغدادى تحت اسم اسـبال الكاء على النســاء ، أنظر ، البغدادى ، هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ ٠

والكاء هو الضعف والجبن كما جاء فى قاموس الصحاح فى اللغة ، ج ١ ، ص ٧٠

١٥ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون ، القاهرة ١٩٤١ ـ ١٩٤٣ ، ج ١ ، ص ٧٧ .

٢٦ ـ البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ .

٢٧ ـ البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ .

٢٨ ـ الجوهرى ، الصحاح فى اللغة ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

٢٩ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٣٣ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ ،
الذى ذكره تحت اسم الافصاح بأحاديث النكاح .

٣٠ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

٣١ ـ فؤاد السيد ، نوادر المخطوطات فى مكتبة طلعت ، مجلة معهد المخطوطات العربيه ، المجلد الثالث ، نوفمبر ١٩٥٧ ، ص ٢١٦ ، وقد ذكره بروكلمان تحت اسم : نوادر الأيك ، وكتاب الأيك فى علم .. أنظر
على حين أشار اليه حاجى خليفة تحت اسم نواضر الأيك فى .. ، أنظر ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٩٨١ .

٣٢ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، البغدادى هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٧ ،

٣٣ ـ السيوطى ، حسن المحاضره ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، على حين ذكره كل من البغدادى وبروكلمان وحاجى خليفة تحت اسم الثغور الباسمة فى مناقب السيدة فاطمة أنظر ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٢١ ،

٣٤ ـ أنظر ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٢٣ ، البغدادى هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٨ .

٣٥ ـ الزركلى ، الأعلام ، ج ٤ ، ص ٧٢ . Brockelmann, Geschichte II supp., p. 197 فهارس رامبور ، ج ١ ، ص ٦٢٨ فهارس دار الكتب ، ج ١ ، ص ١١٥ .

٣٦ ـ ذكرها السيوطى فى حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، تحت اسم المستظرفة فى أحكام دخول الحشفة ، أنظر ، Brockelmann Geschichte, II supp., p. 192; Voorhoeve, Handlist of Arabic manuscripts, Leyden, 1957, p. 6.

٣٧ ـ Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 189.

٣٨ ـ وهى تعرف أيضا باسم وصية النبى لابنته فاطمة انظر ، Brockelmann, Geschichte, II supp., pp. 188-189.

٣٩ ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٩١٦ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٩ .

٤٠ ـ قرآن كريم ، سورة البقرة رقم ٢٢٢ ٠

٤١ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٠٨٩ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٠ ٠

٤٢ ـ ذكر الجوهرى أن الزرنب هو صرب من النبات طيب الرائحة ، أنظر ، الصحاح فى اللغة ، ج ١ ، ص ١٤٣ ٠

٤٣ ـ Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 191; Voorhoeve, Handlist of Arabic Manuscripts, p. 318.
الذى ذكره تحت اسم رسالة السلاله الزيبية ٠

٤٤ ـ فهارس دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، فهارس مكتبة لامبور ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٨٨١ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ص ٥٤ ، Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 189.

٤٥ ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ٠

٤٦ ـ فهارس دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٢٧٨ ـ ١٢٧٩ ،
Voorhoeve, Handlist of Arabic manuscripts, p. 74.

٤٧ ـ السيوطى ، برد الاكباد عند فقد الأولاد ، القاهره ١٣٠٤ هـ ، ص ٣٤ ٠

٤٨ ـ السيوطى ، حسن المحاضره ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج١ ، ص ٥٤١ ٠

٤٩ ـ السيوطى ، التعظيم والمنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة ، القاهرة ١٣١٧ هـ ٠

٥٠ ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ٠

٥١ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٥٧٩ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٢ ٠

٥٢ ـ محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر ، ص ٦١ ٠

٥٣ ـ السيوطى ، منتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ـ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢١ ، حسن المحاضرة ج ١٥٩/١ ٠

٥٤ ـ فهارس دار الكتب المصرية ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ ، حاجى خليفة ، ج ٢ ، ص ١٩٤٤ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٣ ،

٥٥ ـ Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 193.

٥٦ ـ نستطيع أن نقرأ هذه العبارة بالنص فى احدى كتب الشعرانى وهو كتاب ، لواقح الأنوارع القدسية فى بيان العهود المحمدية ، القاهرة ١٣١١ هـ ، ج ٢ ، ٣٥ ـ ٣٦ ، مما يوضح لنا الصلة بين السيوطى والشعرانى اذ اعتمد الأخير على رسالة الأول دون الاشارة ليه من قريب أو بعيد ٠

٥٧ — Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 192; Voorhoeve, Handlist of Arabic manuscripts, p. 401.
حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٩٨١ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ، الذي ذكره تحت اسم الوشاح في معرفة النكاح .

٥٨ — السيوطي ، الايضاح في علم النكاح ، القاهرة ١٢٧٩ هـ ، هذا ويشير اليه حاجي خليفة تحت اسم ، الايضاح في أسرار النكاح ، أنظر ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

٥٩ — أحمد عبد الرازق ، المرأة في مصر المملوكية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١ .

٦٠ — الياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية ، ج ١ ، ص ١٠٧٦ .

٦١ — السيوطي ، التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة ، حيدر آباد ١٣١٧ هـ .

٦٢ — السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

٦٣ — طبع هذا الكتاب عدة طبعات ، يشيع في معظمها التصحيف والتحريف والخطأ ، الأولى بمصر سنة ١٨٦٠ ، والثانية في مطبعة الوطن سنة ١٢٩٩ هـ ، والثالثة بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٤ هـ ، والرابعة بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ ، والخامسة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣٢٧ ، والأخيرة بالقاهرة سنة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ .

٦٤ — أنظر ما جاء به بصدد قمصان النساء الواسعة في ج ٢ ، ص ٢١٧ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة في مصر المملوكية ، ص ١٧٤ .

٦٥ — أنظر ، سركيس ، معجم المؤلفين ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، حيث ذكرا أنه طبع بمصر طبعة حجر .

٦٦ — محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر ، ص ٦٣ .

٦٧ — طبع هذا الكتاب في حيدر آباد سنة ١٣١٦ هـ .

٦٨ — أنظر الحاشية رقم (٥٠) ، ورقم (٦٢) .

٦٩ — قام بنشر هذا الكتاب وتحقيقه الدكتور صلاح الدين المنجد ، أنظر رجاء محمود السامرئي ، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٣٣ .

٧٠ — عني بنشر هذا الكتاب أيضا وتحقيقه الدكتور صلاح الدين المنجد كما جاء في مقدمة الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لرجاء محمود السامرئي ، ص ٣٣ .

٧١ — قام بنشر هذا الكتاب فيليب حتى حيث صدر في نيويورك سنة ١٩٢٧ .

٧٢ — السيوطي ، نظم العقيان ، ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٤ .

٧٣ — قام بنشر هذا الكتاب الدكتور سعد أطلس في بغداد سنة ١٩٥٠ .

٧٤ — السيوطي ، حسن المحاضرة ، طبعة محمد أبو الفضل ، ج ١ ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٩ .

ـ ٧٥

٧٦ ـ من طريف ما يذكر فى هذا المجال ما أورده السخاوى فى ترجمة السيوطى من أنه « أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيرا من التصانيف المتقدمة التى لا عهد لكثير من العصريين بها ، فغير فيها يسيرا وقدم وأخر ونسبها لنفسه وهول فى مقدماتها ، بما يتوهم منه الجاهل شيئا ، مما لا يوفى بعضه » أنظر السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، فؤاد السيد ، نصـــان قديمان فى اعارة الكتب ، مجلة معهد المخطوطات ، مايو ١٩٥٨ ، ص ١٢٩ ٠

٧٧ ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، طبعة محمد أبو الفضل ، ج ١ ، ص ٣٩٠ ٠

٧٨ ـ راجع الحاشية رقم (٦) ٠٠

٧٩ ـ راجع الحاشية رقم (١٩) ٠

٨٠ ـ السيوطى ، نظم العقيان ، ص ر ٠

القسم الرابع

السّيوطيّ والعلومُ الدينيّة

السيوطي والدراسات القرآنية

للأستاذ الدكتور أحمد شلبي

استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

السيوطى : المفكر الموسوعى

ان الدارس لحياة السيوطى واتجاهاته الفكرية يدرك بيسر أنه يمكن أن يطلق عليه «المفكر الموسوعى» ذلك لأن دراساته قد تعددت وشملت أكثر فروع المعرفة التى عرفها عصره ، وكان السيوطى كثير الاطلاع ، سريع الاستيعاب ، كما كان كثير الأساتذة والشيوخ ، وكل هذا انعكس على حياة السيوطى فتبحر فى العلوم والمعارف ، وأصبح من أساطين المفكرين .

ومن ناحية أخرى كان للسيوطى قدرات عالية فى مجال الكلمة مقولة ومكتوبة ، ومن هنا سهل عليه أن يسكب فكره فى عدد كبير من المؤلفات .

وناحية ثالثة : هى أن السيوطى عندما بلغ الأربعين من عمره اعتزل الناس وعاش فى خلوة بجزيرة الروضة وتفرغ للكتابة زاهدا عن الكسب وراغبا عن الدنيا ومتطلعا للذكر الدائم والعمل الباقى ، وفى هذه العزلة تعفف عما بأيدى الناس ورد هدايا الملوك والعظماء ، فقد رأى فى العلم كل ثراء يطمع فيه الانسان العاقل .

ومن هنا بلغت مؤلفات السيوطى عدة مئات ، وهو يقول عنها

« بلغت مؤلفاتى حتى الآن ثلثمائة كتاب سوى مـا غسلته ورجعت عنه » وهذه الجملة تفيدنا أنه بالاضافة الى كثرة العدد كان السيوطى دائم المراجعة لما كتب ، فهو يحسنه ويضيف عليه أو يرجع عنه فيزيله.
ويبدو ان السيوطى كتب كتبا كثيرة أخرى بعد أن قال قولته السابقة، لأن الباحثين المحدثين يعدون له أكثر من خمسمائة كتاب كما قال بروكلمان وفلوجل .

وقد صنف السيوطى مؤلفاته فجعلها أربع مجموعات :

المجموعة الأولى : المجموعة القرآنية وتشمل دراسات عن القرآن والتفسير .

المجموعة الثانية : فن الحديث وتعلقـاته .

المجموعة الثالثة : فن الفقه وتعلقاته .

المجموعة الرابعة : الأجزاء المفردة كاللغة والتاريخ .

وكان للسيوطى فى المجال التاريخى باع طويل فقد كتب فى عدة اتجاهات تاريخية ؛ كفن التاريخ الذى كتب فيه « الشماريخ فى علم التاريخ » وكالتاريخ العام الذى كتب فيه « تاريخ الخلفاء » وكتاريخ مصر الذى كتب فيه « حسـن المحاضرة فى أخبـار مصر والقاهرة » وكدراسته عن الطبقات حيث كتب « بغية الوعاة فى طبقات اللغـويين والنحاة » وكذلك « طبقات المفسرين » وكتب كذلك فى الأنساب كتابه « لب الالباب فى تحرير الانساب » وفى التراجم كتب عدة كتب منها « أنباء الأذكياء لحياة الأنبياء » و « در السحابة فيمن وصـل مصر من الصحابة » و « مناقب أبى حنيفة » و « تزيين الممالك بمناقب الامام مالك » .

ولا تزال هناك مخطوطات تاريخية للسيوطى لم تنشر بعد ، منها «تراجم شيوخ السيوطى» و «نسب بعض الصحابة وبعض الاشراف من ملوك لمتونة والموحدين » و « تاريخ جزيرة الروضة » وغيرها .

وعندما اتجه العزم الى أن يكون السيوطى موضوع الندوة التى تقيمها هذا العام (١٩٧٦) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خطر ببالى أن أكثر الزملاء من الأساتذة والمؤرخين قد يتجهون بأبحاثهم عن السيوطى الى الناحية التاريخية ليعرضوا فكره واتجاهاته التاريخية ، فاتجهت لجانب مهم من جوانب السيوطى وهو جانب الدراسات القرآنية عنده ، وقد هالنى أنه كتب فى هذا المجال مجموعة ضخمة من المؤلفات التى تعد مراجع مهمة للباحثين والدارسين وأهمها :

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن .

٢ ـ الأكليل فى أسباب التنزيل .

٣ ـ لباب النقول فى أسباب النزول .

٤ ـ متشابه القرآن .

٥ ـ مفحمات القرآن فى مبهمات القرآن .

٦ ـ معترك الأقران فى اعجاز القرآن .

٧ ـ مجاز الفرسان الى مجاز القرآن .

٨ ـ مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع .

٩ ـ تناسب الدرر فى تناسب السور .

١٠ ـ تفسير الجلالين (بالاشتراك مع الامام جلال الدين المحلى) .

وقد وضعت هذه الكتب أمامى ورحت أتدارس عن طريقها اتجاهات السيوطى فى مجال الدراسات القرآنية ويسرنى أن أقدم منها شعاعا لعله يعكس فكرة موجزة عن العمل الكبير الذى قام به السيوطى فى هذا المجال ، مع ملاحظة أن آراء السيوطى فى بعض الموضوعات عن القرآن الكريم ألزمتنى أن أعود لمراجع أخرى ، وذلك للمقارنة أو لاستكمال فكرة البحث ، ولكننى حرصت على أن يظل السيوطى أساس العمل بحيث لا تتجاوزه الى غيره الا لمسيس الحاجة .

وقبل أن ندخل مجال البحث أحب أن أوضح نقطتين مهمتين :

النقطة الأولى : عدد مؤلفات السيوطي :

ذكرنا آنفا أن عدد مؤلفات السيوطي وصل الى عدة مئات ، ومرجع هذه الكثرة الهائلة يرجع فى تقديرى الى عاملين : أولهما ان كثيرا من مؤلفات السيوطى رسائل صغيرة وقد تداخلت أحيانا بعضها فى بعض ، فمثلا كتابه « مفحمات الاقران فى مبهمات القرآن » نجده كله أو خلاصته فى كتاب « معترك الأقران » ثم نجد « معترك الاقران » جزءا من كتاب « الاتقان » بل يمكن القول بدون خوف أن كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » يحوى أكثر ما كتبه السيوطى عن القرآن فى كتبه الأخرى ، فكأنه كتبها رسائل عن مباحث مختلفة ترتبط بالقرآن من أسباب التنزيل الى المتشابه فالمبهمات وتناسب السور ... ثم جمعها كلها فى « الاتقان فى علوم القرآن » الذى جعل اسمه أميل الى الشمول ليضم مختلف البحوث الأخرى التى اتجه كل منها الى مبحث خاص .

والعامل الثانى فى كثرة مؤلفات السيوطى هو الذى أشرنا اليه سابقا من أنه اعتزل الناس وتفرغ للتأليف عندما بلغ الأربعين ، وأين هذا من الصراع الذى يدور فيه أكثر الباحثين اليوم للجرى خلف المال أو الجاه مما لا يترك وقتا للتفكير أو الدرس والتدوين .

النقطة الثانية : موقف السيوطى من مؤلفات الآخرين :

كثير من الناس يبهرهم العدد الرهيب لمؤلفات السيوطى ، فيتخذون من ذلك وسيلة للنيل من الرجل أو اتهامه بأنه سطا على مؤلفات الآخرين .

والحق أن الذى يمعن النظر فى مؤلفات السيوطى يجله عن هذا

الوصف ، او يرى فيه باحثا أقرب ما يكون الى الباحثين المعاصرين ، والى طرق بحثهم ، فهو يختار المشكلة التى تحتاج الى بحث ، ويدرس كل ما كتب عنها ، ويبرز نواحى النقص ، ويعد باكمال ما فات ، ويضع خطة بناء على ذلك ، ويحلل مراجعة تحليلا دقيقا ، وينسب كل اقتباس الى صاحبه ، والفرق بينه وبين المنهج الجديد هو أنه لا يذكر صفحات الكتب التى يقتبس منها ، وله فى ذلك عذره طبعا فلم تكن هناك طبعات يعتمد عليها على نحو ما هو واقع الآن •

وقد خطر لى أن أورد هنا بعض نماذج من عمل السيوطى ، ولكنى رأيت أن ذلك يحتاج الى فراغ واسع لطول ما شرح وتكلم عن مراجعه ، وحسبك أن تقرأ مقدمة « الاتقان » الطويلة لترى مراجعه وتحليلها ونقدها ، ولتسمعه بعد أن رسم خطته يقول « ان هذه المباحث التى سأخوضها ، فيها تصانيف مفردة وقفت على كثير منها ، ولكنها فى الحقيقية ليست كالمنهج الذى رسمته ولا قريبا منه ، وانما هى طائفة يسيرة ونبذ قصيرة مثل : فنون الأفنان فى علوم القرآن لابن الجوزى ، وجمال القراء للسخاوى والمرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز لابى شامة والبرهان فى مشكلات القرآن لابى المعالى عبد الملك ، وكلها بالنسبة الى « الاتقان » كحبة رمل بجانب رمل عالج ، ونقطة قطر فى حيال بحر زاخر •

ويمتاز السيوطى فى ذكر مراجعه بتصنيفها ، فهو لا يذكرها كلها جملة واحدة ، وانما يصنفها طبقا لموضوعاتها ، وقد صنف مراجعه فى الاتقان الى نقلية ، والى كتب االقراءات وتعلقات الاداء ، وكتب اللغات والغريب والعربية والاعراب ، والى كتب الأحكام وتعلقاتها ، والى الكتب المتعلقة بالاعجاز وفنون البلاغة ، والى كتب الرسم ، ثم تفاسير غير المحدثين ، ثم يختمها بما أسماه الكتب فيما سوى ذلك من الأنواع

وتحت كل قسم من هذه الأقسام يذكر عشرات الكتب التى قرأهـا وانتفع بها . (١)

فاذا تركنا مقدمة الكتاب وذهبنا الى مباحثه داخل « الاتقـان » وجدناه يفتتح أى مبحث بذكر من دون فيه ، فهو فى أسـباب النزول يبدأ بأن يقول : « أفرده بالتأليف جماعة أقدمهم على بن المدينى شيخ البخارى ، ومن أشهرها كتاب الواحدى على ما فيه من أعواز ، وقد اختصره الجعبرى فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا ، وألف فيه شيخ الاسلام أبو الفضل بن حجر كتابا مات عنه مسـودة ، فلم نقف عليه كاملا ، وقد ألفت فيه كتابا حافلا موجزا محررا لم يؤلف مثله فى هذا النوع سميته لباب النقول فى أسباب النزول . قال الجعبرى : نزول القرآن على نسميته .. (٢)

وهذا النسق هو طبيعة عمل السيوطى وهو لا يكتفى بالاشارة الموجزة للكتاب ، وانما يحدد اقتباساته منه ويقبلها أو ينقدها ، فهو فى الحديث عن مشكل القرآن وموهمه يقول : (٣) .. قال أبو اسحق الاسفرائينى ... وقال الصرفى ... وقال الكرمانى .. وفى حقيقة القرآن ومجازه يقول (٤) .. وقال الفارسى .. وقال ابن جنى ... وقال الزمخشرى ... وقال الكواشى ... وقال ابن عبد السلام ... وقال الفراء ...

وهكذا تراه دائما يذكر مراجعه فى كل باب (٥) ويحللها ويقتبس منها أحيانا وينقدها أحيـانا أخرى مما يدل على علو قدم فى كتابه البحث وتدوين الأفكار .

---

(١) انظر الصفحات من ٢ الى ١٢ من الاتقان

(٢) الاتقان جـ ١ ص ٤٨ .

(٣) الاتقان جـ ٢ ص ٤٤ وما بعدها .

(٤) الاتقان جـ ٢ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٥) انظر مراجعة فى التشبيه والاستعارة ومناسبة الآيات والسور ومراجعه فى اعجاز القرآن وغير ذلك من البحوث .

هذا وللسيوطى فضل عظيم فى أنه حفظ لنا مجموعة كبيرة من أفكار السابقين فيما أقتبس عنهم ، فهناك مراجع كثيرة لا تعرفها المكتبة العربية الا عن طريق ذكرها فى مؤلفاته .

السيوطى والدراسات القرآنية

وبعد ذلك نجىء للحديث عن جهد السيوطى فى الدراسات القرآنية (١) ، والحق أن نشاط السيوطى فى هذا المجال كان واسع المدى كما تنبىء عن ذلك مؤلفاته التى أشرنا اليها وما تحويه من مباحث واسعة وشاملة تبدأ بالمكى من القرآن والمدنى منه ثم تستمر فى الكلام عن الحضرى والسفرى والنهارى والليلى ، والصيفى والشتائى ، وتبين أول ما نزل وآخر ما نزل وأسباب النزول، وما تكرر نزوله ، وما تأخر حكمه عن نزوله ، وما تأخر نزوله عن حكمه ، وتشرح أسماء السور ، وجمع القرآن وترتيبه ، ويفيض فى الحديث عن وسائل اعجازه ، وعن مجمله ومبينه ، وناسخه ومنسوخه وعن القراءات والمبهمات ، والتطريب به ، وطبقات مفسريه ، وغير ذلك مما لم يدع شيئا عنه دون حديث شاق ووصف مفصل .

وسنلم فيما يلى المامة خفيفة ببعض النقاط التى عرضها السيوطى أو اقتبسها من السابقين الذين اعتمد عليهم وأشار لجهدهم:

مراحل جمع القرآن :

يلخص السيوطى مراحل جمع القرآن فيقرر نقلا عن بعض شيوخه أن القرآن جمع ثلاث مرات :

الأولى : فى عهد الرسول وكان ذلك بمثابة وضع الآيات فى أمكنتها من كل سورة ، ويقرر الخطابى أن الرسول لم يجمع القرآن

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يراجع القارىء الجزء السابع من « موسوعة النظم والحضارة الاسلامية » للدكتور أحمد شلبى .

فى مصحف بسبب ما كان يمكن أن يحدث من ورود نســـخ لبعض آياته •

الثانية : فى عهد أبى بكر وكان ذلك بمثابة جمع القرآن كله فى مصحف واحد •

الثالثة : فى عهد عثمان وكان ذلك بمثابة نشر لهذا المخطوط فى محاولة توحيد القراءة فى المناطق الاسلامية المختلفة (١) •

القراءات :

عقد السيوطى (٢) فصلا عن الأخذ بافراد القراءات أو جمعها ، وذكر أن الذى عليه السلف هو أخذ كل ختمة برواية ، فمـا كانوا يجمعون رواية الى غيرها حتى المائة الخامسة ، ثم ظهر جمع القراءات فى الختمة الواحدة ، ولم يكونوا يسمحون بذلك الا لمن أفرد القراءات وأتقن طرقها ، وقرأ لكل قارىء بختمة على حدة •

وتتيجة ذلك هى :

١ ــ السلف الصالح لم يعرفوا الروايات مجتمعة ، بل كان الذى يقرأ يقرأ برواية واحدة ، وظل ذلك حتى القرن الخامس •

٢ ــ القراءة بروايات متعددة أجيزت بعـــد ذلك للتعلم ، أى كان القارىء يقرأ ليتعلم هذه القراءات •

٣ ــ لم أقابل فى المراجع التى بين يدى على كثرتها من يجيز القراءات للناس بروايات متعـــددة ، بل لا يوجد من يقرأ لمجموعة من الناس برواية غير معروفة لهم •

---

(١) انظر الاتقان جـ ١ ص ٩٨ ــ ١٠٢ بايجاز •

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٧٦ •

القرآن والعلم :

رفع القرآن الكريم شأن العلم ووضعه فى مكانة سامية جليلة ، وأكبر دليل على ذلك أن أول سورتين نزلتا من الذكر الحكيم تقرران قيمة الكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة ، والسورة الأولى التى تتكلم عن الكلية المقروءة هى قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم (١) » وتلك أول آيات نزلت من القرآن ، والسورة التى نزلت بعد سورة اقرأ بناء على رأى الأكثرين (٢) هى سورة « ن » التى مطلعها :

« ن والقلم وما يسطرون (٣) » وعلى هذا فالآيات الأولى تتكلم عن القراءة ، والآيات الثانية تتكلم عن الكتابة ، وذلك قمة التقدير للفكر مقولا أو مكتوبا .

وبعد ذلك تجىء فى القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت جلال العلم ومكانة العلماء ، ومنها قوله تعالى :

ـ شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٤) .

ـ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٥) .

ـ يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات (٦).

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ ـ ٥ .
(٢) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٤٢ .
(٣) سورة القلم الآية الأولى .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٥) سورة الزمر الآية التاسعة .
(٦) سورة المجادلة الآية ١١ .

ـ وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب (١) .

دلك قدر اجمالى يبرز مكانةالعلموالعلماء كما وردت فى القرآن الكريم ، ولكن ينبغى أن يكون واضحا أن القرآن الكريم ليس كتابا فى الدراسات العلمية طبية أو فلكية أو نحوها ، وفى ذلك يقول الامام محمد عبده (٢) : انه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ... » ولكن القرآن مع ذلك حوى بعض اللمحات العلمية التى أثبت العلم الحديث دقتها ، ومن ذلك قوله تعالى : « خلق الانسان من علق » (٣) .

فالعالم الاسلامى القديم كان لا يفهم من هذه الآية الا ظاهرها اللفظى فكان يقول فى تفسيرها : العلق جمع علقة ، أو يقول عنها الدم المتجمد ، ثم ينتقل سريعا الى غيرها من الآيات ، ولكن عندما ظهر الميكرسكوب فى العصر الحديث تبين لنا أن هذا الماء الذى ينتقل من الذكر الى الأنثى ، والذى هو أصل الحياة البشرية ليس فى حقيقته الا ملايين الملايين من الحيوانات المنوية الدقيقة التى تشبه العلق فى شكلها ، وهكذا ينجلى هذا السر الرائع الذى تنطوى عليه هذه الآية والذى لم يظهره لنا الا الكشوف العلمية الحديثة .

وشبيه بهذه الآية آية أخرى لم يدرك الأقدمون معناها الحقيقى وكانوا يفسرونها تفسيرا مجملا ، وهى قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح (٤) » فما كان البشر يعرفون من قبل أن النبات كائن حى

(١) سورة آل عمران الآية السابعة .

(٢) رسالة التوحيد (عند الكلام عن الرسل) وأنظر كذلك كتاب « الاسلام » من سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبى ص ١٠٧ من الطبعة الخامسة .

(٣) سورة العلق الآية الثانيه .

(٤) سورة الحجر الآية ٢٢ .

كالانسان والحيوان ، وأنه يتألف من ذكر وأنثى ، وأنه يتلاقح كما تتلاقح بقية الأحياء ، وأن الرياح فى كثير من الأحيان هى واسطة هذا التلاقح (١) •

وهكذا تتضح لنا اشراقات جديدة كل يوم من آيات القرآن الكريم كلما استطاع العلم أن يصل الى كنه ما يحويه •

اعجاز القرآن

المخرقة والكرامة والمعجزة :

لعل من الخير ان نبدأ حديثنا عن اعجاز القرآن بابراز الفرق بين المخرقة والكرامة والمعجزة ، وقد تحدث الفيروز ابادى عن المعجزة فذكر معناها وقارنها بالمظاهر غير العادية كالمخرقة والكرامة ، وسرد بوجه عام الاتجاهات حول اعجاز القرآن ، وهاك موجز ما قال (٢) :

يقصد بالمخرقة الأمور الخارقة للعادة بحيلة أو سحر أو آلة أو ما يشبه ذلك والفرق بينها وبين المعجزة أن المخرقة لا حقيقة لها ولا بقاء ، وانما هى وهم زائل ، ولكن المعجزة حقيقة واقعة باقية لا تنقض•

والمخرقة يعجز عنها العامة ولكن الحذاق والأذكياء لا يعجزون عنها ، واما المعجزة فالخواص والعوام على درجة واحدة فى العجز عن الاتيان بمثلها •

والمخرقة متداولة بين الناس فى جميع الأزمان ، واما المعجزة فمختصة بزمان النبوة •

واما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو ان المعجزة مختصة

---

(١) أنظر كتاب « الاسلام ورسوله بلغة العصر » للأستاذ أحمد حسين ص ١٨٩ وما بعدها •

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ٦٥ ــ ٦٧ •

بالانبياء ، ويبرزها النبى ويتحدى بها ، وتحصل منحة من الله وأحيانا ترتبط بالدعاء ، ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد • واما الكرامة فلا يتحدى بها من ظهرت على يده وكتمانها واجب وان حاول اظهارها واشاعتها زالت وبطلت •

وأفضل معجزات محمد عليه السلام وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذى نزل عليه بأفصح اللغات وأصحها وأبلغها ، بعد أن لم يكن كاتبا ولا شاعرا ولا قارئا ، وقد تحدى البلغاء والفصحاء ان يأتوا بسورة من مثله ولكنهم عجزوا تماما فثبت ان القرآن معجز بدون شك •

اتجاهات الاعجاز :

ومع اتفاق المسلمين على أن القرآن معجز اختلفوا فى كيفية الاعجاز :

فقال بعضهم (١) ان الاعجاز هو أن الله صرف همة الناس وحبس ألسنتهم وسلب قدرتهم على الاتيان بمثل القرآن • وذلك الرأى مردود لأنه لا يشمل تفوقا ذاتيا للقرآن ، وقد حاول مسيلمة الكذاب وعدد من الفصحاء والبلغاء معارضة القرآن فلم يأتوا الا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع (٢) ، وقد روى أن ابن المقفع رام ذلك وطلبه وشرع فيه ، ثم مر بصبى يقرأ قوله تعالى « وقيل يا أرضى ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى » •• (٣) فرجع ومحا ما عمل وقال : أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر (٤) وروى ان يحيى بن حكيم

(١) ممن قال بذلك النظام المعتزلى ولكن تلميذه الجاحظ رد عليه هذا الاتجاه ووضح أن اعجاز القرآن ايجابى وليس سلبيا •

(٢) السيوطى : الاتقان جـ ٢ ص ٢٠٢ •

(٣) سورة هود الآية ٢٤٤ •

(٤) السيوطى : معترك الأقران ص ٢٤٣ •

الغزال بليغ الأندلس فى زمنه اتجه الى معارضة القرآن ، ووضع سورة الاخلاص امامه ليحذو حذوها ولكنه سرعان ما اضطرب واحتوته خشية فعاد يتوب وينوب (١) .

وقال بعض الباحثين ان عجز الأدباء والمفكرين عن معارضة القرآن كان لعدم قدرتهم على الآتيان بمثل معانى القرآن وتشريعاته وأفكاره ، ولم يكن عجزا عن الآيتان بمثل لفظه (٢) .

وأورد السيوطى آراء كثير من علماء المسلمين فى وجه الاعجاز فقال (٣)

قال قوم : وجه اعجازه ما فيه من الأخبار عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب .

وقال آخرون : ما تضمنه من الأخبار عن قصص الأولين ، وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها .

وقال آخرون : ما تضمنه من الأخبار عما يستره الناس ، ولا يظهرونه بقول أو فعل كقوله تعالى « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » (٤) . وقوله :

« ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله » (٥) .

وقال القاضى أبو بكر : وجه اعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف ، وانه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم ، وقرر القاضى أبو بكر اعتقاده ان الاعجاز فى بعض القرآن اظهر ، وفى بعضه أدق وأغمض .

(١) السيوطى : معترك الأقران ص ٢٤٤ .
(٢) رفض الخطابى فى رسالته « فى اعجاز القرآن » وعبد القاهر فى « دلائل الاعجاز »
(٣) الاتقان : ج ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٥١ .
(٤) سورة عمران : الآية ١٢٢ .
(٥) سورة المجادلة الآية الثامنة .

وقال الامام فخر الدين : وجه الاعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب .

وقال ابن عطية : الصحيح الذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه اعجازه انه نظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، وذلك ان الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله ، فاختار لكل معنى اللفظ الذى يعبر عنه أدق تعبير ، وسار هذا المنهج فى القرآن كله من أوله الى آخره ، وذلك مالا يستطيعه البشر ، فهؤلاء لا يمكن ان يتخلصوا من الجهل والنسيان والذهول ، ولذلك نجد البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ثم لا يزال يغير ويبدل ، اما كتاب الله فلو نزعت منه لفظه ثم أدير لسان العرب لنجد لفظة أحسن منها ما أمكن ذلك .

الامام السيوطى واعجاز القرآن

عاش الامام السيوطى مع القرآن الكريم حياة حافلة مثمرة ، قرأه ووعاه ، وقرأ مئات الكتب التى كتبت عنه ووعاها ، ثم راح يكتب عنه اقتباسا من الآخرين أو ابداعا من فكره ، فتكاملت له مؤلفات قيمة يقف عندها كل من يريد ان يكتب عن اعجاز القرآن وقفات طويلة ، وقد ذكرنا فى المقدمة بعض هذه المؤلفات ، ولعل فى قمتها « الاتقان فى علوم القرآن » فقد جمع فيه أكثر ما ورد هنا وهناك فى كتبه الأخرى ، على ان للسيوطى كتابا مباشرا وخاصا فى اعجاز القرآن وهو « معترك الاقران فى اعجاز القرآن » وسنقتبس رأى السيوطى عن كيفية الاعجاز من هذا المصدر المباشر بعد ان نلم المامة سريعة بابراز ما جاء فى « الاتقان » من نواحى الاعجاز البلاغى ، وفى الاتقان ابرز السيوطى صورا رائعة من الاتجاهات البلاغية فى القرآن الكريم ، وجعل ذلك أخص جهات الاعجاز ، لأن الكتب السماوية الأخرى حوت غيبيات وأحكاما كما حوت كثيرا من قصص

الأولين فهى تشارك القرآن الكريم فى هذه النواحى ، ولكن القرآن اختص بجانبه البلاغى الذى لم يوجد فى سواه ، فكان هذا الجانب هو أقوى جوانب الاعجاز فيه ، وقد اقتبس السيوطى من القرآن الكريم نماذج بالغة الروعة عن المجاز فى القرآن وعن التشبيه فيه ، وعن الكناية والتعريض ، وعن الأمثال فى القرآن ما كان منها ظاهرا مصرحا به أو كامنا لا ذكر للمثل فيه •

وتحدث السيوطى (١) عن طريق الحصر فى القرآن الكريم ، وعن الايجاز والاطناب وعن ذكر أركان الجملة ، أو حذف بعض الاركان، كما تحدث عن الخبر والانشاء فى القرآن الكريم ، وهو فى كل ذلك يعطى اقتباسات رائعة ممتعة ، بلغت الغاية فى الجودة والابداع ، وقد عقد فصلا خاصا عن بدائع القرآن (٢) وفى هذا الفصل يورد السيوطى اقتباسات عن ألوان البدائع من بسط ، وايغال ، واستقصاء ، وتذييل، وأرداف ، وتمثل ، وكلها قمم فى الجودة والجمال •

ومن اتجاهات السيوطى فى الاتقان نرى أنه يميل الى ابراز اعجاز القرآن فى أسلوبه ونظمه ، ذلك النسق الذى يضع القرآن بعيدا بعيدا عن أقوال البشر •

معترك الأقران فى اعجاز القرآن

وننتقل الآن الى كتاب « معترك الأقران فى اعجـاز القرآن » لنقتبس منه بعض فقراته مما يتصل بموضوعنا •

القرآن والمعجزات السـابقة :

يتحدث السيوطى عن مكانة معجزة القرآن بين معجزات الأنبياء فيقول (٣) : جعل الله معجزة القرآن عقلية لفرط ذكاء أمة محمد ،

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٨٢ وما بعدها •
(٢) الفصل الثامن والخمسون •
(٣) معترك الأقران ص ١ ـ ٣ بتصرف •

وكمال افهامهم ، وفضلهم على من تقدمهم ، فقد كانت معجزات أولئك حسية لتناسب قدر ذكائهم .

ونقطة أخرى هى أن القــرآن الكريم معجزة باقية بخــلاف معجزة الأنبياء السابقين التى كانت مرتبطة بحياتهم ، أما القــرآن فيبقى أبد الدهر ليراه ذوو البصائر فى كل عهد ومكان .

والقرآن هو كلام اللــه ، وهو محفوظ فى الصدور ، مقــروء بالالسنة ، مكتوب فى المصاحف ، ولكن ليس معنى ذلك أن كلام الله القديم حل فى هذه الأجرام (الصدور والألسنة والمصاحف) بل المعنى أن كلام الله مدلول عليه بالحفظ فى الجنــان أو بتلاوة اللســان أو بالكتابة بالبنان ، وذلك لان الشيء له وجودات أربع :

الوجود الحقيقى القديم ، والوجود الطارىء على القلب حفظا ، أو على اللسان تلاوة ، أو على اليد كتابة ، والتلاوة غير المتلو ، والحفظ غير المحفوظ والكتابة غير المكتوب كمــا أن الضرب غير المضروب ، فالتلاوة حديثه لكن المتلو قديم ، وكذلك يقال فى الكتابة والمكتوب والحفظ والمحفوظ .

اثبات الاعجــاز :

ثبت عجز فصحاء العرب عن الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه كما ذكرنا من قبل ، أما غير العرب أو العرب الذين لم ترتفع درجة فصاحتهم ، فان الاعجاز ثابت عليهم بعجز أساطين البلاغة الذين قاوموا محمدا بكل أساليب القوة ولم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن مــع التحدى الذى ألقى فى وجوههم عدة مرات ، وعلى هذا فاعجاز القرآن ثابت لكل الناس ، فاذا عجز بطل عن مصارعة بطل يتحداه ، فان غير

البطل من جمهور النـاس أعجز ، فالاعجـاز حينئذ ينسحب على الجميع (١) .

القرآن والشعر :

نزه الله القرآن عن الشعر ، والحكمة فى ذلك أن القرآن منبـع الحق ومجمع الصدق ، أما الشاعر فيعمد الى التخيل ، والافراط فى الاطراء ، والمبالغة فى الـذم والايذاء دون تحرى الحق واثبـات الصدق (٢) .

وجوه الاعجاز فى القرآن

ذكر السيوطى فى معترك الأقران خمسة وثلاثين وجها من وجوه الاعجاز فى القرآن ، وبعضها تكرار لما أورده فى « الاتقان » وسنلم فيما بعد ببعض الوجوه المهمة .

١ ـ العلوم المستنبطة من القرآن :

جمع القرآن الكريم مجموعة من العلوم والمعارف لم يجمعهـا كتاب من الكتب ، ولذلك جاء قوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء (٣) » وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء (٤) » .

وقد استنبط الصحابة والتابعون وتابعوهم من القرآن الكريم مجموعة من العلوم والفنون ، فاعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى ... وكان القرآن الكريم من أهم الأسس التى وضـعت قواعد اللغـة العربية على أساسها .

---

(١) معترك الأقران ص ٦ بتصرف .

(٢) معترك الأقران ص ٧ ـ ٨ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

(٤) سوره النحل : الآية ٨٩ .

(٥) معترك الأقران ص ١٤ وما بعدها .

واعتنى المفسرون بألفاظه ومعانيه دراسة وفهما وترجيحا .

واعتنى علماء العقيدة بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية ، مثل قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (١) فاستنبطوا منه الأدلة على وجود الله ووحدانيته وصفاته .

وتأملت طائفة معانى خطابه ، فكان ذلك أساسا لعلوم البلاغة .

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام ، فنشأ عن ذلك علم الفقه .

واتجه علماء الحضارة الاسلامية الى القرآن الكريم ، فاقتبسوا منه ما استطاعوا به أن يبنوا هيكل هذه الحضارة من سياسة أو اقتصاد أو نظم اجتماعية أو عسكرية أو أخلاقية .

وتدارس قوم ما به من قصص فكان ذلك منشأ علم السيرة والتاريخ .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ ، فنشأ علم الخطابة والدعوة واندفع قوم الى كتابته وتجويد هذه الكتابة بطرق مختلفة ، فنشأ علم الخط .

ومثل هذا يقال عن تفسير الرؤى ، وعلم الفرائض ، وعلم الفلك والمواقيت ، بل يربط السيوطى علوما أخرى كالهندسة والطب بآيات كريمة اقتبسها لذلك ، فعن الهندسة يذكر قوله تعالى : « انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب (٢) » وعن الطب يورد قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (٣) » ويمكن أن يضاف

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .
(٢) سورة المرسلات : الآية ٣٠ .
(٣) سورة النحل : الآية ٦٩ .

الى ذلك ما سبق أن أشرنا اليه عند حديثنا عن القرآن والعلم فيما يتصل بمراحل خلق الانسان التى وردت في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة ... » (١) .

ويذكر السيوطى أن فى القرآن الكريم أصول الصنائع وأسماء الآلات ويورد على ذلك مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية يربط كل آية بصناعة أو بآلة ، ومن ذلك :

النجاره : واصنع الفلك بأعيننا (٢) .

الفلاحة : أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٣) .

الصيد واستخراج الحلى والملاحة : وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه (٤) .

الصناعة : وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (٥) .

٢ ـ مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض :

يذكر السيوطى (٦) أن آيات القرآن متتالية يناسب بعضها بعضا تماما ، فهى منسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، وأن كل سورة مرتبطة بما قبلها وما بعدها أروع ارتباط . ويذكر أن كثيرين من العلماء

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٢ ـ ١٣ .

(٢) سوره هود : الآية ٣٧ .

(٣) سورة الواقعة : الآيتان ٦٣ ـ ٦٤ .

(٤) سورة النحل : ١٤ .

(٥) سورة الحديد : ٢٥ .

(٦) معترك الأقران ص ٥٤ وما بعدها .

ألفوا الكتب لبيان هذه الأسرار ، وأن العلم بهذه الأسرار ضرورى ، والجهل بها نقص فى مراتب العلماء .

٣ ـ افتتاح السور بالحروف المقطعة :

يتحدث العلماء عن معانى الحروف المقطعة التى تبتدىء بها بعض السور ، وقد ذكر السيوطى اتجاهات كثيرة ، ورجح فى الاتقان أنها نوع من التحدى ، فهى بيان بأن القرآن جاء من هذه الأحرف المعروفة المتداولة عند العرب ومع هذا فقد عجزوا عن استعمالها استعمالا يضاهون به كلام الله (١) .

ورجح فى معترك الأقران (٢) أن الحروف التى تفتتح بها كل سورة تتناسب مع الحروف أو الأفكار التى وردت فى السورة نفسها ، وعلى هذا فلا يتناسب مع أية سورة الا الحروف التى ابتدئت بها فلو وضع الحرف « ق » بدل « ن » لما كان ذلك مناسبا ، فسورة «ق» كثر فيها استعمال هذا الحرف مثل : القرآن ـ قال ـ تنقص ـ الحق فوقهم ـ باسقات ـ رزقا ـ قبلهم ـ قوم الخلق ـ أقرب ـ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد .

وكثر استعمال حرف النون فى سورة «ن» ومن هنا افتتحت هذه السورة بحرف «ن» .

وقد تكررت « الراء » فى سورة يونس فورد بها أكثر من مائتى كلمة بها « الراء » ولهذا افتتحت بحرف الراء .

واشتملت سورة «ص» على خصومات متعددة ، فكان هذا الافتتاح .

---

(١) الاتقان ج ٢ : ص ١٧ .

(٢) معترك الأقران ص ٥٢ وما بعدها .

و « الم » جمعت المخارج الثلاثة : الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها ، وذلك اشارة الى البداية التى هى بدء الخلق والنهاية التى هى المعاد ، والتوسط الذى هو المعاش ، وكل سورة افتتحت بها فهى مشتملة على الأمور الثلاثة ، وهكذا .

٤ ـ روعته وهيبته : (*)

يحظى القرآن الكريم بروعة تلحق القلوب عند التفكير فيه ، وتغمر الاسماع عند سماعه ، كما يحظى بهيبة تعترى الناس عند تلاوته اذا قام بالتلاوة شخص يجيدها ويحسن تقديمها ، ومن العجيب أن هذه الهيبة تعظم على المكذبين لأنها تقع على نفوسهم وقعا شديدا ، فيروى أن عتبة بن ربيعة كلم الرسول فيما جاء به مما يخالف عرف قريش وتقاليدها ، فأجابه الرسول بأن بدأ يقرأ من سورة فصلت حتى وصل الى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) ... » فاضطرب عتبة ووضع يده على فم الرسول ، وناشده الله والرحم أن يكف .

أما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه توليه انجذابا وتكسبه هشاشة ، مع خشية ووجل ، قال تعالى : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم (٢) » .

٥ ـ تأثيره فى النفوس : (*)

للقرآن الكريم خاصية مهمة هى أن الذى يسمعه بفكر ، يقبل عليه ويتمنى الاستمرار فى السماع ما دامت التلاوة تأخذ حقها من

(*) معترك الاقران ص ٢٤٢ وما بعدها .
(١) سورة فصلت الآية ١٣ .
(٢) سورة الزمر الآية ٢٣ .
(*) معترك الاقران ص ٢٤٤ .

الاخراج ، ثم ان سماعه يؤثر تأثيرا كبيرا فى النفوس ، أما غير القرآن الكريم فلا تتوافر له هذه الخصوصيات ، ولهذا اتجه أهل الكتاب الى احداث ألحان ترتبط بكتبهم ليجلبوا الرغبة فى الاتصال بها ، والاستماع اليها ، ولكن القرآن الكريم مؤثر بذاته ، وقد امتد تأثيره فشمل الانس والجن ، فمن العرب من أخذ به عند سماعه واعتنق الاسلام كعمر بن الخطاب وجبير بن مطعم ، ومنهم من أخذ به وتأثر ، ولكن ظروفا قاهرة منعته من الاستجابة له كالوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، أما الجن فتروى الآيات الكريمة انجذابهم اليه وايمانهم به قال تعالى : «قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (١) •

تلك بعض وجوه الاعجاز التى رواها كتاب « معترك الأقران فى اعجاز القرآن » للامام السيوطى ، ولا شك أنها تبعث كثيرا من الضوء والاشعاع نحو هذا الموضوع العظيم •

وينبغى لنا قبل أن ندع موضوع اعجاز القرآن أن نعيش قليلا مع بعض المشاهير من شيوخ السيوطى الأقدمين الذين تكلموا فى هذا الموضوع فأجادوا لنقتبس بعض آراء لم يقتبسها السيوطى منهم ، وذلك رغبة منا فى محاولة استيفاء الدراسة ، ومن هؤلاء أبو الحسن على الرمانى (٣٨٦ هـ) وقد ذكر الرمانى فى كتابه « النكت فى اعجاز القرآن » ثلاث نقاط مهمة عن الاعجاز هى توفر الدواعى ، ونقض العادة ، وقياسة بكل معجزة • وفيما يلى تعريف سريع بهذه النقاط من كلام الرمانى :

يقول الرمانى عن توفر الدواعى أن قريشا كانت فى أشد الحاجة

---

(١) سورة الجن الآيتان ١ ، ٢ •

لمعارضة محمد ، ولو استطاعت معارضة القرآن ما تأخرت لحظة واحدة عن ذلك ، ولقد رمت قريش محمدا بكل مذمة ، فما كان أحراها أن تواجه التحدى لو استطاعت ذلك .

وعن نقض العادة يقول الرمانى : ان العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحس تفوق كل طريقة .

وأما قياسه بكل معجزة فانه يظهر اعجازه من جهة الوهم بامكان المعارضة مع استحالتها عند المحاولة ، أما المعجزات الأخرى كفلق البحر ، وقلب العصا حية ، واحياء الميت وغيرها فقد اتخذت سبيلا واحدا فى الاعجاز اذ خرجت من العادة ولم تكن هناك امكانية للمعارضة ، فالقرآن يوهم ، ثم يخيب أمل من يشده هذه الوهم ، أما المعجزات الأخرى فلا سبيل للوهم فى معارضتها (١) .

ومن هؤلاء الشيوخ الذين نعرض لهم أبو سليمان عمر الخطابى (٣٨٨ هـ) وله كتاب فى اعجاز القرآن عنوانه « بيان اعجاز القرآن » ونقتبس منه نقطة مهمة ، هى جواب عن سؤال يقدمه هكذا :

ماذا لو قيل : لماذا لم يجىء نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز ، فتجىء أخبار الأمم فى سورة ، والمواعظ والأمثال فى سورة ، والأحكام فى سورة، والمواعظ والأمثال فى سورة ، والأحكام فى سورة ، وهكذا ؟

ويجيب بأن النسق الذى جاء به القرآن أسمى وأعظم ، لأنه

(١) النكت فى اعجاز القرآن ص ١٠١ ــ ١٠٣ من « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن .

بنقل السامع من فن الى فن ، ومن موضوع الى موضوع ، مع ترابط دقيق ، والتلوين مع الترابط هدف عظيم ، ولو كان لكل معنى سورة مفردة لكان الواحد من الكفار والمعاندين اذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة الا فى النوع الذى تضمنته السورة ، فاجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظا وأجدى نفعا (١) •

ومن هؤلاء الشيوخ عبد القاهرة الجرجانى (٤٧١ هـ) وله فى ذلك كتاب اسمه « الرسالة الشافية » يقرر فيه أن عجز العرب ظهر فى أحوالهم وأقوالهم ، ويتجه لشرح تلك الأحوال ، وهذه الأقوال :

فعن الأحوال يقرر أن المتعارف عليه من عادات الناس وطبائعهم التى لا تتبدل ألا يسلموا لخصومهم بتفوق يستطيعون دفعه ، ويذكر الجرجانى أن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب كان يبلغه أن بأقصى الاقليم الذى هو فيه من يباهى بنفسه ، ويفتخر بشعر يقوله ، أو خطب يقوم بها ، أو رسالة يعلمها ، فيندفع بالانفة والحمية لمعارضة ذلك المتباهى ، ويثور اللجاج والتحاكم فترة طويلة ، كالذى حدث بين جرير والفرزدق ، ولم يكن أحد منهما يخشى أن ينال من صاحبه شيئا الا مجرد السبق فى عالم البيان •

فكيف وقف أساطين البلغاء من معارضة القرآن مع أن محمدا جاء يهاجم معتقداتهم وكثيرا من عاداتهم ؟ من الواضح أنهم لو استطاعوا لفعلوا ، ولكن المسافة كانت بعيدة بينهم وبين القرآن ؛ فأقبلوا وأحجموا ، ثم انتهى بهم الأمر الى التسليم والاذعان •

ثم ينتقل الجرجانى للحديث عن الأقوال التى نسبت الى العرب فيروى منها حديث الوليد بن المغيرة ، الشهير ، ويذكر كذلك ما روى من حديث عتبة بن ربيعة مع محمد ، فقد جاء عتبة الى الرسول يعرض

---

(١) اعجاز القرآن ص ٤٩ ــ ٥٠ •

عليه المال والسلطان ، فاستمع له الرسول بكثير من الصبر والأناة حتى انتهى من كلامه ، ثم سأله الرسول : أو قد فرغت ؟ قال عتبة : نعم . قال محمد فاسمع منى : وأخذ عليه السلام يقرأ آيات من سورة فصلت ، واهتز عتبه لما سمع من محمد ، وعاد الى قومه الذين كانوا ينتظرونه ، ولكنهم رأوه على حال غير ما كانوا يتوقعونه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما جلس لهم ، وسألوه : ما وراءك ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت والله بمثله قط ، ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه .. قالوا : سحرك بلسانه (١) .

هذا ويدور كلام الجرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » فى هذا النطاق البلاغى بوجه عام .

مبهمات القرآن

للسيوطى كتاب اسمه « مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن » ذكر فى مطلعه أنه يفوق ما سبقه من كتب فى هذا المجال لأنه يحوى أحمل ما فيها ، ويضيف جديدامن الفوائد والفرائد .

ويذكر السيوطى أن علم المبهمات علم شريف ، اهتم الأوائل به اهتماما كبيرا ، وهو يرجع الى النقل المحض ، ولا مجال للرأى فيه ، ولا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعلمه كقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (٢) فانه لما ذكر أنه تعالى اختص بعلمهم دون البشر ، لم يكن من مجال

---

(١) الرسالة الشافية ص ١١٣ – ١١٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ١١ .

علم المبهمات أن نحاول أن نتعرف على هؤلاء المقصودين ، ولذلك يتعجب بعض الباحثين ممن تجرأ على القول بأن المقصود هم بنو قريظة ، ولكن السيوطى يرى أن ما اختص الله نفسه بعلمه هم الأفراد المحدودون ، وليس ما يمنع أن نحاول التعرف على جنسهم ، لا على أعيانهم (١) .

ويذكر السيوطى للابهام أسبابا نختار فيما يلى أهمها :

١ ـ الاستغناء ببيانه فى موضع آخر مثل قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » فان هذا المبهم بين فى آية أخرى هى قوله تعالى « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٢) .

٢ ـ قصد الستر عليه ليكون ذلك أبلغ فى عودته للصواب ، كقوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا (٣) » . وهو الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه .

٣ ـ تعظيمه بالوصف كقوله تعالى « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى (٤) » ، وقوله « اذ يقول لصاحبه .. » (٥) والمراد أبو بكر الصديق .

٤ ـ تحقير بالاهمال مع وصف يبرز منقصة فيه كقوله تعالى : « ان شانئك هو الأبتر (٦) » .

---

(١) مبهمات القرآن ص ٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٦٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤ .

(٤) سورة النور الآية ٢٢ .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٠ .

(٦) سورة الكوثر الآية الثالثة .

قراءة القرآن والتطريب به

يستحب الاكثار من قراءة القرآن وتلاوته ، فقد روى الترمذى من حديث بن مسعود : من اقرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها ، وأخرج مسلم من حديث أبى أمامة : أقرأوا القــرآن فانه يكون يوم القيمة شفيعا لأصحابه •

وتسن القراءة بالتــدبر والتفهم ، فذلك هو المقصــود الأعظم والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب ، قال تعالى : كتاب آنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته (١) •

وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » (٢) •

ويسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لقوله تعــالى : «ورتل القرآن ترتيلا » ولقوله عليه الســلام : زينوا القــرآن بأصواتكم ، وقوله : حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حســنا (٣) •

ولكن ينبغى ألا يخرج بالقراءة الى حد التمطيط والالحان ، وقد ذكر السيوطى (٤) أن بعض الناس قد ابتدعوا فى قراءة القرآن أصوات الغناء ، وأن أول ما غنى به من القرآن قوله تعالى :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر •• » (٥)

وكانوا فى ذلك يضاهون تغنيهم بقول الشاعر :

أما القطــاة فانى سوف أنعتهــا   نعتــا يوافق عندى بعض ما فيها

---

(١) سورة ص الآية ٣٩ •
(٢) سورة النساء الآية ٨١ •
(٣) الاتقان جـ ١ ص ١٨٥ •
(٤) المراجع السابق ص ١٧٥ •
(٥) سوره الكهف الآية ٧٩ •

ويذكر السيوطى (١) أن الرسول قال فى هؤلاء : مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم . وفى رواية : أقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتهم واياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق فانه سيجىء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية ، لا يجاوز حناجرهم ، هؤلاء مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم .

ويستحب الجهر ببعض القراءة والاسرار ببعضها ، لأن الذى يسر قد يمل فيأنس بالجهر ، والذى يجهر قد يكل فيستريح بالاسرار (٢).

والقراءة فى المصحف أفضل من القراءة من الذاكرة ، لأن النظر فى المصحف عبادة مطلوبة يثاب الانسان عليها : وقد روى عن الرسول قوله : أديموا النظر فى المصحف . ولكن اذا كان التدبر أعمق فى حال القراءة من الذاكرة فان هذه القراءة تكون أحسن (٣) .

ويكره للقارىء أن يقطع القراءة لمكالمة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغى أن يرجح عليه كلام ، ويظل يقرأ حتى يفرغ من الحصة ويقول صدق الله العظيم .

وينبغى الاستماع بخشوع لقراءة القرآن ، وترك اللفظ وترك الكلام عند القراءة قال تعالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (٤) .

ويكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها ، وأخرج الآجرى من حديث عمران بين حصين مرفوعا : من قرأ القرآن فليسأل الله به ، فانه سيأتى قوم يقرءون القرآن يسألون به الناس . ولكن تعليم القرآن بأجر جائز عند الأكثرين (٥) .

---

(١) الاتقان جـ ١ ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦ و ١٨٧ .

(٤) الاتقان جـ ١ ص ١٨٨ والآية رقم ٢٠٣ من سورة الأعراف .

(٥) السيوطى : الاتقان جـ ١ ص ١٩٢ .

ولا يجوز أن يقرأ القرآن عند ظالم حتى لا يخدع الناس به ، وفى الحديث : من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع من شأنه لعن بكل حرف عشر لعنات (١) •

ولا تجوز قراءة القرآن بغير العربية مطلقا ، سواء أحسن العربية أم لا ، وسواء أكان ذلك فى الصلاة أم خارجها ، وقال أبو حنيفة أولا بالجواز ثم رجع عن ذلك وأجاز أبو يوسف ومحمد ذلك لمن لا يحسن العربية ، وسبب المنع أن القرآن اذا ترجم لغير العربية ، ذهب اعجازه البيانى وهذا الاعجاز مقصود لذاته •

وتجوز ترجمة المعنى دون تقيد باللفظ ، لأن الترجمة اللفظية لا تمكن ، اذ يعجز المترجم عن اختيار اللفظ الملائم للمعنى ، وقد سبق أن ذكرنا أن علم الله واسع واحاطته شاملة ، فهو يختار اللفظ المناسب للمعنى المطلوب ، وذلك ما لا يستطيعه البشر بدليل أن الشعراء والكتاب يحاولون تجويد ما يكتبون بتغيير ا الألفاظ من حين لآخر •

التكرار فى القرآن

فى القرآن الكريم تكرار لفظى أحيانا ، وتكرار فى الفكرة أحيانا أخرى ، ولهذاوذاك هدف عظيم •

ومن التكرار اللفظى قوله تعالى : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون » فقد وردت هاتان الآيتان فى سورة الحجر (٢٩ ــ ٣٠) وفى سورة ص (٧٢ ــ ٧٣) ومثل قوله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » فقد وردت فى سورتى الحشر (٩) والتغابن (١٦) •

والحكمة فى هذا التكرار قد تكون الاهتمام بفكرة وتكرار

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة •

عباراتها حتى اذا غفل الانسان عنها مرة قابلته مرة أخرى ، وقد تكون ابرازا للقدرة التى تضع عبارة واحدة وسط عبارات مختلفة ولكن مع تحقيق أن العبارة المذكورة تبدو أصيلة فى كل موقع بسبب دقة الحبك وروعة النسق .

ونجىء الى تكرار لفظى آخر فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فى سورة الرحمن ، وكتكرار بعض الآيات فى سورة القمر ، وهذا لا يحتاج القول فيه الى كبير عناء ، لأن مثل هذا التكرار أسلوب رفيع من الأساليب العربية ، وقد قال به الحارث بن عباد بعد مقتل ابنه « بجير » فى حرب البسوس ، فكرر مصراع البيت « قربا مربط النعامة منى » أكثر من عشر مرات فى قصيدته التى قاد بعدها هذه الحرب ، وكان يكمل البيت مع كل مصراع بما يثير غضب قومه ويقوى حماستهم وحقدهم على أعدائهم .

ولا شك أن تكرار قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بعد تعداد نعم الله على الانس والجن ، ليس الا بمثابة انذار يدق النفوس والقلوب حتى تصحو من سباتها وتخضع لصاحب هذه النعم الكبيرة .

ونصل بعد هذا الى التكرار فى الفكرة ، ومن ذلك قصص القرآن وخاصة قصص الأنبياء التى تكرر معظمها عدة مرات فى القرآن الكريم ،وقد ألف بعض السابقين مؤلفات خاصة تشرح الحكمة من تكرار هذه القصص ، ومن هؤلاء ابن العربى فى كتابه القواسم ، والبدر بن جماعة فى كتابه « المقتنص فى فوائد تكرار القصص » ، وسنلم فيما يلى بالاهداف التى دعت الى هذا التكرار .

وأول ما نشير له أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص ، ولو كان كتاب قصص لكان من السهل جمع المادة عن القصة الواحدة فى

مكان واحد ، ولكن القرآن كتاب اعجاز بأسلوبه وأفكاره ، فهدفه الدعوة للتوحيد وتعليم محاسن الأخلاق ، ويتخذ القرآن وسائل لذلك، كضرب الأمثال للناس بأسلافهم الذين عصوا ، وبيان ما آل اليه أمرهم ، فالقصص ليست مقصودة فى ذاتها ، وانما تورد للانتفاع بها فى ابراز تعاليم الدعوة وبيان عاقبة من يعمى عن اتباع الحق ، ومن يعارض النور الذى يرسله الله عن طريق الأنبياء .

واذا كانت هذه القصص غير مقصودة لذاتها ، وانما تأتى للعظة والعبرة ، فانه من الطبيعى أن يرد من القصة الجزء الذى يناسب هذه العظة ، وقد يقتبس من القصة ذاتها جزء آخر يناسب عظة أخرى ، وقد يكرر جزء لنفس الهدف الذى ذكرناه آنفا وهو تكرار فكرة أمام القارىء حتى أذا اغفل عنها مرة واجهها مرة أخرى لمزيد من تقديم الهداية للانسان .

ويقتبس السيوطى من المراجع التى سبق أن ذكرناها ، فوائد أخرى لهذا التكرار نورد منها ما يلى (١) :

فى كل موضع تكرر فيه القصة توجد زيادة لم تذكر فى المواضع الأخرى ، أو تستبدل كلمة بكلمة أخرى لهدف معين ، وتلك أرقى طريقة فى علم البلاغة والبيان .

ومنها أن الله سبحانه وتعالى جعل القرآن معجزا ، ولربما ظن بعض الناس أن القصة جاءت فى صورة لا يمكن أن تأتى فى صورة غيرها ، فكررت القصة لابراز أن من الممكن وضع القصة فى عدة صور معجزة ، ولكن البشر لا يستطيعون اضافة أية صورة أخرى .

ومنها أن القصة الواحدة لما كررت كان فى ألفاظها فى كل موضوع

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

زيادة ونقصان وتقديم وتأخير . فجاءت على أسلوب غير أسلوب الأخرى فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب فى اخراج المعنى الواحد فى صور متباينة فى النظم وجذب النفوس الى سماعها ، بسبب ما جبلت عليه من حب التنقل فى الأشياء المتجددة ، وأستلذاذها بذلك ، واظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة فى اللفظ ، ولا ملل عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين .

ومنها أن قصص الأنبياء انما كررت لأن المقصود بها افادة اهلاك من كذبوا رسلهم وكانت الحاجة داعية الى تكرير تلك القصص لتكرير تكذيب الكفار للرسول ، فكانوا كلما كذبوا نزلت قصة جديدة أو كررت قصة نزلت من قبل لتنذر هؤلاء القوم الذين لم يكتفوا بالانذارات المتعددة أو الذين اعتادوا سماعها ، فيأتى لهم صوت انذار جديد ، ولكل جديد مهابة .

وربما يسأل سائل عن السبب فى ورود قصة يوسف مجتمعة وفى عدم تكرارها ، والاجابة عن ذلك أن قصة يوسف لها ظروف مختلفة ؛ فهى أولا جاءت استجابة لتحدى أهل الكتاب الذين أرادوا اختبار محمد فطلبوا قصة يوسف التى كانت لم ترد بعد فى القرآن ، فجاءت الاجابة حاسمة ، بأن وردت القصة متكاملة تعجيزا لهم ، وابرازا لكون القرآن الكريم من عند الله .

وقصة يوسف — ثانيا — ليست كباقى القصص فى تخويف المنكرين وانذارهم لأنها انتهت بحصول الفرج بعد الشدة ، فلم يكن هناك من داع لتكرارها مع تكرار الانكار ، ولهذا لم تتكرر قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وقصة الذبيح لأنها لم تكن ردا على المنكرين وتخويفا لهم .

وثالثا هناك اتجاه القرآن الى ألوان من الاعجاز ؛ بمعنى أن قصة

ترد مرة متكاملة فى مكان واحد ، وقصة أخرى تأتى شذرات منها فى أمكنة متعددة والاعجاز واضح هنا وهناك .

ورابعا هنا ما رواه الحاكم فى مستدركة ان سورة يوسف نزلت بناء على طلب الصحابة ليعرفوا حقيقتها ، وكانت المعلومات عنها غير دقيقة ، فجاءت مبسوطة تامة لتحقق للصحابة الهدف الذى يتطلعون اليه ، وليكون فيها ترويح للنفوس ومتعة للقلوب .

وبعـــد

ذلك حديث موجز جدا عن أفكار السيوطى تجاه « الدراسات القرآنية » ولا شك أن السيوطى أثرى المكتبة العربية والفكر الاسلامى بما كتب فى هذا المجال كما فعل فى المجالات الأخرى .

تحية لروح هذا العالم الكبير ، ودعاء أن يحسن الله جزاءه ، وأن يجزل ثوابه .

السيوطي مفسرًا

للدكتور أحمد عمر هاشم

المدرس بكلية اصول الدين بجامعة الأزهر

مقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد

فهـــذا بحث

عن الامام السيوطى مفسرا

تناولت الحديث فيه عن نسبه ومولده . وعن نشأته ، وحيـــاته العلمية ، ثم اقمت بدراسة جانب التفسير ، فقدمت دراسة عن أهـــم مؤلفاته واتناجه العلمى فى هذا المضمار .

ففى مجال علوم القرآن ، تناولت دراسة كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » .

وفى مجال أسباب النزول ، تناولت دراسة كتابه « لباب النقول فى أسباب النزول » .

وفى مجال التفسير بالمأثورات ، تناولت دراسة كتابه « الـــدر المنثـــور فى التفسير بالمأثور » .

وفى مجال التفسير بالرأى : تناولت دراسة كتابه « تفسير الجلالين » •

لتكون هذه الدراسة بمثابة نماذج لمؤلفاته فى هذا الميدان الفسيح وهو التفسير • ومعلوم أن الامام السيوطى ألف فى كل فن ، وكتب فى كل علم ، ولو شاء أن يكتب فى كل مسألة مصنفا لاستطاع ذلك ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وتوفيقه للعلماء المخلصين •

ونحن اذ نقدم هذه الدراسة المركزة عن هذا الامام الجليل ، فانما نقدم نمطا من سلفنا وتراثنا ، ونموذجا يحتذى للعلماء والباحثين والطلاب والقارئين •

جزاه الله خيرا على ما قدم من جهود علمية ونفعنا بعلمه •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

نسبه ومولده

هو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضرى الأسيوطى •

ولقب بجلال الدين ، وكنى بأبى الفضل ، وأما جده الأعلى وهو همام الدين فكان من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطرق وأما من دون هذا الجد ، فقد كانوا أهل وجاهة ورياسة وليس من بينهم من عرف بخدمة العلم خدمة عظيمة الا والده •

وأما نسبته بالخضيرى ، فقد تحدث هو عنها فى ترجمته لنفسه، اذ يقول : « وأما نسبتنا بالخضيرى فلا أعلم ما تكون اليه هذه النسبة الا الخضرية محلة ببغداد ، وقد حدثنى من أثق به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى يذكر أن جده الأعلى كان أعجميا أو من الشرق ، فالظاهر أن النسبة الى المحلة المذكورة (١) •

واشتغل والده ببلدة أسيوط ، وتولى بها القضاء ثم قدم القاهرة، فلازم العلامة الغاياتى وأخذ عنه الكثير من الفقه والأصول والنحو والاعراب والمعانى والمنطق ، واجازة بالتدريس فى سنة ٨٢٩ تسع وثمانى وعشرين وثمانمائة — كما قال الجلال — كما اخذ عن الحافظ بن حجر العسقلانس علم الحديث ، وسمع عليه صحيح مسلم ، ولم تقف حال ابيه عند قضاء اسيوط واجازة الغاياتى اياه بالتدريس بل انه أفتى ودرس سنيين كثيرة ، وناب فى الحكم بالقاهرة عن جماعة وولى دروس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بالجامع الطولونى وأم بالخليفة المستكفى بالله ، وكان يجله الى الغاية ، ويعظمه ، ولم

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ص ١٠٤ •

يكن يتردد الى احد من الاكابر غيره ، وعين لقضاء مكه فلم يتفق له ؛ وتوفى سنة خمس وخمسين وثمانمائة أى قبل وفاة أبيه بست سنين .

قال السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة « وكان مولدى بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة . وحملت فى حياة أبى الى الشيخ محمد المجذوب ، رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى ، فترك على ، أى يباركه ، غاية التبرك بأهل الصلاح والخير مستحب ، ففيما رواه الامام مسلم رحمه الله يسنده عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالصبيان فيتبرك عليهم ويحنكهم .. الى آخر الحديث. أى كان يدعو لهم ويمسح عليهم ، وأصل البركة : ثبوت الخير وكثرته .

قال الامام النووى رحمه الله فى تعليقه على هذا الحديث : فيه استحباب تحنيك المولود ، وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل . وهكذا استقبل بيت العلم والورع والفضل ، السلامة الحافظ جلال الدين الذى كان بهجة لوالده وقرة عين له .

نشـــأته :

نشأ جلال الدين السيوطى نشأة علمية منذ نعومة أظفاره ، فقد كان والده أحرص ما يكون على أن يوجهه وجهة سديدة صالحة ، فكان يحفظه القرآن الكريم ، فى صغره ، ويصحبه معه فى مختلف مجالسه العلمية والقضائية .

وقد طلب والده من الحافظ بن حجر العسقلانى أن يدعو له بالبركة والتوفيق ،وكان السيوطى يرى فى ابن حجر مثله الأعلى ، حتى

أنه كما شرب من ماء زمزم كان ينوي ويدعو الله أن يجعله مثل ابن حجر، حتى صار من أبرز العلماء ، ومن أكثر الحفاظ ، وبات والده وله من العمر حوالى خمس سنوات وسبعة أشهر ، ولكن الله تعالى قد كلأه بعنايته ، وأحاطه برعايته ، فقد قيض الله تعالى له العلامة كمال الدين ابن الهمام الحنفى صاحب « فتح القدير » فكان يرعاه ويتابعه فى تحفيظ القرآن الكريم ، وكانت مخايل الذكاء فيه ظاهرة ، وقد منحه الله تعالى حافظة قوية ، وقريحة سيالة تحفظ وتستظهر بصورة فذة ، ولا غرابة فى هذا فقد حفظ القرآن الكريم وهو أبن ثمان سنين ، ثم حفظ العمدة والمنهاج الفقهى والمنهاج الأصولى ، وألفية بن مالك . وابتدأ الاشتغال بالعلم سنة ٨٦٤ هـ .

فأخذ الفقه عن الشيخ سراج الدين البلقينى ، وقد لازمه الى أن توفى ، فلازم من بعده ولده على الدين الذى توفى سنة ٨٦٨ هـ ، وقد سمع منه الكثير مثل : الحاوى الصغير ، والمنهاج ، وشرح المنهاج، والروضة . وأخذ الفرائض عن الشيخ شهاب الدين الشارمساجى ، ولازم الشرف المناوى أبا زكريا يحيى بن محمد ، جد عبد الرءوف شارح الجامع الصغير . وتوفى الشرف سنة ٨٧١ هـ .

ولزم فى العلوم العربية والحديث تقى الدين الشمنى الحنفى المتوفى سنة ٨٧٣ هـ . ثم لازم الشيخ محى الدين محمد بن سليمان الرومى الحنفى أربع عشرة سنة ، فأخذ عنه التفسير والأصول العربية وعلوم المعانى .

وأخذ عن جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ، وعن المعز الكنانى أحمد بن ابراهيم الحنبلى .

وقرأ صحيح مسلم ، والشفا ، وألفية بن مالك ، والتسهيل

والتوضيح ، على الشمس السيرامى ، ولم يدع السيوطى فرعا من فروع المعرفة ولا نوعا من أنواع العلم الا وأدلى فيه بدلوه ، واتجه ينهل منه كالفرائض والحساب ، كما أخذ من المجد ابن السباع ، وعبد العزيز الوفائى ، وأخذ الطب عن محمد بن ابراهيم الرومى .
هذا والمتتبع لنشأة السيوطى يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من الشيوخ ، فلم يقتصر فى علمه ودراسته وتعلمه على علوم الدين واللغة كما لم يقتصر فى الشيوخ على علماء مصر ، بل أنه رحل فى طلب العلم ورواية الحديث الى : المغرب واليمن والهند والشام والحجاز ، والمحلة ودمياط والفيوم من المدن المصرية ، وغير ذلك من الأقطار الاسلامية ، وقد حج وشرب من ماء زمزم ، رجاء أن يصل فى الفقه الى مرتبة الشيخ البلقينى ، وفى الحديث الى رتبة الحافظ بن حجر . وهكذا طوف الامام الجليل ، ورحل المراحل الواسعة ، وركب المركب الصعب ، من أجل تحصيل العلم ، ولذا كثر شيوخه الذين أخذ عنهم وروى عنهم .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات أن شيوخه قد وصلوا نحو الستمائة ، وقد قسمهم الى طبقات :

الطبقة الأولى : من يروى من أصحاب الفخر أن البخارى والشرف الدمياطى ووزيره والحجار وسلنمان بن حمزه .

الطبقة الثانية : من يروى عن السراج البلقينى والحافظ بن الفضل العراقى .

الطبقة الثالثة : من يروى عن الشرف بن الكويك ونحوه .

الطبقة الرابعة : من يروى عن أبى زرعة بن الزبير العراقى وابن الجزرى ونحوهما (١) .

---

(١) طبقات الشعرانى والامام السيوطى للدكتور / على صافى حسين .

وقد تحدث السيوطى عن هده المرحلة فى كتابه « حسن المحاضرة » فقال : « ونشأت يتما فحفظت القرآن ولى دون ثمان سنين، ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية بن مالك ، وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساجى الذى كان يقال أنه بلغ السن العالية وجاوز المائة بكثير » .

والى جوار ما سبق من شيوخه الكثيرين ، أخذ منهم وروى عنهم ، بالاضافة الى رحلاته الواسعة التى قام بها ، فانه يضاف الى هذا وذاك انتعاشة بمكتبة المدرسة المحمودية ، التى كان مقرها بقصبة رضوان مكان الجامع المعروف باسم « جامع الكردى » فى أول الخيمية من ناحية باب زويلة .

وقال المقريزى : « وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن ، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر ، وتنسب الى محمود بن الأستادار الذى أنشأها سنة ٧٩٧ هـ » . وقال عنها الحافظ بن حجرى فى «أنباء الغمر» : ان الكتب التى بها وهى كثيرة جدا من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة ، وهى من جمع البرهان بن جماعة ، واشتراها محمود الأستادار من تركته بعد موته ووقفها ... » وقد كانت هذه الخزانة فى أمانة الحافظ بن حجر ، وبها نحو من أربعة آلاف مجلد ، وقد عمل لها بن حجر فهرستا ، وللسيوطى فيها رسالة تسمى « بذل المجهود فى خزانة محمود » .

وقد نضجت شخصية السيوطى ، وأكتملت ملامح تكوينه العلمى، حتى تمت لديه أدوار الاجتهاد ، وحصل علومه وكان سريع البديهة ، قوى الحافظة ، فمنحه الله تعالى عقلا علميا خصبا ، وذكاء حادا ، والى جانب هذه الخصائص فقد كان عابدا زاهدا متواضعا .

ولا يقبل جوار الملوك ، وقد أهدى له السلطان الغورى غلاما خصيا وألف دينار ، فرد الألف وأخذ الخصى فأعتقه وجعله خادما فى الحجرة النبوية ، وقال لقاصد السلطان : « لا تعد فتأتينا بهدية قط فان الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك .. » .

حياته العلمية

وقد ذكرت مصادر عديدة مثل : « شذرات الذهب » ، لابن العماد الحنبلى وغيرها : أن السيوطى آجيز بالتدريس فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة ، وذلك بتدريس العربية فى سن مبكرة ، وعمره سبعة عشر عاما .

أما بالنسبة لتدريس الفقه واملاء الحديث ، فقد كان ذلك سنة أثنتين وسبعين وثمانمائة (٢) . وأجيز بالتدريس والافتاء سنة ست وسبعين ، وسنه سبعة وعشرون عاما أجازه بهما بن شيخ الاسلام البلقينى ، وحضر تصديره ، وشرع فى التأليف والتصنيف فى سنة ست وستين ، وأول شىء ألفه رساله فى شرح الاستعاذة والبسملة ، ورآها شيخ الاسلام البلقينى فاستحسنها وكتب عليها تقريظا (٣) ..

وعرف بشجاعته الأدبية ، وقوته فى اقامة أحكام الشريعة الاسلامية وتطبيقها دون أن يجامل أحد ، فلم يخش فى الحق لومة لائم ، فقد تصدى للافتاء وشئون القضاء ، فحرض على اقامة الحدود وتطبيق الأحكام الدينية مهما كلفه ذلك ، ولم يكترث بغضب الأمراء أو السلاطين ، بل كان اذا رأى قاضيا ما تأول فى حكم ارضاءً لأمير ، أو زلفى لسلطان قاوم مثل ذلك وأعلن انكاره ، ومعارضته

---

(١) مقدمة تدريب الراوى بتحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٢) الطبقات للشعرانى . والضوء اللامع للسخاوى .

(٣) مقدمة الجامع الصغير للسيوطى بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد .

وبين خطاه . وقد ذكر فى مقامته « الاستنصار بالواحد القهار » أنه قاسى كثيرا من جراء الفتوى .

وقد استهل السيوطى أول عهد التأليف والتصنيف بكتاب وضعه فى شرح الاستعاذة والبسملة وقد ظل مشتغلا بالتدريس والافتاء الى أن بلغ من العمر أربعين سنة ، فاعتذر بعد ذلك وترك التدريس والافتاء، وتفرغ للعبادة والتأليف ، فألف رسالة تسمى « التنفيس فى الاعتذار من ترك الافتاء والتدريس .

ومؤلفات السيوطى تزيد على الخمسمائة ، وهذه المؤلفات الكثيرة ان دلت على شيء فانما تدل على رسوخ قدمه فى العلم ، وتبحره فى سائر فنونه ، ويقول السيوطى : « ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بقوتى ، فلا حول ولا قوة الا بالله .. »

السيوطى مفسرا

لقد فطر الله تعالى أمامنا السيوطى على حب القرآن الكريم ، ووفقه الى حفظه منذ الصغر ، فابتدأ فجر حياته التعليمية بكتاب الله حفظا ودراسة ، كما ابتدأ حياته العلمية وحياة التأليف بالقرآن كذلك ، فكان أول شيء قام بتأليفه هو كتابه الذى كتبه فى تفسير الاستفادة والبسملة وقد عرضه على شيخ الاسلام على الدين صالح البلقينى فأقر تأليفه وامتدحه ثم توالى تأليفه بعد ذلك .

وقد رزقه الله تعالى عقلية خصبة ، وفكرا معطاءا ، مما جعله يتبحر فى كثير من العلوم والمعارف ، وقد كان علم التفسير من العلوم التى تبحر فيها السيوطى ، وقال :

ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى اعتقده أن الذى وصلت اليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى أطلعت عليها فيها لم يصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخى فيه أوسع نظرا وأطول باعا . ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ .. » .

وقد ألف السيوطى فى التفسير وعلوم القرآن كتبا كثيرة وهى :

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن .

٢ ـ الدر المنثور فى التفسير المأثور .

٣ ـ ترجمان القرآن فى التفسير .

٤ ـ أسرار التنزيل ، ويسمى قطف الأزهار فى كشف الأسرار .

٥ ـ لباب النقول فى أسباب النزول .

٦ ـ مفحمات الأقران فى مهمات القرآن ..

٧ ـ المهذب فيما وقع فى القرآن من العرب .

٨ ـ الاكليل فى استنباط التنزيل .

٩ ـ تكملة تفسير الشيخ جلال الدين الحلى .

١٠ ـ التحبير فى علوم التفسير .

١١ ـ حاشية على تفسير البيضاوى .

---

(١) حسن المحاضره ص ١٤ .

١٢ ــ تناسق الدرر فى تناسب السور ٠

١٣ ــ مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع ٠

١٤ ــ مجمع البحرين ومطلع البدرين فى التفسير ٠

١٥ ــ مفاتح الغيب فى التفسير ٠

١٦ ــ الأزهار الفاتحة على الفاتحة ٠

١٧ ــ شرع الاستعاذة والبسملة ٠

١٨ ــ الكلام على أول الفتح ، وهو تصدير ألقاه السيوطى عندما باشر التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخه البلقينى ٠

١٩ ــ شرح الشاطبية ٠

٢٠ ــ الألفية فى القراءات العشر ٠

٢١ ــ خمايل الزهر فى فنادق السور ٠

٢٢ ــ فتح الجليل للعبد الذليل فى الأنواع البديعة المستخرجة من قوله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا » الآية ٠ وعدتها مائة وعشرون نوعا ٠

٢٣ ــ القول الفصيح فى تعيين الذبيح ٠

٢٤ ــ اليد البسطى فى الصلاة الوسطى ٠

٢٥ ــ معترك الأقران فى مشترك القرآن ٠

واذا كان الناس بالنسبة لجواز تفسير القرآن لكل أحد أو عدم جواز ذلك ، قد اختلفوا فمنهم من قال بعدم جواز التفسير لأى أحد وان كان عالما واسع المعرفة والأدلة وعارفا بالأحكام والأخبار ، فليس له ألا أن ينتبى الى ما روى عن النبى صلى الله علية وسلم فى ذلك ٠

ومنهم من قال يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التى يحتاج

اليها وقد بين الامام السيوطى هذة العلوم التى يحتاج اليها المفسر وهى خمسة عشر علما :

الأول : اللغة ، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب ، وتقدم قول الامام مالك فى ذلك ، ولا يكفى فى حقه معرفة اليسير منها ، فقد يكون اللفظ مشتركا ، وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر .

الثانى : النحو ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الاعراب ، فلا بد من اعتباره ، أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن رجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقوم بها قراءته ، فقال : حسن فتعلمها فان الرجل يقرأ الآية فيعى بوجهها ويهلك فيها .

الثالث : التعريف ، لأن به تعرف الأبنية والصيغ قال بن فارس : ومن فاته علمه فاته المعظم ، لأنه اذا وجد كلمة مبهمة ، فاذا حرفها ، اتضحت بمصادرها .

وقال الزمخشرى : من يدع التفاسير قول من قال أن الامام فى قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بامامهم » جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم ، قال : وهذا غلط أوجهه جهله بالتصريف فان « أما » لا تجمع على أمام .

الرابع : الاشتقاق ، لأن الاسم اذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين وباختلافهما كالمسيح ، هل هو من السياحة أو المسيح .

الخامس : علم المعانى والسادس علم البيان والسابع : علم البديع .

وهذه علوم البلاغة ، فيعرف بالمعانى خواص تراكيب الكلام من جهة افادتها المعنى ، ويعرف بالبيان خواصها من حيث اختلافها

بحسب وضوح الأدله وخفائها ، ويعرف بالثالث : وجوه تحسين الكلام. وهذه العلوم من أعظم أركان المفسر ، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز ، وانما يدرك بهذه العلوم .

وقال السكاكى : أعلم أن شأن الاعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن وصفها كالملاحمة . ولا طريق الى تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة الا التمرس على علمى البيان والمعانى .

الثامن : على القراءات ، لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

التاسع : أصول الدين ، بما فى القرآن من الآية الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى ، فالاصولى يقول ذلك ويستدل على ما يستحيل وما يجب وما يجوز .

العاشر : أصول الفقه ، اذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط .

الحادى عشر : أسباب النزول والقصص ، اذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه .

الثانى عشر : الناسخ والمنسوخ ، ليعلم المحكم من غيره .

الثالث عشر : الفقه .

الرابع عشر : الأحاديث المهونة لتفسير المجمل والمبهم .

الخامس عشر : علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، واليه الاشارة بحديث .

« من عمل بما علم ورثه الله على ما لم يعلم » (١)

والى هذا النوع من العلم الاشارة بقول الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) .

وقد قال السيوطى ـ بعد أن بين علم الموهبة : « ولعلك ستشكل علم الموهبة ، وتقول : هذا شيء ليس فى قدرة الانسان هو ليس الأمر كما ظننت من الاشكال ، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل . والزهد فقال فى البرهان : اعلم انه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا يظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا ، أووهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالايمان او ضعيق التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر عنده علم او راجع الى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكد من بعض قلت : وفى هذا المعنى قوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بير الحق) (٣)

وحول دراستنا هذه عن الامام السيوطى مفسرا سنتناول بعون الله تعالى وتوفيقه دراسة بعض الكتب فى هذا الشأن .

ففى مجال علوم القرآن سنقدم دراسة عن كتابه النفيس :

« الاتقان فى علم القرآن »

وفى مجال أسباب النزول سنقدم دراسة من كتابه القيم : « لباب التقول فى أسباب النزول »

وفى مجال التفسير وما قدمه من خدمة جليلة لكتاب الله تعالى

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٠ .
(٢) الآية ٢٨٢ سورة البقرة .
(٣) الاتعان حـ ١ ص ١٨١ .

سنتناول دراسة كتابين من كتبه كل واحد من هذين الكتابين يمثل اتجاها معينا فى التفسير •

الكتاب الأول : « الدر المنشور فى التفسير بالمأثور » وهذا الكتاب يمثل اتجاها من اتجاهات التفسير بالمأثور •

والكتاب الثانى : « تفسير الجلالين » وهو يمثل اتجاه التفسير بالرأى •

ولنبدأ أولا بما يتصل بعلوم القرآن :

الاتقان فى علوم القرآن

ان العلوم تشرف بشرف موضوعها ، وترقى منزلتها بدرجة ما تعالجه من معارف ، وما تقدمه من فوائد وثمرات « واذا كانت علوم القرآن يدور البحث فيها حول ما يتعلق بكتاب الله تعالى ونزول آياته الشريفة ، وأسباب هذا النزول وتاريخه ، ومكانه وما الى ذلك من الأنواع ••• فهذا يدل على عظمة هذا العلم وعلى رفعة شأنه ، وعلى أهميته فى معاونة العلماء والباحثين ، فى تفسير آياته وبيان ما يرشد اليه من العقيدة والعبادة والأخلاق وتلك فوائد من أعظم ما تصبوا اليه نفس المسلم •

وقد قدم الامام السيوطى لكتابه « الاتقان » بمقدمه بين فيها الداعى الى تأليف هذا الكتاب ؟

حيث ذكر فى مقدمة الاتقان تشوقه وتطلعه الى أهمية علوم القرآن والحاجه الى التأليف فى هذا المضمار ، كما دون العلماء وكتبوا فى علم الحديث فقال :

ولقد كنت فى زمن الطلب اتعجب من المتقدمين اذ لم يدونوا

كتابا فى أنواع علوم القرآن كما وضحوا ذلك بالنسبة الى علم الحديث ، فسمعت شيخنا استاذ الاستاذين ، وانسان عين الناظرين خلاصة الوجود علامة الزمان فخر العصر وعين الأوان أبا عبدالله محى الدين الكافيجى مد الله فى أجله وأسبغ عليه ظله يقول :

قد دونت فى علوم التفسير كتابا لم أسبق اليه فكتبته عنه فاذا هو صغير الحجم جدا ، وحاصلها فيه بابان : الأول فى ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . والثانى فى شروط القول فيه بالرأى وبعدهما خاتمة فى آداب العالم والمتعلم فلم يشف لى ذلك قليلا ولم يهدنى الى المقصود سبيلا .. ثم ذكر ما أوقفه عليه الشيخ علم الدين البلقينى من كتاب لأخيه جلال الدين سماه مواقع العلوم من مواقع النجوم ، وما قاله فى خطبة هذا . الكتاب : قد اشتهرت عن الامام الشافعى رضى الله عنه مخاطبة لعلماء بنى العباس فيها ذكر بعض أنواع القرآن ... كما وضح السيوطى أن علم التفسير لم يدونه أحد لا فى القديم ولا فى الحديث .

حتى جاء شيخ الاسلام جلال الدين البلقينى فعمل فيه كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم فنقحه وهذبه وقسم أنواعه ورتبه ولم يسبق الى هذه المرتبة ، فانه جعله فيها خمسين نوعا متقسمه الى سته أقسام ، وتكلم فى كل نوع منها بالمتين من الكلام لكن كما قال الامام ابو السعادات ابن الأثير فى مقدمة نهايته : كل مبتدىء بشىء لم يسبق اليه ،مبتدع أمر لم يتقدم فيه عليه ، فانه يكون قليلا ثم يكثر وصغيرا ثم يكبر ...

ثم أشاد الامام السيوطى بجهود من سبقه فى هذا الشأن خاصة الشيخ الزركشى .. قال : ثم خطر لى بعد ذلك أن أؤلف كتابا مبسوطا ومجموعا مطبوعة أسلك فيه طريق الاحصاء ، وأمشى فيه على منهاج

الاستقصاء ، هذا كله وأنا أظن أنى مفرد بذلك غير مسبق بالخوض في هذه المسالك فبينما أنا أجيل فى ذلك فكرى أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، اذ بلغنى ان الشيخ الامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى أحد متأخرى الشافعيين ألف كتابا فى ذلك حافلا يسمى « البرهان » فى علوم القرآن ، فتطلبته حتى وقفت عليه .

ولما وقف على هذا الكتاب ازداد سرورا وفرحا ، وحمد الله وقويت عزيمته فى تصنيف ما أراد ، فوضع كتابه النفيس « الاتقان » ورتب الامام السيوطى كتابه هذا ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان ، فأدمج من أنواع هذا الفن ما يحتاج الى ادماج ، وفصل ما يحتاج الى تفصيل وزيادة وبيان .

والحقيقة : أن كل نوع من الانواع التى تناولها السيوطى بالدراسة فى كتابه يمكن أن تفرد بالتأليف .

وكان هدفه من وراء تأليف هذا الكتاب ، أن يجعله مقدمة للتفسير الكبير الذى كان قد شرع فى تأليفه وسماه « مجمع البحرين وصلح البدوين » الجامع لتحرير الرواية ، وتقرير الدراية وقد ذكر السيوطى فى مقدمة الاتقان ما اشتمل عليه هذا الكتاب من علوم القرآن وهى :

النوع الأول : معرفة المكى والمدنى . والثانى : معرفة الحفرى والسفرى . والثالث النهارى والليلى . والرابع الصيفى الشتائى . والخامس : الفراشى والنومى . السادس : الارضى والسماوى . السابع : اول ما نزل . الثامن : آخر ما نزل . التاسع اسباب النزول العاشر : ما نزل على لسان بعض الصحابة . الحادى عشر : ما تكرر نزوله . الثانى عشر : ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر عن حكمه . الثالث عشر : معرفة ما نزل مفرقا وما نزل جمعا . الرابع عشر :

ما نزل مفردا . الخامس عشر : ما أنزل منه على بعض الانبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبى صلى الله عليه وسلم . السادس عشر : فى كيفية انزاله . السابع عشر : فى معرفة اسمائه واسماء سوره . الثامن عشر : فى جمعه وترتيبه . التاسع عشر : فى عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه . العشرون : فى حفاظه ورواته ، الحادى والعشرون : فى العالى النازل . الثانى والعشرون : معرفة المتواتر . الثالث والعشرون : : فى الشهور . الرابع والعشرون : فى الآحاد . والخامس والعشرون : فى الشاذ . السادس والعشرون الموضوع السابع والعشرون المدرج . الثامن والعشرون : فى معرفة الوقف والابتداء . التاسع والعشرون : فى بيان الموصول لفظا المفصول معنى . الثلاثون : فى الاماله والفتح وما بينهما . الحادى والثلاثون : فى الادغام والاظهار والاخفاء والاقلاب . الثانى والثلاثون : فى المد القصر . الثالث والثلاثون : فى تخفيف الهمزة . الرابع والثلاثون : فى كيفية تحمله . الخامس والثلاثون : فى آداب تلاوته . السادس والثلاثون : فى معرفة غريبه . السابع والثلاثون : فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز . الثامن والثلاثون معرفة الوجوه والنظائر . الخ هذه الأنواع الأربعون .

وقد بين أن هذه الأنواع انما ذكرها على سبيل الادماج ولو أنها نوعت وفصلت لزادت على الثلاثمائة .

ومن الملاحظ أن الامام السيوطى . قد صنف ودون هذا الكتاب ما لم يسبق اليه نعم كانت هناك مصنفات فى هذا العلم قبله الا أنها كانت نبذا وشذرات ، ومختصرات ومجالات ، وكانت المؤلفات من قبله عبارة عن تصنيف مفرد لنوع منها او لبعضها . وقد ذكر فى مقدمة كتابه « الاتقان » الكتب التى رجع اليها . وللمراجع التى اعتمد عليها . ما بين كتب فى التفسير والحديث والقراءات واللغات .

والأحكام وتعلقاتها وكتب فى الاعجاز وفنون البلاغة ، وغير ذلك من أنواع العلوم .

وقد أبدع الامام السيوطى فى كتابه هذا ، حيث ما أجمله المصنفون فى هذا العلم من قبله وأتى بأمور جديدة فى هذا الشأن سكت عنها السابقون ، فجاء الكتاب حافلا بمادة علمية خصبة تدل على ما أتى مؤلفه من فكر ثاقب ، وحافظة قوية ، وبصيرة نافذة ألهمه الله تعالى اياها فهو يعتبر أول كتاب متكامل فى هذا الشأن ولئن كان قبله كتب فى هذا المضمار الا أنها كانت بحوثا متفرقة .

كما يعتبر الكتاب المذكور خلاصة كتب كثيرة . وعصارة معلومات حصلها السيوطى ممن سبقه وممن عاصره ومن شتى أنواع الكتب والعلوم . حتى جاء فى ثوبه الكامل وقد قال فى آخر كتابه . :

« .. محضت فيه كتب العلم على تنوعها واخذت زبدها ودرها ومررت على رياض التفاسير على كثرة عددها . واقتطفت ثمرها وزهرها

الى أن قال : وانا أضرع الى الله جل جلاله وعز وعز سلطانه كما من بأتمام هذا الكتاب ان يتم النعمة بقبوله وأن يجعلنا من السابقين الأولين من أتباع رسوله . (١)

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٢٠٦ .

فى أسباب نزول القرآن الكريم

كتـــاب

لباب القول فى أسباب النزول

كتب الامام السيوطى لمعرفة أسباب كتب النزول كتابة مركزة ضمن الأنواع التى تعرض لها فى كتابه « الاتقان » فذكرها تحت النوع التاسع، ووضح ان جماعة قد افردوها بالتصنيف أقدمهم على بن المدينى شيخ البخارى • ومن أشهر ما كتب : كتاب الواحدى ، وقد اختصره الجعبرى فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا ، وألف فيه أبو الفضل ابن حجر كتابا ولكنه كما قال السيوطى مات عنه وهو مسودة •

ثم جاء السيوطى فألف كتابه الحافل الموجز « لباب النقول فى أسباب النزول » وهو كتاب لم يؤلف مثله فى هذا النوع السيوطى يتميز على كتاب الواحدى بأمور : احدها : الاختصار • ثانيها : — الجمع الكثير فقد اشتمل على زيادات كثيرة على ما ذكره الواحدى وميزها حين رمز اليها بالرمز (ك) ثالثها : أن السيوطى عزا كل حديث الى كل من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة المعتبرة كالكتب الستة، والمستدرك ، وصحيح ابن حبان ، وسنن البيهقى ، والدار قطنى ، ومسانيد أحمد ، والبزار ، رأبى يعلى ، ومعاجم الطبرانى ، وتفاسير ابن جرير ، وابن أبى حاتم وابن مرويه ، وأبى الشيخ ، وابن حبان ، والغريابى ، وعبد الرازق وابن المنذر وغيرهم •

وأما الواحدى فأنه تارة يورد الحديث باسـناده وتارة يورده مقطوعا فلا يعلم ان كان له اسناده أم لا •

رابعها : تمييز الصحيح من غيره والمقبول من المردود •

خامسها : الجمع بين الروايات المتعددة (١)

سادسها : تنحية ما ليس من أسباب النزول •

سابعها : واقد ابتدأ كتابه بمقدمة موجزة مبين فيها أهمية اسباب النزول ، وفوائد هذا العلم حيث قال : « ومن فوائده الوقوف على المعنى او ازالة الاشكال ، قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها ، وقال ابن دقيق العيد بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن ، وقال ابن تيمية : تعرفه سبب النزول يعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ••

ثم نبه — قبل الشروع فى موضوعه — على امور ذكرها بقوله « الأول » ما جعلناه من قبيل المسند الصحابى اذا وقع من تابعى فهو مرفوع أيضا لكنه مرسل فقد يقبل اذا صح السند اليه ، وكان من أئمة الآخذين عن الصحابه كمجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير ، او اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك •

الثانى : كثيرا ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسبابا متعددة وطريق الاعتماد فى ذلك أن تنظر العبارة الواقعة فأن عبر أحدهم بقوله : نزلت فى كذا ،والآخر نزلت فى كذا وذكر أمر آخر ، فقد تقدم أن هذا يراويه التفسير لاذكر سبب النزول ، فلا منافاة بين قولهما اذا كان اللفظ يتناولهما كما بينه فى كتابى « الاتقان » (وحينئذ فحق مثل هذا أن لا يرورد فى تصانيف أسباب النزول ولما يذكر فى تصانيف أحكام القرآن ••) (٢)

ولنضرب أمثلة متنوعة لما أورده فى كتابه هذا :

---

(١) لباب النقول بتصرف •

(٢) لباب النقول للسيوطى ص ٥ •

فمن ذلك ما نبه عليه السيوطى بأنه ان ذكر واحد سببا للآية وذكر آخر سببا غيره ، فقد تكون نزلت عقيب تلك الأسباب وذلك كما فى آية اللعان « والذين يرمون أزواجهم » الآية .

أخرج البخارى من طريق عكرمة عن أبن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (البينة أوحد فى ظهرك) فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : البينة أوحد فى ظهرك ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق انى لصادق ولينزل الله ما يبرىء ظهرى من الحد ، فنزل جبريل فأنزل الله عليه « والذين يرمون أزواجهم .. » فقرأ حتى بلغ « ان كان من الصادقين » ثم ذكر سببا آخر رواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر الى عاصم بن عدى فقال : اسأل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل ، فلقيه عويمر : فقال ما صنعت، انك لم تأتنى بخير، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب السائل فقال عويمر : فوالله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا سألته فسأله فقال : انه انزل فيك وفى صاحبتك الحديث : قال الحافظ ابن حجر : اختلف الأئمة فى هذه المواضع ، فمنهممن رجح انها نزلت فى شأن عويمر، ومنهم من رجح أنها نزلت فى شأن هلال، ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضا فنزلت فى شأنهما معا . والى هذا جنح النووى وتبعه الخطيب ، فقال : لعلهما اتفق لهما ذلك فى وقت واحد قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال ، فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال ، أعلمه النبى صلى الله عليه وسلم بالحكم ، ولهذا قال فى

قصه هلال ، فنزل جبريل ، وفى قصه عويمر : قد انزل الله فيك فيقول قوله قد أنزل الله فيك : أى فيمن وقع له مثل ما وقع لك وبهذا اجاب ابن الصباغ فى الشامل ، وجنح القرطبى الى تجويز نزول الآيــــة مرتين . (١)

وقد يكون النزول حـــــدث مرتين وذلك كما فى آية الروح . أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أتمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو متوكىء على عسيب ، فمر بنفر من قريش ، فقال بعضهم لو سألتموه ؟ فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقال ساعة ورفع رأسه فعرضت أنه يوحى اليه حتى صعدا الوحى ثم قال : الروح مــن أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا وأخرج الترمذى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود وعلمونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه ، فأنزل الله « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ... »

قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول ، وكذا قال الحافظ ابن حجر ، أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقــع مزيد بيان فى ذلك ، والا فما فى الصحيح أصح . قلت : ويرجع ما فى الصحيح بأن رواية حاضر القصة بخلاف ابن عباس (١) ..

هذا وقد تعرض الامام السيوطى فى كتابه « لباب النقول » الى جميع سور القرآن الكريم مع زيادات كثيرة على اوردة الواحدى ومع العزو الى كتب السنة الصحيحة .

---

(١) الباب النقول ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .

كتـــاب
الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو توضيح معنى الآية القرآنية بما جـــاء فى القرآن الكريم ، لأنه قد يكون ما جاء مجملا فى موطن فصل فى آخر . أو بماجاء فى السنة النبوية الصحيحة ، فان السنة مبينة وموضـــحة للقرآن ، ومفصلة لمجمله ، ومقيدة لمطلقه ، ومخصصة لعـــــامه ، وموضحة لأحكامه .

او بما عدد من أقوال الصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، وأما ما جاء عن التابعين ، فقد عده بعض العلماء من المأثور ، لأن التابعين قد أخذوه عن الصحابة فى الغالب، وعده البعض من التفسير بالرأى، لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة أو لأنهم أخذوه عن أهل الكتـــاب الذين أسلموه . (١)

وقد أبرز لنا السيوطى الداعى الى تأليف كتاب الدر المنثـــور اذ يقول فى مقدمته : فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن وهو التفسير المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، وتم بحمد الله فى مجلدات ، فكان ما اوردته فيه الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات رأيت قصور أكثر ؟ الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم فى الاقتصار على متن الأحاديث دون الاسناد وتطويله ، فلخصت منه هذا المختصر مقتصرا فيه على متن الأثر مصدرا بالعزو والتخريج الى كتاب معتبر ، وسميته المنثور فى التفسير بالمأثور . (٢)

---

(١) تاريخ التفسير ومناهج المفسرين للدكتور عبد العظيم الغباشى .

(٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ص ٢ .

فالسيوطى اذن اختصر كتابه هـــذا من كتابه « ترجمـــان القرآن » وحذف أسانيد الروايات خشية السآمة والملل ، وعزا كـل رواية الى أصلها ومرجعها ، ولم يخلط السيوطى بالروايات التى نقلها شيئا من الرأى كما فعـــل غيره ، وانما قام بجمـع الروايات عن السلف فى التفسير دون أن يعقب عليها ، ولا يجـرح ولا يعـــدل ولا يضعف ولا يصحح • وقد أخذ عن البخارى ومســـلم والنائى والترمذى ، وابى داود ، واحمد ، وابن جـــرير ، وابن ابى حاتم ، وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا ، وغيرهم ممن تقـــــدمه ودونــ التفسير • (١)

فمنهج السيوطى فى هذا الكتاب : يتلخص فى سرد الروايات عن السلف بدون تعقيب عليها ، فقد كـــان مولعا بتدوين الروايات دون فحص وتمحيص ، مما أدى الى اختلاط الصحيح بغيره ، فقد جمع فيه أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة ، والتابعين •

ولكن يؤخذ على السيوطى فى هذا الكتاب : أنه وان عـــزا الروايات الى مصادرها الا أنه لم يوضح درجـــة كل رواية من حيث الصحة او الضعف وما الى ذلك •

وفى الكتاب اسرائيليات ، ولاسيما فى قصص الأنبياء ، كما فى قصة هاروت وماروت ، وفى قصة الذبيح وأنه اسحاق ، وفى قصـــة يوسف ، وفى قصة داود ، وفى قصة الياس (٢) •

فالكتاب فى حاجة الى تنقية وتمحيص ، وبيان درجة ما جاء فيه من الأحاديث •

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبى ج ١ ص ٢٥٤ •

(٢) الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير للدكتور محمد ابو شهبة •

فى التفسير بالرأى

كتـــاب

تفسير الجلالين

التفسير بالرأى : هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسر للعلوم التى ينبغى معرفتها لمن يتصدى للتفسير ، وقد بينتها فيما سبق ووضحت ما اشترط السيوطى للمفسر ، بالاضافة الى معرفة المفسر لكلام العرب وفنونه ، والوقوف على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك • (١)

وقد اشترك الامامان الجليلان : جلال الدين المحلى ، وجـلال الدين السيوطى فى هذا التفسير ، وقد اختلف الكتاب فى تعيين القدر الذى فسره كل واحد منهما فى كتاب الله تعالى ، قال صاحب كشـف الظنون : وتفسير الجلالين من اوله الى آخر سورة الاسراء للعلامة جلال الدين محمد بن احمد المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤ ه اربع وستين وثمان مائة • ولما مات كمله الشـيخ المتبحر جـلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ه احـــدى عشرة وتسعمائة •• ثم قال : وكان المحلى لم يفسر الفاتحـة وفسرها السيوطى تفسيرا مناسبا (٢) •

ولكن الحقيقة أن جلال الدين المحلى فسر النصف الثانى وفسر سورة الفاتحة والسيوطى فسر النصف الأول غير الفاتحة •

وعلى ذلك فرأى صاحب كشف الظنون يجافى الصواب ، وذلك

---

(١) تاريخ التفسير ومناهج المفسرين للدكتور عبدالعظيم الغباشى •

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٦ •

لأن السيوطى فى مقدمة هذا التفسير قال : هـذا ما اشتدت اليه حاجة الراغبين فى تكملة تفسير القرآن الكريم الذى ألفه الامام العلامة الجليل المحقق جلال الدين محمد بن احمد المحلى الشافعى رحمه الله ، وتمم ما فاته وهو من أول سورة البقر الى آخر سورة الاسراء بتتمة على نمطه من ذكر ما يفهم فيه كلام الله تعالى والاعتماد على أرجح الأقوال ، واعراب ما يحتاج اليه وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية . والله أسأل النفع به فى الدنيا واحسن الجزاء فى العقبى بمنه وكرمه » . (١)

كما قال أيضا فى آخر سورة الاسراء : « آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم الذى ألفه الشيخ الامام العالم العلامة المحقق جلال الدين المحلى الشافعى رضى الله عنه .. »

وبهذا يتبين لنا مقدار ما ألفه كل منهما على الحقيقة ، وهو ان السيوطى قد فسر النصف الأول غير الفاتحة ، والمحلى فسر النصف الثانى مضافا الفاتحة . وقد وضح الشيخ سليمان الجمل فى مقدمة حاشيته على هذا التفسير ، أن الفاتحة فسرها المحلى ، وجعلها السيوطى فى آخر تفسير المحلى لتكون منضمة الى تفسيره .

وقد التزم السيوطى منهج المحلى فى الاختصار والعبارة الموجزة الدقيقة وعدم التوسع ، فسار على نفس النمط . وذكر فى خاتمة سورة الاسراء انه الف الجزء الذى ألفه فى قدر ميعاد الكلم وهو أربعون يوما ، وذكر أنه استفاد من تفسير الجلال المحلى ، واعترف انه اعتمد عليه فى الرآى المتشابهة ، وأن الذى وضعه الجلال المحلى فى قطعته أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة . وهـذا ان دل على

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٦ .

شيء فانما يدل على نبل العلماء وأدبهم الرفيع وخلقهم الجم وحسن تواضعهم وعرفانهم للفضل والجميل . والذى يقرأ تفسير الجلالين لا يكاد يرى فرقا كبيرا بين الشيخين ولا مخالفة الا فى القليل ومن المواضع التى لوحظ فيها الاختلاف بينهما : ان المحلى فسر الروح فى سورة ص بأنها جسم لطيف يحى به الانسان بنفوذه فيه ، والسيوطى تابعه على هذا التفسير فى سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله تعالى فى سورة الاسراء « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

فهى صريحة او كالصريحة فى ان الروح من علم الله تعالى فالامساك عن تعريفها أولى .

ومنها ان المحلى قال فى سورة الحج الصابئون فرقة من اليهود ، وتابعه السيوطى على ذلك فى سورة البقرة وزاد عليه (أو النصارى) .

وهذا بيان منه لقول ثان . وقد ذكر صاحب كشف الظنون عن بعض علماء اليمن انه قال عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين الى سورة المزمل ، وبين سورة المدثر زائد على القرآن ،فلى هذا يجوز حمله بغير الوضوء . (١)

وبالجملة فهو كتاب قيم فى بابه نال من عناية العلماء والباحثين الكثير ، وظفر بشروح وحواش وتعاليق من أهمها حاشية الجمل وحاشية الصاوى .

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٦ .

خاتمـــة

وقد دعى السيوطى الاجتهاد المطلق وأنه المجدد للدين فى المائة التاسعة وانتشرت فتاواه ومصنفاته ، وكاتبه كثير من الناس وراسله المستفتون من مختلف الأقطار • ولم يخالط الســيوطى الأمـــراء ولا السلاطين ، فتألب عليه بعض منافسيه وطعنوا فيه •

وقد ألف السخاوى كتابه (الضــوء اللامـــع فى تاريخ القرن التاسع) وترجم فيه للسيوطى وهو حى ، ترجمة ظالمة وانتقصــه فى علمه ومولفاته •

ومما وجه الى السيوطى أنه اختلس من تصانيف الحافظ ابن حجر الكثير وادعاها لنفسه مثل : عين الاصابة ، والنكت البديعــات على الموضوعات ، ونشر العبير فى تخريج احاديث الشرح الكبير ، وكشف الثقاب من الألقاب ، ولباب النقول فى أسباب النزول ، وغير ذلك •

ويجاب على هذا ، بأن أهلية السيوطى لاتقل عن تأليف هــذه الكتب وان استعداد اللاحق من السابق ضرورى فى الأمور التاريخية والواقعية ، وهنــاك فــرق بين التأليف والجمـــع ، وبين السرقة والاختلاس • وللسيوطى فى ذلك (الفارق بين المؤلف والسارق) • ومن المعلوم ان السيوطى ابتدأ التأليف فى أول أمره ملخصا ثم استقل بالتأليف المستوعب ، والحق انه أهل للاجتهاد وان ادوات الاجتهــاد كملت لديه ، وانه عالما بآيات الأحكام وأحاديث الأحكــام وشروط القياس •

والسيوطى امام فى كثير من العلوم والفنون ، واحفظ للمتون من السخاوى ، واكثر بصرا باستنباط الاحكام الشرعية • وقد نقل عنه انه كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم يقظة وانه أخبر بكثير من المغيبات (١) • فهو خاتم الحفاظ وصاحب عنادة وكرامات • وتوفى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من شهر جمادى الأول من سنة ٩١١ هـ وكان قد مرض سبعة أيام • وأتم من حياته احدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما ، ودفن بحوش قوصون المسمى (قيسون) خارج باب القرافه ، ويسمى الآن بوابة السيدة عائشة بالقاهرة ، فى زمن السلطان الغورى ، وبنيت على قبره قبة •

على أنه لم يعقب فالمنتسبون اليه فى أسيوط ليسوا من ذريته ، بل اما من نسل نظار المسجد او خدمته ــ كما حققه تيمور باشا ــ رضى الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا بعلمه وجزاه عن خدمة القرآن والسنة خير الجزاء •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

---

(١) مقدمة تدريب الراوى تحقيق المرحوم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف •

اهم المراجـــع

١ ـ **كتاب الاتقان فى علوم القرآن** لجلال الدين السيوطى .

٢ ـ **لباب العقول فى أسباب النزول** لجلال الدين السيوطى .

٣ ـ **حسن المحـــاضرة** لجلال الدين السيوطى .

٤ ـ **الدر المنثور فى التفسير بالمأثور** لجلال الدين السيوطى ..

٥ ـ **تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى** لجلال الدين السيوطى .

٦ ـ **التفسير والمفسرون** للدكتور محمد حسين الذهبى .

٧ ـ **تاريخ التفسير ومناهج المفسرين** للدكتور عبد العظيم الغباشى .

٨ ـ **الجامع الصغير للسيوطى** للشيخ محيى الدين عبد الحميد .

٩ ـ **تدريب الراوى** بتحقيق المرحوم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

١٠ـ **الامام جلال الدين السيوطى** للدكتور على صافى حسين .

١١ـ **الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفســـير** للدكتور محمـــد أبو شهبه .

١٢ـ **كتب التفسير** .

١٣ـ **كتب السنة الصحيحة** .

١٤ـ **اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى** .

١٥ـ **كتب التاريخ المختلفة ، وكتب التراجم** ..

السيوطي محدثاً

للدكتور عبد الحكم السيد عتلم

المدرس بكلية البنات الاسلامية بجامعة الأزهر

المقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين ، القائل « وما آتاكم الرســول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب» (١) •

والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين •• وبعد ••

فان علوم السنة النبوية من أشرف العلوم الانسانية وأعظمهـا وكفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا أنها المصدر الثانى من مصادر التشريع الاسلامى بعد كتاب الله عز وجل •

ومن هنا تأتى قيمة حديث رســول الله صلى اللــه عليه وسلم كأساس قويم من الأسس التى تعتمد عليها شريعة الاسلام ، كمصــدر للأحكام ، وسند للعقيدة ، ومنهج للحياة وطريق للهداية من اشــتغل به واعتنى بأمره نال الشرف الأعظم وعز فى الأولى والآخرة •

ويحدثنا فى هذا الشأن العلامة الشهاب أحمد المنينى الدمشقى

(١) سورة الحشر آية ٧ •

الحنفى فى القول السديد مبينا لنا شرف علم الحديث وفائدته ومزية المشتغلين به • فيقول : « ان علم الحديث على رفيع القدر ، عظيم الفخر ، شريف الذكر ، لا يعتنى به الا كل حبر ، ولا يحرمه الا كل غمر ولا تفنى محاسنه على مر الدهر ، لم يزل فى القديم والحديث يسمو عزة وجلالة وكم عز به من كشف الله له عن مخبآ أسراره ، وجلاله اذ به يعرف المراد من كلام رب العالمين ويظهر المقصود من حبله المتصل المتين منه يدرى شمائل من سما ذاتا ووصفا واسما ويوقف على بلاغة من شرف ـ الخلائق عربا وعجما وتمتد من بركاته للمعتنى به موائد الاكرام من رب البرية فيدرك فى الزمن القليل من المولى الجليل المقامات العلية والرتب السنية (١) •• واذا كان لعلم الحديث هذه المنزلة فلا عجب اذن ان نسمع صيحات متكررة فى القديم والحديث تنطلق من أفواه المحببين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه مناشدة أبناء الأمة الاسلامية أن يحيطوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسياج قوى من العناية الفائقة • مظهره لهم فضل الاشتغال به موضحة لهم فوائده فهذا الحافظ أبو القاسم بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقى المؤرخ الشهير يقول :

واظب علم الحديث وكتبه ... واجهد على تصحيحه فى كتبه
واسمعه من أربابه نقلا كما ... سمعوه من أشياخهم تسعد به

الى أن قال :

واترك مقالة من لحاك بجله ... عن كتبه أو بدعة فى قلبه
وكفى المحدث رفعة أن يرتضى ... ويعد من أهل الحديث وحزبه(٢)

---

(١) قواعد التحديث للقاسمى ص ٤٤ ، ٤٥ •

(٢) قواعد التحديث للقاسمى ص ٤٠٢ •

وقال الشعرانى رحمه اللــه تعالى فى مقــدمة ميزانه (١) كان الأعمش رضى الله عنه يقول عليكم بملازمة السنة ، وعلموها للأطفال فانهم يحفظون على الناس دينهم اذا جاء وقتهم .

والحافظ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى أحد هــؤلاء الذين حفظوا على الناس دينهم بما ترك لنا من تراث اسلامى خــالد تزخر به المكتبات العامة والخاصة .

ففى مجال التفسير وتعلقات القرآن نرى المؤلفات المتعددة التى عالج بها موضوعات التفسير وكل ما يتعلق بالقرآن الكريم وعــلومه والتى منها :

١ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور .

٢ ـ التفسير المسند ويسمى ترجمان القرآن خمس مجلدات .

٣ ـ الاتقان فى علوم القرآن .

٤ ـ الاكليل فى استنباط التنزيل .

٥ ـ لباب النقول فى أسباب النزول .

٦ ـ الناسخ والمنسوخ فى القرآن .

٧ ـ حاشية على تفسير البيضاوى . يسمى نواهد الأبكار وشــوارد الأفكار . أربع مجلدات وغيرها كثير .

أما فى مجال السنة فنرى تلك الموسوعات الضخمة والجــوامع الجامعة والتى يأتى جمع الجوامع على رأس قائمتها وكذلك الجــامع الصغير والذيل عليه . وغيرها .

هذا وقد حاولت فى هذه العجالة . أن ألقى بعضا من الضــوء

---

(١) ص ٦٢ ، ٦٣ .

على جهود السيوطى رحمه الله تعالى فى ميدان السنة النبوية (رواية ودراية) والتى عن طريقها نستطيع أن نقف فى خشوع أمام محراب السيوطى المحدث .

وقد عقدت بحثى هذا على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة تحدثت فى التمهيد عن عصر السيوطى من الناحيتين السياسية والعلمية وجهدت فى الربط بين السيوطى والعصر الذى عاش فيه من هاتين الناحيتين تأثرا وتأثيرا .

أما الباب الأول : فقد ترجمت فيه للحافظ جلال لدين السيوطى وقسمته الى أربعة فصول تحدثت فيها بايجاز عن حياة السيوطى .

وخصصت الباب الثانى : لبيان جهوده فى مجال الحديث وقسمته الى خمسة فصول : الأول منها ذكرت فيه مؤلفات السيوطى فى الحديث وتعلقاته مرتبة على حروف المعجم والفصول الأربعة الباقية خصصت لبيان جهوده فى مجال الجمع والشرح والتخريج والموضوعات .

وعقدت الباب الثالث : لبيان جهوده فى علوم الحديث وبنيته على فصليين . الأول : ذكرت فيه مؤلفات السيوطى فى علوم الحديث على وجه الاجمال والثانى : عرفت فيه ببعض مؤلفاته فى هذا المجال . وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم نتائج البحث .

هذا . وأحب أن أشير هنا الى أن هذا البحث جاء بحمد الله تعالى بعيدا عن التعصب الممقوت والهوى المطاع . حاولت فيه أن أضع الأمور فى نصابها وأن أحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المعرضون .

وختاما فانى اذ أتقدم الى جماهير الامة الاسلامية بهذا العمل المتواضع فى محاولة لابراز دور امام من أئمة المسلمين فى خدمة السنة النبوية (الحافظ جلال الدين السيوطى) فانى أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به • وأن يجزل المثوبة والعطاء لمن أتاحوا لنا فرصة المشاركة فى هذه الندوة المباركة بما يسهم فى خدمة السنة النبوية الشريفة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

تمهيـــد :

أولا - نبذة عن الجانب السياسى فى عصر السيوطى :

ولد السيوطى رحمه الله تعالى فى عصر دولة المماليك البرجية . وقد جاء حكمهم لمصر بعد عهد دولة المماليك البحرية الذين يختلفون فى أصل الجنس عنهم ويرجع قيام دولتهم الى سنة ٧٨٤ هـ على يد أشهر ملوكهم وأدلهم (الملك الظـاهر سيف الدين برقوق الذى قـام بخلع السلطان صلاح الدين حاجى بن الأشرف شعبان آخر المماليك البحرية وتولى السلطة مكانه (١) ، وكان الطابع المميز لهذه الدولة هو ذلك الاضطراب الداخلى الذى ساد فى عصرها) .

فقد وصل معظم سلاطين هذه الدولة الى العرش بعد فتنة وانقلاب سياسى فظيع فطبع عهدهم بطابع الفتن والثورات التى كانت تقوم بين حين وآخر (٢) ، وكان طبيعيا أن يتأثر الشعب فى مصر بهذه السياسة المضطربة التى كان الدافع اليها الهوى والميل الشخصى مما أحدث رد فعل لدى أفراد الشعب وفئاته . فقاموا بثورات متعددة دون تحريض أو استعداد وانما بدافع من ذات أنفسهم ردا للمظالم المختلفة التى اقترن بها حكم المماليك (٣) .

ولم تكن كل هذه الحروب والفتن الداخلية هى كل ما بليت به مصر فى عهد المماليك البرجية بل كانت هناك اضطرابات خـارجية . فقد أعتاد أمراء سوريا أن يقوموا بحركات ثورية عنيفة شغلب جانبا

---

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر ، عصر السيوطى ص ٣ ، ٤ .

(٢) صفحات من تاريخ مصر ص ٣ ، ٤ .

(٣) صفحات من تاريخ مصر ص ١٢ ، ١٣ .

كبيرا من مجهود السلاطين . وهنا كذلك غارات البدو المتكررة على مصر وغارات المغول وخاصة فى عهد زعيمهم تيمورلنك ثم هجمات للصليبيين على الثغور المصرية واستيلائهم على أحد هذه الثغور بين الفترة والأخرى (١) .

هذه أهم ملامح الحياة السياسية فى عهد دولة المماليك البرجية (على وجه الاجمال) الا أنه مما ينبغى أن يذكر أن فترات من الاستقرار السياسى فى عهد هذه الدولة توفرت للبلاد على يد بعض ملوكها الذين كان من حظ السيوطى أن يقضى معظم حياته فى عهودهم .

فقد ولد رحمه الله تعالى فى أيام حكم الظاهر أبى سعيد الذى تعد أيامه بحق من أهدأ سنوات حكم المماليك وكانت مدة حكمه خمس عشرة سنة منذ تولى الحكم يوم الاربعاء تاسع عشر من ربيع الأول سنة ٨٤٢ هـ واستمر فى الحكم حتى مات سنة ٨٥٧ هـ (٢) .

وهذه أول فترات الاستقرار السياسى التى واكبت حياة السيوطى . ومن هنا نشأ عهده الأول فى ظل استقرار سياسى أمكنه فى رحابه أن يتعلم ويتلقى مبادىء العلوم فى يسر وسهولة .

هذا . وقد قضى السيوطى أطول مدة من حياته العلمية فى المماليك دينا وخلقا ومن أحمدهم وأطيبهم سيرة وقد حكم هذا السلطان فترة من الزمن تعتبر أطول فترة حكم فيها سلطان مملوكى فقد استمر حكمه تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فقد تولى السلطة يوم الاثنين السادس من رجب سنة ٨٧٢ هـ الى أن

---

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر ص ٤ . وأنباء الغمر بأبناء العمر حـ ١ ص ١٩٩ . ٢٠٤ .

(٢) الضوء اللامع جـ ٣ ص ٧١ وما بعدها الى ص ٧٤ .

انخلع من الحكم بسبب مرضه يوم السبت السادس عشر من شهر ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ (١) .

وهذه هى الفترة الثانية والمهمة من فترات الاستقرار السياسى فى عصر السيوطى والتى تمثل بالنسبة للسيوطى أزهى فترات حياته العلمية تأليفا وتصنيفا وأعظم اطوار حياته الثقافية نضجا واتقانا .

على أن الأمر لم يسلم من حدوث بعض فترات اضطراب فى حياة السيوطى لكنها كانت قليلة وقصيرة اذا ما قيست بفترات الاستقرار . والمتتبع للأحداث التاريخية فى تلك الحقبة من الزمن يستطيع أن يقف على ذلك بوضوح .

هذا وقد لحق السيوطى رحمه الله تعالى من سياسة بعض السلاطين هذه الدولة أذى ففى عهد (طومان باى الذى لقب نفسه بالملك العادل) والذى تولى الحكم بعد أن خلع (جان بلاط) وتولى مكانه يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ أضطر السيوطى الى الاختفاء طيلة أيام حكم هذا السلطان لأنه قد صمم على قتله اذا قبض عليه ، وتمكن منه ولكن الله عز وجل لم يمكنه من ذلك اذ اقام عليه الأمراء فخلعوه وأسندوا أمر البلاد الى السلطان قانصوه الغورى فى أول أيام عيد الفطر سنة ٩٠٦ هـ .

وقد عاش السيوطى بقية حياته فى عهد (قانصوه) هذا (٢) وكان السيوطى فى ذلك الوقت قد اعتزل الناس ولزم بيته بروضة المقياس وقد حدث أن أهدى الغورى هذا الى جلال الدين السيوطى خصيا وألف دينار . فرد الألفى وأخذ الخص فأعتقه وجعله خادما فى الحجرة النبوية . وقال لقاصد السلطان : (لا تعد تأتينا قط بهدية فان الله

---

(١) انظر شذرات الذهب جـ ٨ ص ٩ وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٢) ابن اياس جـ ٢ ص ٣٩٦ .

تعالى أغنانا عن مثل ذلك واستطيع أن أقول : أن مثل هذه الاضطرابات لم يكن له كبير أثر على نشاط السيوطى العلمى فمضى فى طريق التأليف والتصنيف والمراجعة والتهذيب بكل قوة ونشاط فاستطاع أن يحقق أعظم الانتصارات العلمية وان يضيف الى رصيد المكتبة الاسلامية مئات المصنفات فى جميع الفنون .

ثانيا - الجانب الثقافى والعلمى فى عصر المماليك :

على الرغم من وجود هذه الاضطرابات وتلك الفتن الداخلية أيام المماليك فلم يكن ذلك صارفا لهم عن العناية بالناحية العلمية والنهوض بها ، فقد أولوها عناية فائقة حتى غدت مصر فى أيامهم ميدانا واسعا لنشاط علمى كبير ، يدل عليه ذلك التراث الضخم من الموسوعات الأدبية والتاريخية واللغوية والنحوية والدينية التى خلفها علماء ذلك العصر (٢)

ولقد ساعد على هذه النهضة العلمية عدة عوامل منها :

(١) تلك الثقافه العالية التى كان يتمتع بها كثير من سلاطين المماليك والتى دفعتهم لحبهم للمجتمع المثقف فبذلوا فى سبيل كل جهد ومال وغال ونفيس .

(ب) قدوم كثير من المشارقة والمغاربة الى مصر اما فرارا من وجه ظالم أو رغبة فى تحصيل العلم والرزق .

(ج) منها فى رأى السيوطى احياء الخلافه العباسية فى مصر .

ويمكن القول أن عصر المماليك من العصور الذهبية فى تاريخ الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده ، فقد تكاثر فيه الحفاظ وعنوا بالرواية عناية تامة على الرغم من انتشار الخط وكثرة الخطاطين

---

(١) الكواكب السائرة باعيان المائه العاشره ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) العصر المماليكى فى مصر والشام للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٢٣٠ .

ومما يكون له شأن فى التقليل من العناية بالحفظ والرواية ولكن علماء العصر كأنما وجدوا انه لابقاء لعلمهم فى صدورهم مالم تعاونه ذخيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفظوه كما حفظوا كتاب الله ، واهتموا به أى اهتمام واشترطوا على رواته الحصول على الاجازة بالرواية من عالم حافظ رواية مجاز عن شيخه ... وسمت العناية بالحديث سموا كبيرا حتى كان قصارى كثير من الطلاب الحصول على الاجازات ليصيروا فى زمرة الحفاظ وكانت هذه العناية سببا فى شحذ الهمة وتنبيه الحافظة والذاكرة .. حتى أصبح بعضهم مضرب المثل فى قوة الحفظ والذكر ويذكر فى تاريخه وأوصافه انه سريع الاستحضار للأحاديث فى مناسباتها وان بعضهم يحفظ حديثا أو عدة أحاديث يجمع أسانيدها ورواياتها المتغايرة مع علمه برجال كل سلسلة من سلاسل هذه الأسانيد من ناحية ضبط الاعلام والكنى والنسبة وتاريخ كل علم منها وكل ما قيل من تجريح أو تعديل ونحو ذلك .

فكان طبيعيا أن يكون لهذه العناية أثر بارز فى ميدان التأليف ، فانصرفت العناية الى وضع مؤلفات فى الحديث ورجاله وفى مصطلحه ونقد وشرح كتبه واختصارها كذلك .

فظفر العصر بجملة بارعه نافعة فى هذه الأبواب وحسبك منها . كتب الذهبى والعينى والسيوطى والقسطلانى والعسقلانى الذى قال السخاوى عن كتابه فى شرح البخارى أن الأمة به وفت دينها (١)

هذا ومن أجل العناية بالعلم وتنشيطه فى عصر دولة المماليك كما أوضحت كانت عنايتهم الفائقة بدور العلم ومراكزه وكانت تتمثل عندهم فى الخوانق والمساجد أو الجوامع ثم المدارس التى لا يزال الكثير منها قائما حتى الآن شاهد صدق على عناية هؤلاء المماليك بأمر الدين والعلم .

---

(١) عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم المجلد الثالث ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الباب الأول

ترجمة الحافظ السيوطى

الفصل الأول : اسمه وكنيته ولقبه ونسبته الى أسيوط ومولده ونشأته ودراسته

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابى بكر الكمال بن محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان بن ناظر المدين بن سيف الدين خضر بن نجم الدين آبى الصلاح ايوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضرى الاسيوطى (١) وهذا النسب أثبته السيوطى بنفسه فى كتابه حسن المحاضرة .

والسيوطى نسبه الى أسيوط بتثليث أوله وفيه الاسيوطى بتثليث أوله أيضا .

قال صاحب مراصد الاطلاع : أسيوط بفتح أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه هو اسم لمدينة غربى النيل من نواحى صعيد مصر . ويقال لها اسيوط بغير همزة كما فى معجم ياقوت (٢) وهى الآن احدى عواصم محافظات الوجه القبلى الشهيرة .

وترجع نسبه جلال الدين الى هذه المدينة الى ان والده الكمال ولد بها فنسب الجلال اليها وكان أحد اجداده قد بنى مدرسة وأوقف عليها أوقافا . وللسيوطى فيها رسالة تسمى « المضبوط فى أخبار

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى المجلد الثالث ص ٢٠١ .

اسيوط ، ومقامة تسمى المقامة الاسيوطية (١) .

اما مولده : فقد كان بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (٨٤٩) هـ فى مدينه القاهرة (٢) فى آسرة كريمة عريضة فى المجد وقد حدثنا السيوطى فى حسن المحاضرة عن منزلة تلك الأسرة التى تنتمى اليها وكيف أنهم كانوا أهل رياسة ووجاهة .. الخ فقال : أما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق .. ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة منهم من ولى الحكم ببلده ومنهم من ولى الحسبة بها ومنهم من كان تاجرا فى صحبة الامير شيخون . وبنى بأسيوط مدرسه ووقف عليها أوقافا ومنهم كان متمولا ولا أعلم منهم من خدم العلم حق الخدمة الا والدى (٣) .

نشأته ودراسته :

نشأ السيوطى يتيما فقد توفى والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل فى القراءة اذ ذاك الى سورة التحريم ولكن الله عز وجل هيأ له ن أسباب النجاح فى الحياة ما جعله آية فى العلم ونابغة من نوابغه اغرم به منذ صغره . فقد حباه الله تبارك وتعالى بمزيد من النبوغ المبكر وانبته نباتا حسنا فى وسط علمى عريق .

ولاشك أن السيوطى رحمه الله تعالى قد تأثر بهذه البيئة منذ نعومة اظفاره . ففى حياة والده احضره رحمه الله مجلس الحافظ ابن حجر وهو فى سن الثالثة وشرع كما ذكرت فى حفظ القرآن فى سن مبكرة وأتم حفظه وهو دون الثامنة .

واذا كان المولى عز وجل قد اختار والده الى جواره والسيوطى

---

(١) انظر تدريب الراوى تحقيق المرحوم الأستاذ/عبد الوهاب عبد اللطيف جـ١ ص١٠ .

(٢) حسن المحاضره جـ١ ص ٣٣٦ ، والكواكب السائرة جـ١ ص ٢٢٦ والضوء اللامع جـ ٤ ص ٦٥ .

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٦ .

لم يزل فى سن الطفولة المبكرة فان الله عز وجل عوضه عن والده مرب فاضل وامام جليل كان من بين الأوصــياء عليه ، هو العلامة المفضال كمال الدين بن الهمام الحنفى صاحب فتح القدير ومدرس الفقـــه بالمدرسة الشيخونية كما فى بقية الوعاة .

وبعد أن أتم الســيوطى حفظ القرآن الكريم . حفظ عمــدة الأحكام ومنهاج النووى وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوى وعرض الثلاثة الأولى على مشايخ الاسلام ـ العلم البلقينى ـ والشرف المناوى والعز الحنبلى وشيخ الشيوخ الاقصرائى وغيرهم وأجــازوه وحضر مجالس الجلال المحلى سنة كاملة يومين فى الجمعة وحضر مجلس زين الدين رضوان العقبى (١)

وقرأ على الشيخ شمس الدين محمد بن موسى السيرائى صحيح مسلم الا قليلا منه والشفاء ، وقرأ عليه الفية ابن مالك حلافا اتمها الا وقد صنف واجازه بالعربية ثم قرأ عليه قطعه من التسهيل وسمع عليه الكثير من ابن المصنف والتوضيح وشرح الشذور والمغنى فى اصــول فقه الحنفية وشرح العقائد للتفتازانى . (٢)

هذا وقد روى السيوطى ورحل وكاتب أهل الاقطار البعيدة .

الفصل الثانى ـ شيوخه وتلاميذه

أخذ السيوطى العلم عن ستمائة شيخ هكذا لتلميذه الشعرانى فى طبقاته الصغرى .

والذى فى ترجمته من حسن المحاضرة (٣) له ولتلميذه الد اودى فى ترجمته ونحوه فى شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد

---

(١) انظر الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٢٦ .
(٢) انظر الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٢٧ .
(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٩ .

الحنبلى انهم بلغوا مائة وواحد وخمسين • ورتبهم الداودى على حروف المعجم •

والحقيقة أن شيوخ السيوطى الذبن تلقى عنهم العلم كثيرون ويهمنى هنا أن أشير الى أبرزهم ومن لازمهم السيوطى أكبر مدة من الزمن من هؤلاء •

١ ـ تقى الدين الشمنى الحنفى المتوفى سنة ٨٧٢ هـ

لازمة السيوطى أربع سنوات فى الحديث والعربية•• وسمع عليه المطول والتوضيح والمغنى وحاشيته عليه وشرح العقائد للتفتازانى وقرأ عليه من الحديث كثيرا ، ومن علومه وشرحه على نظم النخبة لوالده (١) •

٢ ـ العلامة محيى الدين الكافجى الحنفى المولود سنة ٧٨٨ هـ

قال السيوطى : لزمته أربع عشرة سنة فماجئته من مرة الا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب مالم أسمعه قبل ذلك • توفى ليلة الجمعة رابع جمادى الاول ٨٧٩ هـ •

٣ ـ شرف الدين المناوى :

لزم السيوطى درسه فقرأ عليه قطعة من المنهاج وسمعه عليه كاملا فى التقسيم وسمع عليه الكثير من شرح البهجه للعراقى ومن تفسير البيضاوى وغيره ولزمه الى أن مات (٢) •

هذا ولم يقتصر السيوطى على الأخذ من الرجال بل أخذ العلم كذلك عن عدد من النسوة اللائى اشتهرن بالعلم والصلاح فى ذلك العصر مثل :

---

(١) الكواكب السائرة ، جـ ١ ص ٢٢٧ •
(٢) أنظر الكواكب السائرة ص ٢٢٧ وصفحات من تاريخ مصر ص ١٤٧ •

١ ــ أمة العزيز بنت محمد الانباس

٢ ــ فاطمة بنت على بن اليسير (١)

٣ ــ آسية بنت جار الله بن صالح الطبرى

٤ ــ صفية بنت ياقوت المكية

٥ ــ رقية بنت عبد القوى بن محمد الجاوى (٢)

وغيرهن من شهيرات عصره ممن نشأن فى بيوت العلم والورع والتقــوى .

واذا كان السيوطى رحمه الله تعالى قد تتلمذ على هذا الحشــد الكبير من الأئمة الاجلاء مما كان له كبير الأثر فى حياته العلمية حتى أصبح اماما حافظا جليلا . فكذلك تخرج بالسيوطى جمع كثير من الأئمة الذين تتلمذوا على يديه ونهلوا من معينه الصالح . أذكر منهم :

١ ــ الدودى :

وهو الحافظ شمس الدين محمد الداودى المصرى الشافعى وقيل المالكى العلامة المحدث الحافظ ، هكذا وصفه العماد فى شذرات الذهب. وقال :

كان شيخ أهل الحديث فى عصره أثنى عليه المسند جار الله بن فهد والبدر الغزى وغيرهما قال شمس محمد بن طولون . وضع ذيلا على طبقات الشافعية للسبكى وجمع ترجمة شيخه الحافظ السيوطى فى مجلد ضخم وله دليل على لب الألباب فى الأنساب للسيوطى وطبقات المفسرين مات فى ٢٨ من شوال سنة ٩٤٥ هـ .

---

(١) بغية الوعاة ص ٤٥٦ .

(٢) انظر فهرس الفهارس للكتانى حـ ٢ ص ٣٥٥ وبية الوعاة ص ٤٦٠ .

٢ ـ الشامى :

وهو الامام الحافظ محدث الديار المصرية مسند شمس الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف الشامى الصالحى الدمشقى نزيل برقوقية الصحراء بخارج باب النصر بمصر من أجل تلاميذ الحافظ السيوطى •• توفى ١٤ من شعبان سنة ٩٤٢ هـ (١) •

٣ ـ ابن طولون :

وهو الامام العلامة المحدث مسند الشام ومفخرته وحافظه شمس الدين محمد بن على بن أحمد لمدعو بابن خمارويه وبابن طولون الصالح الدمشقى الحنفى ولد بدمشق سنة ٨٨٠ هـ وأخذ علم القراءات على مشيختها وتلقى الحديث عن شيوخ ومسندين يبلغ عددهم خمسمائة أعظمهم الحافظ السيوطى •• مات بدمشق سنة ٩٥٣ هـ (٢) •

وقد كان لهؤلاء وغيرهم ممن تتلمذوا على السيوطى مكانة علمية عظيمة وقدموا للمكتبة الاسلامية عديدا من المصنفات النافعة فى جميع الفنون حديثية وغير حديثية • وكانت كثرة تلاميذ السيوطى من أهم العوامل التى ساعدت على حفظ تراثه ونقله الينا •

الفصل الثالث : علمه

والسيوطى ممن شغفوا بتدوين مسائل العلم والتأليف فى سن مبكرة حيث أنه شرع فى التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة وسنه اذ ذاك سبع عشرة سنة وقد أجيز فى ذلك الحين بتدريس اللغة العربية وكان أول شيء ألفه هذه السنة وهو أول تأليف له شرح الاستعاذة والبسملة وأوقف عليه شيخه شيخ الاسلام علم الدين البلقينى فكتب عليه تقريظا •

---

(١) فهرس الفهارس جـ ٢ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ •

(٢) فهرس الفهارس جـ ١ ص ٣٥٥ •

وجلس لاملاء الحديث فى مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة (١) وتصدر للتدريس والافتاء ابتداء من سنة ست وسبعين وثمانمائة (٢) وذكر رحمه الله تعالى أنه رزق التبحر فى سبعة علوم فقال : ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت اليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى أطلعت عليها لم تصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخى فيه أوسع نظرا وأطول باعا ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ومنها الانشاء والترسل والفرائض وأما علم الحساب فهو أعسر شىء على وأبعده عن ذهنى واذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله ، وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى أقول : ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى فخرا، وأى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر وقد أزف الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيب العمر ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى ولا بقوتى فلا حول الا بالله ما شاء الله لا قوة الا بالله وقد كنت فى مبادىء الطلب قرأت شيئا فى علم المنطق ثم ألقى كراهيته فى قلبى وسمعت أن ابن صلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم (٣) .

---

(١) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ١٤٨ .

(٢) انظر عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٥٩ .

(٣) عصر السلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٦٠ ، ٣٦١ وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٨ وما بعدها .

من هذا الحديث الذى حدثنا اياه السيوطى عن نفسه وما فتح الله به علبه من العلوم والمعارف يتضح لنا عدة أمور منها •

١ ـ أن السيوطى قد بلغ فى هذه العلوم السبعة التى ذكرها مرتبة يحسد عليها ومما يؤكد قوله هذا مؤلفاته الكثيرة فى هذه العلوم التى تذخر بها مكتبات العالم الاسلامى •

٢ ـ ان السيوطى كره المنطق وذمه •

٣ ـ نلمس روح التواضع وقد برأ نفسه من الزهو وارادة الفخر وهو فى ذلك صادق بلا شك لأنه يصف حقيقة •• (١)

وقد انعكس علم السيوطى هذا فى مؤلفاته العديدة فى مختلف الفنون • والتى يستطيع الباحث المحقق أن يقف على الكثير منها فى المكتبات العامة والخاصة مطبوعا ومخطوطا (٢) •

كما أن السيوطى رحمه الله كان بالاضافة الى ذلك شاعرا فله رحمه الله كثير أكثره متوسط وجيد ، كثير وغالبه فى الفوائد العلمية والأحكام الشرعية ، وهو فى هذه الناحية شبيه بابن حجر العسقلانى وجهتهما حياتهما العلمية بعيدا عن الأدب الذى هو مزاج لنفسيهما فكانا يعاودانه الفينة بعد الفينة وكل منهما تتراءى على شعره المسحة العلمية وان كان بن حجر أرق وأغزل من السيوطى (٣) •

الفصل الرابع

(أ) منافسته والطعون فيه :

تألب على السيوطى معاصره من أقرانه ومنافسوه من العلماء وطعنوا فى طباعه ومواهبه وعلمه ومؤلفاته وتحاملوا عليه ورموه بما

(١) عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٦١ •
(٢) راجع سالتنا من ص ٦٤ الى ص ٩٣ •
(٣) راجع النماذج من شعره برلتنا ص ٩٤ ـ ٩٥ •

ليس فيه حسدا منهم وحقدا عليه ، لما ناله من الشهرة دونهم كما هى عادة الأقران فى كل زمان واشتدت هذه المنافسة وتبادل الطعون التى بلغت ذروتها أو ألفت من أجلها المؤلفات تأييدا ومعارضة .

وأصبح فى عصر السيوطى معسكران : معسكر يقوده السخاوى ومن قواده وجنوده (ابن الكركى) وابن العليف : تلميذ الجوجرى .. وأحمد بن القسطلانى .. وغيره .

والمعسكر الآخر يقوده السيوطى ومن أنصـــاره : الفخر الديمى وأمين الدين الاقصرائى وسراج الدين العبادى وغيرهم .

وتبادل الفريقان التهم والنقائص والسباب وذكر المثالب وأخذت الخصومة بينهم زمنا ليس بالقليل وألفت رسائل ومقامات وكتب شغلت من الوقت كثيرا (١) .

والعرض لهذه الخصومات تفصيلا لا يتسع له المقام هنا (٢) غير أنى أرى أن واجب العلمـــاء فى كل عصر أن يترفعوا عن مثـــل هذه الخصومات التى قد يساء الظن فى فهم المراد منها والتى قد تشـــوه سمعة أئمة جيل بأكمله .

(ب) وفاته وقبره :

وختاما لهذه الترجمة التى أوجزنا فيها الحديث عن حياة السيوطى مما قد يترتب عليه التقصير فى العرض لبعض جوانب حياته وعذرنا فى ذلك ضيق المقام وشفيعنا فيه أننا تكلمنا عن حياة السيوطى فى رسالتنا التى موضوعها « الحافظ جلال الدين السيوطى وجهوده فى الحديث وعلومه » والتى تقع فى حوالى خمسمائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير لا يفوتنا أن نذكر تاريخ وفاته ومكان قبره فقد توفى رحمـــه

---

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٢٤٩ .

(٢) زيادة للايضاح راجع رسالتنا من ص ٩٧ : ١٠٧ .

الله تعالى بعد حيـــاة عامرة بالعلم والايمان والزهد والورع والتقوى والتأليف والتصنيف والمراجعة .

فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من جمادى الأولى سنة احدى وتسعمائة فى منزله بروضة المقياس بعد أن تمرض سبعة أيام بورم شديد فى ذراعه الأيسر وقد استكمل من العمر واحد وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما وكان له مشهد عظيم ودفن بالقاهرة فى حوش قيصون خارج باب القرافة (المعروفة الآن ببوابة السيدة عائشة) (١) .

وقد قام العلامة أحمد تيمور بتحقيق موضع قبره وألف رســـالة صغيرة فى ذلك سماها « قبر السيوطى وتحقيق موضعه » وهى مطبوعة بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ .

(١) أنظر الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٣١ .

الباب الثانى

جهود السيوطى فى مجال الحديث

نمهد للحديث فى هذا الباب والباب الذى يليه بنبذة عن حد المحدث واختلاف أهل الفن فى ذلك ، ومدى انطباق هذه التعريفات على جلال الدين السيوطى . فنقول : قال النساج السبكى فى كتابه مفيد النعم (معرفا المحدث) :

المحدث : من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالى والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن البيهقى ، ومعجم الطبرانى وضم الى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية . هذا أقل درجاته فاذا سمع ما ذكرناه وكتب الطبقات ودار على الشيوخ وتكلم فى العلل والوفيات والمسانيد كان أول درجات المحدثين ثم يزيد الله من يشاء ما يشاء .

وقال فى موضع آخر منه : ومن أهل العلم طائفة طلبت الحديث وجعلت دأبها السماع على المشايخ ومعرفة العالى من المسموع والنازل وهؤلاء هم المحدثون على الحقيقة (١) .

وقال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس : المحدث فى عصرنا هو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٤٥ ، ٤٦ .

والرويات فى عصره وتميز فى ذلك حتى عرف فيه خطه اشتهر فيه ضبطة (١) .

هذه بعض التعريفات التى أطلقها أهل الفن على من يقال فى حقه محدث . أما المحدث عند الفقهاء فيحدد لنا أوصافه الزركشى فى قوله : أما الفقهاء فاسم المحدث عندهم لا يطلق الا على من حفظ سند الحديث وعلم عدالة رجاله وجرحها دون المقتصر على السماع .

هذا ومما لا شك فيه أن السيوطى رحمه الله تعالى كانت تتوافر فيه هذه الشروط فقد ضم رحمه الله تعالى الأخذ من الصحف الأخذ من أفواه الرجال . وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم من أفواههم بلغوا عددا غير قليل . وقد حفظ رحمه الله تعالى عدة آلاف من الأحاديث فقد نقل الشعرانى فى الطبقات الصغرى عن السيوطى أنه قال عن نفسه : أنه يحفظ مائتى ألف حديث قال ولو وجدت أكثر لحفظته ولعله لا يوجد على وجه الأرض أكثر من ذلك .

وكيف لا يكون السيوطى محدثا : وهو الذى قضى حياته خادما للسنة النبوية الشريفة وما يتصل بها من علوم جمعا وشرحا ونقدا وتمحيصا وحفظا وتعديلا وتوثيقا وتضعيفا .

وألف فى ذلك المؤلفات العديدة المطولة والمختصرة . بل أننا اذا تصفحنا كتبه المختلفة فى بقية الفنون نجده رحمه الله تعالى قد صبغها بالصبغة الحديثة توضيحا لمعناها وحلا لمشكلاتها ومسائلها .

ويهمنى هنا وأنا فى مجال الحديث عن السيوطى المحدث أن أعرض بايجاز لبعض مؤلفات السيوطى فى مجال « علم الحديث رواية » وقد عقدت لها هذا الباب ثم مؤلفاته فى علم الحديث (دراية) وقد خصصت لهما الباب الثالث من هذا البحث وهى تصور لنا بصدق مدى اهتمام السيوطى بأمر السنة النبوية الشريفة وعلومها .

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٤٨ .

هذا وقد أعددت ثبتا بمؤلفات السيوطى (فى علم الحديث رواية) ليكون بمثابة مفتاح يمسك به كل من أرادوا ان يقفوا على جهود السيوطى فى هذا الميدان • وفى هذا الثبت أذكر اسم الكتاب ومخطوط هو أم مطبوع والرقم الذى يوجد تحته فى المكتبات العامة ، كما أشير فى حالة طبعه الى من قام بطبعه أو نشره تيسيرا على الباحثين وتوفيرا لوقتهم وجهدهم فى سبيل الحصول عليه • وأحيانا أذكر نبذة عن الكتاب على سبيل التعريف به •

وأنبه الى أن ما ذكرته من الكتب هنا مجردا عن هذه الايضاحات فانه مما يذكر فى فهرست مؤلفات السيوطى •

وقد خصصت لهذا الثبت ــ الفصل الاول من هذا الباب •

الفصل الأول : مؤلفات السيوطى فى الحديث وتعليقاته

وقد رتبتها على حروف المعجم وهى :

١ ــ آداب الفتيا •

٢ ــ آداب الملوك •

٣ ــ آكام العقيان فى أحكام الخصيان « دار الكتب المصرية » تحت رقم ٢٧ ، ٥٣ مجاميع •

٤ ــ آكام المرجان فى أخبار الجان •

٥ ــ أبواب السعادة فى أسباب الشهادة • رسالة بدار الكتب الأزهرية رقم ١٨٧ مجاميع •

٦ ــ اتحاف الفرقة بدنو الخرقة •

٧ ــ اتمام النعمة فى اختصاص الاسلام بهذه الأمة ــ انظر رسالة فى ذم المكس بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٣٦ حديث •

٨ ــ الأحاديث الحسان فى ذم الطيلسان •

٩ ــ أحاديث الشتاء • دار الكتب المصرية ٣٠ مجاميع •

١٠ ــ الأحاديث المشتهرة على الألسنة (الدر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٧ مجاميع •

١١ ــ الأحاديث المنيفة فى فضل السلطنة الشريفة مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦ ــ حديث •

١٢ ــ أحاديث فى نجاة أبوى النبى صلى الله عليه وسلم ــ دار الكتب المصرية ١٦٠ مجاميع مخطوط •

١٣ ــ الاحتفال بالأطفال •

١٤ ــ احياء الميت فى فضائل أهل البيت ، مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٨٠١ مجاميع •

١٥ ــ الأخبار المأثورة فى الاطلاء بالنوة مطبوع بمصر ضمن الحاوى للفتاوى السيوطى •

١٦ ــ اذكار الاذكار أربعون حديثا فى ورقة •

١٧ ــ أربعون حديثا جمعها فى الصحاح والحسان محذوفة الأسانيد • دار الكتب المصرية ٢٤٧ ــ مجاميع • مخطوط •

١٨ ــ أربعون حديثا رواية مالك عن نافع عن ابن عمر • دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع •

١٩ ــ أربعون حديثا فى قواعد الأحكام الشرعية •• والزهد • دار الكتب المصرية رقم ٣٠٨ حديث مخطوط •

٢٠ ــ أربعون حديثا فى الجهاد •

٢١ ــ الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة • دار الكتب المصرية برقم ٥١٣ حديث مخطوط ومنه نسخة أخرى بمكتبة الأزهر تحت عنوان (قطف الأزهار المتناثرة) رقم ٢٠٥٠ ضمن مجموعة مخطوطة •

٢٢ ـ الأساس فى مناقب بنى العباس •
وهى أربعون حديثا استخرجها من الأحاديث الصحيحة «مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٤٢٠ حديث » ونسخة أخرى ٤١٦ مجاميع مخطوطة أيضا •

٢٣ ـ الاسفار فى آداب قلم الاظفار طبع بمصر نشر مكتبة الجندى ضمن مجموعة •

٢٤ ـ أسباب نزول الحديث (اللمع) بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٥٦ مجاميع مخطوطة أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين• الحمد لله سبب الأسباب ويسر السحاب والصلاة والسلام على سيدنا محمد والآل والاصحاب •
مرتب على الأبواب • أوله كتاب الطهارة وآخره كتاب الأدب •
وهذا الكتاب لم يتم فقد وجدت فى آخر النسخة المرجوع اليها عبارة تفيد ذلك وهى • هذا آخر ما وجدت بخط المؤلف رضى الله عنه ورحمه ، وكان فى عزمه أن يأتى مصنفا حافلا ولكن اخترته المنية • فاذن هو من آخر مؤلفات السيوطى •
وشخصيته فيه ظاهرة وهو صغير الحجم يقع فى حوالى ٣٠ صفحة •

٢٥ ـ اعذب المناهل فى حديث « من قال انا عالم فهو جاهل » طبع ضمن الحاوى •

٢٦ ـ الاعلام بحكم عيسى عليه السلام بدار الكتب الأزهرية نسخة فى مجلد بخط مصطفى ابن ابراهيم الديسمى سنة ١١٠٨ م ١٢٠ ورقه تحت رقم ٤١٦٣ توحيد •

٢٧ ـ أعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب دار الكتب المصرية ٥٢١ مجاميع مخطوطة •

٢ ـ أعمال الفكر فى فضل الذكر نشر مكتبة الجندى بالقاهرة ضمن مجموعة •

٢ ـ افادة الخبر بنصه فى زيادة العمر ونقصه • دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع •

٣ ـ الامالى على الدرة الفاخرة •

٣ ـ الامالى على القرآن الكريم •

٣١ ـ الاناقة فى رتبة الخلافة •

٣٢ ـ الامالى المطلق •

٣٤ ـ أنباء الاذكياء لحياة الأنبياء ضمنها الكلام على حياة الأنبياء فى قبورهم • دار الكتب الأزهرية رقم ٣٠٩٩ مخطوطة ونسخة أخرى فى مجلد بخط النفراوى سنة ١١٦٣ هـ فى ١٢ ورقة وعدة نسخ أخرى •

٣٥ ـ أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب مطبوع بمصر ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ٤٧ حديث •

٣٦ ـ الآية الكبرى فى قصة الاسرى •

٣٧ ـ الباحة فى فضل السباحة « رسالة فى ذكر الأحاديث الواردة فى السباحة » دار الكتب الأزهرية ٢٠٣٢ حديث مخطوطة •

٣٨ ـ البدور السافرة فى أمور الآخرة • دار الكتب الأزهرية ١٨٣٠ مخطوطة •

٣٩ ـ برد الظلال فى تكرير السوءال • دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع مخطوط •

٤٠ ـ برد الأكباد عند فقد الأولاد •

٤١ ـ بذل العسجد بسؤال المسجد • دار الكتب المصرية ١٦٥١ حديث مخطوط •

٤٢ ـ بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال . دار الكتب المصرية رقم ٥ مجاميع مخطوط .

٤٣ ـ بغية الرائد في الديل على مجمع الزوائد . لم يتم .

٤٤ ـ بلوغ المآرب في قص الشارب . نشر مكتبة الجندي ضمن مجموعة .

٤٥ ـ بلوغ المآرب في أخبار العقرب . نشر مكتبة الجندي بمصر .

٤٦ ـ تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه . دار الكتب المصرية رقم ٥٥م مجاميع .

٤٧ ـ التثبيت عند التبييت ومعه أرجوزة في فتنة القبر . طبع الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٨ .

٤٨ ـ تجريد أحاديث الموطأ .

٤٩ ـ تخريج السيوطي لأحاديث السيد الشريف الجرجاني في شرحه على المواقف « دار ـ الكتب الأزهرية ١٣٠ مجاميع » .

٥٠ ـ تخريج شرح السعد على العقائد النسفية « دار الكتب المصرية مخطوط ٣٢ مجاميع » .

٥١ ـ تخريج السيوطي لجزء من مرويات المتوكل على الله أبي العزيز عبد العزيز الخليفة ـ العباسي بمصر « دار الكتب المصرية رقم ١١٥٩ حديث » .

٥٢ ـ التزيين الارائك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى الملائك .

٥٣ ـ التضلع في معنى التقنع .

٥٤ ـ تطريز العزيز في تخريج ما فيه من الأحاديث .

٥٥ ـ التعظيم والمنة في أن أبوى الرسول في الجنة . مطبوع موجود بدار الكتب المصرية ١٣٦٤ .

٥٦ ـ التعقبات على الموضوعات . دار الكتب الأزهرية ٨١٢ ، ١٤٥٩ ضمن مجموعة طبع حجر .

٥٧ ـ التعليقة العنيفة على مسند أبى حنيفة .

٥٨ ـ التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة . دار الكتب المصرية مخطوط تحت رقم ٣٠٢ مجاميع تيمور .

٥٩ ـ التنفيس فى الاعتذار عن ترك الافتاء والتدريس .

٦٠ ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك مطبوع المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٦١ ـ توضيح المدرك فى تصحيح المستدرك كتب منه اليسير .

٦٢ ـ الثغور الباسمة فى مناقب السيدة فاطمه رضى الله عنها .

٦٣ ـ ثلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد « الأزهر ١٣٠ مجاميع » .

٦٤ ـ الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطى . مطبوع بمصر عدة طبعات .

٦٥ ـ الجامع الكبير (جمع الجوامع) فى الحديث للسيوطى مخطوط وجارى طبعه بمجمع البحوث الاسلامية .

٦٦ ـ جامع المسانيد كتب منه جزء .

٦٧ ـ جزء فى الأحاديث الواردة فى ذم القضاة . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٩٠ حديث .

٦٨ ـ جزء فى حديث (ارحموا ثلاثة) عزيز قوم ذل .. الخ .

٦٩ ـ جزء فى صلاة الضحى .

٧٠ ـ جزء فى طرق حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ..) الحديث .

٧١ ـ جزء فى طرق حديث (أنا مدينة العلم وعلى بابها) (الفتاوى الحديثية) .

٧٢ ــ الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم .

٧٣ ــ الجواب الحزم فى حديث التكبير جزم .

٧٤ ــ جياد المسلسلات (انظر فهرس جـ ١ ص ٢٣٢ ومنه نسخه بدار الكتب المصرية ١٤٩ حديث تيمور) .

٧٥ ــ الحبائك فى أخبار الملائك (دار الكتب المصرية ١٩٤٨ حديث مخطوط والأزهر ٣٧٩٧ حديث) .

٧٦ ــ الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة .

٧٧ ــ حسن التعهد فى أحاديث التسمية فى التشهد . دار الكتب الأزهرية ١٣٠ مجاميع مخطوط .

٧٨ ــ حسن السمت فى الصمت « مخطوط دار الكتب المصرية ٥٣٠ مجاميع » .

٧٩ ــ حصول الرفق بأصول الرزق . الأزهر مخطوط برقم ٣٩٣٥ يقع فى ست ورقات ، وبدار الكتب المصرية رقم ١٤٢٤ ، ١٤٢٧ ، ١٢٩٥ ، ٤١٦ ، ٥٢١ مجاميع .

٨٠ ــ الخبر الدال على وجود القطب والاوتاد والنجباء والابدال « طبع ضمن الحاوى » .

٨١ ــ الخصائص الكبرى . طبع بمصر ومنه نسخة بتحقيق فضيلة الأستاذ محمد خليل هراس .

٨٢ ــ داعى الفلاح فى آذكار المساء والصباح . « دار الكتب المصرية » ١٢٤ م مجاميع .

٨٣ ــ الدرارى فى أنباء السرارى . دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع مخطوط .

٨٤ ــ الدرج المنيفة فى الاباء الشريفة . مطبوع ضمن مجموعة .

٨٥ ــ دفع التعسف فى أخــوة يوسف « دار الكتب المصرية ١٠٢ م مجاميع » •

٨٦ ــ الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج « مخطوط » دار الكتب المصرية برقم ٢١٩ حديث ودار الكتب الأزهرية برقم ٥٢٤ •

٨٧ ــ ذيل الجامع الصغير « طبع بمصر مع الجامع الصغير » انظــر الفتح الكبير للنبهانى •

ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية بخط عبد القــادر القرافى الشافعى ٩٤٢ تقع فى ٢٠٤ ورقة •

٨٨ ــ ذيل اللآلىء المصنوعة مطبوع ضمن مجموعة طبع حجر •

٨٩ ــ ذم زيادة المهر •

٩٠ ــ رسالة فى خصائص يوم الجمعة • ضــمن مجموعة دار الكتب المصرية ١٥١٨ حديث •

٩١ ــ رسالة فى عشاريات البخــارى مخطوطة بدار الكتب المصرية ١٠٢ م مجاميع •

٩٢ ــ رسالة فى الكلام على قول رسول الله صــلى الله عليه وسلم : (طــوبى لمن رآنى وآمن بى ••• الخ) دار الكتب المصريــة مخطوطة برقم ٧٤ مجاميع •

٩٣ ــ رسالة فى معنى الحديث الذى اشتهر على الألسنة (من عرف نفسه عرف ربه) مطبوعة ضمن مجموعة مكتبة الجندى بالقاهرة•

٩٤ ــ الرسالة السلطانية فى النهى عن زيــارة العلماء للملوك • دار الكتب المصرية مخطوطة ١٢٣ م مجاميع •

٩٥ ــ رسالة واردة فى الأخبار الواردة فى حكم الاتكاء على الوسادة •

٩٦ ــ رفع الحذر عن قطع السدر « مخطوطه » • دار الكتب المصرية ١٢٣ م مجاميع •

٩٧ ــ رفع الصوت بذبح الموت •

٩٨ ــ الروض الانيق فى مسند الصديق •

٩٩ ــ رياض الصالحين « مخطوط » دار الكتب الأزهرية تحت رقم ٣٧٤٢ حديث •

١٠٠ ــ الرياض المنيفة فى شرح أسماء خير الخليقة •

١٠١ ــ الزجر بالهجر مطبوع مكتبة الجند بالقاهرة •

١٠٢ ــ الزهر الباسم فيما يزوج الحاكم • دار الكتب المصرية مخطوط ١٥١٨ مجاميع •

١٠٣ ــ زهر الربا على المجتبى وهو شرح للسيوطى على السنن الصغرى للنسائى « مطبوع بمصر مع المجتبى » •

١٠٤ ــ زوائد شعب الايمان للبيهقى على الكتب الستة « كتب منه الثلث » •

١٠٥ ــ سهام الاصابة فى الدعوات المستجابة • مطبوع مكتبة الجندى بالقاهرة •

١٠٦ ــ السماح فى أخبار الرماح • دار الكتب المصرية مخطوط ١٥٧٧ مجاميع •

١٠٧ ــ الشافى العى على مسند الشافعى •

١٠٨ ــ شد الأثواب فى سد الابواب • مطبوع ضمن الحاوى للفتاوى •

١٠٩ ــ ضوء البدر فى احياء ليلة عرفة ، والعيدين ونصف شعبان ؛ وليلة القدر • مطبوع دار الكتب المصرية ٣٥ مجاميع مخطوط •

١١٠ ــ طرق حديث (اطلبوا الخير عند حسان الوجوه) •

١١١ ــ طلوع الثريا باظهار ما كان خفيا « مختصره يسمى ضوء الثريا » •

١١٢ ـ على اللسان عن م الطيلسان •
١١٣ ـ العرف الوردى فى أخبار المهدى •
١١٤ ـ عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد • دار الكتب المصرية مخطوط ٩٣ م •
١١٥ ـ عمل اليوم والليلة • دار الكتب المصرية مخطوط ١٢٦ م مجاميع •
١١٦ ـ العناية بتخريج أحاديث الهداية لم يتم •
١١٧ ـ عين الاصابة فى استدراك السيدة عائشة على الصحابة دار الكتب المصرية ٤٧٤ م ١٢٣ م مخطوط •
١١٨ ـ فض الوعاء فى أحاديث رفع الأيدى فى الدعاء • دار الكتب الأزهرية ١٣٠ مجاميع •
١١٩ ـ الفضل العميم فى اقطاع تميم « دار الكتب المصرية ٣٥ مجاميع » •
١٢٠ ـ الفوز العظيم فى لقاء الكريم • دار الكتب المصرية ١١٥٥ حديث
١٢١ ـ الفيض العلوى فى طرق الحديث العشارى • « دار الكتب المصرية مخطوط ٥٢٩ مجاميع •
١٢٢ ـ القرب فى محبة العرب « دار الكتب المصرية مخطوط ١٥٨٨ » •

ملحوظة :

الحافظ العراقى له كتاب بنفس العنوان تحت رقم ٢١١ ، ٢٧١ مخطوط ونسخه آخرى مطبوعه تحت رقم ١٢٦٧ حديث « دار الكتب المصرية » •

١٢٣ ـ قوت المغتذى على جامع الترمذى « مطبوع » •

١٢٤ ــ القول الجلى ، فى حديث الولى • دار الكتب المصرية مخطوط ٤٢٠ مجاميع •

١٢٥ ــ القول الحسن فى الذب عن السنن •

١٢٦ ــ القول الفصيح فى تعيين الذبيح •

١٢٧ ــ كتاب الباهر فى حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والباطن « دار الكتب المصرية ٥٢٢ مجاميع مخطوط » •

١٢٨ ــ الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف • «دار الكتب الأزهرية» المجموع ١٣٠ ، ٣٢ مجاميع بدار الكتب المصرية •

١٢٩ ــ كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة •

١٣٠ ــ كشف الغمى فى فضائل الحمى •

١٣١ ــ كشف اللبس فى حديث الشمس « دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع » •

١٣٢ ــ الكلم الطيب والقول المختار فى المأثور من الدعوات والاذكار « دار الكتب المصرية ١٢٦ م مجاميع » •

١٣٣ ــ الكلام على حديث (احفظ الله يحفظك) •

١٣٤ ــ الكواكب السيارات فى الأحاديث العشاريات • دار الكتب المصرية ١٩٤ مجاميع •

١٣٥ ــ اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة وهو مطبوع •

١٣٦ ــ لباب الحديث • طبع دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٥٦ هـ •

١٣٧ ــ ليس اليلب فى الجواب عن ايراد حلب • «دار الكتب المصرية» ١١٨ مجاميع •

١٣٨ ــ لم الأطراف وضم الأتراف مرتب على حروف المعجم فى أول الحديث •

١٣٩ ــ ماوراء الاساطين فى عدم المجىء الى السلاطين .

١٤٠ ــ ماوراه الواعون فى أخبار الطاعون .

١٤١ ــ المثابة فى أخبار الصحابة .

١٤٢ ــ المجلس الحادى والتسعون من املاء الحافظ جلال الدين السيوطى .

« دار الكتب المصرية . مخطوط تحت رقم ١٥٥٥ حديث » .

١٤٣ ــ المدرج الى المدرج وهو كتاب فى الأحاديث المدرجه الاسناد « دار الكتب المصرية ١٨٨٥ حديث » .

١٤٤ ــ مرقاة الصعود على سنن أبى داود مطبوع بمصر .

١٤٥ ــ المسارعة الى المصارعة .

١٤٦ ــ المصابيح فى صلاة التراويح « مطبوع » مكتبة الجندى .

١٤٧ ــ مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة « مطبوع » .

١٤٨ ــ المرقاة العلية فى شرح الاسماء النبوية .

١٤٩ ــ مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة .

١٥٠ ــ الملاحن فى معنى المشاحن . دار الكتب المصرية ١٠٢ م مجاميع .

١٥١ ــ مناهل الصفاق تخريج أحاديث الشفا . مطبوع (تناولته بالدراسة الخاصة) .

١٥٢ ــ المنحة فى السبحة « دار الكتب المصرية » مخطوط ٣٢ ، ٣٧٥ مجاميع .

١٥٣ ــ المنتخب فى طرق حديث (من كذب) .

١٥٤ ــ المنتقى من الأدب المفرد للبخارى .

١٥٥ ــ المنتقى من مستدرك الحاكم .

١٥٦ ــ المنتقى من شعب الايمان للبيهقى .

الفصل الثاني : جهود السيوطي في مجال جمع الحديث

للسيوطى رحمه الله فى هذا المجال همة فائقه فقد تفوق رحمه الله تعالى على كثير ممن صنفوا فى هذا الاتجاه ويتمثل ذلك أساسا فى كتابيه :

١ ـ الجامع الكبير (أو جمع الجوامع) الذى جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها ، والذى احتوى على نحو ثمانين الف حديث .

٢ ـ الجامع الصغير وزوائده الذين اختصر فيهما السيوطى الجامع الكبير وضمنهما زيادات عليه وله غير ذلك كثير ولكننى سأقتصر على التعريف بهذين الجامعين فى ايجاز .

اولا : الجامع الكبير (جمع الجوامع) هو كتاب حاول فيه السيوطى رحمه الله تعالى أن يجمع كل الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه قد عاجلته المنية قبل ان يستكمل مراده فى ذلك (١)

واقد جمع فيه كل ما وصل اليه من أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته جمعا مرتبا على قسمين :

الاول : قسم الأقوال وهو مرتب على حسب حروف المعجم .

الثانى : قسم الأفعال وهو مرتب على حسب المسانيد وقد استهل كتابه هذا بمقدمة قيمة أبان فيه عن مسلكه واصطلاحاته التى سيسير عليها من رموز الى المراجع وغيرها .

فذكر أنه قسمه الى قسمين كما ذكرت ثم تحدث عن مسيرته فى القسم الأول ومنهجه فيه وهو أنه يذكر أولا الحديث بنصه ثم يتبع متن الحديث بذكر من خرجه من الأئمة أصحاب الكتب

---

(١) انظر مفتاح السنة للمرحوم الأستاذ/محمد عبد العزيز الخولى ص ١١٢ .

المعتبرة ومن رواه من الصحابة رضوان الله عليهم واحد الى عشرة أو أكثر من عشرة .

ثم ذكر أنه سلك فى طريقة : يعرف منها صحة الحديث وحسنه وضعفه مرتبا ترتيبا اللغه مراعيا اول الكلمه فما بعد .

هذا وقد استعمل رحمه الله الرموز فى الاشارة الى مصادر كتابه رغبة فى الاختصار فرمز للبخارى (خ) ولمسلم (م) ولابن حبان (حب) وللحاكم فى المستدرك (ك)وللضياء المقدسى فى المختارة (ض) ونراه وهو يتحدث عن منهجه فيه يرتب مصادره فى مجموعات ثم يصدر عليها حكما عاما يشير فيه الى مرتبة ما فيها من أحاديث اجمالا كتلك المجموعه السابقة حيث قال عقبها وجميع مافى هذه الخمسة صحيح فالعود اليها معلم بالصحة سوى ما فى المستدرك من المتعقب فينبه عليه وكقوله : وكذا ما فى موطأ مالك وصحيح بن خزعة وأبى عوانة وابن السكن ، والمنتقى وابن الجارود ، والمستخرجات فالعزو اليها معلم بالصحة أيضا وهكذا يمضى الى نهاية ما ذكره فى مقدمته مما يتعلق بأمر منهجه فيه .

والحقيقة أن المنهج الذى سلكه السيوطى فى هذا الكتاب جدير بالتقدير والتبجيل وهو يعد أوضح شرح وأدق وصف وأصدق تصوير لمنهجه العلمى الذى التزمه فى جميع ما أورده من الأحاديث فى هذه الموسوعة الحديثية .

وهو ان كان بهذه المثابة فى تصوير منهجه الا أنه لا يخلو من ثغرات يستطيع الناقد أن ينفذ من خلالها الى أعماق منهجه وما سار عليه فى صلب كتابه هذا .

ومن أهم ما لا حظته على هذا المنهج ما يأتى :

أولا : أنه لا يخلو من اجمـــال وأحـــكام عامة لا تفيد الدقة المطلوبة فى الوقوف على مرتبة الحديث • فالسيوطى مثلا يذكر عدة كتب كالبخارى ومسلم وبن حبان والضياء المقدس ومستدرك الحاكم بعد أن ينبه على المتعقب منه كما ذكرت سابقا ثم يصدر حكما مبرما على أن جميع ما فى هذه الخمسة صحيح •• الخ (١) •

والمتفحص لهذا المنهج والمتدبر فى مسلك السيوطى فى كتـــابه هذا لا يلبث الا أن يعلن أنها طريقة اجمـــالية فى معظم تحـــركاتها واتجاهاتها غير كافية فى تحديد المعالم الرئيسية للحكم على الحديث وبيان مرتبته بالضبط من صحة وحسن وغير ذلك •

وقد أشار الى هذا الاجمال صاحب فهرس الفهارس عند كلامه على الجامعين الكبير والصغير (٢) •

ولو أن السيوطى قال : كل ما فى هذه الكتب مقبـــول لخف الاجمال نوعا ما فان المقبول يشمل الصحيح والحسن وربما الضعيف، وكما هو معروف عند بعض الأئمة أنه يعمل به فى فضائل الأعمال ••• الخ •

على أنه رحمه الله تعالى فعل هذا بالنسبة لمسند أحمد حيث قال : وكل ما كان فى مسند أحمد فهو مقبول فان الضعيف الـــذى فيه قد يقرب من الحسن ومع ذلك فان حقيقة الاجمال ما زالت موجودة وان اختلفت نسبتها وذلك لأن الحكم على الحديث بالصحة مرتبـــة خطيرة لا يصلح معها الاجمال •

ثانيا : السيوطى استعمل الفاظا لا تحدد بالضبط درجة الحديث كقوله مقبول ، وصالح وهذا يقتضى ممن يريد أن يقف على درجـــة

---

(١) أنظر العدد الأول من الجزء الأول ص ٢ جمع الجوامع •

(٢) أنظر فهرس الفهارس للكتانى جـ ٢ ص ٣٥٧ •

الحديث بمعياره الصحيح أن يبذل جهدا شاقا فى سبيل الوصول الى ما يريد .

ثالثا : فى أثناء حديث السيوطى عن مسيرته فى هذا الكتاب . قال : وقسمته قسمين الأول : أسوق فيه لفظ المصطفى بنصه .. الخ وهذا تساهل فى التعبير لأن كثيرا من أحاديث هذا الكتاب موضوعة باعتراف السيوطى فى تعليقاته عليها .

وبالطبع الأحاديث الموضوعة ليست من لفظ المصطفى صلى الله عليه وسلم فكان الأولى أن يعدل عن هذا التعبير الى تعبير آخر .

اللهم الا أن يكون مقصده « اللفظ المنسوب الى المصطفى صلى الله عليه وسلم » بصرف النظر عن صحة النسبة أو عدمها .

هذه بعض الملاحظات على مسلك السيوطى وطريقته فى الجامع الكبير .

الجهود التى بذلت من أجل تهذيب وترتيب هذه الموسوعة الحديثية :

جرت عدة محاولات لخدمة الجامع الكبير اما بهدف التصفية والتنقية والاختصار واما بهدف الترتيب على الأبواب الفقهية واما بهدف طبعه واخراجه الى حيز الوجود لينتفع به رواد السنة النبوية .

أولى هذه المحاولات كانت على يد السيوطى نفسه وهى اختصاره لسنن الأقوال فى كتابه الجامع الصغير الذى سنعرف به بعد ذلك .

وثانيهما : ترتيب هذا الكتاب (جمع الجوامع) على أبواب الفقه مع زيادات وقد قام بها الشيخ علاء الدين المتقى المتوفى سنة ٩٥٧ هـ فى كتاب أسماه « كنز العمال » طبعته دائرة المعارف النظامية ـ حيدر أباد سنة ١٣١٢ هـ وكان الشيخ أبو الحسن البكرى يقول : للسيوطى منة على العالمين وللمتقى منة عليه .

ثم اختصر علاء الدين كتابه هذا فى كتاب أسماه (منتخب كنز العمال) وذكر أن هذا التأليف فاق على كنز العمال بشيئين : أحدهما بحذف التكرار .

والثانى امتزاج أحاديث الأفعال بأحاديث الأقوال ترجمة بعد ترجمة .. الخ (١) .

وبهذا يظهر لنا مدى عناية الشيخ علاء الدين الهندى بأمر هذه الموسوعة الحديثية ترتيبا على الأبواب مزيدا من التوفير لجهد الباحثين واختصارا وتيسيرا وتسهيلا للطالبين .

ثالثا : ثم جاء دور مجمع البحوث الاسلامية ليضطلع بمسئولياته نجاه هذا المرجع الحديثى الوافى الذى ظل مخطوطا محبوسا فى خزائن العلم زهاء خمسة قرون وكان المجمع فى مؤتمره الثالث أوصى بعمل موسوعة للسنة وكان من الطبيعى أنه لا يمكن أن يتم هذا العمل الا اذا سبقه جمع السنة من مصادرهاالصحيحة وأصولها المعتمدة (٢).

وقدر أن المعنيون بهذا الأمر أن فى كتاب السيوطى (جمع الجوامع) غنى عن القيام بهذا العمل من جديد توفيرا للوقت والجهد.

وحتى يتسنى لهم أن يسيروا على نهجه فى بقية الموسوعة واتمامها، قرر المجمع طبع هذا الكتاب بعد أن أسند هذه المهمة الى لجنة متخصصة .

وقد جاء فى تقديم هذه اللجنة لهذا السفر العظيم أن (جمع الجوامع) لم يطبع بصورته التى وضعها مؤلفه رحمه الله تعالى قبل تلك المحاولة التى يقوم بها مجمع البحوث الاسلامية رجاء أن يكون خطوة أولى فى سبيل اخراج الموسوعة الحديثية الكبرى وأشارت

---

(١) أنظر مسند أحمد ومعه المنتخب ج ١ ص ٦ طبع الميمنية بمصق سنة ١٣١٣ هـ .
(٢) مقدمة الأمين العام د/ بيصار عدد ١ ج ١ ص ١ .

الى آن المجمع قد يسر لها المهمة فوضع تحت يدها خمس مخطوطات مصورة لجمع الجوامع الأصول بدار الكتب الخديوية ومكتبة الجامعة العربية والمكتبة الأحمدية بالجامع الأعظم بخطوط مختلفة .

كما عثرت اللجنة على مخطوطة بمكتبة معهد دمياط الدينى (١).

وبهذا أوقفتنا اللجنة مشكورة على عدد نسخ «الجامع الكبير» المخطوط غير أنها أشارت الى أنه لا توجد نسخة من هذه النسخ كاملة وان كانت جميعها متكاملة .

غير أنى أنبه الى أن هناك نسخة كاملة بمخطوطات خزائن الأوقاف ببغداد رقم ٢٦٦٠ حديث فى مجلد ضخم حسن الخط (٢) .

معركة الجامع الكبير :

أثارت فكرة الطبع هذه التى قام ويقوم بها المجمع ردود فعل مضادة يرى أصحابها أنه من الأفضل أن لا يطبع مثل هذا الكتاب معللين ذلك بما سأذكره مما جاء على لسان بعضهم فى هذا المقام .

وقد كان من الطبيعى أن ينهض أصحاب فكرة النشر بالدفاع اللازم عن فكرتهم هذه ،وقد اعتلت هذه المناقشات حول هذه القضية صفحات مجلتين من أشهر المجلات الاسلامية فى مصر بل وفى العالم الاسلامى : احداهما مجلة منبر الاسلام والتى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر ، وهذه قد اتخذ منها رائد الاتجاه المضاد فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى مجالا لنشر اعتراضاته ونقده للجامع الكبير والجامع الصغير . وللقائمين على رأس فكرة النشر واللجنة القائمة على تحقيق هذا الكتاب من ناحية منهجها التى سارت عليه .

---

(١) ص ٦ عدد ١ تقديم اللجنة . جمع الجوامع .

(٢) أنظر الكشف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف ببغداد (تأليف محمد أسعد طلس) مطبعة العانى ببغداد سنة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م .

وثانيتهما : مجلة الأزهر وقد كانت مجالا لنشر دفاعات المدافعين بريادة فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) .

بدأت الشرارة الأولى لهـذه المعـركة على يد فضيلة الشـيخ عبد الجليل عيسى وذلك فى مقاله الذى كتبه فى المجلة المذكورة عدد ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ تحت عنوان حول احياء موات كتب مثل كتاب الجامع الصغير أو الكبير للشيخ السيوطى ، أغلب ما فيها تشـويه لتعاليم الاسلام والقليـل الصحيح منهـا موجود فى كثير من كتب الصحاح (١) .

والمقال كما يفهم من عنوانه هدم البناء الجامع الكبير والجـامع الصـغير .

أورد هنا أهم النقاط التى تضمنها هذا المقال :

١ ـ استهل فضيلته مقاله هذا بتعجب واستنكار لفكرة طبع جمع الجوامع وذكر فيما ذكر أن هذا الكتاب كبير الحجم قليل الفائدة وذكر أنه من فضل الله على المسلمين أنه لا زال مخطوطا لم يطبع الى الآن . وقال فيما قال : (ونعلم خطره على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا علمنا أن الشـيخ السيوطى فحصـه واختار منه عشرة آلاف حديث وسماها الجامع الصغير) .

٢ ـ ذكر فضيلته أن كل ما فيه من أحاديث صحيحة كلها موجـودة بل وأكثر منها فى الكتب الستة .

٣ ـ لفت نظر المسئولين فى مجمع البحوث الاسلامية الى نشر كتب أعظم نفعا من هذا الكتاب ككتاب الذخيرة ، الذى يعتبر أجل موسوعة فى فقه مالك والصحابة والتابعين لشهاب الدين بن عباس

---

(١) انظر ص ٤٣ العدد المذكور .

القرافى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ . وككتاب (المحيط البرهانى) للامام السعيد محمد بن الصدر برهان الأئمة من علماء القرن الثانى عشر الهجرى .

٤ - ساق فضيلته بعض الأحاديث التى يرى أنها باطلة ومفتراه وجاءت فى الجامعين الكبير والصغير .

٥ - ثم أختتم فضيلته مقاله هذا ببحث وضعه القرطبى فى مقدمة تفسيره تحت عنوان « التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن الكريم وغيره » (١) .

وكأنه بهذا يؤكد ما ذكره فى صدر مقاله هذا من قلة فائدة هذا الجامع ولكثرة الموضوعات فيه .

هذا ولم تمض مدة كبيرة حتى انبرى فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر للرد على صاحب المقال والدفاع عن الجامع الكبير وصاحبه فى مجلة الأزهر عدد ربيع آخر سنة ١٣٨٩ هـ ص ٣٠١ ، ٣٠٤ وذلك تحت عنوان (تصدير) .

وكان من بين ما ذكره فضيلته فى هذا المقال :

أولا : ذكر فضيلته أن الجامع الكبير للامام السيوطى من الأعمال العلمية الشامخة وأنه من هذه الذرى والقمم التى يندر ان توجد .

ثانيا : أبان فضيلته عن منهج السيوطى فيه وامتدح هذا المنهج .

ثالثا : أوضح فى هذا التصدير كيف أن السيوطى رحمه الله تعالى قد أدى بعمله هذا خدمة الى جميع الباحثين من جميع الألوان والمستويات لا يقدرها الا من يعرف المعنى الصادق لهذا العمل الجليل

(١) انظر العدد المذكور ص ٤٣ : ٤٦ .

من حيث تيسير البحث عن حديث واحد فلا يهتدون اليه ، وعلى هؤلاء الذين شكوا فى حديث واحد فلم يعرفوا درجته وبحوثا عن درجته فلم يهتدوا اليها ، هؤلاء الذين أعجبوا بحديث ثم نسوا بعض ألفاظه ولكنهم يذكرون الكلمة الأولى منه ، ويريدون أن يجددوا عهدهم به .

رابعا : ثم أخذ فضيلته فى دفع النقد والاعتراض الموجه الى السيوطى بالنسبة للجامعين الكبير والصغير فكان مما قال : (الامام السيوطى لم يلتزم ولم يعلن ولم يقل ولم يشر فى هذا الكتاب السامى الى أنه التزم الصحة أو التزم الحسن وانما أعلن أن عمله الذى قام به انما هو جمع السنة مرتبة أبجديا ومرتبة مسانيد ، وهو من أجل ذلك قد برىء من كل نقد وسلم من كل عتب وبقى له بعد ذلك الشكر الخالص والثناء الحميد والدعاء أن يجعل الله قبره روضة من رياض الجنة الى أن يلقى ربه سبحانه وتعالي فيسعد برضوانه .

خامسا : أشار فضيلته الى أن خدمة السنة كما تكون بالتزام الصحة كما فى كتب الصحاح تكون أيضا بمحاولة حصرها وجمعها على اختلاف مستوى الأسانيد .

وكما أن ملتزم الصحة مشكور مأجور مثاب على عمله فان ملتزم الحصر والاحاطة مشكور مأجور مثاب على عمله .

كما أن السيوطى لم يخترع شيئا لم يكن موجودا وانما جمع الموجود وبين فى الأغلب الأعم درجته وبين فى كل الأحوال مصدره .

ثم أشار فضيلته الى أن أسلافنا اعتمدوا منهج الرواية أولا ثم بينوا عن طريق هذا المنهج نفسه الصحيح والحسن الضعيف والموضوع وكتبوا فى كل ذلك .

قال ان السيوطى قد أسهم فى هذا المجال بقسط وافر لاثار الى كتابه (اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة) كما أن الأسلاف لم

يكتفوا ببيان الموضوع والضعيف والحسن والصحيح وانما اتخذوا قواعد عامة كالقرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة كل ذلك مسهمين كمقياس للصحة والبطلان وقواعد الدين العامة وأصوله الصحيحة ومبادئه بل وفروعه هذا أهم ما تضمنه مقال فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى يواصل اعتراضاته وانتقاده فى المجلة المذكورة فى الأعداد الآتية :

عدد ربيع آخر سنة ١٣٨٩ هـ ص ٢٢ : ٢٤ .

عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ص ٥ وما بعدها .

عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ .

عدد رجب سنة ١٣٨٩ هـ .

عدد شعبان سنة ١٣٨٩ هـ .

عدد صفر سنة ١٣٩٠ هـ ص ١٠ وما بعدها .

والمتفحص لهذه المقالات يجدها كلها هجوما شاملا على الجامعين الكبير والصغير وعلى مؤلفها الحافظ السيوطى رحمه الله .

وبعد تفحص لما كتب فى هذه المقالات أستطيع أن أبدى بعض الملاحظات عليها بصفة عامة وعلى وجه الاجمال (١) .

أولا : أسلم لفضيلة المعترض ببعض ما ادعاه ككون هذا الكتاب قد اشتمل على الموضوع .

ثانيا : تحامل فضيلته على السيوطى تحاملا زائدا على حد المعقول وذلك واضح فى كل سطر من سطور مقالته ومن بينه فى عدد صفر سنة ١٣٩٠ هـ منبر الاسلام قوله : فهو يتصور عاقل أن الاسلام كان ناقصا

---

(١) من أراد أن يراجع ذلك تفصيلا فليرجع الى رسالتنا من ص ١٦٤ : ١٨٢ .

حتى يأتى رجل كالمرحوم الشيخ السيوطى فيخرج على الناس بتكميله .

ثالثا : تشدد فضيلته فى عدة أحاديث جاءت فى الجامع الصغير وأتى بها فى مقالاته وحكى القول فيها ، بالوضع وقال فيها بالوضع والكذب ، وفى الحقيقة هى ليست كذلك .

من ذلك بعض ما أورده فى مجلة منبر الاسلام بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ص ١٥ وما بعدها ومنه حديث (شفاء عرق النساء اليه شاة عربية تداب ثم تجزأ ثلاثة اجزاء ثم تشرب على الريق كل يوم جزءا) .

أورده فى معرض الانتقاد على السيوطى قائلا : وقال السيوطى أيضا فى حرف الشين فى كتابه الجامع الصغير : روى الحاكم عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ساق الحديث ثم قال فضيلته واضح كذبه مهما لفقت له من حواش .

وأقول : الحق خلاف ذلك . فقد قال المناوى فى التيسير عندما تعرض لهذا الحديث قال : قال عن أنس : وصعته لثلثمائة نفس كلهم يعانى وذا خطاب لأهل الحجاز ونحوهم ممن يحصل مرضه من يبس وفى الالية تليين لقلة فضولها وطيب مراعاها (صح ه ك) قال (ك) أى الحاكم فى المستدرك : على شرطهما واقره : أى على شرط الشيخين (١) .

وغير ذلك كثير مما تشدد فيه فضيلته :

وأقول اذا كان الجامع الكبير قد اشتمل من بين ما اشتمل على الحديث الموضوع . فليس ذلك مبرر لنقد هذه الموسوعة الحديثية التى بذل فيها السيوطى من الجهد والوقت يعتبر هذا العمل الشاهد

---

(١) التيسير للمناوى جـ ٢ ص ٧٨ .

صدق على عظمته وضخامته . وكما أننا فى حاجة الى معرفة الصحيح والحسن من الحديث لنعمل به فاننا فى حاجة الى معرفة الموضوع لنحذره ونتجنب العمل به .

والسيوطى كما هو شاهد من خلال كتابه هذا كثيرا ما كان يأتى بالحديث الموضوع ثم ينص على من تكلم فيه بالوضع أو ينبه على ما فى سنده من علة كأن يقول : فى سنده (فلان) كذاب أو وضاع أو يذكر من أخرجه فى كتب الموضوعات كابن الجوزى .

كما أن السيوطى ليس أول من أتى بالموضوع فى كتابه فقد سبقه غيره الى مثل هذا ، ومع ذلك وجد كتابه طريقه الى الحياة وشق سبيله الى أيدى أهل العلم والمعرفة وتناولته الأيدى بالتنقيح والتصفية والتخريج وذلك بعد أن خرج الى حيز الوجود وأصبح فى متناول الأيدى ، مما أتاح لذوى الدراية من أهل الحديث أن يقوموا بغربلته وتمييز صحيحه من سقيمه والوقف على ما فيه من تساهل وذلك (كمستدرك الحاكم) مثلا : فقد حوى من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ما حوى ووقع فيه من التساهل ما وقع .

ومع ذلك هيأ الله تعالى له من يقوم على أمره بالانتقاد والتمييز لما جاء فيه من أحاديث تكلم فيها ذلك كصنيع الذهبى بالنسبة له وكالسيوطى الذى امتدت يده اليه فألف كتابه (توضيح المدرك فى تصحيح المستدرك) ذكر فى فهرست مؤلفاته أنه كتب منه اليسير وانتقى الأصل فى مجلد (١) .

والجامع الكبير من هذا القبيل وان اختلفت نسبة الموضوع فيه عنه هنا كثرة وقلة وعلى أية حال فالكتاب موسوعة حديثية ضخمة وانتقاؤه واجب المتأخرين من أبناء هذه الأمة .

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ لوحة ١٦٧٢ .

ثانيا : الجامع الصغير من حديث البشير النذير :

أختصره السيوطى من قسم الأقوال من الجامع الكبير وزاد عليه ورتبه على حروف المعجم وقد ضم بين جنبيه عدة آلاف من الأحاديث قال صاحب الرسالة المتطرفة : فيه على ما قيل عشرة آلاف وتسعمائة وأربعة وثلاثون حديثا .

وقد طبع هذا الكتاب وانتشر انتشارا واسعا وهو مرجع لا يغيب عن ذهن أى طالب من طلاب الحديث المشتغلين به وقل أن تخلو مكتبة من مكتبات العلم ودوره من هذا المرجع الحديثى الوافى .

وقد أشاد السيوطى رحمه الله تعالى بعمل هذا . فقال فى خطبته بعد الديباجة (مبينا حقيقته ومتحدثا عن مسلكه فيه) هذا الكتاب أودعت فيه من الكلم النبوية ألوفا ، ومن الحكم المصطفوية صفوفا ، أقتصرت فيه على الأحاديث الوجيزة ولخصت فيه من معادن الذهب ابريزه وبالغت فى تحرير التخريج ، فتركت القشر وأخذت اللباب وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب ، ففاق بذلك الكتب المؤلفة فى هذا النوع كالفائق والشهاب وحوى من نفائس الصناعة الحديثية ما لم يودع قبله فى كتاب .

أهم ما وجه الى هذا الكتاب من نقد واعتراضات :

لقد آثار ما صرح به السيوطى فى خطبة كتابة من كونه لخص فيه من معادن الذهب ابريزه ، وأنه بالغ فى تحرير التخريج فيه بحيث ترك القشر وأخذ اللباب وصانه عما تفرد به وضاع أو كذاب .. الخ .

أثار هذا ثائرة بعض المشتغلين بالحديث فأخذوا فى الاعتراض ونقده أو تأويل ما ذكره هنا فقد قال فى فيض القدير تعقيبا على قول السيوطى (وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب) قال : ثم ان ما ذكره من صونه عن ذلك غالبى أو ادعائى والا فكثيرا ما وقع له أنه لم يصرف

الى النقد الاهتمام فسقط فيما التزم الصون عنه فى هذا المقام .. لكن العصمة لغير الأنبياء متعذرة والغفلة على البشر شاملة منتشرة (١) .

والمناوى يشير بهذا الى ما جاء فى الكتاب من أحاديث مقول فيها بالضعف أو الوضع .

وليس المناوى وحده هو الذى وجه مثل هذا الانتقاد للسيوطى بالنسبة لكتابه هذا بل نجد فى معرض هذا من ألف كتبا فى نقد الجامع الصغير واظهار ما جاء فيه من الموضوعات على أنه صحيح حسب ما ذكره السيوطى من هؤلاء :

٢ ــ الحافظ أبو الفيض القمارى فى كتاب أسماه (المنير على الأحاديث الموضوعة فى الجامع الصغير) قال فى أوله بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم :

اما بعد : فقد ذكر الحافظ السيوطى فى خطبة كتابه الجامع الصغير أنه صانه عما تفرد به وضاع أو كذاب ، ومعناه أنه لم يذكر فيه حديثا موضوعا بل جميع أحاديثه ثابتة وليس كذلك فقد أورد فيه أحاديث تفرد بها الكذابون وأخرى ظاهرة الوضع ، وان لم يتفردوا بها لأنها من رواية الكذابين أمثالهم الذين يسرقون الأحاديث ويركبون لها أسانيد أخرى ، لقصد ترويج ذلك الحديث الموضوع لغرض الاغراب أو الاحتجاج أو غير ذلك من الأغراض ، بل من الأحاديث التى ذكرها فيه ما جزم هو نفسه بوضعه اما بقراره حكم بن الجوزى بوضعه وذلك فى اللآلىء واما باستدراكه هو اياه على بن الجوزى وذلك فى ذيل اللآلىء ، ثم مع ذلك أوردها فى هذا الكتاب الذى هو من آخر ما ألف . اما سهوا ونسيانا وهو الغالب على الظن به ، واما لتغيير رأيه ونظره ومنها أحاديث لم يظن هو أنها موضوعة لأنه متساهل فى

---

(١) فيض القدير ج ١ قسم ١ ص ٢١ .

ذلك غاية التساهل فلا يكاد يحكم على حديث بالوضع الا اذا دعتـه الضرورة الى ذلك فى الاحتجاج على خصمة وابطال دليله والتأليف فى انكار معنى ما دل عليه ذلك الحديث .

الى أن قال : وهذا جزء أفردته لذكر الأحاديث الموضوعة فيه مما تفرد به الكذابون والوضاعون أو تعددت الطرق وهو مع ذلك موضوع وذكر أنه لم يستقصى فيه كل الاستقصاء .

وقد رتب هذا الكتاب على الحروف تبعا لأصله وجعل رموزه كرموزه وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه : اغارة شديدة على السيوطى وجامعه يلمح الناظر فيه لأول وهلة أسلوب التهكم والسخرية من السيوطى ومن صنيعه فى الجامع الصغير .

رأيى فى المغير وصاحبه :

أولا : اسلم مع صاحب المغير بوضع بعض الأحاديث التى جاءت فى الجامع الصغير .

ثانيا : ان صاحب المغير قد تشدد فى كتابه هذا وتعسف وأتى بأحاديث بعيدة عن صفة الوضع وأكثر ما يقال فيها أنها ضعيفة ، وهناك فرق كبير بين الوضع والضعف . أتى بها على أنهاء موضوعه واتخذ منهـا مبررا للهجوم السافر على شخص الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى . من هذه الأحاديث :

حديث : ائتزروا كما رأيت الملائكة تأتزر عند ربها الى انصاف سوقها (فر) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

قال صاحب المغير انفرد به المثنى عن عمرو . والمثنى ضـعيف منكر الحديث وبه أعلة الحافظ (١) وأنقل هنا بعض مانقله المناوى

---

(١) المغير ص ٧ .

فى فيض القدير من آراء الأئمة بالنسبة للمثنى بن الصباح الذى هو موضع الطعن عند الغمارى •

قال المناوى : وقال الزين العراقى ، فى شرح الترمذى : فيه المثنى بن الصباح ضعيف عند الجمهور وقال ابن حجر فى زهر الفردوس المثنى ضعيف ضعيف وكرر ، الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط باللفظ المذكور عن صاحبيه المزبور ، قال الهيثمى عقبه وفيه المثنى ابن الصباح ويحيى بن يشكر ضعيفان وعنه ومن طريقه خرجه الديلمى فلو عزاه المؤلف اليه كان أولى (١) •

ويلاحظ هنا أن المناوى لم ينقل من الآراء ما يصف المثنى بالنكارة وانما نقل آراء الائمة الذين ضعفوه • اشتدت الألفاظ فى ذلك ضعفت أفراد أو كررت •

ومن هنا أستطيع أن أقول بأن الحديث ضعيف وليس بموضوع، كما أن لجنة الجامع الكبير التابعة لمجمع البحوث الاسلامية والقائمة على اخراج الجامع الكبير وتحقيقه قالت فى تعليقها على هذا الحديث: الحديث فى الصغير برقم ٣٥ رواه الطبرانى فى الأوسط باللفظ المذكور• وهو حديث ضعيف ولعل ائتزاز الملائكة عند التشكيل بصورة الانسان (٢) •

وغير هذا الحديث كثير مما أورده الغمارى على أنه موضوع وهو ليس بموضوع •

ثالثا : تشدد الغمارى هذا فى نظرى ليس قائما على أساس سليم ولا بحث دقيق ولعل عذره فى ذلك ما أعلن عنه فى مقدمة المغير من أنه كان غريب الديار ليست لديه مراجع كافية حيث قال :

---

(١) فيض القدير جـ ١ قسم ١ ص ٦٩ ، ٧٠ •
(٢) الجامع الكبير جـ ١ قسم ١ ص ٣٢ (هامش) •

ونحن كتبنا هذا على استعجال وفى حالة غربة واعتقال ، وبعد عن الوطن والآل ليس معنا كتب نستعين بها ولا نعتمد عليها (١) .

ولا شك أن انسانا ليست لديه المراجع والأصول الكافية ، وفى حالة اغتراب بعيدا عن آله واحبابه مشغول بالتفكير فى أمرهم ومتى العودة اليهم يشاغله حب الوطن والعودة اليه . مرهق الفكر والأعصاب نتيجة لذلك لا شك أن أحكامه فى أغلب أحوالها لن تكون علمية دقيقة فيها الحق ظاهر، ورحابة صدر من أصدرها جلية وواضحة بل يشوبها أحيانا تشدد وتعسف واضطراب .

رابعا : اتهام صاحب المغير للسيوطى بالخيانة فى العلم والمشاركة فى الوضع .

اتهم الغمارى السيوطى بذلك مستشهدا بحديث :
(ما قدمت أبا بكر وعمر ولكن الله قدمهما) قال عقبه (قلت) وأسنده أيضا فى اللسان وقال انه باطل ورجاله مذكورون بالثقة ثم ذكر أن لهذا الحديث بقية وهى (ومن بهما على فأطيعوهما واقتدوا بهما ومن أرادهما بسوء فانما يريد الاسلام) وذكر فيما ذكر أن المؤلف (يقصد السيوطى) حذف هذه البقية عمدا لانها صريحة فى الدلالة على وضعه .

ثم اطلق صاحب المغير لسانه متهما الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى قائلا : وهذا مع كونه خيانة فى العلم مشاركة فى الوضع ، فما أدرى ما أقول فيه سامحه الله (٢) .

والحقيقة أن هذا تحاملا شديدا على السيوطى فان هذه الزيادة ربما سها عنها الامام السيوطى فى الجامع الصغير لانه أوردها بتمامها

---

(١) المغير ص ٩٢ .
(٢) المغير ص ٩٢ .

فى الجامع الكبير ونقلها عنه العارف البكرى فى ص ٧٩ بالهامش من كتاب الصلوات الهامعة طبع بولاق سنة ١٣٠٤ هو ومن أراد التحقيق من ذلك فليرجع الى هذين المرجعين .

وبهذا يتضح لنا مدى تشدد صاحب المغير .

من هذا يتضح لنا مدى ما كان يتصف به صاحب المغير من « الجهود التى بذلت فى خدمة الجامع الصغير »

خامسا : الغمارى لم يكن متحاملا على السيوطى وحده وانما نراه يغير على كثير من أئمة الاسلام وما خلفوه من تراث خالد للأمة الاسلامية وقد وصل الامر بالغمارى الى حد أنه مديد الاغارة على الصحيحين وكانت له جرأة غير حميدة عليهما يلمسها من يرجع الى المغير ص ١٠٤ حيث قال : (... فان الشهرة بالعدالة لا تفيد القطع فى الواقع ومنها أحاديث الصحيحين فان منها ما هو مقطوع ببطلانه فلا تغير بذلك ولا تتهيب الحكم ، لما يذكرونه من الاجماع على صحة ما فيها ... الخ) (١) .

شهوة النقد والاستطالة بغير حق على كثير من الائمة ومن بينهم السيوطى .

الجهود التى بذلت فى خدمة الجامع الصغير

واذا كانت هناك حملات من النقد وجهت الى هذا الجامع فاننا نجد فى الوقت نفسه جهودا فائقة بذلت من أجل خدمته والعناية بأمره واظهار نوعية ما جاء فيه من الاحاديث وتيسير ما جاء فيه لجمهور المسلمين وقد تنوعت الجهود شرحا وترتيبا وانتقاء القويه وحسنه من ضعيفه واختصارا الى غير ذلك واذكر هنا أهم ما وقفت عليه من هذه المصنفات .

---

(١) المغير ص ١٠٤ .

١ ــ فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوى وهو يعتبر من أهم شروح الجامع الصغير وهو مرجع مهم مطبوع .

٢ ــ التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى أيضا جزئين مطبوع وهو شرح وجيز اخصر من الشرح الكبير .

٣ ــ الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير للعلامة شمس الدين محمد العلقمى . ومطبوع بمصر مع الشرح الكبير للمناوى . مطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩ هـ .

٤ ــ مواهب القدير على الجامع الصغير . للشيخ فايد بن مبارك منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٥٢٣ حديث فى مجلدين .

٥ ــ شرح المتبولى للجامع الصغير (استدراك النضير) وهو كتاب ضخم يقع فى عدة أجزاء منه نسخة مخطوطة موجودة برواق الاتراك . مكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٣ حديث فهرس الاتراك .

٦ ــ شرح الجامع الصغير للخريتاوى المسمى (الفتح المنير بشرح الجامع الصغير ، وهو شرح ضخم ويكفى أن نعلم أن الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة التى يتكون منها هذا الشرح يقع فى ٥٠٩ ورقه منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٧٠ حديث .

٧ ــ لم تكن كل الجهود التى وجهت الى الجامع الصغير شرحا فقط كما ذكرنا وانما تجد بعضها كان انتقاء أو تجريدا لصحيحه من سقيمه من هذا القبيل .

وكتاب اتحاف الناقد البصير بقوى احاديث الجامع الصغير ،

جمع على بن أحمد باصرين منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٣٨١٧ حديث •

٨ ـ وممن اختصروا الجامع الصغير الجردانى فى كتاب أسماه نيل المرام من أحاديث خير الانام • طبع مطبعة صبيح بالقاهرة •

٩ ـ كان هناك أيضا فى مجال الجهود التى بذلت عناية بهذا الجامع من نبض لترتيبه على الأبواب • وقد وقفت على كتابين من هذا النوع هما :

الأول : فتح القدير بترتيب الجامع الصغير • للعلامة ابراهيم ابن محمد السهوائى •

الثانى : فتح القدير بترتيب الجامع الصغير • للأمير أحمد كتخدا صالح مستحفظان من أمراء المماليك بمصر فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية ٧٦٣ حديث وتقع فى ٢١٧ ورقة •

وغير ذلك مما ألف فى مجال الجامع الصغير ، كثير •

القيمة العلمية لهذا المرجع الحديثى وثمرته :

أستطيع أن أقول بعد معايشتى لهذا الجامع بحثا وتدقيقا أنه اشتمل على جميع أنواع الحديث من الصحيح الى الموضوع ان جاز لنا أن نسمى الموضوع حديثا ، ومن هنا وجبت العناية بانتقاد الكتاب وانتقائه فى غير تعسف ولا تشديد ولا هوى مطاع مع تصحيح رموزه والنص على درجة الحديث خشية وقوع التحريف من النساخ •

والكتاب بعد ذلك يعد بحق من أهم المراجع الحديثية التى بيد طالب الحديث لتضعها على مراده والوقوف على ما ينشده من أحاديث بحيث يتعرف على مصادرها ويقف على درجتها ، ثم ينطلق بعد ذلك

الى المصـــادر الأصلية التى وقفف عليها بفضل الجامع الصغير ليحقق ويدقق حتى يقف على حقيقة الأمر نفيا أو اثباتا وهذه من أهم ثماره .

هذا وقد ألف السيوطى ذيلا لهذا الكتاب آسماه (زيادة الجامع) وقد طبع هذا الذيل مع الجامع الصغير بمصر حيث مزج الشيخ يوسف النبهانى هذه الزيادة بالجامع الصغير فى كتاب أسماه (الفتح الكبير فى ضم الزيادة الى الجامع الصغير) وبعد فهذه أهم جهود السيوطى فى مجال جمع الحديث ممثله فى هذين الجامعين .

وهناك جهود فائقة له فى هذا المجال ومن أراد الوقوف على بعضها فحسبه الرجوع الى الخصائص الكبرى للسيوطى والخصائص الصغرى له أيضا والبدور السافرة فى أمور الآخرة الذى جاء جامعا لعدد ضخم من الأحاديث والآثار وغير ذلك .

الفصل الثالث : السيوطى والموضوعات

اولا ـ نبذة عن الحديث الموضوع وحكم روايته :

الموضوع لغة : اســم مفعول من وضع الشىء يضـعه بالفتح وضعا حطه وأسقطه ، وقال الحافظ ابن دحية : الموضــوع الملصق وضع فلان على فلان كذا ألصقه به .

واصطلاحا : هو الحديث المختلق المصـنوع مأخوذ من المعنى الأول لأن رتبته أن يكون مطروحا ملغى لا يستحق الرفع اصـلا . أو من المعنى الثانى لأنه ملصق بالنبى صلى الله عليه وسلم (١) أى كذب

---

(١) تنزيه الشريفة جـ ١ ص ٥ .

الراوى فى الحديث النبوى بأن يروى عنه صلى الله عليه وسلم ما لم يقاله متعمدا لذلك • (١)

حكم روايته : اتفقوا على أنه تحرم روايته مع العلم بوضعه سواء كان فى الأحكام أو القصص والترغيب ونحوها الا مبينا وضعه • لحديث مسلم عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين ورواه الامام أحمد وابن ماجة — روى الكذابين على صيغة التثنية والكذابين بالجمع (٢) •

ومع ذلك نرى أن الوضع فى الحديث شاع وانتشر وخاصة عندما ظهرت الفرق السياسية والعناصر الفلسفية وكثرت النحل وازدادت العصبية فى عصر صغار التابعين فى حدود الخمسين بعد المائة ومن بعدهم •

ولكن الله عز وجل هيأ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدافعون عنها ويضعون القوانين والمقاييس والمعايير التى يستطيع الانسان عن طريقها أن يميز بين صحيح السنة وسقيمها وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وما قاله من ينتسبون الى مسيلمة رائد الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم •

ومن يجمعون هذه الموضوعات فى مؤلفات خاصة موضحين أمرها ومعلقين عليها • وكان أول من أفرد الموضوعات بالتأليف فى عامنا هو الحافظ الحسين بن ابراهيم الجوزقانى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وله كتاب الأباطيل (٣) •

---

(١) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٣٢ •

(٢) قواعد التحديث ص ١٣٢ • ١٣٣ وانظر سنن ابن ماجة حـ ١ ص ١٤ •

(٣) الفوائد المجموعة ص ٤ •

ثم الحافظ ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وكتابه أشـهرها وأكبر ثم الصاغانى اللغوى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ له رسالتان (١) •

ومضت مسيرة التأليف فى الموضـوعات حتى جاء دور الحافظ السيوطى فشارك فى هذا مشاركة فعالة ولم يكن رحمه الله تعالى مجرد جامع للموضـوعات ، وانما كان أيضا متعقبا وناقدا وكان له منهج معين فى ذلك وكتاباه • اللآلىء المصـنوعة فى الأحاديث الموضـوعة والتعقبات على الموضوعات خير دليل على ذلك • وله أيضا (الوجيز) والنكت البديعات كما ذكر فى بعض التراجم •

ويجمل بى هنا أن أعرف فى ايجاز بكتابه الشهير فى هذا الباب (اللآلىء المصنوعة)

أولا ـ السبب الحامل له على تأليفه :

سبق أن ذكرت أن من بين كتب الموضـوعات (الموضـوعات الكبرى لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى) • والحقيقـة أن بين اللآلىء وهذا الكتاب صلة قوية حيث أنه كان نقطة الانطـلاق التى انطلق منها قلم السيوطى مسجلا هذا الكتاب وغيره منتقدا فيه صنيع ابن الجوزى فى كتابه المذكور وتسـاهله فيه ملحقـا بهذا الكتاب موضوعات كثيرة فاتت ابن الجوزى •

وممن سـبق السـيوطى الى انتقـاد وضـع ابن الجوزى فى موضوعات ابن الصلاح حيث قال فى مقدمته (ولقد اكثر الذى جمع فى هذا العصر الموضوعات فذكر كثيرا مما لا دليل على وضـعه وانما حقه فى هذا ان يذكر فى الأحاديث الضعيفة) (٢) •

وربما لم يظهر لابن الصلاح ولا للذهبى الذى سنسوق كلاما هنا

---

(١) انظر فتح المغيث للسخاوى جـ ١ ص ٢٣٨ بتصرف •

(٢) مقدمة ابن الصلاح •

من خلال (مقدمته لتلخيص الموضوعات) ، أن ابن الجوزى قد ذكر فى كتابه هذا أحاديث صحاح بل فى الصحيحين كما ذكر ابن حجر والسيوطى فيما بعد ، والا لأعلنا عنه اثناء حديثهما عن صنيع ابن الجوزى فى هذا الكتاب فبينما نجد ابن الصلاح يذكر أن ابن الجوزى ضمن كتابه أحاديث ضعيفة نجد الذهبى ينص على أنه ضمنه أحاديث حسانا قوية ، قال : ونقلت من خط السيد أحمد بن أبى المجد قال صنف ابن الجوزى كتاب الموضوعات فأصاب فى ذكره أحاديث مخالفة للنقل والعقل ومما لم يصب فيه اطلاق الوضع على أحاديث لكلام بعض الناس فى أحد رواتها كقولهم : فلان ضعيف أو ليس بالقوى أو لين وليس ذلك الحديث مما يشهد القلب ببطلانه ولا فيه مخالفة للعقل ولا معارضة لكتاب أو سنة أو اجماع ولا حجة له فى أنه موضوع سوى كلام ذلك الرجل فى راويه وهذا عدوان ومجازفة أ هـ (١) •

وهذا التساهل قد دفع ابن حجر الى أن يؤلف كتابا يتعقب فيه ابن الجوزى فى موضوعاته بالنسبه لما أورده فيها من أحاديث مما جاء فى مسند أحمد وليس بموضوع •

هذا الكتاب الذى ألفه شيخ الاسلام هو القول المسدد فى الذب عن مسند الامام أحمد أورد فيه أربعة وعشرين حديثا فى المسند ذكرها ابن الجوزى فى الموضوعات من بينها حديث فى صحيح مسلم (٢) •

والسيوطى أراد أن يكمل مسيرة ابن حجر فى تعقبه ابن الجوزى

---

(١) تلخيص موضوعات ابن الجوزى للذهبى (المقدمة) وشرح الترمس على الفية السيوطى ص ١٢١ والحديث والمحدثون للأستاذ محمد محمد أبو زهرة وتدريب الراوى للسيوطى حـ ١ ص ٢٧٨ •

(٢) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٨٠ •

فى أحاديث المسند فذيل السيوطى على القول المسدد وزاد على ذلك أربعة عشر حديثا هى فى المسند أيضا ثم ألف كتابا سماه « القول الحسن فى الذب عن السنن » وهو يعتبر ذيلا على الكتابين السابقين أورد فيه مائة وبضعة وعشرين حديثا ليست بموضوعة منها حديث فى صحيح البخارى رواية حماد بن شاكر (١) .

نتيجة لكل هذا تولدت فى صدر السيوطى فكرة انتقاء هذا الكتاب وانتقاده واختصاره لينتفع به من يطلع عليه فصنف كتابه اللآلىء ليحقق به هذا الغرض كما ذكر فى مقدمته .

ويذكر لنا السيوطى بعض المعلومات التى تتعلق بأمر اللآلىء وتطوره فيقول فى مقدمته أيضا : وأعلم أنى كنت شرعت فى هذا التأليف فى سنة سبعين وثمانمائة وفرغت منه فى سنة خمس وسبعين وكانت التعقبات فيه قليلة وعلى وجه الاختصار وكتب منه عدة نسخ ومنها نسخة راحت الى بلاد التكرور ثم بدأ لى فى هذه النسخة سنة ٩٠٥ هـ استيفاء التعقبات على وجه مبسوط والحاق موضوعات كثيرة فاتت أبا الفرج وتعذر الحاق ما زادته فى تلك النسخ التى كتبت إلا باعدام تلك وانشاء نسخ مبتدأة فأبقيت تلك على ما هى عليه ويطلق عليها الموضوعات الصغرى وهذه الكبرى وعليها الاعتماد (٢) .

رأينا فى هذا الكتاب :

الكتاب مرجع مشهور فى مجال الموضوعات وهو مطبوع عدة طبعات ويقع فى مجلدين من الحجم الكبير بالنسبة لبعض الطبعات وهو مرتب على الأبواب .

والسيوطى فى هذا الكتاب وان كان أصاب فى تعقب ابن الجوزى

---

(١) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٠ .
(٢) اللآلى ص ٢ .

فى بعض الأحاديث ونفى الوضع عنها وخاصة تلك التى اشتملت عليها كتب السنة المشهورة المعتمدة . وذلك واضح فى اللآلىء غير خاف على من يرجع اليهـا . الا انه تعقبه فى مواضـع كثيرة كان لا داعى للتعقب فى مثلها وكل ذى عقل سليم وفؤاد طاهر نقى لا يسعه عندما يقف عليها الا انّ يعترف بوضعها موافقا بذلك ابن الجوزى حيث ان لوائح الوضع فيها أشد ظهورا من الشمس فى رابعة النهار .

من ذلك مثلا : أحاديث الديكة التى حكم بن الجوزى بوضعها وجاء السيوطى محاولا بشتى الوسائل نفى الوضع عنها والحقيقة انها لا تخرج عن دائرة الوضع .

وهذا الاسراف فى التعقب هو الذى حمل بعض المتأخرين على انتقاد السيوطى فى صـنيعه هذا ومن هؤلاء : (ابن عراق) فى كتابه (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الاحاديث الشنيعة الموضوعة نرى فيه من الانتقادات الموجهة الى السيوطى الشيىء الكثير .

ومنهم ناصر الدين الالبانى فى كتابه (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء فى الأمة) . حيث تعقب السيوطى فى عدة أحاديث تعقب فيها السيوطى ابن الجوزى .

غير أنى أرى أن بعض المتأخرين الذين انتقدوا السيوطى كانوا فى غالب الأحيان يتشددون تشددا يفوق الحد .

وأقول : اذا كان السـيوطى فى الـلآلىء أسرف فى انتقـاد ابن الجوزى مما جعل الكتاب فى حالة تستوجب انتقاءه مما وقع فيه، فليس معنى هذا أن نكيل النقد لصاحبه رحمه الله تعالى ولا أن نحمل معول الهدم ونصوبه نحوه . فالكتاب لا يخلو من تعقبات صـالحة صـادقة وزيادات مفيدة جامة واحالات تدل على مدى سـعة اطلاع السيوطى والمامه بكثير من محتويات المراجع الحديثية ، ولم يصنفه

صاحبه رحمه الله تعالى عشقا فى الانتقاد والتعقب رغبة فى الوصول الى مجد أو شهرة • فالسيوطى هو ذلكم العلم الذى طوقت شهرته الآفاق •

بل نرى بين صفحات هذا الكتاب موافقات كثيرة على وضع أحاديث عديدة حكم بوضعها صاحب الموضوعات • وكان هذا العمل من جانب السيوطى يدل على مدى سلامة نيته واخلاصه فى الدفاع عن السنة النبوية والحاق ما يرى الحاقه بها غير قاصد بذلك الحاق ضرر بمصدر من مصادر التشريع ، أو نصرة مذهب معين على حساب من لقب فى صباه (بالصادق الأمين) صلى الله عليه وسلم • وناقيا عن ساحة السنة النبوية ما نسب اليها مما هو كذب وافتراء ويحمل بين طياته تناقضا ظاهرا لشريعة الاسلام •

وقد ذيل السيوطى على هذا الكتاب بذيل أسماه (ذيل اللآلىء المصنوعة) ذكر فيه جملة من الأحاديث الموضوعة التى فاتت ابن الجوزى • وهو مرجع مفيد فى بابه • وهو مطبوع بالمطبع العلوى بالهند •

وبعد : فهذه بعض جهود السيوطى فى مجال الموضوعات •

الفصل الرابع : جهود السيوطى فى مجال شرح الحديث

السيوطى كان فى هذا اماما من الأئمة الذين أزالوا اللبس والغموض عن معنى كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحا وتعليقا وضبطا وجمعا بين الروايات المختلفة ووصلا للمعلق وبيانا للمبهم الى غير ذلك ، وكان من أهم جهوده فى هذا المجال : شروحه وتعليقاته التى وضعها على الكتب الستة وموطأ مالك وهى :

١ ـ التوشيح على الجامع الصحيح وهو التعليق الذى وضعه على الجامع الصحيح للامام البخارى رحمه الله تعالى .

وقد تحدث السيوطى فى خطبة شرحه هذا عن السمات الأساسية له بما يوضح مسلكه فيه فقال بعد أن حمد الله تعالى وصلى وسلم على نبيه صلى الله عليه وسلم : هذا تعليق على صحيح الاسناد شيخ الاسلام أمير المؤمنين أبى عبد الله البخارى سمى بالتوشيح يجرى مجرى تعليق الامام بدر الدين الزركشى المسمى (بالتنقيح) وتعرفه بما حواه من الفوائد والزوائد ويشتمل على ما يحتاج اليه القارىء والمستمع من ضبط ألفاظه وتفسير غريبه وبيان اختلاف رواته وزيادة فى خبر لم تزد فى طريقه وترجمة ورد مرة بلفظها حديث مرفوع ووصل تعليق لم يقع فى الصحيح وصله وتسمية مبهم ، واعراب مشكل ، وجمع بين مختلف بحيث لم يفته من الشرح الا الاستنباط .... الخ.

القيمة العلمية لهذا التعليق :

لا نستطيع أن نضع التوشيح فى مصاف شروح البخارى الكبيرة المعروفة كفتح البارى لابن حجر أو شرح الكرمانى أو العينى وغير ذلك من هذه الشروح التى تعتبر موسوعات .

ولكن الحقيقة أنه مع وجازته واختصاره مفيد فائدة تحملنا على أن ننظر الى التوشيح هذا بعين التقدير والاعجاب والى صاحبه بالتبجيل والاكبار .

وحقيقة الاعمال العلمية ليست بالكم وانما بالكيف ويقدر ما اشتملت عليه من افادات نادرة وتعليقات سامية ومهما تعمدت الشروح والتعليقات على صحيح البخارى فان للتوشيح مكانة معروفة بينها .

هذا ولننظر الى ما قاله المرحــوم الأســتاذ الشــيخ : محمد عبد العزيز الخولى فى كتابه « مفتاح الســنة » ص ٤٢ ، ٤٣ وقد عد الفاضل ملا كاتب جلبى فى كتابه كشــف الظنون ما ينيف على اثنين وثمانين شرحا للبخارى دبجها يراع الجهابذة من السلف ، والاذكياء من الخلف ما بين كامل وناقص . الى قوله : وهؤلاء على اختــلاف مشار بهم وتباين مسالكهم ، قد فاقوا حد الكثرة .

الا أن المحسنين من الشراح احسانا اربعة نفر . ثم ذكر اسماءهم وشروحهم وهم : الامام بدر الدين الزركشف والعــلامة بدر الدين العينى ، والحافظ جلال الدين السيوطى وشيخ الاســلام ابن حجر أمين أولئك المحسنين (١) .

وهذا يوضح لنا أيضا مدى أهمية التوشيح وقيمته العلمية فى مجاله . ومما ينبغى ان أشير اليه أن هذا الكتاب مازال مخطوطا فى خزائن العلم منذ عدة قرون لم ير النور بعد ولم يشق طريقه الى أيدى الناس .

وأســأل الله تعالى الى أن ييسرلى الطريق لاخراجه من أوكاره الذى يعيش فيها داخل سراديب مكتبات العالم .

نسخ التوشيح وأماكن وجودها وأرقامها :

أولا : نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية رقم ٣٣٥ حديث .

ثانيا : نسخه بدار الكتب المصرية (مخطوطه) رقم ٢٤٥ حديث تيمور .

ثالثا : نسختان مخطوطتان بخزائن كتب الأوقاف ببغددا

الأولى ــ تحت رقم ٢٨٤٤ حديث .

---

(١) مفتاح السنة ص ٤٢ ، ٤٣ .

الثانية — تحت رقم ٦٦٧١ حديث (١) .

٢ — الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج . وضعه تعليقا على صحيح مسلم .

٣ — قوت المغتذى على جامع الترمذى .

٤ — زهر الربا على المجتبى . وضعه السيوطى تعليقا على السنن الصغرى للنسائى المسماه بالمجتنبى .

٥ — مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة . وهو تعليق له على سنن الحافظ أبى عبد الله بن ماجة .

٦ — مرقاة الصعود على سنن أبى داود . وضعه تعليقا وشرحا لسنن أبى داود .

وهو سائر فى هذه التعليقات على نمط مسيرته ومنهجه فى التوشيح على الجامع الصحيح كما صرح السيوطى فى مقدماتها .

٧ — شرحه لموطأ مالك المسمى (بتنوير الحوالك شرح موطأ الامام) وهو سائر فيه أيضا على نمط ما علقه على صحيح البخارى المسمى (بالتوشيح) وما علقه على صحيح مسلم المسمى (بالديباج) ولكنه أوسع منهما قليلا لخصه من شرحه الأكبر كما ذكر فى مقدمة هذا الشرح (٢) .

اثر شروح السيوطى الحديثية لدى المتاخرين

نالت شروح السيوطى الحديثية وخاصة تعليقاته على الكتب الستة عناية من بعض المتأخرين ممن جاءوا بعده فمدوا اليها يد الاختصار والتهذيب والزيادة والتنقيح . وممن وقفت على جهوده —

(١) راجع الكشاف عن مخطوطات خزائن كتاب الأوقاف ص ٣٧ .
(٢) انظر تنوير الحوالك ج ١ ص ٥ .

بالنسبة لهذه الشروح العـــلامة المحقق / على بن سليمان الدمنتى البجمعوى المغربى • حيث اختصر هـــذه الشروح مع زيادات لطيفة وافادات كثيرة وربط بينها وبين اسم أصلها وهذه المختصرات هى :

١ ــ روح التوشيح على الجامع الصحيح •

٢ ــ وشيى الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج •

٣ ــ درجات مرقاة الصعود على سنن أبى داود •

٤ ــ نفع قوت المغتذى على جامع الترمذى •

٥ ــ عرف زهر الربا على المجتبى •

٦ ــ نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة •

وجميعها مطبوعة بمصر طبع الوهبية •

وبعد : فقد نال الكثير من شروح السيوطى الحديثية العناية من المتأخرين كما وضح مما ذكرت وهذا يدل على أهمية تلك الشروح فى نظرهم •

الفصل الخامس السيوطى ومجال التخريج

معنى التخريج :

أولا : معناه فى اللغة : قال المناوى فى فيض القدير تعليقا على قــول السيوطى فى مقدمة الجامع الصغير (بالغت فى تحرير التخريج)• والتخريج من خرج العمل تخريجا واخترجه بمعنى استخرجه • قال الزمخشرى : ومن المجاز خرج فلان فى العلم والصـــناعة خـــروجا اذا نبغ • وخرجه واخترجه بمعنى استخرجه وخـــرج الغلام لوحة ترك بعضه غير مكتوب ، واذا كتبت الكتاب فتركت

مواضع الفصول والأبواب فهو كتاب مخرج • وخرج الكتاب جعله ضروبا مختلفة •

والاخراج والاستخراج • الاستنباط (١) •

ثانيا : معناه فى الاصطلاح : يختلف من المتقدمين الى المتأخرين فهو عند المتقدمين كما وجدناه فى كتبهم : ذكر الحديث بسنده من أوله الى منتهاه وذلك كصنيع البخارى ومسلم فى صحيحيهما فيأتى كل منهما بالحديث بسنده وطرقه المختلفة التى تتفق وشروط كل منهما فى كتابه من أول شيوخهما الى من رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •

اما عند المتأخرين : فهو عزو الحديث الى الكتب التى أخرجته كأن يقول السيوطى مثلا فى حديث (ما) رواه البخارى أو مسلم أو أحمد وهكذا • وقد بين بعض المخرجين درجة الحديث ومرتبته والكلام عن موضع العلة فيه سندا ومتنا أن وجدت علة والتخريج عن طريقه يستطيع الانسان أن يقف على صحيح السنة وسقيمها •

ولما كان كثير من المصنفين المتقدمين لا يعنون بتخريج الأحاديث مما جعل مؤلفاتهم فى التفسير وغيره تجىء مليئة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة •

فقد تجرد بعض حفاظ الحديث فخرج تلك الأحاديث وكشف عن

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ط • بيروت • القسم الأول من الجزء الاول ص ٢٠ وانظر أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٥٧ ط • دار صادرود اربيروت سنة ١٩٦٥ •

أماكنها من كتب الحديث وجعل ذلك فى كتاب على حدة وذلك :

١ ـ كتخريج أحاديث تفسير الكشاف للحافظ جمال الدين الزيلعى المتوفى بالقاهرة ٧٦٢ هـ .

٢ ـ تخريج أحاديث الأذكار للنووى والأربعين له وأحاديث المصابيح والمشكاة للحافظ ابن حجر وغيرها .

٣ ـ (والكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف) للحافظ ابن حجر العسقلانى .

والسيوطى واحد من هؤلاء الذين أولوا هذا النوع من التصنيف عناية تامة . فقد أسهم رحمه الله تعالى بمجهود ضخم فى هذا الميدان وله فيه كتب عدة منها :

١ ـ تخريج أحاديث الكفاية لكنه لم يتم .

٢ ـ تخريج شرح عقائد النسفى .

٣ ـ نشر العبير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير (١) .

٤ ـ تخريج أحاديث الدرة الفاخرة . يسمى تجربة العناية .

٥ ـ مناهل الصفاف تخريج أحاديث الشفا خرج فيه أحاديث الشفا للقاضى عياض وقد أبان السيوطى فى مقدمته بعد أن حمد الله تعالى وصلى وسلم على نبيه . عن حقيقة هذا الكتاب ومسلكه فيه فقال : هذا كتاب نفيس ألفته وتأليف شريف صغته . خرجت فيه أحاديث الشفا للقاضى عياض تخريجا محررا سالكا فيه طريقا موجزا مختصرا ولم اسند فيه من شيىء من الكتب المؤلفة عليه بل اعتمدت فيه على حفظى ونظرى وراجعت الأصول المعتمدة والجوامع وسميته مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا .

---

(١) مقدمة تحفة الاحوذى . تحقيق فضيلة الأستاذ/عبد الرحمن عثمان ج ١ ص ٢٨٦ وفهرس الفهارس للكتانى ج ٢ ص ٣٥٧ .

وهو كتاب مفيد لمن أراد أن يقف على حقيقة ما جاء فى كتاب هذا وممن استفادوا من هذا الكتاب ونقلوا عنه فى مصنفاتهم الشهاب الشفا من أحاديث وآثار نسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخفاجى فى نسيم الرياض الذى شرح فيه الشفا .

وغير ذلك يمكن الوقوف عليه بسهوله .

فقد نقل كلام السيوطى فى بعض هذه الأحاديث وتستطيع أن ترى ذلك واضحا فيما جاء فى معنى : (الا المودة فى القربى) نقل كلام السيوطى فى المناهل عليه (١) .

وكحديث ابى هريرة : (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من ناريوم القيامة) نقل الشهاب كلام السيوطى عليه (٢) .

٦ ــ تخريج أحاديث شرح المواقف :

كتاب المواقف كتاب فى علم الكلام وهو من تأليف القاضى عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجى .

وقد تعددت الشروح عليه وتنوعت ووضعت عليه اكثر من حاشية كحاشية السيالكوتى وغيره .

وكان من بين الذين شرحوا كتاب المواقف هذا العلامة المحقق السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ وقد تضمن هذا الشرح العديد من الأحاديث النبوية ولاشك أن القارىء لهذا الشرح يهمة أن يقف على قيمة هذه الأحاديث ودرجتها لأنها بمثابة أدلة يجب بيان حالها .

وقد قام جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى بتخريج أحاديث

---

(١) نسيم الرياض جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) نسيم الرياض جـ ١ ص ٤٢ .

هذا الشرح استجابة لطلب من يقدرهم السـيوطى ويعتز بهم وذلك كما ذكر فى مقدمة هذا الكتاب •

ومن هذا الكتاب نسـخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٣٠؛ مجاميع •

٧ ـ واذا كان للسيوطى كتب خاصة بالتخريج كالتى أشرت اليهـا سابقا فان له تخاريج أخرى لم يعنون لها بكلمة تخريج وانما تنطق هى بذلك معبرة عن نفسها كما يبدو ذلك للناظر اليها لأول وهلة • كتلك التى جاءت فى معرض الاجابات عن مسائل حديثية معينة وجهت الى الامام السيوطى رحمه الله تعالى من مختلف الأوساط والأشخاص ، وكالتى سعى بها الساعى من بلاد نأت حدودهـا عن حدود بلادنا كبلاد التكرور وغيرها مما طارت اليها شهرة الامام السيوطى وذاع صيته بين أرجائها •

وقد ضمن السيوطى هذه المسائل والاجـابات عنها (كتـابه الحاوى فى الفتاوى) والذى اشتمل من بين ما اشتمل على هذه الفتاوى الحديثية وقد جمع فيها السيوطى بين بيـان المعنى وتوضيحه وبين تخريج الأحاديث التى كانت فى معظم الأحيان هدف المسـألة ومقصد السـؤال •

وبعد : فهذه أهم جهود السيوطى فى مجـال الحديث جمعـا وشرحا وتعليقا وتخريجا وهى جديرة بأن تصور لنا فى صدق مدى ما كان يتمتع به السيوطى من سعة أفق فى هذا المجال • وما يتحـلى به من وصف المحدث الحافظ •

الباب الثالث

جهود السيوطى فى علوم الحديث

الفصل الاول : التعريف بعلم الحديث (دراية) وذكر بعض المؤلفات فيه

هذا العلم يسمى علم أصول الحديث وعلوم الحديث ومصطلح الحديث وعلم دراية الحديث ، أو علم الحديث دراية وكان منه ما أفرد بالتاريخ لرجال الحديث وتسمية هذا العلم : بعلم دراية الحديث أو علم الحديث دراية انما هو اصطلاح المتأخرين ممن جاء بعد الخطيب البغدادى ومن عصر بن الاكفانى فمن بعده .

وعلى هذا الاصطلاح جلال الدين السيوطى فى تدريبه وفقايته وألفيته واما المتقدمون فعلم الحديث عندهم : علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم من حيث معرفة أحوال رواتها ضبطا وعدالة ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا وغير ذلك .

وهذا هو الذى يبحث فيه عند المتأخرين من علم دراية الحديث ويرجع الى الراوى والمروى من حيث القبول والرد (١) .

هذا وقد توافر عدد كبير من أئمة هذا الفن من المتقدمين والمتأخرين على التأليف والتصنيف فى هذا الميدان .

---

(١) أنظر المنهج الحديث فى علوم الحديث للأستاذ الدكتور/محمد محمد السماحى . قسم الرواية ص ١٤ ومقدمة محقق تدريب الراوى المرحوم الأستاذ الدكتور/عبد الوهاب عبد اللطيف ص ٥ ، ٦ .

فالقاضى بن محمد الرامهرمزى الذى عمل كتابه (المحدث الفاصل) .

وكالخطيب البغدادى الذى عمل على قوانين الرواية كتاب أسماه (الكفاية) وفى آدابها كتابا أسماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) وكالحافظ تقى الدين أبى عمرو عثمان بن الصلاح الشهروزى فى كتابه المشهور (بمقدمة بن الصلاح) وغيرهم .

مؤلفات السيوطى فى هذا المجال :

والسيوطى أحد الأئمة الأعلام الذين أكثروا من التصنيف فى هذا الشأن فله رحمه الله تعالى .

١ ـ تدريب الراوى فى شرح النواوى .
٢ ـ نظم الدرر فى علم الأثر وهى ألفيته .
٣ ـ شرح هذه الألفية يسمى البحر الذى زخر لم يتم .
٤ ـ شرح الفية العراقى ممزوجة .
٥ ـ التذنيب فى الزوائد على التقريب .
٦ ـ لب اللباب فى تحرير الانساب .
٧ ـ المدرج الى المدرج .
٨ ـ تذكرة المؤتسى بمن حدث ونسى .
٩ ـ كشف التلبيس عن قلب أهل التدليس .
١٠ ـ حسن التخليص لتالى التلخيص .
١١ ـ جزء فى أسماء المدلسين .
١٢ ـ جزء فيمن وافقت كنيته كنية زوجته من الصحابة .
١٣ ـ ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين .
١٤ ـ عين الاصابة فى معرفة الصحابة لم يتم .
١٥ ـ جزء فيمن عين النبى صلى الله عليه وسلم أسماءهم .

١٦ ــ مختصر نهاية بن الاثير يسمى الدر النثير ٠

١٧ ــ التعريف بآداب التأليف ٠

١٨ ــ التذبيل والتذنيب على نهاية الغريب ٠

١٩ ــ زوائد اللسان على الميزان (١) ٠

٢٠ ــ در السحابة فيمن دخل عصر الصحابة والحقها بكتابه حسن المحـــاضرة ٠

٢١ ــ اسعاف المبطأ برجال الموطأ ٠

٢٢ ــ طبقـــات الحفـــاظ ٠

٢٣ ــ ذيل على طبقـــات الذهبى ٠

٢٤ ــ الزوائد على تهذيب الكمـــال ٠

٢٥ ــ تحفة النـــابه بتلخيص المتشابه ٠

٢٦ ــ الروض المكال والورد المعلل فى المصطلح ٠

٢٧ ــ شد الرحال فى ضبط الرجال ٠

٢٨ ــ كشف النقاب عن الالقـــاب ٠

٢٩ ــ المنى فى الـــكنى ٠

٣٠ ــ الفانيد فى حلاوة الاســـانيد ٠

٣١ ــ المســـلسلات الكبرى ٠

٣٢ ــ جيـــاد المســـلسلات ٠

٣٣ ــ مفتاح الجنة فى الاعتصـــام بالسنة ٠

٣٤ ــ الفارق بين المؤلف والســـارق (٢) ٠

هذه أهم مؤلفات السيوطى فى علوم الحديث ٠

---

(١) أنظر فهرست مؤلفات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع مخطوط نسخة مكتبة الأزهر مخطوطة برقم ١٣٢ مجاميع ٠

(٢) أنظر تقديم المرحوم الأستاذ الدكتور/عبد الوهاب عبد اللطيف لتدريب الراوى جـ ١ ص ١٦ ٠

الفصل الثاني التعريف فى ايجاز ببعض هذه المؤلفات

أولا ـ ألفية السيوطى فى علوم الحديث :

هى من أهم ما ألفه السيوطى فى هذا المجال • وقد جاءت جامعة لقواعد هذا الفن ، حافلة بالمباحث القيمة والفوائد الجمة ، والزوائد النـافعة •

السبب الحامل له على نظمها :

من الطبيعى أن ينظر اللاحقون فيما خلفه السابقون من تراث فيحاولون تهذيبه وترتيبه أو شرحه والتعليق عليه ، أو اختصاره والزيادة عليه أو معارضته وقد يصحب تلك المعارضة والمضاهاة زيادات وهذا هو شأن اللاحق مع السابق وما تركه من تراث وقد جرت العادة بهذا كما نشاهده كثيرا بالنسبة لصنيع بعض المتأخرين مع من تقدمهم •

وقد كانت ألفية السيوطى لونا من السير على هذا الضرب •

فقد سبقه الحافظ أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى الى نظم الفية فى علوم الحديث • نظم فيها ما جاء فى كتاب (معرفة أصول الحديث لابن الصلاح) المشهور بمقدمة بن الصلاح • وكان هدف العراقى رحمه الله تعالى فى جعل هذه الألفية نظما • أن تكون أثبت فى الذاكرة والطف فى التعبير وأروح للنفس •

فلما جاء السيوطى أراد أن ينشىء ألفية يعارض بها ألفية الحافظ العراقى • فنظم ألفيته المذكورة وضمنها زيادات مهمة ورتبها ترتيبا مناسبا كما أدعى لها التفوق على ألفية العراقى أمور ثلاثة وهى : الجمع والايجاز والاتساق •

قال رحمه الله تعالى فى أولها :

وهـذه ألفية تحـكى الـدرر   منظـومة ضمنتها عـلم الأثر
فـائقة الفيـة العـراقى   فى الجمـع والايجاز واتساق

بهذا بدأ السيوطى ألفيته مشيدا بها ، منبها الى ما أمتازت بـه على ألفية العراقى كما أنه فى نهايتها امتدحها بأوصاف من بينها أنها سهلة وليس بها تعقد أو حشو وأوصى بالعناية بها وبتقديمها على غيرها فقـال :

نظم بديع الوصف سـهل حلو ليس به تعقـد أو حشـو
فأعن بهـا بالحفظ والتفهيم وخصـها بالفضل والتقـديم

أهم الشروح التى وضعت على هذه الألفية :

حظيت هذه الألفية باهتمام كبير من السيوطى نفسه وممن جاء بعده من العلماء ، فبالنسبة للسيوطى فبعد أن نظمها قام بشرحها وقد حملت لنا التراجم التى تحدثت عن السيوطى نبأ هذا الشرح لكنى لم أوفق فى العثور عليه •

وقد أشار السيوطى الى هذا الشرح وذلك فى كتـابه مصباح الزجاجة الذى شرح فيه سنن بن ماجه وذلك عندما تكلم عن المقلوب معلقا على حديث « اذا أمرتكم بشىء فأتوه واذا انهيتـكم عن شىء فانتهوا » الطبرانى فى الأوسط •

قال السيوطى : وله أنواع عديدة ذكرتها بشرح الفيتى (١)

أما بالنسبة لمن جاء بعد السيوطى فمن أهم شروحهم عليها :

١ ـ شرح العلامة محمد محفوظ بن عبد الله الترمسى المسمى (بمنهج ذوى النظر فى شرح منظومة علم الاثر وهو شرح لطيف لكن نفعة عميم • وقد زاد الترمسى فى شرحه هذا عشرين بيتا على ألفية السيوطى والحقها بها فى مواضع مختلفة •

---

(١) انظر نور مصباح الزجاجة ص ٤ •

منها أربعة عشر بيتا فى المعل وأربعة أبيات فى أسباب الحديث وبيت واحد فى الأنواع العشرة من الأسماء والكنى المزيدة على بن الصلاح والعراقى وبيت فى آداب طالبت الحديث وهـذا الشرح مطبوع بمصر طبع الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ •

٢ ـ شرح المرحوم الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد وهو شرح متوسط لم يوجز فيه صاحبه ايجازا مخلا ولم يطنب اطنابا مملا• وهو مطبوع بمصر •

وبعد فهذه أهم شروح ألفية السيوطى التى وقفت عليها وهى تصور لنا مدى عناية أهل الفن بهذه الألفية •

هذا والذى يتمعن فى هذه الألفية وألفية الحافظ العراقى يستطيع أن يدرك صحة ما ادعاه السيوطى لألفيته من التفوق فى الأمور الثلاثة سالفة الذكر على الفية العراقى بل ومن ناحية المضمون وما اشتملت عليه من آراء تمثل وجهة نظره أو يراها هو (١) •

ثانيا ـ طبقات الحفاظ للسيوطى :

هذا الكتاب لخصه الحافظ جلال الدين السيوطى من طبقات الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وجمع فيه تراجم من يعتد برأيهم فى التوثيق والتجريح والتصحيح والتصنيف •

هذا ومن يراجع طبقات السيوطى على طبقات الذهبى يستطيع أن يدرك أن السيوطى رحمه الله فى طبقاته هذه لم يحبس نفسه داخل اطار طبقات الذهبى بالنسبة لما جاء فيها من آراء وأقوال فقد أتى السيوطى رحمه الله تعالى بنقول وآراء ليست عند الذهبى الأمر الذى يؤكد أن لكل من الكتابين مزاياه الخاصة به وبالتالى لا غنى لنا عن أحد الكتابين •

---

(١) راجع رسالتنا من ص ٤٥١ : ٤٦٢ •

وقد رتب السيوطى كتابه هذا على أربع وعشرين طبقة تبتدىء الطبقة الأولى من كبار الصحابة رضوان الله عليهم وتنتهى الطبقة الأخيرة بابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ •

وقد جاء ترتيبه لهذه الطبقات طبقا لأجيال المحدثين وطبقاتهم مراعيا فيها التسلسل الزمنى •

وقد طبع هذا الكتاب أخيرا بالقاهرة بتحقيق الاستاذ على محمد عمر نشر مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية بعابدين ــ القاهرة • طبعة أولى • رجب سنة ١٣٩٣ هـ وأغسطس سنة ١٩٧٣ م طبع مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة •

والكتاب مرجع مفيد ومهم فى بابه •

وبعد : فانى أكتفى هنا بهذا القدر من التعريف بجهود السيوطى فى الحديث وعلومه مراعاة لمساحة البحث •

خاتمة وتشتمل على أهم نتائج البحث

بعد هذه المسيرة مع ذلكم الامام الجليل الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى وبعد أن ألقيت الضوء على شخصيته من مختلف جوانبها . من خلال الترجمة الموجزة التى ترجمت له فيها مظهرا منزلته العلمية وهمته الفائقة فى خدمة السنة النبوية حفظا وجمعا وشرحا وتعليقا وتخريجا وغير ذلك مما تحدثت عنه فى صلب البحث .

وأيضا مجهوده العظيم فى علم الحديث دراية ونظما ونثرا وشرحا وتوضيحا وترجمة لرجاله . بعد هذا كله أستطيع أن الخص أهم نتائج البحث فيما يأتى :

أولا : عصر السيوطى يعتبر من العصور الذهبية التى عنى فيها بأمر الأنشطة الحديثية ولقى ذلك تشجيعا فائقا من سلاطين المماليك وأمرائهم .

ثانيا : السيوطى رحمه الله تعالى ، كان شخصية عالمية وليس شخصية محلية فحسب .

ثالثا : كان رحمه الله موسوعة علمية صاحب ثقافات متعددة نبغ فى فنون متنوعة وأكثر من التأليف والتصنيف لدرجة أثارت عليه حساده ومنافسيه .

رابعا : السيوطى أحد هؤلاء الأئمة الذين قادوا ركب الثقافة فى عصره وخاصة ما كان يتعلق منها بأمر الحديث والتفسير والنحو .

خامسا : السيوطى فى مجال الحديث خاض غمار هذا المجال بكل

ما توافر له من امكانيات ولذلك استطاع ان يؤلف ويصنف فى كل مسائل الفن تقريبا .

وكتبه الجامع الكبير ، والجامع الصغير والذيل عليه من أهم مصنفاته فى مجال الجمع الحديثى واللآلى المصنوعة والذيل عليها من أهم مؤلفاته فى مجال الموضوعات .

وشروحه على الكتب السته من أبرز ما كتبه فى مجال الشرح الحديثى وأما تخاريجه فهى تمثل جانبا اهتمام السيوطى بأمر السنة .

سادسا : وقع فى مؤلفات السيوطى الحديثيه بعض التساهلات التى كان ينبغى أن يتجنبها واتنفاء هذه المؤلفات واجب المتأخرين من أبناء هذه الامه .

سابعا : جهود السيوطى فى علوم الحديث واضحه ومن ابرز مؤلفاته فى ذلك . تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ، وألفيتة فى علوم الحديث وقد اثبت تفوقها على العراقى من ناحية الشكل والمضمون وطبقات الحافظ له التى لم تكن مجرد تلخيص لطبقات الذهبى وانما اشتملت على زيادات مفيدة .

ثامنا : من أهم نتائج هذا البحث أنه أزال مسحه من التراب المتراكم على وجه جزء كبير من تراثنا الاسلامى الخالد .

تاسعا : ومنها أيضا انه كان مؤشرا لامعا الى كثير من مؤلفات السيوطى المخطوطة التى ما زالت تعيش فى سراديب مكتبات العالم وخزائن العلم المختلفة منذ مئات السنين .

يبقى أن أقول من قبل ذلك ومن بعده : رحم الله السيوطى الحافظ المحدث ونفعنا بعلمه ووفقنا الى تحقيق تراثه فى مجال السنة النبوية الشريفة وصلى اللهم على سيدنا محمد وآله واصحابه وسلم .

أهم مراجع البحث

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ قواعد التحديث لمحمد جمال الدين القاسمى ــ تحقيق بهجت البيطار طبع المطبعة الكستيليه سنة ١٢٧٩ هـ .

٣ ــ صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى للاستاذ/ عبد الوهاب حموده . طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة بدون تاريخ .

٤ ــ أنباء الغمر بأنباء العمر ــ الحافظ أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلانى . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٧٦ تاريخ.

٥ ــ الضوء اللامع للسخاوى . نشر مكتبة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

٦ ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . لأبى الفلاح ابن العماد الحنبلى نشر مكتبة القدس بالقاهرة .

٧ ــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . للسيوطى .

٨ ــ الحاوى للفتاوى لجلال الدين السيوطى ــ تحقيق المرحوم الأستاذ/محمد محيى الدين عبد الحميد . طبع السعادة بمصر .

٩ ــ التوشيح على الجامع الصحيح . للسيوطى . مخطوطة . بمكتبة الأزهر رقم ٣٣٥ حديث .

١٠ ــ الجامع الكبير (أو جمع الجوامع) للسيوطى طبع مجمع البحوث الاسلامية (جارى طبعه) .

١١ ـ الجامع الصغير • للسيوطى • طبع مصطفى محمد •

١٢ ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة • لنجم الدين الغزى تحقيق جبرائيل سليمان • المطبعة الامريكانية ببيروت سنة ١٩٤٥ م •

١٣ ـ العصر المماليكى فى مصر والشام للدكتور/سعيد عبد الفتاح عاشور • الطبعة الأولى • طبع مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م •

١٤ ـ عصر سلاطين المماليك للمرحوم الأستاذ/محمود رزق سليم نشر مكتبة الأداب بالجماميز سنة ١٣٦٨ هـ ـ سنة ١٩٤٩ م •

١٥ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى ـ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت سنة ١٣٧٦ سنة ١٩٥٧ م •

١٦ ـ تاريخ ابن اياس •

١٧ ـ تدريب الراوى بشرح تقريب النواوى • للسيوطى تحقيق المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف •

١٨ ـ بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه • للسيوطى • الطبعة الأولى • طبع السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ •

١٩ ـ فهرس الفهارس للكتانى • الجزء الثانى طبع المطبعة الجديدة بالطالعة عدد ١١ سنة ١٣٤٦ هـ •

٢٠ ـ مفتاح السنة للأستاذ/محمد عبد العزيز الخولى • مطبوع • نسخه مكتبة الأزهر تحت رقم ٤١٧٨ تاريخ •

٢١ ـ التيسير بشرح الجامع الصغير • للشيخ عبد الرؤف المناوى• مطبوع بمصر • نسخة مكتبة الأزهر تحت رقم ٢٢٧٩ حديث•

٢٢ ـ كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون لحاجى خليفة، طبع وكالة المعارف سنة ١٣٦٢ هـ سنة ١٩٤٣ م .
٢٣ ـ فيض القدير للعلامة/ عبد الرؤف المناوى . الطبعة الثانية سنة ١٣٩١ هـ ـ سنة ١٩٧١ م دار النهضة الحديثة . بيروت .
٢٤ ـ المغير على الأحاديث الموضوعية فى الجامع الصغير . للحافظ أبى الفيض الغمارى . الطبعة الأولى .
٢٥ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق الطبعة الأولى .
٢٦ ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى . مطبوع بمصر . المكتبة التجارية الكبرى .
٢٧ ـ تخريج أحاديث شرح المواقف للسيوطى . مخطوطة الأزهر رقم ١٣٠ مجاميع .
٢٨ ـ مقدمة ابن الصلاح . طبع السعادة بمصر . الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٦ هـ .
٢٩ ـ مقدمة تحفة الاحوذى . للمبارك فوزى . تحقيق الأستاذ/ عبد الرحمن عثمان . نشر السلفية المدينة المنورة .
٣٠ ـ مناهل الصفافى تخريج أحاديث الشفا . للسيوطى .
٣١ ـ المنهج الحديث فى علوم الحديث لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمد السماحى طبع دار الأنوار بالقاهرة . طبعة أولى .
٣٢ ـ منهج ذوى النظر فى شرح منظومة علم الأثر . للترمس . الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ .
٣٣ ـ الحديث والمحدثون . للأستاذ الدكتور/محمد أبو زهو . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٧٨ هـ سنة ١٩٥٨ .

٣٤ ــ سنن ابن ماجة طبع الحلبى بمصر سنة ١٩٥٢ م .

٣٥ ــ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة . للشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦٠ م .

٣٦ ــ فتح المغيث للسخاوى . طبع مطبعة العاصمة بالقاهرة . نشر السلفية بالمدينة المنورة .

٣٧ ــ نسيم الرياض بشرح الشفا للشهاب الخفاجى ط . أولى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٦ هـ .

٣٨ ــ نور مصباح الزجاجة للبجمعوى . طبع الوهبية بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٣٩ ــ ألفية الحافظ السيوطى مع شرحها للأستاذ المرحوم/محمد محيى الدين عبد الحميد .

٤٠ ــ اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى .

٤١ ــ فهرس مؤلفات السيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع .

٤٢ ــ اعداد من مجلتى الأزهرية ومنبر الاسلام .

القسم الخامس

السيوطي والدراسات اللغوية والأدبية

السيوطي والدرس اللغوي

للدكتور عبده الراجحي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة الاسكندرية

السيوطى والدرس اللغوى

لا يكـــاد الحديث عن منهج العرب فى درس اللغـــة يخلو من الحديث عن المصادر التى صدر عنها هذا المنهج ، والأغلب ألا يخلو ذلك من البحث عن مصادر يونانية أو هندية أو سريانية . والبحث عن المصادر فى حد ذاته مسلك علمى قويم ، غير أن السعى الى ارجاع كل نشاط علمى الى مصادر خارجية قد لا يبرأ من ادعاء «الموضوعية» حين يخشى المتحدثون عن «الأصالة» شبهة السقوط فى شرك التعصب والهوى . « وادعاء الموضـــوعية » « وعدم الموضوعية » فى معيار البحث سيان ، كلاهما ليس من العلم بسبب .

ولا أحسب الحديث عن السيوطى اللغوى الا حديثا عن المنهج العربى رغم الحقيقة العلمية الهامة التى تؤكد أن الفترات الباكرة من درس اللغة عند العرب هى الصـــالحة لدراسة هذا المنهج . غير أن السـيوطى ــ رغم تأخيره الزمنى عن فترات النشـــأة والازدهار فى القرون الأربعة الأولى ــ يصور بأعماله اللغوية خصائص المنهج العربى فى مراحله الأولى ثم يضيف اليها ما أضافته المراحل المتأخرة مما اتخذه بعض الباحثين أساسا للحكم على المنهج على العموم .

ولسنا هنا ندعى « الأصالة » للمنهج العربى لأن « الأصالة » تعبير غير واضح وغير علمى فيما نظن ، وهى على الأغلب مسألة « نسبية » وبخاصة فيما يتصل بالنشاط العلمى . نقول هذا بمناسبة ما بلغت اليه بعض أساتذتنا وباحثينا من أن الدرس العربى للغة يستند الى أصول يونانية أو هندية . ونحن ــ فى الأغلب ــ لا نملك ما نرفض به هذا الرأى كما لا يملك أصحابه ما يدعمونه به . ومن ثم ندعو الى التوقف حيال القضية كما يتوقف أصحاب الحديث حيال «مجهول الحال» أو كما يتوقفون انتظارا «للمتابعة» أو «للاعتبار» .

غير أن الذى نكاد نطمئن اليه أن نشأة الدرس اللغوى عند العرب تختلف عنها عند أبناء اللغات الهندية الأوروبية ، لاختلاف المصادر والوسائل والغايات ، وأن المنهج العربى تطور تطورا « داخليا » واستوى هذا الاستواء المعروف فى القرون الأولى من « داخل » البيئة الاسلامية لا من « خارجها » ، أو هذا ما تؤدى اليه المادة المعروفة لدينا حتى الآن ، وهى فى الحق مادة قليلة جدا الى ما تؤكده كتب التاريخ والتراجم من نشاط لغوى واسع يحتاج الى جهد أجيال وأجيال .

والذى نراه أن خصائص المنهج العربى لا ينبغى أن نفتش عنها عند أرسطو أو عند الهنود وانما نتحراها فى البيئة الاسلامية وبخاصة عند الفقهاء والمتكلمين .

والذى لا شك فيه أن علوم اللغة عند العرب نشأت فى ظلال القرآن ، وانها وغيرها من العلوم كانت تهدف الى خدمة النص الكريم ، فعلوم القرآن والحديث والأصول والكلام واللغة كانت متداخلة ذلك التداخل الذى تقتضيه الغاية التى كانت جميعها تنتهى اليها ، ومن ثم كان هذا التبادل فى التأثير بين هذه العلوم ، فى المنهج

أحيانا ، وفى المصطلح أحيانا أخرى ، وفى غير ذلك من فنون البحث ، وأنت لا تستطيع أن تفهم منهج العرب فى درس اللغة الا فى ضـوء هذا الواقع •

والسيوطى – كما قلنا – يمثل هذه الحقيقة أصدق تمثيل ، فقد توفر الرجل على معـارف كثيرة ، يدرسـها ويؤلف فيها ، وقد توافرت لديه جهود قرون طويلة من العمل العلمى المتواصل • والحق أننا لا نستغرب هذه الكثرة الواضـحة فيما قدم الرجـل من علوم الا اسـتغراب تقدير الجهد الانسـانى ، لأن هذه العلوم التى تبدو مختلفة كانت تصدر عن مصـدر واحد وكانت تشـترك فى طرائف التناول وظواهر التأثير •

ولقد أخذ السـيوطى يضرب فى كل ميدان يصـل اللغة بهذه العلوم ، بل انه لا يكاد يكتب شيئا فى اللغة الا فى ضوء هذا التأثير العام الذى ذكرناه ، ومن اليسـير أن تضـع يديك على ذلك فى كل ما كتب على وجه التقريب ، فهو يصـل اللغة بالقرآن ، وبالحديث وبالأصول ، وبكل ما يتصل بالدين على العموم •

١ – ونبدأ بأبحاثه اللغوية عن ألفاظ القرآن التى تكاد تركز على ناحيتين ، أولاهما ما فى القرآن من لهجات القبائل العربية ، على ما يظهر فيما قدمه فى « الاتقان » عن « غريب القرآن ، وما وقع فيه بغير لغة أهـل الحجاز » (١) وهو موضـوع لغوى هام أخذ يلفت أنظار الباحثين المحدثين لما يفيده فى معرفة العربية التى كانت سائدة قبيل نزول القرآن ، وفى « وزن » هذه « اللهجات » بميزانها اللغوى الصحيح (٢) •

---

(١) الاتقان ١/١١٥ – ١٣٦ •

(٢) انظر كتابنا : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية – دار المعارف بمصر ١٩٦٨ •

أما الناحية الثانية فتتصل بموضوع غير بعيد عن هذا الموضوع، وهو دراسة ما ورد فى القرآن بغير لغة العرب ، وقد ظهر ذلك عنده فى كتابين : المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية ، والتركية ، والزنجية ، والنبطية ، والقبطية ، والسريانية ، والعبرانية ، والرومية ، والبربرية ، وهو كتيب (١) ألفه للخليفة العباسى المتوكل على الله ورتب ألفاظه حسب اللغات ، فبدأ بالحبشية ثم الفارسية وهكذا .... والكتاب الثانى هو «المهذب فيما ورد فى القرآن من المعرب» (٢) . وهو كتيب يعرض لموضوع الكتاب السابق غير أن ترتيبه حسب الألف باء . وهذا موضوع هام أيضا سوف يظل له مكانه فى الدرس اللغوى بما يقدم للبحث من مادة تفيد فى معرفة حياة اللغة ، وتطورها ، « وقوانين » اتصالها بغيرها من اللغات . واذا كان العرب لم يعرفوا « المنهج المقارن » كما هو فى البحث الحديث ، فان المادة التى قدموها — على ما بينه السيوطى — كافية فى الاشارة الى اهتمامهم العملى حينذاك ، وهو اهتمام لا يزال يحظى بنصيبه فى العصر الحديث ، ونعنى به قضية « التعريب » .

٣ — أما وصله اللغة « بالحديث » فهو طابع يغلب عليه ، ويكاد يظهر فى كل ما كتب ، وذلك أمر منطقى من رجل استغرقته دراسة « الحديث » حتى صار صاحب عقلية « حديثية » واضحة ، وذلك أيضا أمر غير مبتوت الصلة باللغة ان لم يكن منها بسبب وثيق ، « فالرواية » و « النقل » من أسس العمل اللغوى لا جدال .

ولعل كتابات السيوطى تعتبر أشمل ما قدم من درس لغوى متأثر بعلوم الحديث ، بل ان أبواب « الزهر » جاءت على نسق

(١) مطبعة الترقى فى دمشق ١٣٤٨ هـ .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية (٨٥) لغة ، (٢٨٦ لغه) .

أبواب الحديث (١) وقد عرض الرجل فيها لما يمكن ان يكون منهجا كاملا لرواية اللغة . وعلى ذلك يفهم تأليفه فى الطبقات دليلا على تأثره « بعلم الرجال » ، وهو لم يكتف بما قدم فى « البغية » وانما عرض لذلك أيضا حين تحدث عن « الطبقات والحفاظ والثقات والضعفاء » ، وعن « الأسماء والكنى والألقاب » وعن « المؤتلف والمختلف » ، وعن «المثقف والمفترق» وعن «المواليد والوفيات» (٢).

ولقد يكون صحيحا أن نقرر أن أعمال السيوطى جميعا متأثرة بدرسه لعلوم الحديث ، يظهر ذلك فى اتجاهه الى « الجمع » والى « النقل » ، و « والاسناد » ، واستعمال « المصطلح » فى أغلب الأحيان .

٣ ـ ثم يأتى وصله اللغه « بالأصول » وهو منهج سبقه اليه عدد من علماء العربية الكبار أشهرهم ابن جنى واين الآنبارى ، والحق أن هذا الاتجاه كان جديرا ـ لو قدر له ـ أن يطور الدرس اللغوى تطويرا أساسيا ، ذلك أنه لم يكن يدرس بابا من أبواب اللغة أو ظاهرة من ظواهرها ، وانما كان يستهدف علم « الأصول » فى محاولة الوصول الى منهج لاستنباط الأحكام ، أى أنه كان يبحث عن « الخصائص » العامة التى تميز اللغة مما يهدى الى وضع قوانينها وضعا « علميا » يطمئن اليه روح البحث ، ولم يكن أمامهم الا « علم الأصول » الذى سيظل ـ دون ريب سمة بارزة من سمات الفكر الاسلامى .

وقد كتب السيوطى كتابه « الاشباه والنظائر » (٣) متأثرا بما

---

(١) أنظر فى المزهر : معرفة الصحيح الثابت ، معرفة ما ورد من اللغة ولم يصح ولم يثبت ، معرفة المتوافر والآحاد ، معرفة المرسل والمنقطع ، معرفة الأفراد .. الخ .

(٢) أنظر الزهر : ٣٩٥/٢ ـ ٤٥٨ .

(٣) طبعة حيدر آباد ١٣١٨ هـ .

قدمه تاج الدين السبكى فى « الأشباه والنظائر » فى الفقه ، وجاءت (فنونه السبعة) على نحو ما كتب الأصليون ، فنجد المصادر العلية فى القواعد النحوية ، والتدريب ، وهو فن القواعد الخاصة والاستثناءات ، وسلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب ، وللسمع والبرق فى الجمع والبرق ، والطراز فى الألغاز ، والتبر الذائب فى الأفراد والغرائب ، والمناظرات والمجالسات .

على أن « الاقتراح فى علم أصول النحو » (١) يعتبر أقرب أعماله وأشهرها الى علم « الأصول » وقد قرر ذلك هو فى صدر كتابه حين قال : « ورتبته على أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم » (٢) ، وقد حد أصول النحو على طريقة الأصوليين بأنه « علم يبحث فيه عن أدلة النحو الاجمالية من حيث ادلته ، وكيفية الاستدلال بها ، وحال المستدل » (٣) ، ولعله كان يستهدى الامام الشافعى (٤) حين جعل هو أدلة النحو أربعة ، وقد كانت عند ابن جنى وابن الانبارى ثلاثة ، اذ رأى ابن جنى أنها السماع والاجماع والقياس ، ورآها ابن الأنبارى السماع والقياس واستحصاب الحال، لكن السيوطى جعلها السماع والاجماع والقياس واستصحاب .

على أن الذى يهمنا هنا أن الشعور بالحاجة الى علم يحدد أصول الاستنباط ، أى يضع القوانين العامة للبحث اللغوى هو الذى دفع القدماء الى الكتابة فى « أصول النحو » ، وكما اقلنا انهم لم يبحثوا عنه فى مصادر « خارجية » وانما أخذوه مما هو واقع بينهم كل يوم وهو أصول الفقه ، غير أن هذا الشعور هو نفسه الذى يجعل

---

(١) طبعة حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .

(٢) ص ٢ .

(٣) ص ٤ .

(٤) حين قرر الأصول الأربعة فى الرسالة .

اللغويين المحدثين يبحثون عن علم يحدد أصول البحث وطرائقه ويضع القوانين العامة التى ينبغى أن يسير عليها الباحث ، وهم لا يزالون يتطورون حتى الآن من « الوصفية » (١) المطلقة التى سادت حتى أواخر العقد السادس من هذا القرن ، الى « التحويلية » (٢) التفسيرية التى بدأت تذدهر فى السنوات الأخيرة ، وهى كلها — على أية حال — تمثل السعى نحو الوصول الى قوانين البحث فى لغة الانسان .

٤ — وبعد القرآن ، والحديث ، والأصول ، يتحرك الجهد اللغوى فى خدمة كل ما يتصل بالدين ، فيقدم فى الوقت نفسه ملاحظات لغوية تنضاف الى خصائص المنهج ، من ذلك ما كتبه السيوطى فى التطور اللغوى حين عرض للألفاظ الاسلامية فى رسالة من رسائله عن « أصول الكلمات » (٣) حاول فيها أن يبحث عن المعانى اللغوية التى كانت عليها هذه الألفاظ قبل الاسلام : « أصل العبارة الخضوع والتذلل ، أصل الطغيان الانقباض ، أصل الفسق الخروج عن الشىء ، أصل التلاوة الاتباع .. الخ » (٤) ومن هذا الوادى ما قدمه فى « الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليقة » (٥) بجمعه أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا اشتقاقها وضبطها وتصريفها . وهذا كله غير بعيد عن البحث اللغوى ، فمعرفة « الأصل » كانت تسود منهج الفيلولوجيا ابان القرن الماضى ، ثم عادت تظهر عند «التحويليين» فى السنوات الأخيرة . ولقد ظلت هذه المسألة موضعا يوجه اليه النقد فى الدرس الغربى حتى تأكدت أهميتها الآن . والمشكلة أن القدماء

---

(١) Descriptive

(٢) Transformational

(٣) رسالة صغيرة طبعت ضمن كتابه « المتوكلى » .

(٤) ص ١٤ .

(٥) مخطوطة دار الكتب ٢٣٣١٦ ب .

توقفوا عند هـذا الذى قدموه ، وتوقف السـيوطى عند « جمع » ما قدمه السابقون ، ولم يحدث تطوير لهذا الاتجاه بما كان حقيقـا أن يؤدى الى نفع كبير •

٥ ـ ويكتب السيوطى فى التاريخ فلا ينس لغويته وانما يعرض حيث تدعو الحاجة الى ما ينبغى لمثله آن يعرض له ، واذا هو أيضـا لا يبتعد عن الدين ، ترى ذلك فيما كتبه فى « الشـماريخ فى علم التاريخ » (١) عن أسماء الأيام واشتقاقها ومعناها ، وهو موضـع من البحث له مكانه فى الحياة الدينية لأهميته فى معرفة «المواقيت» (٢) ثم يتناول الاستعمال اللغوى فى التعبير عن التقويم : « يقـال أول ليلة فى الشهر كتب لأول ليلة منه أو لغرته ، أو لمهله ، أو لمستهله ، وأول يوم لليلة خلت ثم لليلتين خلتا ثم لثـلاث خلون الى العشر ، فخلت الى النصف ، فللنصف من كذا وهـو أجود من خمس عشرة خلت أو بقيت •• » •

هذا اذن هو المنهج العام الذى صدر عنه السيوطى فى كل ما قدم من درس لغوى ، وهو منهج وصل اللغة بالعلوم التى نشأت فى ظلال القرآن ، وأخذت تستهم فى ظواهر التأثير والتطور •

على أن ذلك كله ليس الوجه الوحيد لهذا المنهج ، وانما وجهه الثانى هو ما قدمه علماء العربية من درس للظواهر اللغوية فى أشكالها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية • ويحتل السـيوطى فى ذلك مكان الجامع الذى اطلع على جهود السـلف واستوعبها ـ وأدرك حينذاك ضرورة الاحاطه بهذه الجهود وتقديمها للناس ••

وملاحظاته الصوتية تسير فى هذا الاتجاه ، غير أنه لم يخصص

---

(١) ليدن ١٨٩٤ •

(٢) انظر فى هذا كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ـ وكتاب تثقيف الالسنة بتعريف الأزمنة لمحمد بن عبد الله الشبلى •

عملا مستقلا لهذه الدراسة شأن ابن جنى فى « سد ضاعته الاعراب » مثلا ، وانما فى ملاحظات كما قلنا تأتى هنا أو هناك ، وتدور حول الأصوات وأوصافها ، وحول القلب والابدال ، أو حول «الأتباع» (١) وغير ذلك مما كان يتحدث عنه القدماء .

على أن أكثر ما كان يهتم به هو الصلة بين « اللفظ والمدلول » ، فنقل هذا الاتجاه عمن كان يذهب اليه من القدماء ، وركز عليه ، ولعله كان متأثرا بابن جنى الذى فصل هذا الاتجاه فى كثير مما كتب ، وان كان السيوطى فى الأغلب يرجعه الى أهل الأصول وأصحاب الكلام ، ومن ثم يسبغ عليه تجديدا عقليا بحيث يكون نتيجة « النظر » وليس نتيجة « الواقع » اللغوى كما يقولون ، فيقول : « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصميرى من المعتزلة أنه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال : والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح . وكان بعض من يرى رأيه يقول : انه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها . فسئل ما سمى (أزغاغ) وهو بالفارسية الحجر ، قال : أجد فيه يبسا شديدا ، وأراه الحجر » (٢) .

ومهما يكن من رأى فقد كان ذلك اتجاها متسقا مع سير الحياة العقلية عند العرب ، ومع أنه واجه رفضا لدى الدارسين المحدثين ، فان عددا منهم قد ذهب اليه ، ولاتزال هناك أبحاث فى بعض الجامعات العالمية يقوم على أساسه (٣) .

أما النحو والصرف فقد كانا علما واحدا عند العرب منه قدم سيبويه « الكتاب » ، ولا نحسب التآليف الصرفية المفردة كانت فصلا

---

(١) المزهر ٤٦٠/١ ، ٤١٠/١ .
(٢) المزهر ٤٧/١ - ٤٩ .
(٣) أنظر ما كتباه فى « فقه اللغة فى الكتب العربية » عن المستوى الصوتى .

للصرف عن النحو ، لأن الاتجاه الغالب ظل على الجمع بينهما كما كان ، وهو هو ما انتهى اليه الدرس الحديث من جعل « النحو » جامعا « للصرف » و « للنظم » على السواء .

ولقد تعددت أعمال السيوطى وتنوعت فى هذا المجال ، فيكتب فى أصول النحو على ما بيناه فى « الاقتراح » ، وكتب مؤرخا لنشأة النحو والصرف فى رسالته « الأخبار المروية فى سبب وضع العربية » (١) ، ثم توفر على عدد من مصنفات النحو بالشرح والتعليق، فشرح ألفية ابن مالك فى « البهجة المرضية فى شرح الألفية » (٢) ، وقدم « النكت على ألفية ابن مالك ، والكافية والشافية لابن الحاجب، وشذور الذهب ونزهة الطرف لابن هشام » (٣) ، و « شرح شواهد المغنى » (٤) وغير ذلك من الشروح ، ومن الواضح أن الرجل قد ركز على هذه المصنفات التى كانت منشرة فى عصره وبخاصة فى دور العلم المصرية ، وقد يفسر ذلك استمرار الاهتمام بها حتى الآن .

وهذا الاطلاع جعله يستقل بعد ذلك بتآليف نحوية ، كانت احداها ألفية سماها « الفريدة » (٥) ، ولا بأس من « شرح » لها سماه « المطالع السعيدة فى شرح الفريدة » (٦) ، غير أن أهم أعماله ــ لا شك هو كتابه « جمع الجوامع » وشرحه « جمع الهوافع » الذى يعد مصدرا من مصادر النحو العربى لما فيه من مادة تكاد تستوعب جهود القدماء .

وأما ما كتبه فى « الدلالة » فان أهم ما فيه أنه قد يكون أول

---

(١) طبعت مع مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية .
(٢) ١٢٧٢ هـ .
(٣) مخطوطة دار الكتب ٥٨١٥ هـ .
(٤) البهية ١٣٢٢ هـ .
(٥) القاهرة ١٣٢٣ هـ .
(٦) مخطوطة دار الكتب ٥٨١ نحو .

من قدم دراسة لنشأة المعجم العربى وتطوره (١) ، وأنه حين تناول مداد « الدلالة » تناولها فى الأغلب الأعم متأثرا بما قرره الأصوليون فى هذا المجال ، ومن ثم نفهم عرضه للحقيقة والمجاز ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد . ثم انه فضلا عن ذلك تطرق الى كل ما تطرق اليه القدماء كحديثه عن « الاستقاق » و « المولد » و « المشترك » و « الأضداد » و « المترادف » و « المشجر » . ومن بينها موضوعات لا تزال فى حاجة الى تتبع علمى يكشف عن دورانها فى الاستعمال اللغوى . وقد يكون السيوطى أحد المصادر المرشدة فى هذا الميدان .

وبعد ، فلا شك أن قيمة الدرس اللغوى عند السيوطى لا ترجع الى « جديد » قدمه الرجل ، وانما تكمن فى هذا « الجمع » الطيب لجهود القدماء ، وفى تمثيله لهذا الجو العام الذى نشأ فيه هذا الدرس وتطور ، وليس هذا قليلا بالنسبة لعصر الرجل ، بل ليس أمرا هينا أن تعد أعماله من نوع « دوائر المعارف » التى ترشد الباحث ابتداء الى المواطن التى ينبغى أن يتلمسها ، والى المصادر الضرورية التى ينبغى أن يعتمد عليها فى عمله العلمى . وهذا وحده كاف فى تقدير قيمة الرجل ، فضلا عن أنه لا يحجب اسهامه فى تطور الدرس اللغوى ، وفى خدمة لغة القرآن .

---

(١) المزهر ١/٧٦ - ١٠٣ .

السيوطى كاتبًا أديبًا

للدكتور مصطفى الشكعة

استاذ الأدب ورئيس قسم اللغة العربية
بكلية الآداب بجامعة عين شمس

السيوطى كاتبا أديبا

السيوطى عالم موسوعى جليل من علماء هذه الأمة السباقين الى التأليف فى ميادين كثيرة من فنون المعرفة الاسلامية ، وقد سلف القول أن عدد مؤلفاته يربو على ثلاثمائة كتاب ورسالة فى نظر بعض العلماء ، بل ذهب آخرون الى أنها بلغت الخمسمائة • ومهما كان الرأى فى صحة العدد الذى أورده الدارسون والمؤرخون لكتب السيوطى فان الأمر الذى لا شك أنه كعالم كبير من علماء هذه الأمة ، وكمؤلف موسوعى واسع الأفق متشعب فى نواحى المعرفة يمتلك ناصية الكتابة وعدتها ومؤهلاتها فكان اسهامه فيها والأمر كذلك اسهاما متنوعا يتراوح بين النثر العلمى المطلق والنثر الفنى المستهدف موضوعات فكرية وقيما أخلاقية ، والنثر الفنى المستهدف غايات امتاعية وضروب من القول ابتكارية •

ولتيسير عرض طبيعة فن النثر أو الكتابة عند السيوطى يمكننا أن نقدمها من خلال هذا النهج :

النثر العلمى :

ان علينا أن نسارع الى القول بأن النثر العلمى الذى نعرضه

هنا لا يقصد به الأسلوب الذى تكتب به كتب الكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلسفة وما اليها ، فما الى ذلك قصدنا ، بل ان ذلك النهج من الكتابة لا يندرج تحت مدرسة فنية من مدارس الكتابة ، ولكن الذى نعنيه هنا ونقصد اليه هو تعبير الكاتب أو المؤلف عن فكرة بذاتها أو ايضاح منهج بعينه ، ولقد كان أستاذ هذا النهج من الكتابة أبا عمرو الجاحظ فى مقدمتيه النفيستين لكتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وابن قتيبة الدينورى فى مقدمات « أدب الكاتب » و « عيون الأخبار » و « الشعر والشعراء » وأحمد بن عبد ربه فى مقدمة كتابه النفس « العقد الفريد » وأبا حيان التوحيدى فى مقدمة بعض كتبه من أمثال « الصداقة والصديق » و « المقابسات » و « الامتاع والمؤانسة » و « الاشارات الالهية » .

واذا نحن أردنا أن نذكر مزيدا من الأمثال أو نورد جديدا من الشواهد تشعب علينا الأمر وضاقت بنا السبل ، لأن مقدمات كتب الأولين من رواد كتابة التراث فى الأدب والفكر والتاريخ والعقيدة يعتبر موضوعا شيقا يلذ فيه البحث ويستحب حياله الاستقصاء ، وانما نحن نشير اشارة سريعة الى هذا النهج من كتابة المقدمات الذى يعتبر لونا متميزا من ألوان الكتابة يمكن أن نطلق عليه عنوانا يصدق عليه كل الصدق ، وهو النثر العلمى .

فاذا ما رجعنا الى السيوطى نستعرض اتجاهه فى هذا السبيل ترددنا فى أى المقدمات نستعرض وأى النماذج نختار ، لأنها جميعا من الاتقان الصوفى بحيث يعجب بها القارىء ومن البلاغة الأسلوبية بحيث يقف أمامها الدارس الأديب عميق التأمل غزير الاستفادة ، واذا كان لابد من عرض نص من هذه النصوص فليكن ذلك الذى قدم بـه

كتابه « الأشباه والنظائر » الذى ألفه فى النحو على نسق كتاب آخر له بالعنوان ذاته ألفه قبله فى الفقه . يقول السيوطى : (١)

« ان الفنون العربية على اختلاف أنواعهـا هى أول فنونى ، ومبتدأ الأخبار التى كان فى آحاديثها سمرى وشجونى ، طالما أسهرت فى تتبع شواردها عيونى ، وأعملت فيها بدنى أعمال المجد ما بين قلبى وبصرى ويدى وظنونى ، ولم أزل من زمن الطلب أعتنى بكتبهـا قديما وحديثا ، وأسعى فى تحصيل ما دثر منها سعيا حثيثا ، الى أن وقفت منها على الجم الغفير ، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتأملا بحيث لم يفتنى منها سوى النزر اليسير ، وألفت فيها الكتب المطولة والمختصرة ، وعلقت التعاليق ما بين أصول وتذكرة ، واعتنيت بأخبار أهلها وتراجمهم ، واحياء ما دثر من معالمهم ، وما رووه أو رووه ، وما نفرد به الواحد منهم من المذاهب الأقوال ضعفه الناس أو قووه، ومع ما وقـع لهم مع نظرائهم وفى مجـالس خلفائهم وأمرائهم من مناظرات ومحاورات ، ومجالسات ومذاكرات ، ومدارسات ومسايرات، وفتاوى ومراسلات ، ومعاناة ومطارحات ، وقواعد ومناظيم ، وضوابط وتقاسيم ، وفوائد وفرائد ، وغرائب وشوارد ، حتى اجتمع لى من ذلك جمل ، ودوتتها رزما ولا أبالغ وأقول وقر جمل ، وكان ممـا سودت من ذلك كتاب ظريف ، لم أسبق الى مثله ، وديوان منيف ، لم ينسج ناسج على شكله ، ضمنته القواعد النحوية ذات الأشباه والنظائر ، وخرجت عليها الفروع السائرة سير المثل السائر ، وأودعته من الضوابط والاستثناءات جملا عديدة ، ونظمت فى سلكه من النوادر الغريبة والألغاز كل فريدة ، ولم يكن انتهى المقصود منه لاحتياجه الى الحاق ، ولا سود بتسطير جميع ما أرصد له من بياض الأوراق ، فحبسته بضع عشرة سنة ، وحرم منه الكاتبون والمطالعون ، ثم قدر

(١) مقدمة الاشباه والنظائر النحوية .

الله أنى أصبت بفقده ، فاستخرت الله فى اعادة تأليفه ثانيا والعـود أحمد ، وعزمت على تجديده طالبا من الله المعونة فهو آجـل من فى المهمات يقصد •

وأعلم أن السبب الحامل لى على تأليف ذلك الكتاب الأول أنى قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون فيه وألفوه من كتب الاشباه والنظائر » ••

ان السيوطى يسجل فى مقدمته هـذه ـ شأنه فى ذلك شأن النابهين من العلماء السابقين ـ فكرة حول تأليفه الكتاب وهـدفه من ذلك ، وهو يتبع أسلوب زمانه ، بل أسلوب أزمان وقرون سابقة عليه من حيث الصناعة اللفظية والزينات البديعية ، ولقد لاحظنا حرصه الشديد على السجع الذى جاء به متنوعا متباينا ، فتاره يأتى بسجعات طوال ، ويأتى تارة أخرى بسجعات قصار غاية القصر ، هذا فضلا عن ضروب أخرى من البديع كالطباق والمقابلة والترصيع •

النثر الأخلاقى :

والسـيوطى كامام جليل من أئمة زمانه وعالم كبير من علماء الاسلام وكصاحب قلم وفكر وزهد ورسالة وجد من طبيعة كيانه أن يدعو الى الخير وأن ينهى عن الشر وأن يرشد وأن يزجر ، وهـذه المبادىء تقع من العقيدة الاسلامية فى صلبها فان من مواد الدستور الاسلامى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء سعادة الناس كل الناس وصلاح المجتمعات كل المجتمعات ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١)؟

ولم يكن السيوطى يكتفى بأن يعظ من هم حوله أو القريبين منه مكانه وانما كان يعظ الحكام الذى ظلموا والأمراء الذين بغوا مهما

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ •

يحدث المسافة بينه وبينهم ، فقد علم السيوطى أن ملوك التكرور — وهى بلاد النيجر حاليا والسنغال — شاع ظلمهم فى رعيتهم وتجاوزوا حدود الله فى الأحكام التى يصدرونها فبعث اليهم رسالة يعظهم فيها ويعنفهم ويحاول ردهم الى حظيرة الرشد واطار العدل . كتب السيوطى يقول (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

« من الفقير عبد الرحمن السيوطى الى الملوك والسلاطين ببلاد التكرور عموما والى الملك الزاهد « محمد بن صعفن » صاحب أكور وأخيه محمد وعمرو .. والى الملك صاحب كاسنة خصوصا » .

« سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فأنى اليكم أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أوصيكم بتقوى الله فانها رأس الأمر وسنامه ، وقد فاز وأفلح من به اعتصامه ، واحثكم على العدل بين الرعية ، والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية ، ولا يغرن امرا منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة ، وما خوله الله من زينة الحياة الدنيا ، كلها سنة منام ولا بد أن يستيقظ من السنة .

وقد بلغنى عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعى فى واقعة ، والمحكوم عليه منتم اليه فيحضنه ، ويحول بينه وبين صاحب الحق

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٨٧/٦ عن مخطوطة بدار الكتب رقم ٤١٦ .

ويحصنه ، ويقول : هذا دخل فى ملكى أو جعل فى سلطانى ، ورد ما حكم به الشرع الشريف اغترارا بالأمانى ، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملك أن يحل عليه العذاب الأكبر ، أو ينزل عليه سخطه فى الدنيا قبل أن يقبر ؟ « ان بطش ربك لشديد » . « وما ربك بظلام للعبيد » أيغتر أحدكم بملكه الذى هو كقطرة أو صبابة ، ويريد أن يلغى حكم الله باقامة ناموسه الذى لا يساوى عند الله جناح ذبابة . أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ، أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السلطان ظل الله فى الأرض ، يأوى اليه كل مظلوم من عباده ، فاذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، واذا جارعليه الاصر ، وعلى الرعية الصبر » ..

والرسالة على جانب من الطول ، ولكنها أيضا على جانب من النفاسة ، فهى سجل كريم لعدد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحض على التزام العدل ، وتقبيح الظلم ، والتحذير من الغدر ، كما أنه يذكر أحداثا بعينها ومظالم وقعت على بعض الناس يذكرهم بأسمائهم مما يدل على أنه كانت هناك مكاتبات بين السيوطى وبين هؤلاء الرعايا ، وأنه كانت ثمة وشائج بين السيوطى وبين هؤلاء الأمراء . وهو مع ذلك لم يقصر فى وعظهم بل فى زجرهم ، وطلب اليهم العودة الى العدل والتوبة الى الله وتلك وظيفة العلماء يبصرون الأمراء بظلمهم والحكام بانحرافهم ولا يتوانون عن زجرهم .

والذى يعنينا فى هذا السبيل فضلا عن الغاية النبيلة التى استهدفها السيوطى هو ذلك الأسلوب النضير وهذا الصوغ المتين الأمر الذى يجعل من السيوطى — فى دنيا الكتابة — كاتبا ذات قدر وبهج وكفاية . ومن الأمور التى تلفت النظر هنا أنه لم يلتزم السجع فى هذه الرسالة التزام غيره له من علماء العصر وكتابه ، الأمر الذى يشير الى أن السيوطى كان يهتم بالمعنى قبل اهتمامه باللفظ وأن اللفظ

عنده خادم للمعنى فيما يتصل بالخطير من الموضوعات التى له فيها هدف وغاية واصرار •

واذا كان السيوطى قد عمد الى وعظ الأمراء وزجرهم وحضهم على التوبة الى الله سبحانه والتزام جانب العدل فيما يصدرون من أحكام حسبما بينا فى المثال السابق فانه يعمد أيضا وفى قالب آخر الى بث الحكمة بين الناس ونثر الكلم الطيب على أسماع جمهرتهم ، وهو فى ذلك يستهدف الاصلاح السلوكى والتحذير من شرار الناس وينصح أحيانا بالتفرد والانعزال ويحض حينا آخر على الزهد والتصوف وهو فى كل حال يعرض بالفلسفة والفلاسفة •

لقد كتب السيوطى رسالة قصيرة أسماها « دور الكلم وغرر الحكم » ضمنها مجموعة كبيرة نفيسه من الحكم والنصائح بحيث جعل كل حكمة متدثرة بجملتين بليغتين • انها يسوق دور الكلم وغرر الحكم على هذا النسق (١) •

« صلة الناس ليس لها عائدة » ، ومعرفتهم نزوة الفوائد • من عرف الناس خص بالبلاء ، وأحاط به الرق والولاء • رب امرىء أوليته جميلا ، فكان بالاساءة اليك حميلا • السنة السنة ولو عليك الأسنة • عليك بعلم الشريعة ، فانه الى الله أقوى الذريعة • أف للدنيا !! تقدم الجاهل ، وتؤخر الفاضل ، وتبا للعلياء يفوتها السابق والفاضل الكريم يرى ألم الكلام ، أشد من ألم الكلام • رب ساكت أعلم من ناطق ، وساكن ليس له بارق • قبح الله من جهل العلوم المشرفة ، وتمثل بعلوم الفلسفة • من تحكم بالشريعة فعارضه مسجوم ، ومن تكلم بالفلسفة فلسانه ملجوم • لسان العالم ، سنان فى الملاحم • ما كل خطيب مصقع ، ولا كل واعظ يصدع •

---

(١) دور الكلم وغرر الحكم : مقال قصير مخطوط بدار الكتب المصرية •

مقامات السيوطي

المقامات فن أدبي نال شهرة وذيوعا وتوفر على الكتابة فيه عدد كبير من أدباء العربية على مر السنين والعصور ، القصد منه الامتاع الأدبي والانشاء القصصي .

ومن المعروف أن منشيء هذا الفن ومبتدعه الكاتب العربي الفنان الشاب بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني الذي خلف لنا اثنتين وخمسين مقامة كتب أولاها في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ وكان عمره اذ ذاك خمسا وعشرين سنة ، ثم نسج على منواله وترسم خطاه العالم اللغوي المشهور أبو محمد القاسم بن علي البصري الحريري المتوفى ٥١٥ هـ . وقد نهج الحريري في مقاماته نهجا تعليميا أكثر منه نهجا فنيا روائيا مستهدفا من ذلك تعليم اللغة وتلقين مفرداتها للناشئين .

وأخذ الفلك يدور دورته فاذا بعدد غير قليل من أعلام الفكر الاسلامي وأعيان الأدب العربي يواصلون الكتابة في هذا الفن ولكنهم اتنهجوا نهجا مختلفا عن ذلك الذي استهدفه بديع الزمان وسار على دربه من بعده الى حد كبير أبو محمد الحريري ، فجاء ابن ناقيا وكتب ثماني مقامات عالج فيها الحكمة على ألسنة البهائم ، والأمر الجدير بالذكر أن ابن ناقيا عاش في مرحلة زمنية متوسطة بين بديع الزمان والحريري اذا انه توفي سنة ٤٨٥ هـ .

ويجيء الزمخشري ٤٦٧ ــ ٥٣٨ وهو كما نرى معاصر للحريري فينشيء خمسين مقامة ولكنها ان تشابهت مع مقامات الحريري في الأسلوب فانها تختلف معها في الموضوع فقد التزم كاتبها ميدانا واحدا هو الوعظ والارشاد .

ثم يأتي ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فيكتب خمسين مقامة

على نسق الحريرى ولكنه يكثر من الألفاظ الحوشية والاستشهاد بالشعر المعمى والألغاز ، ويأتى بعده بقليل ابن صقيل الجزرى فينشىء خمسين مقامة أطلق عليها « المقامات الزينبية عالج فى كثير منها موضوعات من الفقه والحديث والنحو • وفى أوائل القرن السابع أيضا يكتب التنوخى مقامة طويلة فى وصف نار العجم ، وفى منتصف القرن الثامن يكتب ابن الوردى مقامات أربعة هى الأنطاكية والمشهدية والدمشقية ومقامة الافتنان وملاحقة فتيان الزمان ، ثم يأتى بعد ذلك جلال الدين السيوطى ليكتب مقامته •

هذه المقدمة السريعة الموجزة عن المقامات وموضاعاتها تعتبر ضرورة لاغنى عنها ونحن نحاول أن ندرس مقامات السيوطى •

ان الأخبار تذكر لنا أن السيوطى كتب أربعين مقامة وان كانت عملية الاستقصاء التى قمت بها لم تهيىء لى حتى الآن الحصول على أكثر من ثمانى عشرة مقامة بين مخطوطه ومطبوعه وانى أرجو بمزيد من الجهد والمتابعة أن أصل الى بقية المقامات التى لم يتح لى أن أحظى بالوقوع عليها حتى الآن •

لقد أفاد السيوطى من سابقيه من كتاب المقامات فعمد الى التنويع فى موضوعات مقاماته ، بل أنه تحلل من الاطار العام للمقامة وتخلص فى كثير منا من الراوية والبطل فأصبحت هذه المقامات — أعنى أكثرها — أقرب الى المقال منها الى المقامة •

أشكال مقامات السيوطى وموضوعاتها

ان مقامات السيوطى — أو على الأقل ما كان منها بين أدينا الآن لا تجرى على نسق واحد ولا تعالج موضوعا واحدا ، وانما هى تجرى على أكثر من نسق وتعالج أكثر من موضوع ، وهى بذلك

تختلف عن مقامات بديع الزمان والحريرى والزمخشرى والجزرى الذين حرص كل منهم على التزام وحدة الموضوع بالقدر المستطاع .

فأما من حيث الشكل فان النسق أو النهج الذى يقدم السيوطى من خلاله موضوعه يكون فى اطار مقال حينا وفى اطار مناظرة حينا ثانيا ، وحينا ثالثا يكون فى اطار مفاخرة وحينا رابعا يكون فى نطاق القالب القصصى المألوف عند سابقيه من كتاب المقامات وقد ابتدع لنفسه شخصيته الراوية الذى اختار له اسم « هاشم بن القاسم » .

المقامة المقالة :

وحتى هـذا النسق من المقامات الذى صيغ فى قالب مقالات لا علاقة لها بالناحية القصصية تعالج موضوعات عدة ، فهى تارة تكون بمثابة مقالة علمية يرد بها السيوطى على خصم له يخالفه فى رأيه ويكون قد حاول النيل من قدره كما هو الحال فى المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية . وتارة أخرى تكون المقامة مقالة ذاتية تعالج مشكلة شخصية للكاتب وتهجو خصومه وبعض حاسديه كما هو الحال فى المقامة اللؤلؤية ، وتارة ثالثة تكون المقامة مقالا أدبيا رفيع الأسلوب كثير نصوص الشعر بهدف تعليم الأدب وتربية الذوق حسبما هو الحال فى مقامة روضة مصر . وتارة رابعة تكون المقامة مقالا وعظيا كما هو الحال فى مقامه الحمى أو المقامة الولدية .

وحتى يتضح لنا معالم هـذا النسق من المقامات أو بالاحرى المقالات فلا بأس من أن نستعرض مثالا لبعضها أو لكل واحد منها .

مقال دينى : المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية :

ان السيوطى يؤمن ايمانا راسخا ان والدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجنة وأن أجداده بين الجنة والأعراف ، من كان منهم

نبيا أو رسولا او أمن بنبى او رسول فهو فى الجنة ، ومن لم يلحق بنبى او برسول فقد كان بريئا من الشرك فيكون من أهـــل الفترة وبالتالى هو ناج من النار • وكان السخاوى معاصر السيوطى وصديقه فى صدر شبابهما ثم ألد خصومه فى باقى سنى حياتهما لا يرى هذا الراى ، ومعنى ذلك أن عبد الله بن عبد المطلب سيد شـــباب قريش قبل ميلاد الرسول وأن آمنة بنت وهب والدة محمد وسيدة نســاء قريش وفضلاهن ــ من وجهة نظر السخاوى ــ فى النار ، ويشتط السخاوى فى مذهبه هذا ويدعى أن الآية الكريمة : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » نزلت فى والدى الرسول صلى الله عليه وسلم •

ينشط السيوطى للدفاع عن الرأى الذى يعتقده والذى يشاركه فيه جمهرة المسلمين ويجد الفرصة سانحة لتسوية حســاب قديم مع السخاوى ، وكان السخاوى حسبما ذكرنا شديد الخصومة حــديد التحامل على السيوطى متهما اياه بكثير من التهم التى تنال من أمانته العلمية وقدره الرفيع فيثبت الســيوطى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة الصادرة عن كبار الأئمة ومشاهير العلماء أن والدى الرســول فى الجنة ويؤيد ذلك بالكثير من الأخبار التاريخية والأشعار المروية •

لقد ردد السيوطى قوله تعالى فى سورة التوبة « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام » ثم أورد قول الرسول صـــلى الله عليه وسلم : لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين • ولاشك أن الطهر مرتبط بالايمان ، بل ان السيوطى يسفه رأى السخاوى حين يذكر أن المراد بالآية التى استشهد بها هم كفار أهل الكتاب الجـاحدون عن الأنابة والمتاب ويؤكد أن السورة مدنية • هذا فضلا عن حجج أخرى كثيرة ومجادلات عديدة ويواجهه بذكر اسمه أكثر من مرة فى اطـــار من القول لا يخلو من هجوم وتجريح مثل قوله :

قل للسخاوى ان تعروك مشـــكلة
عظمى كبحـــر من الأمـــواج ملتطم

هذا والمقالة طويلة ممتعة ، خاصة وأن للسيوطى أكثر من بحث دينى فى هذا الموضوع ، فلنستعرض جزءا من هذه المقامة أو بالأحرى هذا المقال :

« ولقد وصل الى عن رجل من أهل الحديث ، وممن ســـعى فيه طول عمره السعى الحثيث ، انه ذكر له ما قلته فصاح ، وأعرض بوجهه واشاح ، وأجرى من فمه سيلا ، وجر من لسانه ذيلا ، وكسا وجه الصباح ليلا ، وكاد يطير مع بنات نعش ، وحاص حيصة حمر الوحش ، ثم زأر ، وشذر فى النظر ، وكلح بوجهـــة ويسر ، وقال فحشا وهجر ، وهذى فى منطقه وحذر ، وصرح بانهما نعوذ بالله من أهل سقر ، وذكر أنه نزل فيهما من القرآن الكريم ، « ولا تســـأل عن أصحاب الجحيم » ، فقلت للناقل لم لا تلجأ الى وزر ، وهـــلا القمت فاه من كلام شيخه وهو الركن المشيد بحجر ، واطفأت النار التى أوقدها من زفر بزفر من زفر ، وعلمت أنه يضرب فى حديد بارد اذا ضربنا نحن فى ذهب ذائب ويرمى عن وتر منقطع اذا فوقنا نحن كل سهم صائب ، ولو أنه اقتصر على ذكر المنقول من غير ســـفه لم يكن عليه من باس ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، افرحا بالعلو ، أم تجاوزا الى حـــــد الغلو ، أم اعظاما لنفسه واستكبارا ، واحتقارا لغـــيره واستصغارا ، أم استجاشة على مثلى واستنصارا ، ألاتقن قاعدة شكر المنعم التى مبنى هذه المسألة عليها ؟ ، ألمحكم قاعدة التحسين والتقبيح التى مرد هذه القاعدة اليها ؟ أعرف حكم الفاضل من حيث التكليف ؟ ، أدرى حكم الأفعال قبل البعثة هل توصـــف بالتشديد أو التخفيف ؟، أعلم فن الأصـــول ؟، وقواعد الاســـتدلال والترجيح عند تعارض النقول ؟

لا تحسب المجد ثمرا أنت آكله — لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

انسى ما بدا منه من برهة فى مسألة رؤية الأنبياء يقظة ، وما أنكره على من افتائى بامكانها كما نص عليه الأئمة والحفظة ، فبادر بقوله ان ذلك مستحيل ، وأخذ يغير فى الوجه الجميل ، ويفرح بكثرة القال والقيل ، وما شعر أن هذا القول يؤول ا لالمن يعذر بجهله الى كفره، وينبىء تعالى الله علوا كبيرا عن استقصار القدرة ثم لما شددت عليه النكير ، وبلغه أن ذلك يلزم منه والعياذ بالله التكفير ، بدل قوله وحول ، وقال انما انكرت دعوى الاجماع وتأول ، فكان قوله الثانى أشد سوءا من الأول لأن صلاحية القدرة للمكنات لا يختلف فيها اثنان ولا تتجزى ، ومن لا يميز بين الجائز والمستحيل فسكوته عن الأفكار أحرى وتصديه له أخزى ، وقد قلت فى تلك الواقعة :

رؤية الأنبياء بعد الممات — ادخلوها فى حيز الممكنات

قل لمن قال انه مستحيل — اترك الخوض عنك فى الغمرات

انت لا تعرف المحال ولا الممكن لا ما بالغير أو بالذات

فاحترز أن تزل زلة كفر — وتوقى مواقع الزلات

ونعود الى ما نحن فيه ليت شعرى ما الذى أنكره على ، وفوق لسببه سهامه الى اترجيح جانب النجاة أما لى فيه من سلف صالح ، اما تقدمنى اليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجبال فهو عليها راجح ، فان اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جليا ، أو بالنسيان فقد خلق الانسان نسيا .

وما سمى الانسان الا لنسيه — ولا القلب الا انه يتقلب

وهل يستبعد على من أنجى الله به الثقلين ، أن ينجى به الأبوين،

فان استبعد هو ذلك فليست الشدة عندى بارجح من الرخاء ، وان استكثر ذلك فانه لبخيل حيث شح بأجمل الأمرين وهو السخاء :

شح السخاوى بالانجاء يذكره عن والدى سيد الأنبياء والأمم

ان عز ان يبلغ البحر الخضم روى ذليته يستقى من وابل الديم

ام ظن انى أقدمت على الترجيح لا لمستند أو بمجرد التشهى من غير دليل معتمد ، معاذ الله بل لما قام عندى من أدلة قاطعة ساطعة ، ناصعة لامعة ، جامعة مانعة ، هامعة رائعة ، صادعة قامعة ، بارعة باقعة ، جازمة لازمة ، مثبتة هاذمة صحيحة صريحة ، متعبة مريحة ، حاصرة فسيحة ، تامة ، عامة ، كاملة شاملة ، كافلة حافلة ، تجزم ولا تجزم ، وتهزم ان شاء الله ولا تهزم .

أتمسى القوافى تحت غير لوائنا ونحن على أقوالها أمراء

أم انكر على السكوت عن القول الآخر ورام منى أن أجريه على طول الألسنة ، فيا سبحان الله مالى ولحكايته أنائم أنا أم فى سنة، أما أكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما يحق لى أن أضرب بينى وبينه بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب ، أما أولا فلأن العلماء أرشدوا فى هذا الى الصمت ، وعدوه من حسن الأدب والهدى والسمت ، واما ثانيا فلأن السائل عن ذلك ممن يقرأ المواد ويستطرد فى الكلام ، ويحضر عليه النساء والعوام ومن هم بعيدو الأفهام الى ومن هم حديثو عهد بالاسلام ، أفأكون سببا فى وصول ذلك اسماعهم ووسيلة الى تحدثهم به مع نقص افهامهم وجفاء طباعهم ، كلا والله لكل مقام مقال ، وما كل ما يعلم يقال ، وقد روى البيهقى فى شعب الايمان عن بعض السلف قال من كان عقله أصغر من علمه قتله علمه ، ومن تكلم بكل ما يعلم هدر دمه وكثر ذمه .. » .

المقامة اللؤلؤية :

وهده ابضا مقامة (١) تتناول موضوعا آخر أقرب ما يكون الى الترجمة الذاتية لأن السيوطى يشرح فى هذه المقامة ــ بل المقالة ــ سبب اعتذاره عن تركه الافتاء والتدريس ، ويبرر ذلك بما يصدر عن بعض الناس من انحراف ينال من قدر العلماء ويجعلهم ينصرفون عن الاستمرار فى ممارسة الوظائف الدينية العلمية الرفيعة ، ويتخذ السيوطى من هذا الموقف ذريعة أخرى لتصفية بقية حسابه مع السخاوى لو كان ثمة بقية بعد الذى ناله منه فى المقامة السندسية التى أوردنا طرفا منها ولم نسجل كل ما كاله السيوطى لخصمه اللدود .

أما أن «اللؤلؤية» مقالة وليست مقامة فلأنها ــ شأن سابقتها ــ ليس فيها من المقامة مجرد الشكل فضلا عن أس البنية وجوهر الهدف. ان السيوطى يبدؤها بالبسملة وبالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وآله ويتبع ذلك بآية قرآنية انتقاها متسقة مع المناسبة وهى قوله تعالى : « وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . ثم يمضى فى قوله صائغا اياه على شكل خطاب قائلا : « يا معشر الأصحاب الصلحا ، وأولى الألباب النصحا ، ومن لاح له أمر فلام عليه ولحا ، الى كم تكثرون على الكلام وتكثرون لدى الملام ، وتشيرون الى بالسلام ، وتسبرون الى السلام ، وتريشون لأجلى السهام ، وتهرعون الى السنة كالأسنة ، وتسرعون فى نسبتى الى الضنة بالظنة كأنى لست عندكم ممن يحفظ السنة ، ولا ممن يعرف طرائف السلف التى هى طريق الى الجنة » ؟ .

ويمضى السيوطى فى تقريع لأئمة وشانئية فى جمل مسجوعة متسقة حزينة الى أن يقول : « الا تسألون عن العذر قبل الملام ؟

(١) مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢١١٢٤ ب .

الا ترسلون بحسن الكلام بدل الكلام ؟ الا تحبون أن تكونوا من النفر الذين يحبون ويحيون بسلام ؟ فان لم تكونوا بالاعذار موقنين، فسلام عليكم دار قوم مؤمنين » .

وبعد أن يوضح الكاتب بعض جوانب عيوب النـاس وخطايا المجتمع وانحراف الأفـراد من تكذيب الصادق وتصـديق الكاذب وتخوين الأمين وتأمين الخائن يقول : « وتلك هى الطامة ، وتـكلم الرجل التافه فى أمر العامة ، وتعلم المتعلم لغير العمل ، وكان التفقه للدنيا وليس له فى الآخرة أمل ، واهين الكبير ، وقدم عليه الصغير ، ورفعت الأشرار ووضعت الأخيار .. واستعلى الجهـال على العلما ، وقهر السفهاء الحلما ، وولى الدين غير أهله ، وظهر الفحش من كـل جاهل على قدر جهله . هذه امارات وردت فى أحاديث صـحاح ، وآيات جاءت بها سنن أضوأ من فلق الصباح وارشدنا نبينا الهادى ، صلى الله عليه وسلم ما راح رائح وغدا غادى ، الى أننا اذا أرينـا ذلك قد وقع ، وبدا لنا نجمه الكاسف وطلع ، فلنجلس فى البيوت ، ولنلزم السكوت ولنتق الله فى خاصة نفسنا ، ولندع عامة الأمور الى أن نحل برمسنا ، وكم من عالم قبلى قد قبل هـذه الوصية اذ رأى ماليس له به قبل ، وترك الافتاء والاقراء وأقبل على خاصة نفسـه والعمل ، وقد اقتديت بهم ونعم القدوة ، وتأسيت بالحديث الـذى هو لكل عالم أسـوة ، طالما قطعت نهارى فى التدريس والافتـا ، واستغرقت أوقاتى فى نفع الناس وقتا وقتا . ولم أسلم مع ذلك ممن يولينى أذى ومقتا ، ويرمينى كذبا وبهتا » .

ويصف السيوطى تلاميذه فى التدريس ويصنفهم الى ثلاث طبقات: طبقة كلها خير صرف ، وطبقة ثانية تجمع بين الخـير والشر « تعرف وتنكر ، وتذم وتشـكر » وطبقة ثالثة « الله أكبر وما أكثر شرها ، وأكبر حرها ، وأشد اصرها ، وأنكد أمرها ، وأعظم مرها ، وأقـوى

فجورها ، وأدنى كذبها وبهتانها وزورها ، عظيمة السفة والجهل ، ليست للعلم ولا للحلم بأهل ، فان صبرت حتى تأتى طبقة رابعة ، وفرقة مروعة رابعة أوشك أن يأتى بعد هؤلاء حثالة الرجال ، وفراج يأجوك ومأجوك والدجال ، وما أحسن قول من قال •

ألم تعلم بأنى صيرفى   احك الأصدقاء على محك
فمنهم بهرج لاضير فيه   وفيهم من أجوزه بشك
ومنهم خالص الذهب المصفى   بتزكيتى ومثلى من يزكى،

ثم يتحدث السيوطى عن فتاواه التى طبقت الأرض شرقا وغربا وأوضحت كل مشكلة وحلت كل معضلة ويطبق على نفسه قول الشاعر :

اذا المشكلات تصدين لى   كشفت حقائقها بالنظر
وان برقت لى تحيل السحا   ب بماء ولا تجتليها الفكر
مقنعة بغيوب الفهو   م وضعت عليها حسام البصر
ولست بامعة فى الرجا   ل أسائل هذا وذا ما الخبر
ولكننى مدره الأصغر يـ   ن أقضى بما قد مضى أو غبر

والى هنا يكون السيوطى قد شرح حاله ووفى نفسه حقها من التقدير والتمس لها ما يكفى من الاعذار لتركه التعليم والافتاء ، ثم يتحول بعد ذلك الى النيل من السخاوى والحملة عليه والازراء به ونعته بأجهل الجاهلين وعرة الحيوان الهاملين ، ويشن عليه حملة هجاء مكثفة ضارية لانخال السيوطى فيها الا تلميذا أمينا لبديع الزمان فى بعض رسائله الهجائية نسقا ومعنى ولفظا وأسلوبا •

انه بشيىء من التجاوز يمكن أن نعتبر هذه الرسالة نوعا من الترجمة الذاتية ووصفا لجانب من الحياة الاجتماعية فى بيئة السيوطى، وبشيىء من الحكم الدقيق نعتبرها رسالة هجائية كتلك الرسائل التى كانت تصدر عن كتاب القرن الرابع الهجرى من أمثال الصابى وبديع الزمان وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم •

انها على كل حال رسالة بارعة التكوين جيدة الصوغ تشهد للسيوطى بأنه جدير بالانخراط فى سلك الكتاب المجيدين المبدعين ولكن فى مضمار كتابة الرسائل وليس فى ميدان انشاء المقامات •

مقال فى الوصف : مقامة الروضة (١) :

ان مقامة الروضة بدورها قطعة أدبية وصيغة بديعة البناء رفيعة الانشاء ، وبالتالى فانها ليست من المقامات فى شيىء •

وجلال الدين السيوطى لا يمل من وصف جزيرة الروضة والتغنى بجمالها وسحرها ونيلها وبروجها وقصورها وخمائلها ، لقد كانت مأواه وسكناه ، فكل ما فيها جميل حتى ان قبيحها حسن وعيوبها مزايا •

ان السيوطى يجعل من بعوضها المؤذى حسناوات من ساحرات جرير ، ان طنين البعوض تغريد بلابل ولسعاته سهام العيون :

ياليلة غردت فيها البعوض وقد
طاروا الى زرافات ووحدانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

(١) المقامات المطبوعة ص ٦٣ وما بعدها •

ولا يقف أمر السيوطى فى حبه لجزيرته عند التسامح مع البعوض بل انه يبارك براغيث الروضة ويصحف اسم البرغوث الى كلمتين نبيلتين هما بر وغوث • ويجعل البراغيث تؤدى مهمتين جليلتين لصحيتها هما مص الدماء الفاسدة وايقاظ الملدوغ ليؤدى صلاة الفجر• يقول السيوطى فى هذا المقام :

لا تكره البرغوث ان اسمه
بر وغوث لك ان تدرى

فبره مص دم فاسد
والغوث ايقاظك فى الفجر

اما الأبيات الشعرية الصادقة التعبير الحسنة الايقاع البارعة فى تكوين لوحات الطبيعة الساحرة فقد أحسن السيوطى اقتباسها وتطويعها لخدمة جزيرته العتيدة هذا فضلا عن المحاسن الأخرى التى سجلها على النحو التالى :

« قال الله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » ، نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر أحسن البقاع ، وتضافرت على ذلك آثار الصحابة والاتباع ،وانعقد عليه الاجماع ، وشهد الحسن بأن الروضة منها كمركز الدائرة فهى لها كالقطب والأساس وقام النظر على انها أنزه بقعة فيها فانتج أنها أحسن بقاع الأرض بما صح فيها من القياس :

شوقتنا الى الجنان فزدنا فى اجتناب الذنوب والآثام

روضة ذات محاسن ، فيها انهار من ماء غير آسن ، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن وزهار ما بين مفتوح العين ووسين ، وأطيار ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن •

في روضة نصبت أغصانها وغدا ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير
والريح قد اطلقت فيه العنان به والغصن ما بين تقديم وتأخير
والريح تجرى رخاء فوق بحرتها وماؤها مطلق في زى مأسور
والريح ترقم في أمواجه حبكا والغيم يرسم أنواع التصاوير
والماء ما بين مصروف وممتنع والظل ما بين ممدود ومقصور
والنرجس الغض لم تغضض نواظره فزهره بين منفض ومزرور
كأنه ذهب من فوق أعمدة من الزمرد في أوراق كافور

روضة أريضة ، عيون ازهارها مريضة ، وأنواع البركات من نهرها مفيضة ، ونوازع الهموم والغموض بها مفيضة •

بلد اعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشة الطاووس

روضة حي مجمع البحرين ، ومختار تقابل مطلع البدرين ، ومنهاج يسير فيه كل فلك من النواعير وبدر فهى على كل الأحوال ذات النورين :

ياحبذا في الحسن ناعورة كأنها من فلك الشمس
تحمى حمى الروضة من مائها وشكلها بالسيف والترس

ذات وجهين غير ما يجرى فيها بالنقل والتخريج ، فاربت على السبعة الأوجه بما حوته من كل منظر بهيج ، لم يفز غيرها بحسن الا وكان لها منه قسم اقسيم ، ولم تتقابل وجوه المناظر الا وكان وجهها وسيم ، فلا غرو ان كانت ملكة المتنزهات فانها اوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم •

من مات فيها وهو مغفـور له   فمن الجنان الى جنان ينقـــل

ان فاخرتها مصر بانها القديمة قالت انا الجديدة ، ولكل جديد لذة ، أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت انا فى ملازمة النيل الفردة البذة ، وان تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى اعرضت عن القال والقيل ، وقالت انى يقاس بخرطومى المشتهى زلومة الفيل ، وان قال التاج أنا المرفوع على الروس ، قالت أنا عروسة الحسن لاسيما فى عرس النيل والتاج فى خدمة العروس ، وان قالت السبعة الأوجـه قد تعددت منا الوجوه والمناظر ، قالت رب واحد كالف أو يزيد عند المناظر .

اری المشتهى فى روضـة الحسن قد بذا
على رصـــد المعشوق فالقلب واحـد
لعمرك ما السـبع الوجوه اذا بـــدت
بمغنية عن وجهـــه وهـو واحـد

كأنها بدر والنيل حولها هالة ، أو شمس فى وسط سـماء ليس عليها سحابة أو غلالة ، أو وجه دار عليه طيلسان ، أو سرير ملك نصب فى ميدان أو قلب جيش له مصر والجيزة جنـاحان ، تبرجت بأنواع الازاهر البهجة لا بالشيخ والقيصوم وناداها لسان الربيع يا روضة سنمسك بالخضرة على الخرطوم ، ونغير الأسلوب ونقول نثرت السماء على أغصانها النجوم وارتشف من خرطومها زلال الريق والرحيق فلم يحتج فى كلا الحالين الى خرطوم .

وخص البحر منها كـل خص   وعم بروضهـــا الزاهى أكامه
فقلت وقد سقى الخرطوم عـلا   أخرطـــوم بـدا لى أم مدامه

كانت دار ملك وخلافه ، وسرير سلطنه ورتبة أنافة ، ومســكن

علماء أعلام ، ومجلس قضاة وحكام ، ومقر صلحاء وعباد ، ومفر صوفية وزهاد ، ويكفى فى الرد على المعارض قول الشيخ عمر بن الفارض :

جلق « جنة » من تاه وباها ... برباها غيرها لولا وباها
قال غال بردى كوثرها ... قلت غال برداها برداها
وطنى مصر وفيها وطرى ... ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعينى غيرها ان سكنت ... يا خليلى سلاها ما سلاها

وكم سكن بها من خلفاء وملوك وامراء ، وكتاب ورؤساء ووزراء، وقراء وأولياء ، وفقراء وأغنياء ، وأكياء وأغبياء ، وذوى هنات واتقياء ، تلاوة قرآن ، وتدريس افنان ، وشعائر وآذان ، ونغمات والحان ، وقضاء أوطار ، وضرب أوتار ، كل نفس بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة ، فهذا يسعى فى خلاص ذمته ، وأداء اماناته وهذا يوقعه القدر فى حبائل جنايته بخياناته ، قل كل يعمل على شاكلته ، فكأن لسان الحال ، يقضى بأن الحريرى انما عناها حيث قال :

بها ما شئت من دين ودنيا ... واخوان تأسوا فى المعانى
فمشغوف بآيات المثانى ... ومفتون برنات المثانى
ومضطلع بتلخيص المعانى ... ومطلع الى تخليص عانى
وكم من قارىء فيها وقار ... اضرا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعالم فيها ... وناد للندى حلو المجانى
فصل ان شئت فيها من يصلى ... واما شئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الاكياس فيها ... أو الكاسات منطلق العنان »

الحق ان المقامة ــ بل الرسالة ــ قطعة أدبية تعليمية جميلة تعلم الانشاء الجيد وترسم الصــور البارعة وتنبه الى الشـــعر الرقيق اللطيف ، انها والأمر كذلك زاد طيب للناشىء يتعلم منه ، وسلوى طيبة للأديب يستمتع بها ويطرب •

هذا ونود الاشارة الى أن الكثير من الأبيات الشعرية والعبارات النثرية التى حفلت بها هذه الرسالة قد سبق ورودها والتمثل بكثير منها فى كتاب للسيوطى أسماه « كوكب الروضة » •

مقال فى الوعظ : مقامة الحمى :

لم ينس السيوطى نفسه وهــو يكتب فيض خواطره الأدبية ، لقد كان الرجل أماما جليلا وعالما فذا صاحب مشاركة فى الهداية وحسن التوجيه ، ومن ثم فقد عمد الى توظيف قلمه من خــلال مقاماته الى وعظ الناس اذا ما تعرضوا للمحن وهدايتهم حين تنزل بهم النوازل • وللسيوطى فى مجال الوعظ والهداية والارشاد مقامتان احداهما طويلة وهى المقامة الولدية والأخرى قصيرة وهى مقامة الحمى •

فاما المقامة الولدية فموضوعها التعزية عن فقد الأولاد ، وفيهــا يتمثل السيوطى بآيات القــرآن الكريم والأحاديث النبــوية الشريفة وأقوال الأئمة والعلماء ويقدم نماذج كثيرة متنوعة من الشعر تعــالج الموضوع وتدخل السلوى والأمن على النفوس المحزونة بفقد ولد عزيز أو ابن حبيب ، ويستهل السيوطى مقامته الولدية هذه بقول الله عــز وجل : « ولنبلونكم بشيىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمــة وأولئك هم المهتدون » • ويضفى السيوطى على مقاله الثوب الدينى

والوشاح الوعظي وما يستتبع ذلك من ضرب الأمثـــال والاستشهاد بالأخبار والأشعار .

وأما مقامة الحمى فانهـــا هي الأخرى وســـيلة ينفذ الكاتب من خلالها الى ايصال الكلمة الطيبة الى قلب القارىء يعتبر الحمى امتحانا من الله يصبر على اجتيـــازه فاذا صبر فقـــد نال ثوابا وأجرا ، بل ان السيوطي يحاول ان يجعل من مقاله وســـيلة لاظهار براعته في الطب فيذكر للحمى عددا من الفوائد ، وقدرا من المزايا ، « لها منافع بدنية، ومآثر سنية غير دنية ، وذلك أنهـــا تنفي البدن ، وتنفي عند الافن والعفن .. وذكروا انها تفتح كثيرا من السدد ، وتنضج من المواد والأخلاط ما فسد » .

ان السيوطي يتخذ من كل من المقامة الولدية ومقـــامة الحمى سبيلا الى الوعظ والارشاد والتوجيه والهداية ، ويتخذ لكل مقـــام من الأساليب . ما يناسبه ومن الأمثال ما يلائمه ومن الأشعار ما يظاهره، وان كان قد عمد في مقامة الحمى الى شيء آخر هو اظهار مقدرته في علم الطب وذلك على حساب الشعر الذي انعدم في هذه المقامة أو كاد بقدر ما كثر في المقامة الولدية وتعدد وزاد .

وقد يجدر بنا قبل أن نترك هذا الضرب من المقامات لكي ننتقل الى ضرب آخر منه أن نسجل مرة أخرى ان هذا النهج من الكتابة لايمت الى شكل المقامة التقليدية بسبب ولا يرتبط بمبناها بوشيجة ، وانما ذلك الذي قدمنا للسيوطي من نماذج لا يخرج عن كونه مقالات انشائية أو رسائل أدبية أدت غرضها بنجاح في نطـــاق الهدف الذي استهدفه الكاتب سواء أكان ذلك الهدف جدلا علميا ، أو تســـجيلا لتاريخ حياة أو هجاء لخصم أو وصفا أدبيـــا لجزيرة أو مكان ، أو وعظا وهداية وطلب سلوى في محنة أو نازلة .

ان السيوطى فى مقالته الأخيرة قد تقمص شخصية الواعظ القديم الذى يكثر من ضرب الأمثال ، وربما وضع بعضها كما التزم أسلوب الوعظ من الحرص على السجع القصير المتتالى المتلاحق واللعب بالألفاظ والمجانسة بينها فى شىء من الغلو والمبالغة .

مقامات المناظرات :

هذا النوع من المقامات تكلف فيه السيوطى جهدا كبيرا ، ولكنه يدل على الطاقة الأدبية الانشائية الرائعة التى كانت كامنة فى عقل هذا العالم الجليل ، ذلك أنه يكتب المقامة فى موضوع ما ، وغالبا ما يكون الموضوع ذا طرفين ، يكمن فى احدهما الشر ويستكن فى الطرف الآخر الخير ، ثم يجرى السيوطى وصف كل من الخير والشر على السنة عدد من العلماء بحيث يستعمل كل واحد منهم الألفاظ التى تتفق مع مهنته والعبارات التى تتسق مع تخصصه ، ان السيوطى يسوق أقوال هؤلاء العلماء من ذوى التخصصات المختلفة فى كثير من الرشاقة والحذق والمهارة الى المدى الذى يتصور معه القارىء أن السيوطى قد مارس هذه التخصصات جميعا .

ولقد وقع بين أيدينا من المقامات التى تسير على هذا النهج وتعالج هذا الوجه ثلاث بارعات هى المقامة الطاعونية والمقامة النيلية ، ومقامة النساء التى أطلق عليها السيوطى عنوانا طريفا هو « رشف الزلال من السحر الحلال .

المقامة الطاعونية :

تصور هذه المقامة (١) حلول وباء الطاعون بمصر سنة سبع وتسعين وثمانمائة ويدؤها بما يتناسب مع هذه الكارثة ويبعث فى

---

(١) المقامات المطبوعة ص ٦٩ ـ ٧٥ .

علمه وثقافته ، فلما انحسر عاد السيوطى فأجرى على لسان كل من الناس تسليما بالأمر الواقع ويستهلها بالقول الكريم « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام » ثم يصف سير الطاعون منذ خروجه من بلاد الروم ومروره بحلب وانتقاله الى مصر وصفا تفصيليا ، كما يصور فزع الناس فى مصر لوصوله وكيف انه اجتث بلادا بأكملها مثل بلدة الخانكاه التى كان ضحاياه فيها كل يوم ثلاثمائة، وكان عمله فى غيرها لا يقل عما انزله بها « عاث فى الناس بحرا وبرا ، وكم اخلى قصرا وملأ قبرا ، فأخذ البنين والبنات ، والفتيان والفتيات، وجمع فى الموت بين كل الفين ، وبلغ عدد الموتى فى كل يوم أزيد من ألفين ، وقيل أكثر من ذلك بضعف أو ضعفين » ويتابع السيوطى فى مقامته هذا الوباء فى سيره وتحركه ويصف فعله بالناس فى كل بلد من بلاد مصر ، ثم يجرى وصفا لفتكه على لسان المقرىء والمحدث والفقيه والأولى والنحوى والصرفى والبليغ ، كل يستعمل كلمات متسقة مع هؤلاء حمدا لله وشكرا على نفس النهج وذات الأسلوب •

يقول المقرىء فى وصف محنة الطاعون : هذا باب الادغام الكبير فى اللحود والاخفاء لكل بدر منير مغرب فى الأخدود ، والاقلاب لكل عبد أبق الى فلك الردى وبر ودود • لئن تكرر هذا المد المتصل فى الأكفاف ليتلون كل منفصل كل من عليها فان ، ولئن هجم هذا الدانى بحملته على القوم ، ليقولن كل امرىء منهم لا عاصم اليوم ••

وقال المحدث : قد جرى الدمع المتراكم ، ونفذ فى العام الماضى ما حكم به الحاكم ، من صحيح به أصبح للوساد مسندا ، وعزيزا ضحى فى لحده غريبا مفردا وضعيف أصبح على النعش موضوعا ، وعلى أعناق الرجال مرفوعا ، وكم متصل الحياة به صار منقطعا مقطوعا •••

وقال النحوى : قد أفنى ذلك العام الماضى كل خليل ، وأتى بكل

خطب جليل تواترت فيه من القاضية جمل ، ولم يبلـغ فيه أحـد من الشافية أمل ، كم ساء فيه من حال وتعطل فيه من حال ، ورفع كل فاعل ونائبه ، ولحق كل مطلوب بطالبه وجمع الموت بين كل مصحوب وصاحبه وصاحبه ، وكم أخذ من كبير مفخم ، وأخلى من بيت مرخم فان عـاد ضمير الفصل ، وقضى الشأن له بالوصل ، فورب الليالى وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، لئن عطف عاما بعد عام على نسق ، ليقطعن عائد كل موصول ، وليذهبن كل ذى حاصل ومحصول وليفتحن بابى الاستغاثة والندبة ، وليرفعن بابى التمييز والنسبة ...

وهكذا نرى السيوطى أجرى فى براعة تامة وصف الكارثة على لسان المقرىء الذى يستعمل اصطلاحات القراءات من ادغام واخفـاء واقلاب ومد ووصل وفصل وتسكين وتنوين ، بل استعمل السيوطى اسم عاصم صاحب القراءة المشهورة فى تورية لطيفة من خـلال الآية القرآنية الشريفة : « لا عاصم اليوم من أمر الله » .

وحين يجرى السيوطى وصف الطاعون على لسان المحدث نراه يستعمل أنواع الأحاديث من صحيح ومسند ومفرد وضعيف وموضوع ومرفوع ومقطوع .

وحديث النحوى عن الطاعون طويل ملىء بأكثر أبواب النحو وكتبه فهو يذكر الحال والفاعل ونائب الفـاعل والضمير والوصـل والفصل والعطف والموصول والعائد والاسـتغاثة والنـدبة والتمييز والمسند والمسند اليه وغير ذلك مما حواه حديث النحـوى وهـو يصف الطاعون .

ولقد أجرى السيوطى أحاديث مماثلة على السنة الفقيه والأصولى والصرفى والبليغ .

والمتتبع لبقية المقامة يستطيع أن يلمس براعة السيوطى فى اجراء كلمات الشكر والحمد على لسان من هؤلاء بعد انحسار الطاعون .

المقامة النيلية (١) :

السيوطى مغرم بالنيل غرامه بالروضة غرامه بمصر كلها ولذلك فهو لا يستطيع أن يكتب مقاماته دون أن يخص النيل بواحدة منها بل من أطرفها وأكثرها براعة انشاء وغرابة تكوين .

ان النيل يأتى بالنعمة والخير اذا فاض ، ويسبب النكبات والغلاء والمجاعات اذا أخلف وعده وفاض . ان الامام السيوطى يجعل محور مقامته حول هذين الحادثين : يتأخر النيل عن الوفاء فيفزع الناس ويكون الغلاء فيجرى السيوطى فى مقامته وصف حال مصر وكربها على لسان أثنين وعشرين من أصحاب العلوم الدينية واللغوية والأدباء والفنانين وأرباب المهن وهم المقرىء والمحدث والفقيه والفرضى والأصولى والجدلى والصوفى والنحوى والتصريفى واللغوى والمعنوى والبيانى والبديعى والعروضى والشاعر العربى والشاعر المولد والكاتب والطبيب والمنطقى الموسيقى الميقاتى والمؤذنين .

ثم يؤذن النيل بالارتفاع والفيضان بالوفاء ، والأرض بالرى ، والزرع بالنماء ، ويعم الخير ، ويحل الرخاء ، فيجرى السيوطى مرة أخرى وصف هذه الحالة الجديدة على لسان كل واحد من هؤلاء الأعلام العلماء الاثنين والعشرين .

ان الأمر الذى لا شك فيه أن السيوطى يمثل طاقة لغوية كبرى، وذخيرة أسلوبية فذة ، وبراعة فى انماط الكتابة وقدرة فى حسن التصرف وموهبة على الاطراف والابداع تجعل منه كاتبا فذا بالاضافة الى ملكاته الكثيرة الأخرى . ولعل كاتبا آخر لم يلحق بالسيوطى

(١) المقامات المطبوعة ص ٥٨ — ٦٣ .

فى ابداع هذا النمط الذى تفرد باجادته عالمنا الجليل دون غيره ممن حاول السير فى هذا الدرب من دروب الكتابة الفنية •

رشف الزلال من السحر الحلال (أو مقامة النساء) :

هذه مقامة وليست مقالة ، فلها من المقامة هيكلها وبنيتها ، وموضوعها وهدفها كما أن روح الحكاية وعنصر المغامرة يتمشى فى أردانها ، فقد جعل السيوطى لمقامته هذه راوية على نسق المقامات التقليدية ، فاذا كان راوية مقامات بديع الزمان هو عيسى بن هشام ، وراوية مقامات الجريرى هو الحارث بن همام فان راوية هذه المقامة هو ابو الدر نفيس بن ادريس ، واذا كان لمقامات بديع الزمان بطل واحد هو ابو الفتح الاسكندرى ، وللحريرى كذلك بطل واحد هو ابو زيد السروجى ، فان السيوطى قد جعل لمقامته هذه الطويلة عشرين بطلا هم : المقرىء والمفسر والمحدث والفقيه والاصولى والجدلى واللغوى والنحوى والصرفى وصاحب المعانى صاحب البيان وصاحب البديع وصاحب العروض والكاتب وصاحب الحساب وصاحب الهيئة وصاحب المقيات والطبيب وصاحب المنطق والصوفى •

لقد وضع السيوطى عناصر فكرته فى قالب الحكاية واستهدف بها محاربة انحراف خلقى شائن شاع فى العالم العربى فترة طويلة من الزمان منذ أن اختلط العرب بالفرس على أيام العباسيين ثم تفشى هذا الانحراف على أيام المماليك والاتراك ونعنى به الشذوذ الجنسى ومعاشرة الغلمان •

ان السيوطى يجرى قصة المقامة على لسان الراوية ابى الدر نفيس بن ادريس الذى يروى ان جماعة من الأصدقاء من مقرىء ومفسر ومحدث وفقيه واصولى وجدلى وكل هؤلاء الاشخاص الذين أسلفنا ذكرهم قبل قليل خرجوا يوم عيد الى مسجد بعيد لأداء الصلاة

ثم استمعوا الى الخطيب الذى اعتلى المنبر والقى عليهم موعظة طويلة تجمع على الترغيب فى الخير والترهيب للانصراف عن الشر والانحراف وبخاصة تلك العادة الذميمة التى كانت متفشية بين الرجال، ويورد الخطيب كثيرا من المقطوعات الشعرية التى قيلت فى تقبيح تلك الجريمة واستهجانها • وما أن انتهى الخطيب من موعظته حتى عادت العصبة أدراجها وقرر كل واحد منهم أن يتزوج فتاة جميلة ، وفى صبيحة اليوم التالى حكى كل منهم بلغته والأسلوب الذى يتفق مع تخصصه ومهنته ما حدث ليلة الزفاف على سبيل التفصيل من غير تحفظ فى اللفظ أو تصرف فى التعبير •

وهنا نقف قليلا بل طويلا متحيرين ازاء الصراحة العارية والألفاظ المكشوفة والكلمات المفرطة فى الاباحية التى جرت على لسان السيوطى فى هذه المقامة • أنه أدب — ان صحت هذه الكلمة — مكشوف الى الحد الذى يخجل منه القارىء أى قارىء ، وان المرء ليتحير فى تسميته ، أهو أدب مكشوف أم أدب جنسى ، أم أدب فراش •

وهل هو لون من ألوان التحدى أقدم عليه السيوطى ليثبت أنه مستطيع الاسهام فى كل فن من فنون القول غلا أم رخص ، صعب أم سهل ، لئن كان الأمر كذلك فالثمن لا يعدل السلعة والصفقة — من حيث مكانة الشيخ — خسارة على كل حال •

أم أن السيوطى وقد هاله الفساد المتفشى فى المجتمع وانتشار فاحشة الغلمان بين الناس رأى أن يعالج مرضا شديد الضرر بعمل فنى مهما بلغ قبحه فهو لبنة نحو البناء وحبه فى سبيل الدواء فكتب ما ينفر من هذه الآفة ، وأنشأ على ما يشجع على التحويل الى النساء ولو عن طريق الاثارة الجنسية والصراحة غير المرضية • الحق أنى لم أصل بعد الى رأى أخير •

مقامات المفاخرات :

كانت المقامات التى عرضنا لها فى الفصل السابق حاوية ألوانـــا من المناظرات أى أن كل عالم ذا انتماء بذاته وثقافه بعينها يدلى بدلوه مع غيره من نظرائه فى موضوع مشترك بين جميع المتناظرين حسبما وضح فى المقامة الطاعونية والمقامة النيلية ومقامة النساء •

وأما مقامات المفاخرات فهى أن تجتمع طائفة متجانسة من قبيل بذاته كالجواهر أو الازهار أو الفواكه ، ويحاول كل نوع الجواهر مثلا أن يتيه على أقرانه أو يفخر على اخوانه والشىء نفسه يمكن أن يحدث بين أصناف الأزاهير بعضها وبعض ، أو بين أنواع الفــاكهة على أختلاف ألوانها •

لقد جعل السيوطى كثيرا من هذه الميادين موضوعــات لبعض مقاماته فكانت من الطرافة بحيث تمتع الخاطر ومن الســلاسة بحيث تريح الذهن المكدود وتفيد القارىء الذى يبغى تحصيل أدب وترويحا عن النفس •

والحق أن المناظرات والمفاخرات بين الأشياء المتناظرة ليس من ابتكار السيوطى أو اختراعه فقد ســبقه الى ذلك المضمار كثير من الأدباء ، وهناك أكثر من أديب كتب مناظرات بليغة بين السيف والقلم، وهناك أيضا من أجرى مفاخرات بين العلوم فلقد أنشــأ القلقشندى رسالة طويلة فى هذا الموضوع ضمنها نيفا وسبعين علما منها النحو والشعر والعروض والموسيقى والطب والتاريخ وقص الأثر وعلم الكف وعلم النجوم علم اليئة المواقيت والسحر والهندسة والكيمياء والحساب والجبر والفقه والفرائض والاصول المنطق ورواية الحــديث ودراية الحديث والتفسير والقراءات التصوف وغير ذلك من العلوم الدينية

والدنيوية ، وقد حاول القلقشندى أن يكسب السبق لكل علم على أقرانه فى مناظرة طويلة غاية فى البراعة والامتاع (١) •

لقد سار السيوطى على نفس الدرب ولكن فى نطاق المقامة التى هى أقرب ما تكون الى القصة ، فضلا عن الثـوب الأنيق مع بعض لمسات دينية وأخرى طبية بسطها عالمنا الجليل على عدد من المقامـات فى هذا الميدان •

ولعل أشهر المقامات التى خلق السيوطى فيها هذا اللـون من المفاخرة هى المقامة الياقوتية ، والمقامة الوردية ، والمقامة التفـاحية ، ففى الياقوتية جعل كل حجر كريم يفخر على أقـرانه ، وصنع نفس الصنيع فى كل من المقامة الوردية والمقامة التفاحية حسبما سوف نوضح فى السطور التاليات •

المقـامة اليـاقوتية :

جمع السيوطى فى هذه المقامة سبع أحجار كريمة هى اليـاقوت واللؤلؤ والمرجان والزمرد والزبرجد والعقيق والفيروز وأجرى بينهما مفـاخرات بحيث جعل كل حجر كريم يتحـدث عن نفسه فيفخر أول ما يفخر بورود أسمه فى القرآن الكريم ويذكر الآيات التى ذكر فيها، ثم يذكر الأحاديث الشريفة والأخبار التى ذكر فيها ، ثم يعطف بعد ذلك الى ذكر فوائده الطبية التى عـادة ما تكون من الكثرة بحيث يشفى كل العلل ويقى من جميع الأمراض • وآخر ما يفخر به الحجر الكريم تسجيل منتخبات من قول الشعراء فيه وتكون عادة من الشعر المنتقى الرقيق ، هذا وقد اطلق السيوطى هذا الاسم على مقامته من باب تسمية الكل باسم الجزء •

---

(١) صبح الأعشى ١٤/٢٠٦ •

على أن عددا من الاحجار الكريمة لم يجر ذكرها فى القرآن ولم يرد لها خبر فى الحديث الشريف • فالزمرد والزبرجد والعقيق والفيروز لم يذكر واحد منها فى القرآن الكريم • وهنا يحاول السيوطى علـى لسان هذا الحجر أو ذاك أن يعوضه بمزيد من الأحاديث الشريفة أو الفوائد الطبية الخطيرة الجليلة ، أو أقـوال بليغة ورقيقة لشـعراء فنـانين •

فلنقدم مقطوعات من المقامة الياقوتية ونستعرض النهـج الذى نهجه السيوطى ونحاول أن نرى الى أى مدى التزم هذا السبيل والى أى حد أصاب نجاحا وتوفيقا (١) •

« اجتمع سبعة من اليواقيت ، وتصدوا للمفاخرة ، وللمـكابرة لا للمكابرة ، أيهما فى الرتبة أعلى ، وفى الزينة أغلى ، وفى المنظر أحلى، وفى المخبر أجلى ، فعقدوا لكل منهم فى حلقته منعمة ، وأشـاروا اليه بالأصابع بحيث أضحى عين الخاتم وفصه ، فقال الياقوت :

الحمد لله الذى خلقنى حسن التقويم ، وجعلنى أبهى فى العين من الدر النظيم ، وشرفني على كثير من الأقران ، حيث ذكرنى بصريح اسمى فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الرحمن « كأنهن اليـاقوت والمرجان » وقد منى فى الذكر وذلك يدل على أنى من المرجان أنبه ، وأشرف منه مقاما ورتبة ، وكم ورد ذكرى فى الأحـاديث الصـحاح والحسان ، فى صفات ما أودعه الله تعالى فى المحاسن فى الجنـان من ذلك حديث عمن أفاض الله عليه من المكارم فيضا بنى الله جنة عدن لبنة من ياقوت حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ولبنة من درة بيضاء ، ومن حديث مرفرع رواه حافظ ممجد ، الدرجة الثالثة من الجنة دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومعاليقها من ياقوت ولؤلـؤ

(١) المقامة اليافوتة ميكروفلم ٩٤٨ ادب المخطوطات العربيه •

وزبرجد . وفى حديث صحيح الثبوت ، حصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وفى حديث من الحسان ، درجها اللؤلؤ والياقوت ، وأبوابها اللؤلؤ وترابها الزعفران . وفى حديث رواه البيهقى وعد به المصلى اجـرا : ليس عبد « مؤمن » يصلى فى ليلة من رمضان الا بنى الله له بيتا فى الجنة من ياقوتة حمرا وفى آحاديث صحاح وحسان : فى الجنة خيل من ياقوت لها من الذهب جناحان اذا ركبها صاحبها طارت به فى الجنان ، فما ذكر بمعرض الترغيب والتنبيه . والا وكان لى بذلك فخار ورفعـة وتنويه ، وقد ورد فى احاديث تثبت للشرف والفخر : تختموا بالياقوت فانه ينفى الفقر . وأما الخواص المودعة فى تشريفه والمنافع الموجـودة فنيفه ، من ذلك أن التختم بى والتعليق ، يمنع من اصابة الطاعون على التحقيق ، ولى فى التفريح ، وتقوية القلب الجريح ، ومقاومة السموم، ومدافعة الهموم والغموم ، ما هو مشهور معلوم ، ومن خواصى أنه لا تعمل فى المبارد ، واذا صليت بالنار لم تؤثر فى مورد من الموارد ، وحسبك قول الشاعر :

وطالما أصلى الياقوت جمر غضا ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت

وقال الآخر :

ما باله يجفو وقد زعم الـورى ان الذى يختص بالوجه الندى
لا تخـــد عنك وجنـــة محمرة رقت ففى الياقوت طبع الجلمد

وقول الآخـــــر :

أما ترى الورد على غصـــنه فى روضة البســـتان للمنظـــر
صحاف ياقوت وقـــد رصعت فى وسطها بالذهب الأصـــفر

وقال الآخـــــر :

ومن ملح الأيـــام يوم قضـــيته لدى روضة فيها لأحبـــابنا قوت

لبست به من أخضر الروض حلة   وأزرارها من حمرة الورد ياقوت

وقال آخــر :

أرأيت أحســن من عيــــون النرجس

أم من يلاحــظهن وســـط المجـلس

در تشـــقق عن يــواقيت عــلى

قضب الزبرجــد فوق بسط السـندس

وقــال آخــر :

انظر الى نرجس فى روضة أنف   غناء قد جمعت شتى من الزهر

كأن ياقوته صــفراء قد طبعت   فى غصنها حولها نبت من الدرر

وقال اللؤلؤ : الحمد لله الذى ألبســنى خلعة البياض ، وجعلنى بين اليواقيت كالنور فى الرياض ، ومن على بالتبجيل ، وحيانى بالتنويه والتنويل ، وكرر ذكرى فى عدة مواضع عن التنزيل ، وقد منى فى الذكر فى القرآن ، قوله تعالى فى ســورة الرحمن : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » ، وشبه بى الحور والولدان • فقال تعالى فى كتابة المصون « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » وقال تعــالى موغبـا للمومنين ومخدرا أن يطيعوا آثما اوكفورا • « ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رايتهم حسبتهم لؤلؤ منثورا » • وقال تعالى فى الأخبار عن أهل الجنة وذلك الفضل الكبير » يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » وقد ذكرت فى الأحاديث كثيرا ، ونحت فى صفة الجنة على لسان من أرسل بشــيرا ونذيرا ، ففى حديث عمن خص بنهر الكوثر ، أن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر ، وفى حديث رواه حفاظ الأخبار وأربابها أن أدنى أهل الجنة منزلا من له دار عن لؤلؤة واحدة من غرفها وأبوابها • • •

وعن حكومة : ماأنزل الله من قطرة الا أنبت بها فى الأرض شبة أو فى البحر لؤلؤ اودرة • وكم فى من منفعة اودعها الرحمن ، اقوى قلب الانسان وانفع من فزع السوداء وخوفها ومن الخففان • واجلو الأسنان وانفع من بيان العين ، واجلو ما فيها من الظلمة والوسخ والغسين أشد عصبها وأجفف رطوبتها وأخفف وصبها وأحبس الدم وانفس الغم ، منافع صالحة لكل غادية ورائحة ، وتجارة رابحة ، لمن أراد حلية ورفعة جائحة ، وتشبيهات فى الشعر فى كالبحر طافحة ، قال الشاعر :

وقال آخر :

وعذبنى قضيب فى كثيب　　تشارك فيه لين واندماج
أغار اذا دنت من فيه كأس　　على در يقبله زجاج

واقال الآخر :

ياحسن أشجار لوز تسقى بصوب الغمائم
تناثر النور منها　　كالدر من كف ناظم
الا حبذا القتاء أكلا وحبذا
تكسبه لو كان يدخر من كسب
كأمثال قضبان الزبرجد أودعت
لآلىء حبات من اللؤلؤ الرطب

ثم يجرى ذكر المرجان والزبرجد والعقيق والفيروز على نفس النسق والأسلوب •

وهكذا تنتهى المقامة الياقوتية ولكن دون أن نحس فيها بروح

الحكاية التى تكمن عادة فى المقامات ومن ثم فان هذه المقامة فى واقعها ليست الا رسالة مفاخرة شأنها فى ذلك شأن الرسائل والمقالات لا شأن المقامات .

المقامة الوردية :

لعل هذه المقامة أفضل مقامات المفاخرات التى كتبها السيوطى ، فلقد مرت بنا المقامة الياقوتية ، ويمكن مراجعة المقامة الفستقية ، والمقامة التفاحية وكلها تفتقد روح المقامة وان شكلت نموذجا انيقا للكتابة فى مجال مفاخرة الأشياء المتناظرة واستعراض ما قاله الشعراء فيها .

أما المقامة الوردية فان روح القصة تشيع فى أردانها وهيكل المقامة واضح المعالم فى بنيتها واطارها ، والمفاخرة تجرى فى المقامة بين الأزاهير التى هى الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس والريحان ، وقد بذل السيوطى جهدا كبيرا لكى يخلق جوا من التوازن بين هذه الأزاهير التى جعل كل زهرة منها تتيه بمفاخرها ثم لا تلبث أن تنهض أخرى لكى تثلبها مؤهلات الفوز ثم تلتفت الى فضائل ذاتها مفصلة متباهية ، وعرض علينا السيوطى ألوانا من الصدام الطريف بين كل زهرتين مثل ذلك الصدام الذى جرى بين الورد والنرجس حين اشتشهد هذا الأخير ببيتين لابن الرومى فى الورد نزلا به من علياء افتخاره الى حضيض من القبح والسخرية .

ويحرص السيوطى فى مقامته هذه دون غيرها من نظيراتها على أن يجعل فيها رواية ، وأن يلتزم بنمط الرواية المسندة ويتمسك بالعنعنة التقليدية التى تتسم بالأنسجام مع طبيعة الموضوع ولا تخلو من دعابة ولطافة ، فالراوية هو الريان الذى يحدث عن أبى الريحان

عن ابى أبان ، عن بلبل الأغصـــان ، عن ناظر الانســان عن كوكب البستان عن وابل الهنان • فهل هناك اسـناد الطف من هذا الاسناد جانبا أو أرق منه حاشية ؟ •

هذا والمقدمة نفسها موسومة بالرقة مترعة بالشاعرية متشـحة بالدعابة مغمورة بلطافة الأسلوب• ان وابل الهتان ــ رأس الاسناد ــ يقول : «مررت يوما على حديقة خضرة نضرة أنيقة ، طلولها وردية ، واغصانها وريقة ، وكوكبها أبدى بريقة ذات ألوان وأخنان ، وأكمام وأكنان ••• » وهكذا يعزف السيوطى على هذا النمط الأســلوبى الايقاعى فى أكثر مراحل المقامة ، ومع الجهد المبذول من لدن كل زهرة لتفوز بعرش الزهور يعمد السيوطى الى عنصر المفاجأة فى آخر المقامة فيضـــع أمــل كــل زهرة فى الملك ولـــكن فى جو الرضى ووسمة من الاقتناع (١) •

لقد انتهت المقــامة بمفاجأت لطيفة ، فقد قبل قبيــل الأزاهير التحكيم لدى عالم بالأصــول والفروع الذى حكم لزهرة من خارج الحلبة ولم تشترك فى المفاخرة وتطوع رئيس التحكيم لتقديم مؤهلات الفوز للزهرة المختارة وهى الفاغية ذلك انها الزهرة المفضلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ان المقامة مترعة بالأســلوب الدفاق المرتــاح برغم الصــناعة البديعية التى توشيها بين الحين والحين ، ففيها جنــاس كثير ، وفيها توريات عديدة ، والمقامة بعد ذلك يمكن ان تمدنا بديوان شعر لطيف فى موضوع الزهريات ، والشــعر فى الأزهار حسبما نعرف يعتبر من أرق فنون الشعر وأوفرها جمالا وألطفها خيالا •

---

(١) مقامات السيوطى ص ١١ وما بعدها •

والسيوطى دائم الانسجام مع نفسه ، فهو لا ينسى لحظة واحدة انه من أئمة علماء الدين ولذلك فان كل مقاماته موشاه بالآيات القرآنية ، مزدنة بالأحاديث النبوية وهو دائم ترديد عبارات التمجيد للرسول والثناء عليه والاجلال لمقامه .

والحقيقة أن المقامة الوردية عمل أدبى رفيع لولا أن السيوطى أفسدها بالمواصفات الطبية الكثيرة جدا بحيث تبدو المقامة فى كثير من مراحلها وكأنها دائرة معارف ادوية أو موسوعة فارما كوبيا حسب التعبير الفنى عند أساتذة الصيدلة .

هذا ونود أن نشير ونحن فى صدد الحديث عن محاورات ومفاخرات بين الزهور أن هذا الفن ليس من ابتكار السيوطى ، فلقد عمد كثير من الشعراء منذ القرن الرابع الى انشاء قصائد شعرية يفضلون فيها زهرة على أخرى أو يجرون محاورة بين زهرتين أو أكثر ويحضرنا فى هذا المقام أبيات للصنوبرى شاعر الروضيات أجرى فيها مفاخرة بين الورد والنرجس وانحاز فيها الى جانب الورد فقال :

زعم الورد أنه هو أبهى   من جميع الأنوار والريحان

فأجابته أعين النرجس الفضى بذل من قولها وهوان

ايما أحسن ؟ النور أم مقـ   ـلة رئم مريضة الاجفان

أم فماذا يرجو بحرمته الور   د اذا لم يكن له عينان

فزها الورد ثم قال مجيبا   بقياس مستحسن وبيان

ان ورد الخدود أحسن من عيـ   ـن بها صفرة اليرقان

فحديث الأزهار اذن ومفاخراتها فن من الفنون القديمة ، ولكن السيوطى وسع أطرافها ورقق حواشيها وأثرى المفاخرات بما أنشأة

هو نفسه من صناعة وافتنان وبما استعاره من غيره من آدباء العربية من نصوص شعرية مختارة بعناية منتقاه بذوق وروية .

المقامات القصصية التقليدية :

كان السيوطى فى كل ما مر بنا من مقامات بعيدا عن الصيغة التقليدية الموروثة للمقامات المشهورة ، فقد انتحى ناحية متميزة جعلت أكثر انتاجه أقرب الى المقالات منه الى المقامات حسبما سلف القول وان عمد الى تنويع أشكالها وتغيير مضامينها فهو حينا يجرى حوارا بين مجموعة متشابهة متكافئة من العلماء وهم يصفون حادثة ما أو يتناولون محنة بعينها ويتقمص شخصية كل واحد منهم وينطق بلسانه ويعبر عن مكنون جنانه وهو ما يمكن أن يسمى بجمع الخيال، وتارة أخرى يجرى مفاخرات بين عناصر متكافئة من الأزهار أو الخضروات أو الفواكه أو النقول أو الأحجار الكريمة حسبما مر بنا فى الفصل الماضى ولم يحاول السيوطى أو بالحرى لم يعمد الى صبغة الحكاية الناجحة الا فى واحدة فقط هى المقامة الوردية التى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة .

ولكن ذلك لا يعنى أن السيوطى قد انصرف عن انشاء المقامات التقليدية ذات الرد القصصى والبناء الخيالى فى اطار الراوية والبطل ، ان السيوطى لم يكن بوسعه أن ينصرف عن ممارسة هذا الطراز من المقامات فهو تلميذ أمين لبديع الزمان ومريد وفى للحريرى ولذلك فقد رسم على منوالهما واقتفى أثرهما فى عدة مقامات أشهرها المقامة المكية والمقامة السيوطية والمقامة الجيزية .

ان لكل مقامة من هذه المقامات راوية فيصبح هو هاشم بن القاسم الذى يقابل عيسى بن هشام عند بديع الزمان ، ولها بطل هو

أبو بشر العلا الذى يقابل أبا الفتح السكندرى عند رائد المقامات الأول ، وان الأحداث لتتشابه والمواقف تتماثل والحوار يتقارب بين مقامات السيوطى هذه وبين مقامات الرواد الأولين .

ففى المقامة المكية مثلا يصف الراوية فى خفة ورشـاقة مشاعره نحو مكة المكرمة ويسجل فى لباقة أحاسيسـه حيالها ، ثم تتضـح شخصية البطل فاذا به حلال للمشكلات جيد الفصل فى المعضلات عالم شاعر كاتب فقيه لغوى . يتوجه هاشم نحوه بالمشكلة بعد المشكلة والمعضلة بعد المعضلة وهو يجيب فى سرعة وثقة وبيان ، وفى النهاية يفصح البطل عن ذاته فى أبيات من الشعر .

والشيىء نفسه يمكن أن يقال عن المقامة السيوطية فالبطل نفس البطل ، والطابع العام للمقامة هو نفسه الذى اتسمت به المقامة المكية وان كان السيوطى هنا لقد أعطى الصيغة الأدبية مزيدا من التأنق وغير قليل من الاحتفال ، فبين عنوان المقامة ولقبه نسب وكلاهما يرتبط بنفس السبب .

المقـامة المـكية :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت اقتحم المهامة المخيفة ، وادخل فى المسـالك العنيفة ، الى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططت الرحال بعتابها ، وأرحت النفس من عذابهـا ، وظللت أجـوب فى مشاهدها ، وأجول فى معاهدها ، وأسـهر فى تأمل محيـاها العين ، وأشهد من تجمل رباها ما يهون فيه الحين ، وأتردد فى الغدو والرواح ، واتزود من تلك الآثار فى المساء والصـباح ، وأتمنى أديبا يسـلى بمسامرته الغربة ، وأربما ينيل بمحاضرته الاربة ، فبينا أنا ذات ليلة فى المطاف وقد سـمرت سحائب الألطاف ، اذا انا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب ، وفى صدر

الحلقة ، شاب مخيف الخلقة ، قد تدرع بثياب البها ، وتقنع جلباب الحيا .... » .

ومضى السيوطى يصف الشاب وصفا دقيقا : شكله وخلقته ومظهره ومخبره من ادعاء للمعرفة وتمكن من العلوم والمام بالنظم والنشر وحل المعضلات والفصل فى المشكلات قائلا :

« قال هاشم بن القاسم : فتساميت الى لقائه ، وتقدمت الى تلقائه ، لا ستنور بباطنه على ظاهره ، واستظهر من كامنه على باهره، واتخذه معا ضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا فقلت : وعيت منك ما رأيت ، وشمت فيما عنك فهمت ، فأيت على ما أدعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب على ما اقترحته عليك من المسائل . فقال : على الخبير سقطت ومن البحر لقطت . فأوضح عن مسالك ، وأفصح عن مقالك . فقلت : ما تقول فيمن توضأ ولم يصبح أمه ؟ فقال : لم تصح يا أمة (والأم الأولى بمعنى الرأس والثانية بمعنى القدم) .

وتتناول الأسئلة والاجابات موضوعات عدة قد صيغت فى قوالب من الألغاز اللطيفة المألوفة عند الفقهاء واللغويين ، وقد اشتملت الأسئلة على مثل هذه الموضوعات :

صلاة الحرة وعنقها بارزة والمقصود بالعنق انثى الماعز وجواز السجود على الجبهة وهى الخيل ، وصحة الصلاة على الفحل ، والفحل حصير متخذ من فحال النخل، ووجوب الزكاة فى البهار وهو السمكة، وجواز بيع الحر والمقصود به الفرس العتيق ، وجواز غصب الكميت، والمقصود بالكميت هنا الخمر وهكذا .

وفى نهاية المقامة يسأل السائل المسئول عن اسمه وقد استولى عليه الاعجاب بذكائه ونبوغه فيجيبه المسئول على سؤله بأبيات يقول فى بعضها :

يـا راغبـــا فى أربى وهـائمـــا فى أدبى
وعـــالمــا بـــرتبتى ورفـعتى فى الـــرتب
انى أبو بشر العــــلا فى تــاج أهـل الأدب
قــد طوحت بى النوى بى فى بـلاد العــرب»

واذا كان من رأى أخير حيال مقامات السيوطى فهو انها نماذج من فن القول الأدبى تشـــهد لصاحبها ببلاغة القلم وتمكن الاسلوب وعمق الثقافة ورحابة الفكرة وخصـــب العطـــاء والقدرة على التنويع وكسر الطوق الذى ضرب حول شكل المقامة وهدفها .

ومقامات السيوطى وان لم تنال من الدراسة قبل اليوم شـــيئا ذا بال جديرة بأن يحتفل بها وان يلتفت اليها وان تنشر على المتأدبين والدارسين بعد تحقيق دقيق .

أما الرأى فى السيوطى الأديب والمؤدب ، فمن اليسير أن نقرر أن الرجل كان كاتبا بليغا ومترسلا متفننا ، ولم يكن كذلك فى الشعر، ولو أنه قدر لاعمال الســـيوطى الأدبية ان تنشر وحدها بمعزل عن آثاره العلمية المتعددة الموضوعات والفنون لكانت شـــاهدا على أن السيوطى واحد من رجال الأقـــلام الأفذاذ فى عصره وأنه فى مقدمة كتاب زمانه ابداعا وقدرة ، فقد قدم نماذج من الشعر العربى المصرى على مساحة عدد من كتبه وهو بذلك يعتبر رائدا للدراسات الأدبية المصرية ، ثم انه ألف فى صميم الدراسات الأدبية كتبا نفيسة على قدر رفيع من القيمة العلمية مثل « كوكب الروضة » و « بهجة الخاطر » و « رشـــف الزلال فى وصف الهلال » و « كنة المراد فى بيان بانت سعاد » و « تحفة المجالس ونزهة المجالس » وغيرها .

وفى الشعر ترك عددا من المنظومات العلمية النفسية ، وكثيرا من القصائد التى ترجمت بين الجودة والتوسط .

فاذا ما عرضنا للسيوطى كاتبا ، فهو كاتب مقالة من الطراز الممتاز ، وناثر حكمة ومبدع طرفة ، ثم هو بعد ذلك الكاتب الفنان المتألق فى فن المقامات الذى ذلل متنه ونوع شكله ومضمونه وخاطب من خلاله جمهرة القارئين الواعين ، فكان السيوطى ــ والامر كذلك ــ أديبا فذا ومؤدبا مرموقا .

الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٤٥٨٥

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٦٠٨ ٧